

الإغريق

تأليف

ه. د. كيتو

ترجمة

د. محمد صقر خفاجة

راجعه

عبد الرازق يسري

دار الفكر العربي



الإغريق

تأليف

ه . د . كيتو

ترجمه

الدكتور محمد صقر خفاجه

راجعه

عبد الرازق يسري

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

١٩٦٢

هذه ترجمة كتاب :

The Greeks

تأليف :

H. D. F. Kitto

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مطلوب من القارىء حالياً أن يقبل ما يأتى على أنه بيان معقول عن الحقيقة : ذلك أن شعباً لم يكن كثير العدد ، ولا عظيم القوة ، ولا رائع التنظيم أخذ يظهر شيئاً فشيئاً فى جزء من العالم كان متحضراً ، بل كان عظيم الحضارة خلال عدة قرون ،وكانت لديه فكرة جديدة كل الجدة عن القصد من الحياة الإنسانية، كما أنه بين لأول مرة المراد من العقل البشرى . وسأوفى هذا البيان حقه كما أرجو أن أدلل على صحته . ومن الممكن أن نبدأ استيفاءنا الآن بان نلاحظ أن الأغريق أنفسهم كانوا يشعرون بطريقة بسيطة وطبيعية جداً بأنهم يختلفون عن أى شعب آخر عرفوه . فلقد كان الأغريق عادة فى العهد الكلاسى[1] Classical على الأقل يقسمون العائلة البشرية إلى هيلينيين وبرابرة . أما الأغريق الذى كان يعيش قبل العصر الكلاسى مثل « هومر » فلم يكن يتحدث عن البرابرة بهذا الأسلوب ، لا لأنه كان أكثر أدباً من ذريته ، بل لأن هذا الاختلاف لم تكن قد وضحت معالمه بعد .

فالموضوع فى الحقيقة لم يكن للأدب دخل فيه على الإطلاق . فكلمة «برباروس» الأغريقية لا تعنى « بربريا » بالمعنى الحديث ، فهى ليست لفظة مقت أو احتقار . ولا تطلق على الأهالى الذين يسكنون الكهوف ويأكلون اللحم النىء . ولكنها تعنى فقط أولئك الذين يحدثون أصواتاً شبه « برير » بدلا من أن يتكلموا اليونانية . فإذا أنت لم تتكلم الأغريقية

---

[1] ستستعمل كلمة « كلاسى » للدلالة على الفترة التى تمتد من منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريباً إلى فتوح الإسكندر فى النصف الأخير من القرن الرابع .

كنت « بربريا » سواء كنت تنتمى إلى قبيلة همجية من قبائل تراقيه أو كنت تسكن مدن الشرق المترفة أو مصر التى كان يعرف الأغريق جيداً انها بلاد عريقه كانت متحضرة قبل أن توجد بلاد الأغريق بقرون كثيرة . ولفظة « برباروس » لم تكن تتضمن بالضرورة معنى الاحتقار . فكثير من الأغريق كانوا معجبين بقانون الفرس الأخلاقى وبحكمة المصريين . وقلما نسى الأغريق الدين المادى والفكرى والفنى الذى كان عليهم لشعوب الشرق . ومع ذلك فقد كانوا يعتبرون هذه الشعوب « برابرة » أى أجانب ، ويضعونهم فى طبقة واحدة مع أهل سكوثيا وتراقيا وأمثالهم (وأن لم يخلطوا بينهم) . فهل كان ذلك لمجرد أن تلك الشعوب لم تكن تتكلم اللغة الأغريقية ؟ لا ، إذ أن عدم تحدثهم بالأغريقة كان حقيقة تدل على اختلاف أبعد من ذلك ، فهى تدل على أنهم لم يكونوا يعيشون أو يفكرون كالأغريق ، أى أن كل موقفهم تجاه الحياة كان يبدو مختلفاً . والأغريقى مهما كان إعجابه أو حسده للبربرى كبيراً لسبب أو لآخر ، فإنه لم يكن يملك إلا أن يدرك هذا الاختلاف .

ويمكننا أن نلاحظ ، ونحن فى معرض الحديث ، أن جنساً آخر (دون أن تدخل أنفسنا فى الاعتبار) هو جنس العبريين قد أوجد هذا التمييز الشديد بينه وبين الغرباء . فهذان جنسان كان يدرك كل منهما إدراكا تاماً أنه مختلف عن جيرانه ، وقد كان أحدهما يعيش بعيداً عن الآخر بعداً ليس بالكبير وإن كان كل منهما يجهل الآخر جهلا تاماً فى أكثر الأحيان ، ولا تأثير له عليه حتى بداية الفترة التى تلت فتوح الإسكندر ، عندما أثر التفكير الأغريقى فى التفكير العبرى إلى حد كبير ، كما يتضح من سفر داود . ومع ذلك فقد كان اندماج مايعتبر أهم خصائص هاتين الثقافتين أى جدية الدين عند العبريين فى التفكير المنطقى والإنسانى عند الأغريق هو ماقيض له أن يكون فيما بعد أساس

الثقافة الأوروبيـة ألا وهي الديانة المسيحية . غير أن كلمتي « أمة »(١) و« برابره » كانتا تختلفان كل الاختلاف ، فإحداهما مدلول خاص عن الجنس والدين والأخرى تمس الجنس بطريقة عرضية وليس لها أدنى علاقة بالدين ، فما الذي دعا الأغريق إذن إلى هذا التقسيم الواضح وهل كان هناك ما يبرره ؟ .

قد يكون من الأجوبة على ذلك ، جواب واف صحيح ، فحواه أنه بينما كانت مدنيات الشرق التي سبقت مدنية الأغريق ذات كفاية بالغة في أغلب الأحيـان في الأمور العملية ، وكانت أحياناً لا تقل في فنها عن الأغريق ، إلا أنها كانت جدباء من الوجهة العقلية . فقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الأغريق فماذا فعلوا بها ؟ لاشيء . لقد ماتت خبرة كل جيل بانتهائه (إلا في بعض الأمور العملية المحضة) لا كما تموت أوراق الشجر في الغابة ، لأنها تكسب الأرض خصباً على الأقل . إن آداب أي شعب هي التي تحفظ خبرته وتنميها وتستخلصها . لقد ابتدع العبرانيون قبل الأغريق الشعر الديني والغزل وخطب الأنبياء ، غير أن الأغريق هم الذين ابتكروا الأدب بكل صوره الأخرى المعروفة (فيما عدا القصة) (٢) وأوصلوها إلى حد الكمال ، والفرق بين التاريخ الذي سجله البرابرة وبين تاريخ ثوكوديديس Thucydides هو الفرق بين طفل ورجل لا يكتفي بأن يفهم بل يجعل ما يفهمه في متناول الآخرين . فشعر الملاحم والتاريخ والمسرحية والفلسفة بكل فروعها بما في ذلك ما وراء الطبيعة

---

(١) لفظة الأمم Gentiles. أطلقت على غير اليهود في الكتاب المقدس « المترجم »

(٢) لقد عرف اليونان القصة فألفوا مجموعة في العصر اليوناني الروماني ، وأشهر هذه القصص الرعوية قصة دافنس وخلوا كتبها القاضي لونجس في القرن الثاني الميلادي . أنظر ترجمتنا العربية لهذه القصة « المترجم » .

والاقتصاد والرياضيات وكثير من العلوم الطبيعة كلها تبدأ بالأغريق .

ومع ذلك لو أننا استطعنا أن نسأل أحد قدماء الأغريق عما يمتاز به عن البربرى فإنه ، على ما أظن ، ما كان يجعل انتصارات العقل الأغريق هذه فى مقدمتها حتى مع علمه بأنه قد بدأ أكثر الأشياء بطريقة أذكى منه (فهذا ديموستينيز مثلا يقول وهو يلوم مواطنيه على سياستهم الضعيفة تجاه فيليب المقدونى . (أنتم لستم أفضل من البربرى وهو يحاول أن يلاكم ، اضربه فى موضع تجديه تنطلق نحو هذا الموضع ثم إضربه فى موضع آخر فإن يديه تنطلق إليه كذلك) ولعله ما كان يفكر أولا فى المعابد ولا التماثيل ولا المسرحيات التى تستحق كل إعجابنا ، بل لعله كان يقول بل لقد قال بالفعل « أن البرابرة عبيد أما نحن الهيلينيين فرجال أحرار » .

وما الذى كان يقصده بحرية الاغريق وعبودية الأجانب ؟ يجب علينا الحرص على ألا نفسرها بلغة سياسية فقط ولو أن التأويل السياسى من الأهمية بمكان . فهى من الوجهة السياسية لم تكن تعنى بالضرورة أنه كان يحكم نفسه إذ أنه فى أكثر الأحيان لم يكن كذلك، ولكنها تعنى أنه مهما كان حكم دولته فإنها كانت تحترم حقوقه ، فشئون الدولة كانت شئوناً عامة . ولم تكن أمراً خاصاً بحاكم مستبد . فقد كان الاغريق يحكمه القانون وهو قانون معروف يراعى العدالة ، فإن كانت حكومته ديمقراطية كاملة فقد كان يحظى بنصيبه فى الحكم . وقد كانت الديمقراطية كما كان يفهمها الاغريق نظاماً للحكم لا يعرفه العالم الحديث ولا يمكن أن يعرفه : وإن لم تكن ديمقراطية فقد كان هو على الأقل عضواً مشتركا فيها لا أحد الرعايا ، وكانت قواعد الحكم معروفة . أما الحكم الاستبدادى فإن الاغريق كان يمقته من أعماق نفسه . أما عندما كان ينظر إلى بلاد الشرق التى كانت أشد ثراء وأرقى حضارة ، فكان يرى ما يأتى بالضبط : حكم القصر

حكم ملك مطلق ، لا كما كان يحكم ملك الأغريق القديم طبقاً للقانون أو طبقاً لقانون مستمد من السماء ، بل طبقاً لإرادته الخاصة فقط دون أن يكون مسئولا أمام الآلهة ، لأن الملك نفسه كان إلهاً ، ومن كان من رعايا هذا السيد فقد كان عبداً .

إن لفظة (اليوثيريا eleutheria) التي تعتبر كلمة « حرية » مجرد ترجمة مبتورة لها كانت تعني أكثر من ذلك بكثير ولو أن ذلك كان قدراً كبيراً . إن العبودية والاستبداد شيئان يعيبان النفس لأنهما على حد قول (هومر Homer) « إن (زيوس Zeus) ينتزع من الرجل نصف رجولته إذا أصبح عبداً في يوم من الأيام » فكان الأغريق يرى أن عادة الخضوع الشرقية ليست (أليوثرون) فقد كانت في نظره إساءة إلى الكرامة الإنسانية . لقد كان الأغريق رجلا مرفوع الرأس حتى وهو يصلي للآلهة ، مع أنه كان كغيره من الناس يعرف جيداً الفرق بين ماهو بشرى وما هو آلهى ، ورغم أنه كان يعلم أنه ليس بإله إلا أنه كان رجلا على الأقل . وكان يعلم أن الآلهة سرعان ما تبطش دون شفقة بالرجل الذي يتأله ، وأن التواضع والاحترام هما أشد ما يستحسنونه من الصفات البشرية ، ومع ذلك فقد كان يعلم أن الإله والإنسان نبتا من نفس الأرومة .

« إن الآلهة والناس من جنس واحد . فكلانا نستمد أنفاسنا من أم(١) واحدة ومع ذلك فشتان ما بين قوتينا ، فنحن لا شيء ، أما هم فالسماء الصلدة مقرهم الوطيد ثابتة إلى الأبد » .

هذا ما يقوله (بندار Pindar) في عبارة سامية يخطىء دارسو الأدب الأغريق أحياناً في ترجمتها وهم الذين ينبغي أن تكون معرفتهم أفضل

---

(١) أمنا الأرض .

فيجعلون معناها ، أن للآلهة جنساً وللناس جنساً آخر ، ولكن فكرة بندار هنا تدور بأكلها حول عزة الإنسان وضعفه وهى المصدر النهائى لهذه النغمة التراجيديةالتى تسرى خلال الأدب الأغريقى الكلاسى كله . وقد كان هذا الإدراك لعزة الإنسان بصفته إنساناً هو الذى أعطى الكلمة التى نترجمها ترجمة مبتورة بلفظة « حرية » هذه الأهمية وتلك القوة .

على أن هناك ما هو أكثر من ذلك ، فقد كان هناك « برابرة » غير أولئك الذين عاشوا فى ظلال الاستبداد الشرقى . إذكان هناك مثلا شعوب الشمال التى كانت تعيش معيشة قبلية وهم الذين لم يكن الأغريق أنفسهم قد طال العهد على خلاصهم من ربقتهم . فما هو الفرق العظيم الذى كان بين هؤلاء وبين الأغريق فيما عدا ثقافة الأغريق المتفوقة . ؟ .

لقد كان الفرق هو أن الأغريق اتخذوا لهم شكلا من أشكال الحكم نترجمه نحن بطريقة مبتسرة تعوزها الدقة بلفظتى « دولة المدينة » لأن أية لغة حديثة لا يمكن أن تنقله إلينا بطريقة أفضل ، وهذا النظام هو الذى استحث غرائز الإنسان السامية وإمكانياته كما أنه أشبعها . وسيكون لدينا الكثير الذى نقوله عن « دولة المدينة » . أما هنا فيكفينا أن نلاحظ أن « دولة المدينة » وهى التى كانت فى أصلها مجتمعاً محلياً للأمن المشترك أصبحت مركزاً لحياةالإنسانالخلقية والعقلية والجمالية والاجتماعية والعملية تنميها وتزيد فى ثرائها بطريقة لم يحققها أى نوع من المجتمعات من قبل ولا من بعد . لقدكانت هناك أشكال أخرى مستقرة ،كما يقولون ، للمجتمع السياسى ، أما دولة المدينة فقد كانت الوسيلة التى حاول بها الأغريقى أن يجعل حياة المجتمع والفرد كليهما أسمى قدراً مما كانا عليـــــه من قبل . ومن المؤكد أن ما كان يصح أن يضعه الأغريقى فى طليعة مكتشفات أهل وطنه أنهم اكتشفوا أحسن أسلوب من أساليب العيش ، وهذا

ماكان يراه أرسطو على كل حال ، لأن قوله المأثور الذى يترجم عادة بعبارة « الإنسان حيوان سياسى » معناه « أن الإنسان حيوان يمتاز بسكناه « دولة المدينة » . فأنت إن لم تكن كذلك كنت أقل من الإنسان فى أحسن حالاته وأخصها به ، أما البرابرة فلم يكونوا كذلك ، وهذا هو الفرق العظيم .

وعند قيامى بوضع هذا البحث عن قوم يمكن أن نقول عنهم كل هذا القدر قد سمحت لنفسى بمتعة فكرية هى أن أكتب عن الأمور التى تهمنى والتى أشتاق إليها بدلا من أن أحاول بطريقة منظمة قد يكون فيها شىء من التسرع أن أحيط بالميدان كله ، كما أنى قد توقفت دفعة واحدة عند الإسكندر الأكبر أى عند نهاية « دولة المدينة » لا لأنى أرى أن بلاد الأغريق لم تكن هامة فى القرون القليلة التالية ، بل لأنى على العكس من ذلك أراها من شدة الأهمية بحيث لا ينبغى جمعها فى فصل واحد يكون القصد منه مجرد تأدية الواجب ، لأن هذا ما يحدث فى أغلب الأحيان . وإذا تلطفت الآلهة بى فإنى سأعالج موضوع بلاد الأغريق فى العهد الهيلينى وتحت حكم الرومان فى مجلد ثان .

ولقد تركت الأغريق يتكلمون عن أنفسهم كلما استطعت إلى ذلك سبيلا وإنى لأرجو أن تكون الصورة التى بدت واضحة موفقة إلى حد معقول ، ولم أحاول أن أصور الأشياء فى صورة المثل العليا رغم أنى أعالج أمر عظماء الناس دون صغارهم وأمر الفلاسفة دون الصعاليك ، إذ أن الإنسان يشاهد أحسن المناظر من فوق قمم الجبال ، والصعاليك هم هم فى كل مكان ولو أن الصعلوك الأغريقى قلما كان سخيفاً لئيما .

تكوين الشعب الأغريق

يحكى لنا (كسينوفون Xenophon) قصة باقية على الزمن يمكننا أن نذكرها هنا لأنها خالدة وهى خاصة بحادث وقع أثناء زحف العشرة آلاف جندى نحو البحر الأسود وسط جبال أرمنيا الرهيبة . كان هؤلاء الجنود من المرتزقة الذين جندهم (قورش Cyrus) الأصغر لمساعدته على عزل أخيه من أبيه عن العرش الفارسى (وإن لم يبح قورش لهم بذلك) لأنه كان يعلم حق العلم أنه لم يكن هناك جيش أغريقى يقبل طائعاً أن يبتعد عن البحر مسيرة ثلاثة أشهر ، ولكنه مع ذلك أخذهم إلى أرض الجزيرة عن طريق الخداع والملق. وقد هزم الأغريق المنظمون والمسلحون تسليحاً جيداً الجيش الفارسى بسهولة ،غير أن قورش لقى مصرعه فأصبح الموقف مربكا للجميع . فقد أتيح للفرس على حين غرة جيش مدرب لم يكن فى وسعهم أن يفيدوا منه ، وكان الأغريق على مسيرة ثلاثة أشهر من وطنهم دون قائد ودون من يدفع لهم رواتبهم وبدون أى هدف ، فقد كانوا فرقة دولية غير رسمية لا يدينون بالولاء إلا لأنفسهم ، وقد كان من الجائز أن يجن جنونهم وتسوء حالهم فيتحولون إلى شراذم من اللصوص ويتفرقون شذر مذر ، كما كان يمكن إدماجهم فى الجيش الفارسى والإمبراطورية الفارسية .

ولكن لم يحدث شيء من ذلك بل قرروا العودة لوطنهم دون أن يسيروا بطول آسيا الصغرى وهى التى كانوا قد شاهدوا منها ما فيه الكفاية كل الكفاية ولذلك صمموا على الاتجاه شمالا أملا فى الوصول إلى البحر الأسود، واختاروا قائداً لهم كسينوفون نفسه وهو من ملاك الأرض الزراعية

فى أثينا ، وقد كان قائداً كما كان رئيساً لاجتماعاتهم .

ذلك أنهم كانوا يقررون سياستهم وهم مشتركون معاً . وقد ظل هؤلاء الأغريق الذين تركوا فى حالة اضطراب متحدين أسبوعاً بعد أسبوع ، واخترقوا تلك الجبال المجهولة بهذا النظام الذى راضوا أنفسهم عليه والذى كثيراً ما أظهروه ، وكانوا يصالحون الأهالى كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ويحاربونهم إذا أخفقوا فى طلب الصلح .

وقد هلك البعض منهم لا الكثير ، وكتبت لهم الحياة لأنهم كانوا قوة منظمة . وقد حدث ذات يوم كما جاء فى قصة كسينوفون التى لا تضفى على هذا الزحف صفة البطولة أبداً ، أنه كان يقود حرس المؤخرة بينما كان جنود المقدمة يصعدون أحد الممرات ، حتى إذا بلغوا القمة أخذوا يصيحون أيضاً وهكذا دواليك فصيلة بعد أخرى ، فكان الكل يصيحون ويشيرون إلى الشمال بتأثر شديد ، وأخيراً استطاعت المؤخرة التى شاع بينها القلق أن تسمع ما كان يهتف به الجميع . وهو ثلاسا ، ثلاسا . وبهذا انتهى الكابوس الطويل . لأن ثلاسا فى الاغريقيه معناها « البحر » . فقد كان يلتمع الماء الملح عن بعد ، وحيثما وجد الماء الملح كانت اللغة الاغريقيه مفهومة والطريق إلى الوطن مفتوحاً ، أو كما قال أحد العشرة آلاف جندى « يمكننا أن نتمم رحلتنا ونحن نرقد على ظهورنا مثل أودوسيوس » .

وقد أعدت رواية هذه القصة من جهة اتباعاً لمبدأ هيرودوتوس الممتاز القائل بأن القصة الجيدة لا يمكن القارىء الحصيف إلا أن يرحب بها ، ومن جهة ثانية تقديراً للحقيقة العجيبة التى تقول إن كلمة « ثلاسا » أى الماء الملح ليست كلمة اغريقية بالمرة على مايبدو . ولكى نزيد البحث دقة نقول إن اللغة الاغريقية هى واحدة من عائلة اللغات الهندية الأوروبية مثل اللاتينية والسنسكريتيه والكلتيه والتيوتونيه ، أى اللغات التى حملتها الهجرات من

مكان ما فى وسط أوربا متجهة نحو الجنوب الشرق إلى فارس والهند ، حتى أن « راج » الهندية قريبة من كلمة « ركس » اللاتينية وكلمة « روا » الفرنسية كما اتجهت جنوباً إلى شبه جزيرة البلقان وإيطاليا وغرباً حتى إيرلنده . ومع ذلك فإن الكلمة الاغريقية التى تعبر عن شىء أغريق صميم مثل البحر ليست هندية أوروبية فأين يا ترى وجدها الاغريق ؟

إن رواية شبيهة بتلك التى ذكرها كسينوفون يمكن أن تفسر لنا الموضوع ولو أن أقدم مرجع لها هو مؤلف هذا الكتاب . فقد كانت عصبة ممن يتكلمون الاغريقية تشق طريقها نحو الجنوب قبل زحف العشرة آلاف جندى بعشرة قرون أو خمسة عشر قرناً بعيداً عن جبال البلقان ووادى استروما أو فردار بحثاً عن وطن أفضل ، فرأوا أمامهم على حين غرة مقداراً هائلا من الماء وهو أكثر مما كانوا قد رأوه هم أو أسلافهم من قبل ، فحاولوا لشدة دهشتهم أن يسألوا الأهالى عنه فقال الأهالى وقد تملكهم شىء من الحيرة « أنه ثلاسا بالطبع » . وهكذا بقيت كلمة « ثلاسا » بعد أن اندثرت كل الكلمات فى هذه اللغة تقريباً .

إن من الطيش البالغ بطبيعة الحال أن نبنى أى نظرية عن أصل أى شعب على كلمة واحدة فقد تكون الكلمات الأجنبية التى تقضى على الكلمات الوطنية بسهولة عظيمة مقتبسة ، غير أن فى الحضارة الاغريقية التى بلغت أشدها فى القرن الخامس قبل الميلاد وما يليه توجد مميزات يمكن تفسيرها بأكبر سهولة لو كانت هذه الحضارة وليدة حضارتين تسبقانها مباشرة وهناك من الأدلة ما يثبت أنها كانت كذلك فى الواقع .

دعنا نتمعن فى قليل من الكلمات الأخرى . فى اللغة الاغريقية

نوعان من الكلمات التى ليست أغريقية الأصل (مثل ثلاسا) وهى تنتهى بالمقطع «أسوس» أو «إسوس» وهى فى الغالب أسماء أمكنة مثل هاليكرناسوس مسقط رأس هيرودوتوس Herodotus كما أن هناك كلمات تنتهى بالمقطع «إنثوس» مثل هياسنثوس وكورنثوس Corinthos ولابيرنثوس وكلها مألوفة لنا ، فهل هى آتية من الخارج ؟ وهل كانت كورنثا فى أصلها مستعمرة أجنبية ؟ من الجائز ذلك ، غير أن الذى يثير العجب أكثر من كورنثا هو أن أثينا ليست إسما إغريقياً ، وكذلك الالهة اثينا Athena . أن العاطفة على الأقل فضلا عن تقاليدنا الموروثة لتثور على الفكرة القائلة إن أثينا مدينة بأسمها لأجانب اقحموا أنفسهم على الاغريق ، لأن الآثينيين كانوا أحد الشعبين الاغريقيين اللذين أدعيا أنهما نبتا من الأرض ، والشعب الآخر هو الأركاديون Arcadians الذين استقروا فى اركاديا قبل مولد القمر .

هناك ما يدعو إلى النظر إلى الروايات الموروثة باحترام كما سنرى عن قريب ، كما أن هناك على الأقل بعض الصحة والاحتمال فى الأساطير الأركادية والآثينية ، لأن اركاديا هى قلب البيلوبونيز Peloponnese الجبلى وهى صعبة الغزو (مثلما وجد الأتراك فيما بعد) كما أن اتيكا Attica أرض الأثينيين ذات تربة رقيقة لاتجتذب الفاتحين والمهاجرين . فأثينا إذن ليست اغريقية ، وهناك مايدعو إلى الظن بأنها هى وسكانها أقدم من الاغريق كذلك وأن كان هذا أمرا مختلفا .

وهناك أسطورة أثينية قد توضح لنا الأمر بعض الشيء . فمن احسن القصص الآثينية المعروفة قصة تقول إن المنافسة اشتدت ذات مرة بين الربه أثينا والإله بوسيدون Poseidon لامتلاك الأكروبوليس Acropolis ، وخرجت أثينا بنصيب كبير غير أن الإله كان له ما يمتلكه أيضاً هناك . وهكذا يبدو أن بوسيدون كان إلهاً اغريقياً ، ولعلنا لو قلنا أنه كان إلهاً

هيلينيا لكان ذلك أقل مدعاة للارتباك ، أما أثينا فلم تكن هيلينية . إن تفسير مثل هذه الأساطير ليس بالشيء المؤكد ولكن مما يغرينا بقبوله أن نرى فى هذه الأسطورة ذكرى الاصطدام فى أتيكا بين شعب هيلينى وافد وبين عابدى أثينا من السكان الوطنيين وهو اصطدام كانت له نتيجة سلبية هى امتصاص السكان الوافدين .

وقد كان الأغريق المتأخرون أنفسهم يعتقدون فى وجود سكان أصليين غير هيلينيين كانوا يسمونهم البلاسجيين Pelasgians وقد ظلت بقاياهم نقية فى العصور الكلاسية وكانوا يتكلمون لغتهم الخاصة . وقد اهتم هيرودوتوس الذى كان مولعاً بكل ما وقع تحت بصره ، بأصل الاغريق . وهو يؤكد أن من بين فرعى الاغريق الرئيسيين المتأخرين وهما الأيونيون والدوريون كان الأيونيون من أصل بلاسجى . وهو يسمى الدوريين Dorians بالفعل هيلينيين لكى يميزهم عن الأيونيين Ionians ، ثم يستطرد ليقول « لا يمكننى أن أقرر بصفة مؤكدة أى لغة كان يستعملها البلاسجيون ولكن إن كان لى أن أحزر شيئاً من هؤلاء البلاسجيون الذين لا يزالون موجودين فإنهم يتكلمون لغة بربرية وهو لا يقصد بكلمة « بربرية » أكثر من « غير هيلينية » .

وهذا يتفق إلى حد كاف مع ما حزرناه عن الأثينيين ، إذ أنهم ادعوا أنهم قادة الاغريق الأيونيين ومركز نشاطهم وأنهم من السكان الأصليين .

فإذا أمكننا أن نثق فيما تناقلته الروايات الموروثة تكون الصورة التى نستخلصها كالآتى : كان يسكن أتيكا والبيلوبونيز جنس غير هيلينى من السكان الوطنيين ثم هاجرت شعوب تتكلم اللغة الاغريقية فى وقت لا يمكن تحديده هجرة تدريجية جداً دون ريب من أقصى الشمال إلى هذا الإقليم وفرضت لغتها على السكان وهذا شبيه جداً بما فعله السكسون فى إنجلترا . ولم يكن هذا بالغزو المفاجىء الملىء بالكوارث . فإن السجلات

الآثرية لا تظهر وجود أى ثلمة مفاجئة فى الثقافة قبل غزو الدوريين سنة ١١٠٠ . وقد ظلت « الجيـــوب » البلاسجية التى أفلتت من تأثير هؤلاء الوافدين تتكلم لغة لم يستطع هيرودوتوس أن يفهمها .

قلت إن تاريخ هذه الهجرات لا يمكن تحديده ومع ذلك فمن الممكن أن تقرر لها حداً أدنى . فمن المؤكد جداً أن هؤلاء الاغريق الدوريين الذين عاشوا حوالى سنة ١١٠٠ لم يكونوا أول من أدخل اللسان الاغريقى فى بلاد الاغريق . لأن الاغريق الآخيين الذين نعرف شيئاً عنهم وإن يكن غير كاف قد سبقوهم بقرنين على الأقل . وقد ظلت أجيال من الإنجليز تعرف بعض هؤلاء أكثر مما تعرف أسلافها من الأجبرت والأجويت والإيلفريك لأن أجا ممنون Agamemnon ومينلاوس Menelaus ابنى اتريوس Atreus كانا آخيين مثل آخيليس وغيره من الأبطال الذين كان مقدراً أن يكتب عنهم هومر بعد ذلك بثلثمائة عام أو نحو ذلك .

هل كان هؤلاء الآخيون إذن أول المتكلمين بالاغريقية فى بلاد الاغريق ؟ .

ليس هناك ما يضطرنا إلى هذا الاعتقاد إذ لا يوجد فعلا ما يحملنا على الظن بأن أية لغة خلاف الاغريقية كانت ســـائدة فى بلاد الاغريق إلا الروايات المتوارثة لأنما يمكن إدراكه عقلا أن الأسماء غير الهيلينية مثل أثينا كلمات دخيلة رغم أن ذلك قد لا يكون محتملا جداً .

ولكن هل هناك من سبب يدعونا إلى تصديق هذه الروايات المتوارثة؟ لقد انكرها المؤرخون منذ مائة سنة فقد كتب جروت Grote مثلا «أن الأساطير قد ابتدعها الاغريق من خيالهم الذى لا ينضب معينه ليملأوا الحقبة الفارغة فى ماضيهم المجهول وأن من الحق الاعتقاد بأن ملكا أسمه مينوس Minos قد عاش حقاً

فى جزيرة كريت أو أن حرب طرواده نشبت فعلا . على أن إنكار هذا الاحتمال هو حمق شبيه بسالفه . وقد عالج قبل ذلك مؤرخ أغريق هو ثوكوديديس الروايات المتوارثة بطريقة تخالف ذلك كل المخالفة باعتبارها تسجيلات تاريخية من نوع خاص يصح نقدها كما تصح الإفادة منها بالطريقة الصحيحة .

فوصفه لحرب طرواده ، وهو الذى ذكره فى الفصول الأولى من تاريخه ، مثل حسن على معالجة المادة التاريخية بطريقة صحيحة . فلم يكن يخطر لثوكيديديس قط أنه لا يعالج مادة تاريخية . فهو يكتب عن مينوس ملك كريت الأسطورى « أن مينوس هو أقدم حاكم نعرف عنه أنه كان يملك أسطولا ويحكم أغلب ما نعتبره الآن مياها أغريقية ، فقد كان يحكم جزر كوكلاديس وكان أول مستعمر لأغلبها ، فكان يعين أولاده حكاماً عليها ، وأغلب الظن أنه طهر البحر من القراصنة بما كان فى وسعه ليطمئن إلى الحصول على إيراداته » .

وكان ثوكيديديس كأغلب الاغريق يعتقد فى صحة الروايات المتوارثة عموماً ، أما الكتاب الحديثون فقد أنكروها . ولم تكن قد نشرت من تاريخ جروت الذى يستحق الإعجاب طبعات كثيرة حين ذهب شليمان إلى موكيناى وطرواده وكشف عن شىء يشبه مدينتى هومر بشكل غير معهود . ثم ذهب بعد ذلك سير آرثر إيفانز إلى كريت وكشف بالفعل عن الملك مينوس وجزيرته التى كانت تتكون منها إمبراطوريته . وقد أصبح على الأقل من الواضح إلى حد بعيد أنه منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد إلى حوالى سنة ١٤٠٠ ق . م وهى مدة تماثل المدة الممتدة من سقوط روما إلى يومنا هذا ، كانت كريت ولاسيما مدينة كنوسوس مركزاً لحضارة مزدهرة انتشرت فى عالم بحر ايجه شيئاً فشيئاً فى كافة الاتجاهات ، وبما أن

كنوسوس لم تكن محصنة فلابد أن سادتها كانوا يسيطرون على البحار كما قال ثوكديديس بالضبط .

هذا هو المثل البارز على إمكان الاعتماد بصفة عامة على الروايات المتوارثة فى العالم الإغريقى . وليس من الصعب أن نجد أشباه ذلك فى جهات أخرى . وقد تأيدت الأساطير أحياناً إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل . وقصة المينوتور Minotaur شاهدة على ذلك ، فقد كانت هناك قصة كان ثوكديديس على درجة من التزمت حتى أنه لم يذكرها تحدثنا بأن الأثينيين كانوا ملزمين بدفع جزية سنوية هى سبعة شبان وسبع فتيات عذارى إلى وحش مخيف هو المينوتور كان يعيش فى قصر التيه فى كنوسوس Cnossos إلى أن أطلق سراحهم أكبر أبناء الملك وهو الأمير ثيسيوس Theseus الذى قتل المينوتور بمعونة اريادنى Ariadne وكرة الخيط التى أعطتها له لترشده إلى طريق الخروج من قصر التيه . هذه هى الأسطورة وهاك بعض الحقائق : أما بشأن الاسم « مينوتوروس » فمن الواضح أن نصفه الأول هو « مينوس » والنصف الثانى « توروس » معناه « الثور » باللغة الأغريقية . وواضح جداً ، مما وجده ايفانز فى كنوسوس من تصاوير الأفاريز والتماثيل وأشباهها ، أن هؤلاء الكريتيين كانوا يعبدون الثور . وعلى ذلك فان كان هناك شىء قديم يشبه قصر التيه فهو رسم أرضية القصر الفسيح الذى كشفه إيفانز . وهناك فضلا عن ذلك أدلة متوفرة على أن هؤلاء الكريتيين الذين عاصروا مينوس كانوا يستعملون بلطة ذات رأسين من النوع الذى كان يسميه الأغريق المتأخرون « لابريس Labrys» باعتبارها رمزاً للألوهية أو للسلطة وأخيراً لقد وقعت اتيكا Attica بالتأكيد تحت نفوذ كريت ثقافياً ومن الجائز جداً سياسياً أيضاً . فمن المحتمل جداً بناء على ذلك أن حكام كنوسوس كانوا حقاً يأخذون رهائن من الأسر الأثينية النبيلة ضماناً لحسن سلوكها كما كان يفعل الأتراك بعد ذلك بقرون كثيرة . أما ثيسيوس فيلوح أنه

ورد خطأ لأنه من فترة تالية . ولم يثبت أحد حتى الآن صحة وجود اريادنى الخياليه أو يجد الخيط . أما فيما عدا ذلك فيلوح أن هذه الأسطورة جديرة بالتصديق .

وكذلك الحال بالنسبة لطرواده فمن بين المدن التسع التى شيد بعضها فوق بعض فى ذلك الموضع ، قد دمر الحريق طروادة السادسة حوالى تاريخ حرب طرواده الذى توارث الناس ذكره (١١٩٤ — ١١٨٤) ومن بين نعوت هومر الخالدة لطرواده قوله « ذات الطريق الواسع » وقد كان لطرواده السادسة طريق واسع يحيط بالمدينة من داخل الأسوار مباشرة ، وقد بنى هذه الأسوار إلهان وواحد من البشر ، فالقطاع الذى بناه هذا الأخير كان أضعف من غيره كما كان من الممكن اقتحامه وقد كانت أسوار طرواده السادسة أضعف فى نقطة واحدة منها فى غيرها (وهى التى كان الوصول إليها أصعب) وهذا يتفق مع وصف هومر .

وكذلك كان الحال بالنسبة لكثير من أنساب اليونان . فأغلب أبطال هومر كانوا يستطيعون تتبع أنسابهم حتى ثلاثة أجيال ثم يتصل نسبهم بإله . وقد قيل فى تعليل ذلك دون مراعاة الاحترام الواجب إن المعنى هو « والله وحده يعلم من كان أبوه » غير أن الإنسان يستطيع أن يكون أكثر احتراماً فيقول بدلا من ذلك إنه يشير إلى دعوى مؤسس الأسرة الحاكمة فى رعاية الإله له ، فيكون المعنى « ملككم الجديد بفضل رعاية الإله » . ومن جهة أخرى نجد أن هذه الأنساب تنتهى بعد حرب طرواده بجيلين وهو ما يصل بنا إلى تاريخ الغزو الدورى حوالى سـنة ١١٠٠ وهو الذى توارث الناس ذكره . وفى ذلك الوقت كانت قد دمرت كل المدن القائمة فى القسم الأكبر من البلاد كما دلت على ذلك أعمال التنقيب . ثم أن أطول سلاسل النسب المعروفة كانت هى الخاصة بالبيوت المالكة بأتيكا وأرجوس ، وهذا يعود بنا إلى حوالى ١٧٠٠ ق . م ، وقد سبق لنا أن رأينا أن الأثينيين

أدعوا أنهم أقدم السكان وهو ماقد يبدو صحيحاً بعض الشيء ، ولكن لاتزال هناك هذه النقطة : لقد كانت أثينا وأرجوس Argos تمتازان من بين المدن الأغريقية فى العصر الكلاسى بأن معبود كل منهما الرئيسى لم يكن إلهاً بل إلهة وهما أثينا وهيرا الأرجوسية Hera . ولقد اكتشفت فى كريت صور كثيرة لطقوس العبادة وهى تدل دلالة كافية على أن القوم هناك كانوا يعبدون آلهة أما إن كان هناك إله فهو ثانوى . ومن الواضح أنها كانت إلهة من إلهات الطبيعة التى ترمز إلى خصوبة الأرض بينما كانت الآلهة الهلينية من الذكور بصفة خاصة وهذا على الأقل يدعو إلى الظن بأن هاتين الطائفتين من الناس ، أى الآثينيين وأهل أرجوس ممن كان لهم أطول سلسلة من الأنساب كانتا تعبدان إلهات ، وكانت لطائفة منهما وربما للطائفتين أسماء غير هيلينية . وزيوس (باللاتينية « ديوس » Deus أى إله) هيلينى قح ، وكانت له رفيقة هيلينية غامضة جداً تدعى ديون Diône إسمها قريب من إسمه . أما فى الأساطير الأغريقية فقد كانت رفيقته هى هيرا الأرجوسية . ويؤكد لنا نشيد هومرى أن هيرا لم تكن راغبة فى الزواج منه ولم يكن ذلك دون سبب معقول كما قد وضح لنا . وفى هذا تعليل واضح عن اندماج شعبين لهما ثقافتان ولغتان مختلفتان فى الظاهر ويجوز بناء على ذلك أنهما من جنسين مختلفين .

ولذلك فإننا نرى أن الروايات القديمة التى تدعى أنها تاريخية لاينبغى بأى حال نبذها . وقد كان هيرودوتوس ذلك الباحث النهم والناقد الفاحص يعتبر الأغريق الأيونيين شعباً بربرياً تحول إلى هيلينى ، ولا زلنا نستطيع أن نثبت أنه مصيب . وإذا صح ذلك فينبغى علينا بالتأكيد أن نتوقع أن تكون هذه العملية قد حدثت بالتدريج ، إذ أن الغزو الدورى وحده هو الذى اتخذ مظهر الغزو العام .

وقد تعرضت مناقشتنا الموجزة لنقطة أخرى هى الآلهة والإلهات . فهناك

نوع من الثنائية فى الشعائر الدينية لبلاد الأغريق الكلاسية . وهذا ما يدعو إلى العجب بالنسبة لمثل هذا الشعب الفلسفى ، وأن يكن من الممكن فهمها بسهولة عظيمة جداً ، متى افترضنا أن الثقافة الأغريقية وليدة ثقافتين مختلفتين . فالبانثيون Pantheon الأوليمبي بآلهته الاثنى عشر وعلى رأسهم زيوس يبدو من بعيد راسخا بشكل بالغ التأثير ، ولكن هذا الرسوخ يتلاشى إذا أمعنا النظر فيه إذ ينكشف الأمر عن أن الألهات لم تكن لهن أسماء أغريقية كما رأينا ويلوح جدا أن حجر الزاوية فى البناء بأكمله وهو زواج زيوس بهيرا كان زواجا فى الأسرة الحاكمة ، أضف إلى ذلك أن ميدانا بأكمله من ميادين العبادة والعقيدة كان إتصاله بأوليمبس اتصالا عرضيا ، فالعبادات الاوليمبية الحقيقية كانت قائمة على أفكار عن إله يحمى القبيلة أو الدولة أو الأسرة ويضع الضعيف أو السائل تحت رعايته . وقد كان الأله فى الحقيقة متصلا اتصالا وثيقاً بالكيان الاجتماعى كما كان إلها من آلهة الطبيعة ولم يتعد ذلك قط ، بمعنى أنه كان يفسر بعض قوى الطبيعة . فزيوس كان يرسل المطر والبرق ، وكان بوسيدون يثير البحر ويزلزل الأرض وقد أدمجت أثينا تماما داخل هذا النظام فأصبحت هى بنت زيوس والحارسة المسلحة المدينة ومانحة الحكمة الإجتماعية ، غير أن بومتها تذكرنا بأصلها أى باعتبارها ربة من ربات الطبيعة لا ربة من ربات القبيلة فقد كانت الطقوس المؤسسة على قوى الطبيعة الغامضة المانحة للحياة موجودة فى بلاد الأغريق جنبا إلى جنب مع العبادات الإوليمبية ، كما كانت تقف منها موقف المعارض على خط مستقيم ، فمثلا كانت ديانات الأسرار تستهوى الفرد أما العبادات الإوليمبية فقد كانت خاصة بالجماعة ، وكانت الأولى تتسع لكل فرد سواء كان حراً أو عبداً ، أما العبادات الأوليمبية فإنها لم تكن تقبل إلا أعضاء المجتمع وكانت الأولى تبشر بتعاليم البعث والميلاد من جديد والخلود أما العبادات الأوليمبية فلم تكن تبشر بشىء بل كانت مختصة بتكريم أعضاء المجتمع الخالدين الذين لا تدركهم

الأبصار فكانت مذاهبهما الدينية مختلفة إختلافاً كلياً . ومن الصحيح تقريباً أن نقول إن فكرة الأله فكرة أوربية وأن فكرة الإلهة فكرة خاصة بالبحر المتوسط ، فالالهات ميراثنا المباشر من أتباع مينوس فى كريت .

وقد آن لنا الآن أن نقول شيئا عن هذه الحضارة التى دامت ردحا طويلا من الزمن وهى التى كان يذكرها الأغريق فى العصور التاريخية ذكرى بعيدة غامضة كما كانت شيئا خياليا بالنسبة لاجدادنا . فإذا شئنا تحديد زمنها نراها تبدأ فى العصر الحجرى الحديث حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م وقد أدركت العصر البرونزى حوالى سنة ٢٨٠٠ ، وأزدهرت عند ذاك حيث تناوبت عليها فترات إزدهـــار عظيم وفترات ركود نسبي إلى أن نهبت كنوسوس نهائياً واندثرت حوالى سنة ١٤٠٠. وقد بدأت هذه الحضارة من الوجهة الجغرافية فى كنوسوس ثم انتشرت إلى أماكن أخرى فى كريت ومنها تدريجياً إلى جزر بحر إيجه وإلى أجزاء كثيرة لا من جنوب ووسط بلاد الأغريق فحسب بل من سواحل آسيا الصغرى وجنوب فلسطين أيضا. وقد أخذت مواضع معينة فى القسم الرئيسى من بلاد الأغريق تنافس كريت نفسها منذ سنة ١٦٠٠ باعتبارها مراكز للحضـارة ثم صارت ورثتها بعد أن أندثرت كنوسوس . وتعتبر موكيناى Mycenae المركز الرئيسى من بين هؤلاء . ومنها كان الفرع المتأخر من الثقافة القديمة المنسوبة إلى مينوس أو إلى جزر بحر إيجه (ولو أنه الفرع الذى كان أول ماأعيد إكتشافه) وهو معروف باسم الحضـارة الموكينيه . أما الالياذه فترجع إلى مرحلة متأخرة من هذه الحضارة وما يذكره الناس عنها ناقص .

ومن المحال أن نقول الكثير هنا عن هذه الحضارة غير أن عدم وجود تحصينات يثبت أنها كانت تعتمد من الوجهة السياسية على القوة البحرية . وتشهد القصور الفسيحة بثرائها ، ويوحى رسم القصر الموجود فى كنوسوس

وهو متناه فى التعقيد بأنه مركز للإدارة أكثر منه حصنا . ويمكننا أن نقرر ونحن مطمئنون أن أهل كريت القدماء كانوا خاضعين لحكومة من حكومات القصر . فمن المحال أن نجد أى شكل من أشكال الحكم الشعبى يتناسب مع تلك الآثار . فالأصص المطلية والأفاريز المصورة والتماثيل والآثار المادية الأخرى تدل على أن هذه الحضارة كانت بالغة الرشاقة والقوة والمرح والرفاهية المادية ، وكثيرا ما نشير إلى كلمة العالم الفرنسى الذى كان يتأمل فى صور سيدات كريت الموجودة على أحد الأفاريز إذ قال « ولكن هؤلاء السيدات باريسيات ! » . وإذا نظرنا إلى لون من ألوان الثقافة الإنسانية يختلف عن هذا بعض الاختلاف نجد أن نظام تصريف المياه هناك قد امتدحه الناس بأنه « انجليزى صميم » . وتدل الأوانى الفخارية الكبيرة والصغيرة التى تنتمى إلى أزهى عصور هذه الحضارة على مهارة صناعية رائعة وفهم للرسم الزخرفى ، وقد نجـــد عليها فعلا رسوما تافهة متزاحمة تملأ الزخارف فيها ما ينبغى أن يظل فراغا ، غير أنها من جهة أخرى تنتفع من الفراغ فى ثقة وإطمئنان تذكرنا بالفن الصينى وهو فى أوج عظمته وهى تترك لدينا على العموم إنطباعا عن ثقافة ارستقراطية مرحة يحتل فيها الصيد وإستثارة الثيران بواسطة الكلاب والفنون البهلوانية مكان الصداره . غير انه من المفروض أن نواحى أخرى من حضارة هؤلاء المينويين كان لها من الأهمية ما لفنهم أو أكثر . فى الكتب المؤلفة عن الحضارات القديمة يخصص للكلام عن الفن عادة مجال أكبر مما ينبغى لسببين : أولهما أن تصوير معبد أو لوحة زيتية تصويراً شمسيا أيسر من تصوير مذهب أخلاقى أو فلسفة سياسية وثانيهما أن كثيراً من الشعوب كانت عاجزة عن الافصاح والبيان إلا عن طريق فنها . والأغريق واليهود هم فى الحقيقة أول الشعوب القديمة التى لم تكن كذلك .

وكذلك الحال بالنسبة للمينوسيين ففنهم يخاطبنا خطابا مباشراً ولا يخاطبنا

أى شيء سواء إلا بطريقة غير مباشرة بطريق الإستنتاج ، وآثارهم وفيرة ولا تحتمل الشك أو التساؤل ، غير إننا لانعلم ماذا كانت أفكارهم عن الحياة وكيف كانوا يواجهون مشاكلهم . والواقع أنهم كانوا يعرفون فن الكتابة ، ولدينا شيء مما كتبوه، ولكننا لانستطيع أن نقرأه ، فنحن مضطرون أن نأمل فى نجاح شخص ما ذات يوم فى حل طلاسمه وترجمتها ، فقد يخبرنا مثلا عن السبب فى غضب موظف كبير من مرؤوســـه أو عن ثمن اللحم البقرى فى القرن السابع عشر قبل ميلاد المسيح .

ومع أننا لانعرف شيئا عن أفكارهم وتجاربهم إلا عن طريق الإستنتاج فأننا نعلم شيئا عن اسلافهم . فقد تركوا رسوما لهم تدل دلالة واضحة على انهم كانوا من سكان البحر الأبيض المتوسط الذين يرجع أصلهم إلى شمال أفريقيا من ذوى القوام النحيف واللون الأسمر والشعر الأسود . وكان هذا الشعب قد إنتقل من مرحلة العصر الحجرى القديم عندما جاء بعضهم إلى جزيرة كريت حين كانت خالية من السكان ، فهل استمر البعض الآخر فى الزحف والإقامة فى أجزاء من بلاد الأغريق ؟ هذا ما لا نعرفه . .

إن أحدث فن كريتى يؤدى مباشرة إلى الثقافة الموكينية الخاصة بالقسم الرئيسى من البلاد دون توقف ولو أن هناك ملامح جديدة أضيفت إليه . فالتصميم النموذجى للقصر كان مختلفا فلم يكن القصر أقرب لأن يكون حصنا فحسب (وهو ماقد تفسره أحوال القسم الرئيسى من البلاد الكثيرة الإضطراب) بل يلوح أن الغرف كانت مكشوفة بدرجة أقل من المنتظر كما لو كانت تنتمى إلى طراز أصله من مناخ أشد قسوة ، فضلا عن انه طراز حقق بعد تطوره تناسقا لا يماثل شيئا من فن العمارة الكريتية. وهناك فرق آخر هو ظهور إهتمام أكبر بصورة الإنسان ، عند طلاء أصص الزهر ، فقد كان الفنانون الكريتيون يستخدمون بصفة أساسية نماذج من الخطوط

والرسوم (سواء كانت مأخوذة من الطبيعة أو طبقا لطراز سائد) مستمدة من حياة الحيوان والنبات . أما الفنانون الموكينيون فقد إستمروا فى الرسوم ذات الخطوط ولكنهم أكثروا من إستخدام صورة الإنسان كما فى مناظر المواكب وسباق العربات .

من كان هؤلاء القوم الذين أنشأوا الثقافة الموكينية ؟ هل هم الفنانون والصناع الذين تركوا كريت وهى مضمحلة وأقاموا فى وطن جديد بين هيلينيين جفاة وابتدعوا لهم فنا ؟ أم كان هناك (وهو ما يبدو أكثر احتمالا) شعب أكثره غير أغريقى ممن كان قد تأثر بالفن الكريتى بدرجة بالغة أو لعله كان يمت بصلة القربى إلى شعب كريت ولكنه وقع تحت سيطرة ارستقراطية اغريقية مغرمة بركوب العربات قدمت حديثا إلى البلاد؟ وهل من الجائز إن صح الفرض الأخير أن هيرودوتوس كان مصيبا وان غالبية الموكينيين كانوا أيونيين ممن تحولوا إلى هيلينيين أو لم يتحولوا ؟ قد تصبح الإجابة على هذه الأسئلة ممكنة يوما ما . وفى نفس الوقت ينبغى علينا أن نكون من الحكمة بحيث لا نجعل الصورة التى نحاول أن نرسمها منظمة أكثر مما ينبغى مهما كانت هذه الصورة ، إذ أنه لاشك فى أن الهجرات العارضة والغزوات المحلية كانت قد استمرت فترة طويلة ويجب أن نفسح مكانا فى هذه الصورة للآخيين ذوى الشعر الأشقر (Xanthoi) الذين ذكرهم هومر حتى يكونوا متميزين بوضوح عن ذوى الشعر الأسود الذين كانوا يحكمونهم . فالملوك من أبناء زيوس وهم الذين ذكرهم هومر كانوا ارستقراطية شبه إقطاعية تسيطر سيطرة السادة المستبدين على رعايا لاحول لهم ممن كانوا يلعبون دورا صغيرا جدا سواء فى القتال أو فى السياسة . وارستقراطية النورمان التى فرضت نفسها على انجلترا فى عهد السكسون مثل واضح على ذلك . فالقصر الذى بناه أتريوس فى موكيناى وأوصى به لابنه أجا ممنون كان

حصنا أكثر منه قصراً وكان مركزاً لشبكة من الطرق الاستراتيجية التي كانت تسمح بالوصول إلى أجزاء مختلفة من البيلوبونيز وسط بلاد الأغريق كما كانت هناك حصون أخرى من نفس النوع فى هذه الأصقاع. وقد أثبتت أسلحة الآخيين الحديدية أنها أفضل من أسلحة الموكينيين البرونزية، ولكن الثقافة الموكينية كانت هى الأفضل بوجه عام. وما دامت هذه وجهة نظرنا فمن الشائق أن نلاحظ أحد الأخطاء الناشئة عن عدم دقة الروايات القديمة التى استند إليها هومر بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة، فإنها تصور فى بعض النواحى العصر الموكينى بأمانة تسترعى الالتفات لا سيما بالنسبة لجغرافيته السياسية، فعندما قام هومر بالكتابة، ولعل ذلك حوالى سنة ٨٥٠، كان الفتح الدورى الذى حدث حوالى سنة ١١٠٠ قد غير خريطة بلاد الأغريق كل التغيير إذ كانت موكيناى نفسها مثلا قد صارت مكانا لا أهمية له، كما تحول الساحل الآسيوى وهو موطن هومر وصار أغريقيا. ومع ذلك فإن الألياذة تحتفظ بأمانة تامة بصورة بلاد الأغريق كما كانت فى القرن الثالث عشر، وليس فيها أى شيء عن أيونيا الموجودة فى آسيا إذ ذاك وهى التى كان يعرفها هومر نفسه. أما الخطأ الذى يسترعى اهتمامنا فهو أن الفن وأدوات الترف التى وصفها هومر كان ينسبها إلى الفينيقيين، اما أن صناعتها الفنية كانت وطنية محلية فقد كانت حقيقة منسية تماما، ولا بد أنها كانت تبدو أمرا لا يمكن تصديقه. والآخيون كانوا غزاة جفاة ليس لهم فن وكذلك الدوريون الذين جاءوا على أثرهم كانوا أدهى منهم، إذ تمكن مقارنتهم برجل ورث أرضا ولكنه أضاع عليها كل رأس ماله. ✗

وهناك مفارقات أخرى تشير إلى نفس الاتجاه، فالموتى عند هومر كانوا يحرقون غير أن العادة الوطنية وهى العادة الكلاسية المتبعة فعلا كانت هى الدفن، كما أننا نقابل عند هومر ديانة آلهة السماء الأولمبيين،

وليس هناك أى أثر لربة الأرض الخاصة بكريت أو بجزر بحر إيجه . كما أن هومر يكثر من ذكر الصيد ولكننا لا نجد عنده أية إشارة إلى إثارة الكلاب للثيران مع أنها بارزة كل البروز فى الفن الموكينى . وهكذا يستطيع الإنسان أن يواصل ذكر هذه المفارقات . لقد كان هومر يراعى الدقة فى سرد للروايات القديمة كما كان يعهدها ، غير أنها كانت تروى عن طبقة من الغزاة كان يفصلهم فاصل ضخم عن حياة رعاياهم الذين كانوا أرقى منهم حضارة ، ولو أن هؤلاء الغزاة لم يقضوا فجأة على هذه الحياة المتحضرة بل ولم يحدثوا فيها تغييراً خطيراً .

متى جاء الآخيون ؟ ربما تضمن وضع السؤال على هذه الصورة تبسيطا يجاوز الحد . لقد دمر مغيرون أتوا بكل تأكيد من وراء البحر كنوسوس حوالى سنة ١٤٠٠ . وتذكر كتابات المصريين المعاصرة أن جماعة الاخيواشى (Akhaiwoshi) قد أشاعوا الاضطراب فى جزر البحر كما أغاروا على الشواطىء المصرية . وإسمهم قريب إلى حد كبير من الآخيين (Akhaivoi,) الهوميريين وهو ما يجعل من الأثنين شيئا واحداً مؤكداً . وبعد ذلك بقليل نسمع من مصادر حيثية عن مغيرين فى آسيا يقودهم رجل يثير اسمه الشبهة فى أنه مثل أتريوس . ولقد كان والد أجا ممنون يسمى أتريوس ، ولا حاجة بنا إلى محاولة إثبات أنهما رجل واحد . فأتريوس الذى نعرفه كان ملك موكيناى وهو ابن بيلوبس Pelops الذى أضفى اسمه على البيلوبونيز (جزيرة البيلوبس) وقد لا يكون محتملا جداً أن هذا الشخص كان يطارد الحيثيين فى آسيا الصغرى . وبيلوبس هو اسم أغريقى معناه (ذو الوجه الأحمر) وقد جاء من ليديا فى آسيا الصغرى ولذلك فربما كان أتريوس الآخر من نفس العائلة .

كل هذا يوحى بوجود اضطرابات واسعة فى أواخر القرن الخامس عشر والقرن الرابع عشر يتزعمها قوم إسمهم الآخيون . فإذا كان من الممكن

أن نعتمد على تواريخ الأنساب فإننا نجد أن بيلوبس عبر بحر إيجه وتزوج من الأسرة المالكة بأليس قرب أوليبيا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، لأن حفيده الأكبر أجا ممنون قاد الآخيين المتحدين إلى طروادة فى وقت مبكر فى أوائل القرن الثانى عشر (وتشير الروايات القديمة إلى حدوث ذلك سنة ١١٩٤) . وفضلا عن ذلك فقد قامت أسرات حاكمة آخية أخرى فى القرن الثالث عشر بالذات إن كان لنا أن نثق فى تواريخ الأنساب .

غير أنها سقطت جميعا وانتهى العصر الموكينى الآخذ فى الاضمحلال فى آخر القرن الثانى عشر . وقد جاء غزاة آخرون هم الدوريون من الشمال الأوسط لبلاد الأغريق ولكنهم لم يكونوا فى هذه المرة مغامرين منتصرين يستولون على ممالك صغيرة أو ينهبونها بل كانوا سيلا مدمرا من الناس قضوا قضاء مفاجئا على حضارة طويلة وبدأوا عصرا مظلما بلغ ثلاثة قرون من الفوضى أخذت بعدها بلاد الأغريق الكلاسية فى الظهور . وقد اتخذ الايونيون (فيما عدا الأثينيين) ملجأ لهم عبر البحر . وقد اقتصر اسم « آخيا » على السهل الضيق المحاذى للساحل الجنوبى لخليج كورنثا . وقد اندمج الآخيون ذوو الشعر البنى كما اندمج الدوريون أيضا ذوو الشعر البنى، إذا صح أن لون شعرهم كان كذلك ، مع الجنس ذى الشعر الداكن الذى تخرجه بلاد الأغريق . وهذا يشبه إلى حد بعيد ما حدث للكلتيين Celts ذوى الشعر الأشقر الذين أصبحوا فرنسيين ذوى شعور داكنة .

قبل مائة عام كان هذا العصر المظلم دامس الظلام لولا شعلة هومر الوهاجة المفاجئة التى لا يمكن تعليلها ، وكان العصر الكلاسى الذى تلاه هو أول ازدهار رائع معجز للحضارة والفن فى أوربا ، إذ خفت قليلا وطأة الظلام لأننا نستطيع أن نتتبع من خلاله فنون الخزاف وصانع المعادن .

وقد تقدم بالفعل هذا الفن الأخير وشجعه ادخال الحديد فى الصناعة ، وطلاء الفخار ، ومع أنه فقد رشاقة العصر السابق وحريته وابتكاره إلا أنه أنتج فى القرن التاسع(١) الأصص الآثينية الفاخرة وهى مزينة بنماذج هندسية مثل أقدم الفخار المينوى ، ولو أننا نجد كذلك موضوعا يغلب على الفن لم يكن شائعا فى كريت وهو الصورة الإنسانية . فنجد مواضيع مثل المحاربين وعرباتهم ومناظر جنائزيه ورجالا يجدفون فى سفينة حربية وصوراً لأشخاص مرسومة طبقا للطراز السائد، وفيها خطوط رفيعة تشير إلى الأذرع والأرجل وبقعة مستديرة تشير إلى الرأس ومثلث يشير إلى الجذع ، وأسلوبها الفنى بدائى ولكنه موفق جدا فى الرسم العام ، ويدل (كما فى حالة الأصص الموكينية) على شغفهم بالإنسان واهتمامهم به وبأدواته الزخرفية اهتماما يعتبر من خصائصهم .

لقد كانت نظرتنا نظرة عامة ولم تكن بحكم الضرورة شاملة ولكنها أوضحت نقطة هامة هى أن فن الإغريق الكلاسى لم يكن خلقاً جديداً كل الجدة بل كان نهضة، ومع ذلك فقد كانت نهضة فى أحوال مختلفة جداً ولها طابع مختلف جداً. فقد أدخلت بعض الإضافات على الفن السابق كما أدى الاضطراب الذى فرغنا من وصفه إلى امتزاج ، إلى وجود شعب جديد له مواهب كلا أبويه ، وقد ألمحت ، وربما فى شىء من التسرع ، إلى أن لدينا على ذلك دلائل تظهر فى الاهتمام الذى أبداه الرساموں الموكينيون أولا ثم الأثينيون بعدهم بمختلف أوجه النشاط الإنسانى . وهذا الاهتمام بالإنسان هو بالفعل أحد الخصائص المسيطرة على الفكر الإغريقى ، ولكن لا مانع من نظرة أعمق أ أن عظمة الفن الإغريقى ، ودعنا نستعمل الكلمة بأوسع معنى لها ، أساسها أنه يوفق توفيقاً تاماً بين مبدأين كثيراً ما كانا متعارضين . فهو يوفق من

---

(١) من الطراز الديبولى نسبة إلى كلمة ديبولوس dipulos (ذو البابين)

جهة بين التحكم والوضوح والجد والرصانة الجوهرية وبين الفخامة والخيال والعاطفة من جهة أخرى . والفن الاغريق الكلاسى بأكمله يتسم بهذه الصفة الفكرية التى تتجلى إلى حد بعيد فيما فى تركيبه من يقين ومنطق . إن مذهب استخدام التفكير المنطق فى الفن يدل على نوع من الأجداب والأمحال ، ولكن الفن الأغريق ســواء فى ذلك البارثنون أو أية مسرحية بقلم ايسخولوس Aeschylus أو أية محاورة أفلاطونية أو قطعة فنية من الفخار أو الصورة الزيتية التى عليها أو أية نبذة صعبة التحليل من ثوكوديديس ، فيه مع كل التفكير المنطق نشاط غامر وعاطفة فياضة يرجع السبب الحقيق فيهما إلى وجود رقابة ذكية عليهما .

ولو أننا قارنا فن بلاد الأغريق الكلاسية بالفن المينوى أو بفن جزر بحر أيجه لوجدنا بينهما اختلافا عظيم الدلالة . فإن أفضل الفن المينوى فيه كل الصفات التى يمكن أن توجد فى الفن فيما عدا هذه النزعة الفكرية المنطقية الطاغية . فمن الصعب أن نتصور وجود مهندسين من الأغريق يطالعوننا ببناء فى تصميمه الهندسى فوضى واضطراب مثلما نجد فى قصر كنوسوس ، ولو كان ذلك بمحض الصدفة أو حتى تحت التهديد بعقوبة الأعدام . لقد كسب الفن الأغريق جانبا من أعظم انتصاراته فى أشق الفنون وأعظمها جدية ألا وهو نحت التماثيل الكبيرة ، ولا يمكن أن يكون من المصادفات أننا لم نعثر فى وقتنا الحالى على أى تمثال مينوى فيما عدا قطع فنية صغيرة . صحيح بطبيعة الحال أن كل فن جدير بهذا الأسم يجب أن يكون جديا وقائما على التفكير ، ورغم ذلك فمن الممكن أن ننسب هاتين الصفتين بمعنى من المعانى للفن الأغريق لا للفن المينوى ، كما أننا نستخدم صفة فخم وضاء وحساس ورشيق ومرح بالنسبة للفن المينوى ، غير أننا لا نصفه بالتفكير المنطق .

وإذا شئنا أن نرجع إلى أصل أسلوب التفكير المنطق الذى يسرى فى فن

الأغريق الكلاسي فعلينا أن نتجه إلى الهيلينيين . ولن يكون ذلك منا دون دليل . ذلك أنهم عندما نزلوا من الجبال الشمالية لم يأتوا معهم بفن ، وإنما الذى جاءوا به كان (لغة) بالفعل . ونحن نجد فى اللغة الأغريقية — فى تركيبها نفسه — ذلك الوضوح والتحكم فى التركيب الذى نشاهده قبل كل شيء فى فن الأغريق الكلاسى ، ولانجده فى الفن الذى سبقه . فاللغة الأغريقية أولا مثلها كمثل اللغة اللاتينية التى تمت لها بصلة القربى تتغير نهايات كلماتها تبعا للأفراد والجمع والتذكير والتأنيث ، كما أن ترتيب الكلمات فى الجمل عظيم الاتقان والدقة . وكلما استطاع الإنسان أن يرجع إلى عهود أقدم فى تاريخ اللغة وجد التغييرات التى تطرأ على أواخر الكلمات أكثر اتقانا ووجد ترتيب الكلمات فى الجمل أدق بطرق شتى ، فترتيب الكلمات فى الجمل أكثر تغيراً وأقل جموداً فى اللغة الأغريقية منه فى اللاتينية . وسرعان ما يكتشف طالب الآداب الكلاسية ذلك لشدة ابتهاجه أو حزنه تبعا لمزاجه . وعلى ذلك فمن طبيعة اللغة الأغريقية التعبير بدقة متناهية لاعن العلاقة التى توجد بين الأفكار فحسب بل عن العلاقة التى بين ظلال المعانى والعواطف كذلك ؛ غير أن ما هو أقرب لموضوعنا الحالى هو إحدى نتائج ذلك إن لم تكن هى السبب فيه بالفعل ألا وهى الأسلوب البلاغى . فى اللغتين الأغريقية واللاتينية إذا تصادف أن كان الأسلوب مركبا وفيه فكرة رئيسية أو أكثر مصحوبة بأى عـــدد من الأفكار التفسيرية أو الوصفية ، فإن من الممكن ذكر ذلك بوضوح تام فى جملة واحدة بل هذا ما يحدث فى العادة . ومعنى هذا أن كلتا اللغتين تمتازان بفن هندسى فى تركيبهما . غير أن بينهما اختلافا له دلالة ، فالرومان يبدو أنهم اكتسبوا الأسلوب البلاغى بمحض التصميم والشجاعة أما الأغريق ، فقد فطروا عليه . وليس فى اللغة الأغريقية طرق أكثر فحسب للانتقال بسهولة إلى الجمل الفرعية — فمثلا يوجد للفعل الأغريقى العادى عشرة من أسماء الفاعل والمفعول (إن

كان إحصائى لها صحيحاً) على حين أن الأفعال اللاتينية العادية لها ثلاثة فقط — بل إن اللغة الأغريقية مشحونة بكلمات صغيرة كحروف العطف وأدوات الوصل تستعمل أزواجاً كما تستعمل جماعات ، وتنحصر مهمتها فى أن تجعل المعنى واضحاً ، فهى على حد قول القائل معالم للطريق. ولابد أن تكون قد مرت بالقارىء التجربة المتعبة الآتية : وهى قراءة جملة انجليزية بصوت عال ثم خفضه عند نقطة معينة اعتقاداً منه أن الجملة على وشك الانتهاء ، ولكنه فى اللحظة الحرجة لايجد نقطة الوقف بل شولة فقط ، مما يرغمه على أن يستعيد قراءة كلمة أو كلمتين ويرفع صوته من جديد ويستمر فى القراءة ؛ غير أن هذا لا يمكن أن يحدث فى اللغة الاغريقية لأن الكاتب الأغريقى يكون قد وضع فى البداية كلمة مثل « تى te » أرانى مضطراً لكتابتها وهى تشير إلى أن الجملة تشتمل على الأقل على قسمين متماثلين بحيث أن الثانى وما يليه أضافة بسيطة للأول ، أو مثل كلمة « من men » وهى تعنى نفس ما ذكرناه إلا أن القسم الثانى وما يليه ليس فى هذه المرة أستمراراً للقسم الأول بل عكسه . وهذا طبعاً ممكن فى اللغة الانجليزية فالجملة الإنجليزية يمكن أن تبدأ بقولك « بينما نجد من جهة أن ... »

ولكن اللغة الأغريقية تؤدى ذلك بحكم الفطرة دائماً وبطريقة أسهل بكثير . وليس لدينا فعلا أى نماذج من المحادثات الأغريقية القديمة غير أن هناك نبذاً وردت عند كتاب المسرحيات وأفلاطون Plato يجتهد فيها الكاتب فى تصوير تأثير الحديث المرتجل ، وليس من النادر أن نجد فيها أسلوباً بلاغياً متقناً لدرجة معقولة ، وحتى إذا لم نجده فأننا نجد دائماً فى الجملة ترتيباً واضحاً وضوحاً تاماً وخالياً من الغموض كما لو كان المتكلم رأى تصميماً هندسياً لفكرته وبالتالى وعلى وجه السرعة لجملته قبل أن يبدأ فى صياغتها بالكلمات. أن طبيعة اللغة الأغريقية هى أن تكون مضبوطة دقيقة واضحة.

فعدم الدقة والافتقار إلى الوضوح فى التعبير وهما اللذان تنحدر (١) إليهما اللغة الإنجليزية أحياناً وتتخلص منهما اللغة الألمانية أحياناً ، أمران غريبان تماماً عن اللغة الأغريقية . ولست أريد أن أقول إن من المحال أن يكون الحديث هراء فى الأغريقة ، فهذا ممكن جداً ، غير أن حقيقة كونه هراء تبدو واضحة فى الحال . وليس عيب اللغة الأغريقية هو الغموض وقلة الوضوح بل هو لون من ألوان الوضوح الزائف فى الأبانة الشديدة عن فروق لا وجود لها .

أن عقل أى شعب قد يفصح عنه تركيب لغته بطريقة مباشرة أكثر من أى شىء آخر من صنع يده ، ولكننا نجد فى كل عمل أغريقى هذا الفهم الراسخ للفكرة والتعبير عنها بشكل واضح موجز ، كما نجد مع هذا الوضوح ومتانة البناء والجد والرصانة حساسية مرهفة ورشاقة لا تنفد . وهذا هو سر ما يسمى بالمعجزة الأغريقية . وأنا لنجد تعليل ذلك أو تعليل جزء هام منه فى انصهار الحضارات معاً أن لم يكن فى اندماج الشعوب كذلك.

---

(١) عندما أقول اللغة الإنجليزية أنا لا أقصد لغة الإداريين والسياسيين أصحاب الشأن الذين يكتبون خطابات الى جريدة «التيمس» . أن عدم الدقة يمكن أن تكون الصفة الرئيسية لهذه اللغة لولا تظاهرها المتعمد بالفخامة وحبها الصبيانى للاستعارات السخيفة .

البـــــلاد

ربما كان هذا هو المكان الذى علينا أن ندرس فيه جغرافية بلاد الأغريق دراسة موجزة . فما هى طبيعة البلاد التى اجتذبت هذه الجماعات المتتاليه من أهل الشمال الجفاة كما أجتذبت أحيانا جماعات من أهل الشرق وماذا فعلت من أجلهم . ؟

سنجعل معرفة التضاريس العامة لبلاد الأغريق ميسورة للقارىء . إنها بلاد ذات جبال من الحجر الجيرى ، ووديان ضيقة وخلجان طويلة وأنهار قليله وجزر كثيرة ، هى القمم التى بقيت من سلاسل الجبال الغارقه كما توحى بذلك على الفور أية نظرة إلى الخريطة . وهناك قليل من السهول التى ليست بواسعة ولكنها هامة للغاية بالنسبة لاقتصاديات البلاد وتاريخها ، وبعضها سهول ساحلية مثل سهل آخيا الضيق الخصب الذى يسير بحذاء الساحل الجنوبى للخليج . وهناك خلجان أخرى بالداخل مثل سهل لا كيدايمون Lacedaemon (إسبرطه) الذى تكاد الجبال تحجزة كله عن البحر ومثل سهلا تساليا Thessaly وبويوتيا أما سهل بويوتيا Boeotia فهو كثير العشب[1] بصفة خاصة وذوجو ملبد بالغيوم . وقد إعتاد الاثينيون وهم أذكى من جيرانهم أن يدعو هؤلاء بالخنزير البويوتى .

وبلاد الأغريق تمتاز بالتنوع العظيم فكل من ظروف أقليم البحر

(١) اسم بويوتيا معناه « أرض البقر » وليس ببلاد الأغريق أجزاء كثيرة بها مراع صالحة للابقار .

المتوسط وأقاليم مادون الألب تبعد عن بعضها البعض أميالا قليلة ، وسطح البلاد يتفاوت مابين سهول خصبة ومناطق جبلية وعره . وكم من مجتمع من البحارة والتجار والمغامرين كان جيرانهم فى داخلية البلاد من المشتغلين بالزراعة الذين ما يكادون يعرفون البحر والتجارة بتاتا فهم من المحافظين المتمسكين بالتقاليد كالقمح والماشية . أن المتناقضات فى بلاد الأغريق فى وقتنا هذا قد تكون مذهلة ، فى أثينا وبيريه تجد أ وكنت تجد قبل الحرب مدينة أوروبية كبيرة حديثة فيها الترام وسيارات الركوب وسيارات الأجرة والطائرات التى تصل كل بضع ساعات والميناء الذى يزهو بالسفن الذاهبة إلى كل مكان ـ إلى إيجينا Aegina عبر الخليج أو إلى الساحل الشرقى أو الغربى أو التى تخترق القنال أو المتجهة إلى الإسكندرية أو إلى ثغور أوربا الرئيسية أو إلى الأمريكتين. ولكنك تستطيع أن تشق طريقك فى ساعات قليلة إلى أجزاء من بلاد الأغريق الوسطى أو البلوبونيز حيث الطرق لمسافة أميال عبارة عن دروب للفرسان . أما العربة الوحيدة ذات العجلات فهى عربة اليد ذات العجلة الواحدة . وقد ذهبت فى كلاماتا إلى مطحن عصرى كبير للدقيق كان ينقل القمح إليه مباشرة بواسطة تفريغ الهواء من عنابر البضائع فى السفن التى حملته . وقبل ذلك بيومين وعلى بعد أقل من عشرين ميلا كنت قد رأيت دراس القمح على طريقة « العهد القديم » بواسطة الخيل والبغال التى تجرى حول جرن دائرى فى ركن من أركان الحقل ، كما رأيت ذراية تجرى فى نفس البقعة بوساطة الريح التى لا تقف عن الهبوب أبداً . وربما لم تكن المتناقضات عظيمة جداً هكذا فى العصور القديمة ولكنها كانت مع ذلك تلفت النظر ، فالتنوع يواجهنا فى كل مكان وهو حقيقة لها مغزى كبير .

ومما كان له أهمية عظيمة لنمو الثقافة الأغريقية أن أكثر الدويلات كان لكل منها رقعة ضيقة من سهل خصب ومرعى جبلى وسفوح مغطاة بالغابات وقمم جبال قاحلة كما كان لها ممر إلى البحر فى حالات كثيرة . لم تكن هناك

برمنجهام (الصناعية) أو ولتشير أو أى مجتمع له أسلوب واحد فى الحياة فكانت الوحدة أقل حتى مما كانت فى انجلترا فى العصور الوسطى ، فالدويلات التى نعتقد إنها كانت تجارية أو صناعية أكثر من غيرها مثل كورنثا وأثينا كانت زراعية على الأقل كما كانت تجارية . إن ازدهار الحياة المدنية فى أثينا فى القرن الخامس يجعلنا ننسى بسهولة زائدة أن أكثر المواطنين الآثينيين كانوا فلاحين قبل كل شيء . ويتضح من كوميديات ارستوفانيس Aristophanes ان أثينا ظلت مدينة ريفية إلى حد بعيد كما أن ثوكوديديس يقول بكل جلاء إن أصحاب الأرض فى أتيكا كانوا مقيمين بها حتى دفعتهم الحرب البيلوبونيزية إلى الانتقال إلى المدينة طلبا للأمن . ولقد كانت الغزوات الاسبرطية هى التى حولتهم إلى سكان للمدن .

وإذا صدق هذا على أثينا فإنه يصدق أكثر على الدويلات الاغريقية الأخرى فقد كانت المدينة والريف مترابطتين فيما عدا الأجزاء البعيدة مثل اركاديا Arcadia وبلاد الاغريق الغربية التى لم يكن بها مدن بالمرة . وعندما نمت واتسعت حياة المدن كانت تشعر دائماً بما وراءها من الريف والجبالوالبحر كما كانت الحياة الريفية على علم بعادات المدن ، وقد شجع هذا على اتخاذ نظرة سليمة متزنة ولم تعرف بلاد الأغريق الكلاسيهبتاتاً الركود والاستسلام اللذين يتصف بهما العقل فى سهول الاستبس كما عرفت قليلا جداً من حماقات غوغاء المدن التى تتسم بقصر النظر .

ولما كان هناك مثل هذا التنوع فى تربة الدويلات الاغريقية ومناخها فقد كانت مكتفية اكتفاء ذاتياً بشكل معقول ، وكانت تستطيع أن تتمتع بحياة متزنة ومجتمع متحد . وقد تعلمنا فى السنين الأخيرة أن نستعمل كلمة أوتاركيا أو أوتاركى Autarky بالأغريقية ومعناها الاكتفاء الذاتى ، غير أن ذلك كان فى مناسبات أشد كآبة من الوقت الحالى ، وقد كان هذا الاكتفاء عند الأغريق جزءاً جوهرياً من فكرة الدولة كما سنرى فيما بعد

وقد مكنته أحوال بلاد الأغريق الطبيعية من تحقيق ذلك . وقد كانت هناك نتيجة أخرى هامة للتنوع الدائم فى هذا العالم الأغريق الصغير ، فمع أن أكثر الدويلات كانت تستطيع أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتياً بشكل معقول بفضل اختلاف نسب الارتفاع عن سطح البحر فقد كان لكثير منها محاصيلها الخاصة مثل زيتون أتيكا ورخام ميلوس Melos ونبيذ جزيرة باريثوس Peparethus ، وقد شجع هذا على نشاط التجارة وعلى الاتصال المستمر . وقد كانت المواصلات البحرية فضلا عن ذلك آمنة كما كانت سهلة إلا فى الشتاء . ويمكننا كذلك أن نضع موضع الاعتبار حقيقة أخرى ذات أهمية حاسمة وهى أن بلاد الإغريق تواجه الجنوب الشرقى بوجه عام . فالجبال تسير فى هذا الاتجاه ولذلك فالوديان والثغور تواجهه . وسلاسل الجزر التى تعتبر استمراراً لسلاسل الجبال ترشد المسافر فى سفينة صغيرة دون أية بوصلة إلى آسيا ومصر فى أمان تام وهما موطنا مدنيات أقدم وأعرق . وقد ترتب على ذلك أن بلاد الأغريق كانت فى عصر ما قبل التاريخ مفتوحة بشكل مغر للتجار وغيرهم من كريت ثم من فينيقيا بعد ذلك ، بينما أخذت الطرق البحرية فى العصور التاريخية تنقل الهيلينيين الذين كانوا هم أنفسهم قد عشقوا البحر وبرعوا فيه إلى بلاد أقدم من بلادهم . وبمقارنتها بإيطاليا يتجلى الاختلاف وتتضح هذه النقطة : إن جبال الأبنين تقع بالقرب من الساحل الشرقى وتتجه الأنهار والوديان لذلك نحو الغرب وتقع السهول الخصبة والثغور على الساحل الغربى . وفى شرق إيطاليا تقع التضاريس الساحلية وهى أبعد ما تكون عن السماح لأحد بالالتجاء إليها . ولذلك جاءت الحضارة متأخرة إلى إيطاليا ، والنفوذ المينوى لم يكن عظيما بها . وعندما أنشأ الأغريق مستعمرات لهم هناك اتخذوا طريقهم حول الساحل الجنوبى ثم شمالا نحو الغرب . والاختلافات العظيمة بين حضارة الأغريق والرومان لا بد أنها ترجع بدرجة عظيمة

إلى الحقيقة القائلة إن اللاتين على عكس الهيلينيين لم يجدوا الثقافة القديمة الخاصة بجنوب شرق البحر الأبيض المتوسط وطيدة في شبه الجزيرة الذى فتحوه . فقد كانت جبال الأبنين تكون حاجزاً لا يسهل اختراقه . وهناك وجه آخر من أوجه التضاد يتبادر إلى الذهن وهو الموجود بين مجموعة جزر بحرإيجه وجزر الهبريديس . فالاختلاف في المناخ والخصوبة بين الإثنين واضح وضوحاً كافياً غير أن هناك أيضاً ما يأتى : أن محاصيل إحدى جزر الهبريديس تشبه إلى حد بعيد محاصيل أية جزيرة أخرى بها كما تشبه محاصيل الجزء الرئيسى من البلاد أيضاً . فكانت التجارة بناء على ذلك ضئيلة حينما كانت الظروف بدائية . ولم تكن هناك أوجه اختلاف حادة تعمل على توسيع آفاق العقل . وفضلا عن ذلك فإن الطرق البحرية كانت تؤدى لا إلى فينيقيا أو مصر بل إلى الجزء الرئيسى من البلاد الذى لم يكن يختلف عنها إلا اختلافاً يسيراً أو إلى شمال الأطلنطى وفيه إما أن يغرق الإنسان أو يعود من رحلته كما بدأ دون أن يزداد علماً وحكمة .

ويعتبر المناخ عاملا آخر له أهميته وهو ملائم جداً على العموم وثابت منتظم . وتعتبر بلاد الأغريق في الحقيقة إحدى البلاد التى لها مناخ خاص لا التى بها مجرد أحوال جوية . فالشتاء قارص على الجبال ، أما فيما عداها فهو معتدل مشمس . والصيف فيها يبتدىء مبكراً وحاراً ولكن حرارته ليست منهكة للقوى إلا في السهول لأن الجو جاف ، كما أن التغير اليومى في نسيم البر والبحر يلطف الحرارة ولا يكاد المطر يعرف في الصيف .

أما أواخر الشتاء والخريف فهما فصلان مطيران . وبين الكتابات الطبية الأغريقية المنسوبة إلى ابقراط رسالة قصيرة عنوانها « الأهوية والمياه والأماكن » ، وهى تعطينا فكرة كئيبة عن المناخ الأغريقى . فالكاتب المجهول يخبرنا أنه إذا كان تعرض أى مكان للعوامل الجوية جنوبياً شرقياً إلى جنوبى غربى بحيث يكون مكشوفاً أمام الرياح الساخنة ومحجوباً عن الشمال ، فإن المياه تكون ساخنة في الصيف باردة في الشتاء

ومملؤة بالأملاح لأنها تكون قريبة من السطح . أما السكان فإنهم معرضون للإصابات اللمفاوية وبالتالى إلى متاعب سوء الهضم ، وهم لذلك مقلون فى تناول الطعام والشراب . أما النساء فتسوء صحتهن ويتعرضن للإجهاض ويصاب الأطفال بالتشنجات والربو والشلل ويتعرض الرجال للدوسنطاريا والإسهال وحمى البرداء والحميات المزمنة والأجزيما والبواسير . وبعد سن الخمسين تصيبهم الأخلاط النازلة من الرأس بالشلل . ومع ذلك فقلما يصابون بالالتهاب البلورى وذات الرئة وقليل من الأمراض الأخرى . فإذا كان اتجاه المكان الذى أنت فيه شماليا كانت شكواك من عكس تلك الأوجاع كأن الماء يكون عسراً فتسوء صحتك وتكون نحيفاً قوياً وتأكل كثيراً وتشرب قليلا ، إذ أن من المحال أن تكون أكولا ومدمناً على الشراب فى نفس الوقت ، وكذلك تكون عرضة للالتهاب البلورى والتمزقات الباطنية . وتكون الولادة عسرة . أما تربية الأطفال فيبدو أنها من رابع المستحيلات . وأحسن الأمكنة ما كان شرقى الاتجاه أما الغربى فهو أسوأها جميعاً .

هذه صورة ليست بهيجة ولكن الكتب الطبية مفزعة على الدوام . وعلى كل حال فمن الواضح أن هذا الكاتب تحت قبعته نحله ، فهو ليس بأحسن مثال للعالم الأغريقى .

دعنا نأخذ دليلا من نوع مختلف . هاك أسماء أشخاص من قرن حديث أذكرها اعتباطاً : هايدن وموزار وبتهوفن وجيته وشوبرت ومندلسون وورد زورث وكولريدج وكيتس وشيلى . وهذه الأسماء من قرن أغريقى تصلح للمقارنة : أيسخيلوس وسوفوكليس Sophocles ويوربيديس Euripides وأريستوفانيس Aristophanes وسقراط Socrates وأفلاطون وأيسوكراتيس Isocrates وجورجياس Gorgias وبروتاجوراس Protagoras وكسينوفون . إن تاريخ وفاة أفراد القائمة الأولى على التوالى هو : ٧٧ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٨٠ ، ٦٢ ، ٢٦ ، ٣٠ وهو فى القائمة الثانية ٧١ ، ٩١ ، ٧٨ ، على

الأقل ٦٠ ، ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ٩٥ (؟) وحوالى ٧٠ ، ٧٩ . لقد مات شيلى غرقاً بطبيعة الحال ولكن (يبدو) أن وفاة أخليس ويوريبديس كانت مصادفة ، وقد أعدم سقراط ومات بروتا جوراس حين تحطمت السفينة التى ركبها وكان شعراء المآسى الثلاثة عاملين وفى ذورة عبقريتهم عند وفاتهم (وهو مالا يقوله أحد عن ورد زورث) ، وقد أدرك الموت أفلاطون وهو يكتب القوانين ، وإذا تمعن أى إنسان مهتم بالموضوع فى كتاب « حياة الفلاسفة » الذى ألفـــه ديوجينيس لارتيوس وهو كتاب ممتع جداً فإنه يندهش من الصورة العامة التى وردت به عن طول العمر . ومن الواضح أن بعض التواريخ خرافية فلن يصدق أحد أن أمبيدوكليس عاش حقاً إلى سن ١٥٠ ، غير أنه لا يكاد يكون شخصية تاريخية بأى حال . وليس هناك من داع للشك فى دقة أكثر الأرقام المذكورة . فن الواضح جداً أن بلاد الأغريق كانت ملائمة لا لطول العمر فحسب بل للنشاط المتواصل أيضاً . وإلى جانب سوفوكليس الذى كان يؤلف كتابه الرائع أوديب الكولونى Oedipus Coloneus وهو فى سن ٩٠ يمكننا أن نضع صورة « أجيسلاوس » Agesilaus ملك أسبرطة وهو مشترك فى الحرب فى الميدان فى سن الثمانين بصفة جدية لا قائم بإدارة المعارك فحسب . ويبدو أن الشيخوخة المتلئة بالحيوية كانت شائعة فى بلاد الأغريق أكثر مما هى فى أى بلد حديث حتى العصور الحديثة على الأقل . ولاشك أن طريقة الحياة الصحيحة والغذاء كان لهما علاقة كبيرة بذلك . وبلاد الأغريق فقيرة حالياً ولكنها كانت أغنى من ذلك بلا ريب فى العصر القديم فقد كانت تمد عدداً أكبر من السكان بالطعام وإن كان ذلك دون ترف أو إسراف . ويستطيع سائق البغال الأغريق أن يداوم المسير أياماً على رغيف من الخبز وقليل من الزيتون . وقد كان سلفه الذى عاش فى العصور الكلاسية مقتصداً مثله تماماً ، فقد كان طعامه المعتاد من الشعير والزيتون وقليل من النبيذ ، والسمك بصفته طعاماً حسن المذاق ، واللحم فى أيام الأعياد

الهامة ، وكما قال زيمرن Zimmern : لقد كانت وجبة الغذاء الرئيسية فى أتيكا تتكون من لونين من الطعام أولهما نوع من الثريد وثانيهما نوع من الثريد . لقد كان طعامهم شحيحاً ولو أن حفلات الشراب كانت تتخلله بصورة مناسبة ، ولكنه مع حياة الأغريق العادى النشيطة خارج البيت قد أنتج جنساً قوياً من الناس .

لماذا كانت بلاد الأغريق فقيرة هكذا ؟ إن أردنا أن نحظى بالإجابة الرصينة على الأقل على هذا السؤال يمكننا أن نلتفت إلى وصف أتيكا الذى كتبه أفلاطون فى كريتياس (Critias) وهو وصف شيق جداً يقول فيه «إنها مجرد هيكل لما كانت عليه فى الماضى ، لأنها تبرز من الجزء الرئيسى من البلاد إلى البحر مسافة كبيرة مثل الصخرة العالية ، — وهذا بالفعل معنى اسم «أتيكا» ، والبحر من حولها عميق كله ، وأثناء هذه التسعة آلاف من السنين(١) هبت كثير من العواصف العنيفة ، غير أن التربة التى جرفتها من الأقاليم العالية لم تكون أى سهل رسوبى يستحق الذكر كما حدث لجهات أخرى ، ولكنها تلاشت فى كل مكان وضاعت فى قاع البحر . ولو أننا قارنا مابقى منها الآن كذلك الذى يوجد فى الجزر الصغيرة بما كان موجوداً عندئذ لرأيناه أشبه بعظام الجسد الذى أنهكه السقم فقد زالت التربة الخصبة تاركة هيكل الأرض فحسب ، أما قبل أن تزول التربة فقد كانت هناك تلال عالية بدلا من الجبال العارية والسهل الذى يطلق عليه الآن اسم فيليوس (Phelleus)(٢) كانت تغطيه تربة سميكة خصبة وكانت هناك غابات عظيمة فوق الجبال لازلنا نرى الدلائل على وجودها . أما الآن فهناك جبال لايقتات منها إلا النحل ، ولكن لم تمض مدة طويلة على العهد الذى كانت تقطع منها الأخشاب لعمل سقوف أعظم المنشآت ، وما زالت أخشاب

(١) يجب ألا نتشدد فى أخذها بمعناها الحرفى فقد كان أفلاطون مغرما بنوع من الغموض الرياضى .

(٢) معناه (الصخرى) .

هذه السقوف سليمة متينة . وقد كانت هناك فضلا عن ذلك أشجار عالية مزروعة بكثرة ، كما كانت الجبال مرعى لقطعان لا تحصى ولا تعد » .

وهذا هو السبب بلاريب فى وجود الفرق المذهل بين الطعام الهوميرى وطعام الإغريق الكلاسيين . ففى كل مئتين أو ثلاثمائة بيت من الشعر عند هومر كان الأبطال يأكلون ثوراً . أما أكلهم السمك فكان يدل على الحرمان الشديد . على حين أن أكل السمك فى العصور الكلاسية كان يعتبر من دلائل الترف ، أما أكل اللحوم فقد كان مجهولا .

لقد ذكر أفلاطون العواصف . فالمناخ الأغريقى له نواحيه الدرامية المثيرة . فقد كان زيوس إله السماء سريع الغضب وكان بوسيدون الذى يهز الأرض هزاً سواء بواسطة الأمواج أو الزلازل مخلوقاً مخيفاً . ويصف هزيود ثانى شعراء الأغريق الأقدمين فى الخلود كيف أوقع هرقل كيكنوس (Cycnus) العملاق فيقول أنه وقع كما تقع شجرة البلوط أو الصخرة الناتئة حينما تقصمها صاعقة زيوس ذات الدخان . وقد رأى مؤلف الكتاب طرفاً من أعمال زيوس المهتاج ، فقد كنت أشق طريق مصعداً فى أحد وديان أركاديا الذى كثر نبته بدرجة تكاد لاتحتمل . فوصلت فجأة إلى قطعة من الأرض تمتد إثنى عشر فداناً على وجه التقريب كانت تتناثر عليها صخور مستديرة كبيرة أو صغيرة بحيث لم يكن يرى منها سطح الأرض . فكانت تبدو كأنها شاطىء البحر الصخرى . وكان فى وسطها منزل مدفون إلى منتصفه فى الحطام . وقد كانت هناك مزرعة قبل ذلك بيومين ، غير أن عاصفة هبت عليها من فوق جبل ترتوفانو Tourlovano على بعد أميال كانت هذه نتيجتها . ولاريب أنها تحولت بعد ذلك بعامين إلى مزرعة مرة ثانية ، فإن الفلاح الأغريقى المجد يعرف طريقة العلاج الوحيد ضد زيوس .

ولم يكن هزيود نفسه عظيم الحب لمناخ الجهة التى ولد فيها . ولما كنا قد أعطينا مناخ بلاد الأغريق شيئاً كبيراً من الأهمية حتى الآن فإن من العدل

أن نستمع من جهة أخرى إلى من يعتبر حجة ممتازة فى الموضوع مثله . لقد كان هزيود Hesiod يكره حر الصيف المرهق كما كان يكره الشتاء — « شهر لينايون بأيامه المشئومة التى تهرأ جلد الماشية حين يغطى الصقيع سطح الأرض ، وهو الذى يظهر فيحزن الناس كلما هبت من الشمال الشرقى فى تراقيا أنفاس الرياح على البحر الواسع وأثارت ثائرته وأخذت الأرض والغابة تهدران بصوت مرتفع . وكم من شجرة من أشـــجار البلوط ذات الورق الأخضر الكثيف العالى أومن أشجار الصنوبر العاتية فى أودية الجبل قد جعلها هبوب الريح تهوى إلى الأرض التى تفيض بالخير . وتدوى الغابة التى لا تحصى أشجارها دوياً عالياً كما ترتعد الحيوانات البرية وتضع أذيالها بين أرجلها ، حتى الحيوانات وهى التى يكسو الشعر جلودها . أجل إن الريح بأنفاسها الباردة تنفذحتى فى هؤلاء رغم أن الشعر الأشعث يغطى صدورها . فهى تنفذ من خلال جلد الثور السميك لأنه لا يعوقها كما تنفذ فى الجدى ذى الشعر الخفيف . ولكن صولة بورياس Boreas لا تستطيع بأية وسيلة أن تنفذ فى الخراف بسبب صوفها الغزير ، ولكنها تحنى ظهر الرجل الشيخ » . وكان هزيود يكره أربعاً من الرياح الثمانى أما الأربع الأخرى فجنس الآلهة هو الذى كان يرسلها ، وهى نقمة عظمى على الجنس البشرى الذى قدر عليه الموت ، ولكنها رياح عارضة تهب على البحر من حين لحين وتجتاح البحر الذى يخيم عليه الضباب . إنها نقمة كبرى على البشر الذين كتب عليهم الموت فهى تثير العواصف المشئومة المتنوعة التى تهب فى مختلف الأوقات وتشتت السفن وتهلك الملاحين ولا يجد الذين يجابهون هذه الرياح فوق البحر من دفاع ضد هذا البلاء . كما أن العواصف التى تهب فوق الأرض الفسيحة المغطاة بالأزهار تدمر أعمال الناس الصالحة وتملأها بالتراب وتشيع فيها الاضطراب المحزن .

ولكن هزيود كان فلاحاً من أسكرا Ascra عاصمة بويوتيا وهى مكان كئيب بالقرب من هليكون Helicon كما أنه كريه فى الشتاء وصعب فى الصيف

إذ لم يكن حسناً يوماً ما . وما ينبغي أن يكتب الإنسان هكذا عن وطنه حتى ولو كان أبوه قد نزح إليه من آسيا الصغرى وذكر لهزيود مالا يحصى من المرات بلاريب كم كانت الحياة في آسيا أفضل .

ونحن على ثقة من أنه لو كان قد قابله أحد الآثينيين لقال له أنه يستحق مثل هذه الحياة في بويوتيا . أما في أثينا فقد كانوا يقيمون في الهواء الطلق أول مهرجان درامي في العام في فبراير حين كان ينتهي الفصل المطير ولو أن موسم ركوب البحر لا يكون عندئذ قد بدأ . وقد كان لذلك هذا المهرجان عائلياً بسيطاً إذا قورن بمهرجان « ديونوسيا المدينة » الفخم في أوائل أبريل حين كانوا ينتظرون وفود الزوار من كل مدينة في بلاد الأغريق . ومن الواضح أن أثينا كانت تنعم بمناخ أفضل من ذلك الذي وصفه هزيود ، ولكننا سبق أن قلنا إن بلاد الأغريق هي أساساً بلاد المتناقضات .

إن من الواجب علينا ألا نترك موضوع مناخ بلاد الأغريق دون أن نعني بتأثيره على الحياة الأغريقية ولا سيما على الحياة الآثينية .

فهو أولا قد ساعد الأغريق على أن يكتفي بقليل جداً من المعدات ، فالإنسان يستطيع في بلاد الأغريق أن يحيا حياة جادة نشيطة على طعام أقل بكثير مما هو ضروري في الأجواء التي تعتبر أقسى من جو بلاده . كما أن هناك حقيقة عظمى هي أن الرجل الأغريقي كان يمكنه أن يقضي أكثر ساعات فراغه خارج البيت ، بل هذا ما كان يعمله بالفعل . وهذا يعني وحده أنه كان لديه فراغ أكثر . فهو لم يكن في حاجة للعمل لشراء الأرائك والفحم الحجري . ولعل السبب في أننا معشر الإنجليز قد ابتكرنا عبارة « الراحة الإنجليزية » يرجع إلى أننا لا يمكننا أن ننعم بالراحة والدفء إلا ونحن في البيوت . والناس عموماً يعزون الفراغ الذي كان يتمتع به الأغريق إلى وجود الرقيق ، ولا شك أن للرقيق(١) صلة بذلك غير أنها لم تكن في أهمية

(١) أنظر بعده في الفصل السابع

الحقيقة التي تقرر أن الأغريق كان يستغني عن ثلاثة أرباع الأشياء التي نشقى نحن من أجلها .

وهكذا كان يستطيع الأغريقي الذي يعيش في المدينة أو القرية والذي كان يقضي خارج البيت الفراغ الذي اكتسبه إلى حد بعيد بالاستغناء عن أشياء نراها نحن ضرورية أو نظنها كذلك — أن يشحذ ذكاءه ويرقي آدابه عن طريق الاتصال المستمر بزملائه ، وقليل من الناس يحبون أن يعاشروا الناس مثل هذه المعاشرة الكاملة . وقد كان الكلام بالنسبة للأغريقي هو أنفاس الحياة وهو لا يزال كذلك بالفعل لولا أن اشتغاله الخطير بقراءة الصحف قد أفسده نوعاً ما . فأي مجتمع عدا مجتمع أثينا كان يستطيع أن يخرج لنا شخصية مثل سقراط — ذلك الرجل الذي غير مجرى التفكير البشري دون أن يكتب كلمة واحدة أو يدعو إلى مذهب بل بمجرد حديثه في طرقات بلدة لم يغادرها قط إلا مرتين إلى ميدان القتال ؟ وفي أي مجتمع آخر يشعر الإنسان مثل هذا الشعور بهذا الفارق الضئيل بين المتعلمين وغير المتعلمين وبين أهل الذوق والرعاع ؟ لقد كان الأثيني كما كان كثير من الأغريق يتلقون التربية والتعليم الحقيقي في أماكن الاجتماع في أوقات الحديث وهم في السوق أو في الرواق أو في الملعب أو في المجتمع السياسي أو في المسرح أو عند التلاوات العامة لهومر أو في المواكب الدينية والاحتفالات . ولعل أكبر نعمة أنعم بها مناخ آتيكا عليها هو أن مجتمعاتها العظمى كان يمكن أن تعقد في الهواء الطلق . ومهما كانت غرائز الأغريقي ديمقراطية فما كان من الممكن أن تنمو الديمقراطية الأثينية أو تتطور المسرحيات الأثينية تبعاً لذلك لو أن السقوف والجدران كانت ضرورية للاجتماع . وفي مثل ظروفنا الخاصة بالمسكن وأماكن الخلوة وأجور الدخول يجب أن تكون حياة الأثرياء أوفر إمكانيات من حياة الفقراء كما يجب أن يكون لستمائة عضو فقط حق تناول مهمة شئون الأمة . أما في أثينا

فكان من الممكن أن تكون كل هذه الأشياء مباحة للجميع لأنها كانت مكشوفة للشمس والهواء . إن تعليل الثقافة الآثينية بأنها وليدة المناخ الآثيني فقط يعتبر تعليلا سخيفاً ولو أنه تعليل عصرى ومع ذلك فمن الممكن أن نثبت بالدليل أنها ما كانت تنمو هكذا فى مناخ مختلف .

من الممكن جداً أن نختتم نظرتنا إلى الظروف الطبيعية التى عاش فيها الأغريق وهى النظرة التى استطردنا فيها من موضوع إلى آخر ، ببعض الملاحظات عن موارد البلاد الطبيعية وطبيعة اقتصادها فى ظروفها البدائية .

إن أربعة أخماس بلاد الأغريق قاحلة اليوم ، أما فى العصور القديمة ، كما سبق أن رأينا ، فقد كانت منحدرات الجبال تكسوها الغابات الكثيفة وهى مصدر غنى للخشب والصيد الكبير والصغير . ومن حقنا أن نستنتج أن سقوط الأمطار كان أشد وأن مصابيه كانت أقل ولذلك كانت هناك مراع أكثر وأحسن مما هناك اليوم . ويبدو واضحاً من الأدلة المتاحة لنا وبخاصة هومر وهزيود أن بلاد الأغريق كانت مكتفية اكتفاء ذاتياً بالفعل بالنسبة للسلع الأولية . وفضلا عن المحاصيل الزراعية فقد كان هناك حجر البناء بكثرة كما كان هناك صلصال جيد لصانعى القدور . وقد كان الزيتون محصولا هاماً إذ ذاك كما هو الآن . فكان يمدهم بالزيت للطهو وإشعال المصابيح وبما كان يقابل الصابون فى الزمن القديم . وكان الكرم يزرع بكثرة أيضاً .

لقد كانت بلاد الأغريق فقيرة فى المعادن ، فكان الذهب والفضة والرصاص والنحاس كلها موجودة ولكن فى غير كثرة طائلة . ولم يكن هناك حديد بالمرة . وفضلا عن ذلك لم يكن هناك فحم حجرى . وأظن أن المؤرخين الاجتماعيين لم يدرسوا دراسة كافية الحقيقة البسيطة القائلة إن أية حضارة قديمة لم يكن لديها فحم حجرى . إن العسل بديل يغنى عن السكر والنبيذ الوافر له أثر يعوضنا على الأقل عن عدم وجود الشاى

والقهوة ، ويمكن الإنسان أن يستغنى عن التبغ بفرض أنه لا يعرف أن التبغ موجود ، ولكن ما الذى يمكن أن يحل محل الفحم الحجرى ؟ الجواب هو أن الفحم الحجرى باعتباره مجرد مصدر للدفء والنور يمكن استبداله بشمس البحر الأبيض وبالخشب . ويصلح الفحم النباتى للطهو بصورة ممتازة . ولكن لم يكن هناك بديل مرض عن الفحم الحجرى باعتباره مصدراً للقوة إلا عمل الأرقاء ، وهو من الوجهة الميكانيكية تبديد فى استخدام القوة كما أنه مضر لغير ذلك من الأسباب .

ويمكننا أن نعرف شيئاً من هومر وهزيود عن الحياة الاقتصادية فى هذا العصر المظلم . فمن الواضح أن الزراعة كانت تمارس بذكاء عظيم . وقد كانت زراعة الكرم بصفة خاصة مفهومة حق الفهم ولو لم تكن بالأمر الهين . ويعطينا هومر فى الأوديسا خلال وصفه لمدينة الفياكيانس Phaeacians صورة لبساتين وحدائق اعتنى بها كل العناية وهى خصبة جداً وحسنة التنسيق فيقول :

إنك ترى قرب الممشى غابة جميلة من أشجار الحور مقدسة للآلهة أثينا Athena وفى وسطها ينبوع يفيض ماؤه وتحيطها المراعى من جميع الجهات .

وهناك متنزه أبى الملكى كما أنه يمتلك حديقة الخضر على مرمى البصر من المدينة . إجلس هناك وانتظر قليلا حتى ندخل البلدة ونصل إلى بيت أبى وعندما تظن أننا قضينا من الوقت ما فيه الكفاية أدخل المدينة واسأل عن قصر أبى الملك الكينوس Alcinous فمن السهل التعرف عليه فأى غلام صغير يستطيع أن يريك إياه ، لأن بيوت من عداه من الناس ليست من طراز يشبه قصر الملك « الكينوس » فإذا مررت من الفناء إلى داخل المبانى فامش بسرعة فى البهو الكبير حتى تصل إلى أمى التى تجلس بصفة عامة فى النور إلى جانب نار المدفأة وتنسج الخيوط المصبوغة باللون الأرجوانى ، فيرى لها صورة بهيجة وهى متكئة فى مقعدها إلى أحد الأعمدة ووصيفاتها جالسات

خلفها وعرش أبى قريب منها وهو يجلس هناك يحتسى الخمر كأنه إله(١) .

هكذا كانت إرشادات الأميرة لأودوسيوس الذى تحطمت سفينته حتى إذا وصل إلى القصر كان هذا ما شاهده :

كان هناك بستان واسع خارج الفناء مساحته أربعة أفدنة وهو يمتد إلى الأبواب الخارجية وله سور من الشجيرات على كلا الجانبين . وكانت فيه أشجار باسقة خضراء كأشجار الكمثرى والرمان والتفاح المثقلة بالثمار اللامعة الملساء والتين الحلو المذاق والزيتون الوفير . وأثماره لا تنقطع ولا تمتنع فى الصيف ولا فى الشتاء على السواء . وهى توجد فى كل فصول السنة وليس هناك وقت لا تعاون فيه أنفاس الرياح الغربية أكمام الزهر والثمار الناضجة هنا وهناك حتى بلغت الشجرة تلو الأخرى من أشجار الكمثرى والتفاح والتين والعنقود تلو الآخر من عناقيد العنب أوج الكمال . وكان فى البستان ذاته كرم مثمر وكانت فى جزء منه قطعة دافئة من الأرض المستوية يجفف فيها بعض العنب فى الشمس بينما يجمع البعض الآخر ويوطأ تحت الأقدام . وتتدلى من الصفوف الأمامية عناقيد لم تنضج بعد أخذت تخرج أزهارها أو تبدى أول لون بنفسجى خفيف . ووراء أبعد صف نسقت أحواض الخضر من مختلف الأنواع فأصبحت تكون رقعة يانعة من اللون الأخضر المتصل ويسقى الحديقة ينبوعان تخرج من أحدهما الجداول لكل أجزاء الحديقة بينما يجرى الآخر فى الجانب المقابل تحت الباب الخارجى للفناء بعد أن يزود مروى الأهالى بالماء متجهاً إلى البيت نفسه(٢) .

هناك ظل من أرض الأساطير والجنيات يطوف بأرض الفيا كيانس على أن هومر مهما بالغ فى رسم صورة البستان فمن الواضح أنها صورة شىء

---

(١) من الأوديسا — النشيد ٦ .

(٢) من الأوديسا — النشيد ٧ .

رآه . ونحن نسمع عن كرمة أخرى فى آخر كتاب من الأوديسا ولكن لا يكتنفها أى سحر هناك . فبعد أن قتل أودوسيوس Odysseus (العشاق أو الأدعياء) خرج يبحث عن أبيه الشيخ الذى هاجر من المدينة يائساً .

وفيما هو سائر فى طريقه نحو الحديقة العظيمة لم يعثر بالمصادفة على دوليس Dolius أو أحد من العبيد أو أبناء دوليس الذين كان قد تقدمهم هذا الشيخ الكبير لجمع الأحجار اللازمة لجدار الكرمة . وهكذا وجد أباه وحيداً على أرض الكرمة يحفر الأرض حول أحد النباتات وكان يلبس رداء قذراً مرقعاً مزرياً وزوجاً من أغطية القدم الجلدية المخيطة المربوطة حول ساقيه لتقيهما الخدوش كما كان يلبس قفازات لتقى يديه من الأشواك . وكيما يزيد الطين بلة ويؤكد شقوته كان يلبس فوق رأسه قبعة من جلد الماعز(١) .

إننا ننتقل فى الأوديسا بين العظماء ونرى الملوك يعيشون فى ممتلكاتهم ولو أن ملك إيثاكا Ithaca كان أقرب شبهاً بأمير إقطاعى منه بملك فهو يعين العمال الأجراء والأرقاء ولكنه لا يترفع عن أن يعمل فى الأرض بنفسه . فإن لارتيس Laertes يعرف كيف يحفر حول الكرم وأودوسيوس نفسه يفخر بأنه يستطيع أن يشق خطاً مستقيما بالمحراث مثل أى رجل آخر . ونحن نقابل عنـــد هزيود المزارع الصغير الذى يفلح الأرض بنفسه مع أولاده أو مع أحد العبيد إن استطاع الحصول عليه كما يفلحها أحياناً مع الأجراء . ولقد كانت قطعة الأرض التى يملكها سواء كانت صغيرة أو كبيرة مكتفية اكتفاء ذاتياً . وكان التدبير المنزلى هو القاعدة فقد رأينا « أريتيا » ملكة الفياكيانس تنسج على ضوء النار على حين أن « بنيلوبى Penelope » ملكة إيثاكا ربما كانت أشهر الناسجات ومعها الملاءة الكبيرة التى كانت تفك منها بالليل ما نسجته بالنهار .

---

(١) الأوديسا النشيد ٢٤ .

وكان يضم بيت الـكينوس الرفيع العماد خمسين خادمة يطحن بعضهن قمحاً لونه كلون التفاح الذهبى فى طاحون اليد وتنسج بعضهن على المنسج أو يجلسن لغزل الخيوط وأيديهن تتحرك بسرعة مثل أوراق الحور العالية بينما يقطر زيت الزيتون الناعم من الأقمشة التى ضمت خيوطها أثناء النسيج ضماً وثيقاً والتى انتهوا من صنعها(١) .

أما من كانت حياتهم أقل شأناً من الـكينوس فقد كانت جميع ثيابهم وكافة الأقمشة المستعملة فى منازلهم من صنع نساء الأسرة . وربما كان ذلك بمساعدة إحدى الخادمات إن كانت الأسرة ميسورة الحال نوعاً ما ، بينما كانت أكثر أدوات المزرعة تصنع فى نفس المزرعة .

ونحن نسمع عن صناعتين فقط من صناعات التخصص يشتغل بهما صانع المعادن والخزاف وهما « من الصناع demiourgoi » أى من الذين يشتغلون لصالح الشعب فلا يستهلكون نتاج جهودهم و « الديميورجوس » هو الصانع وهو « الخالق » عند أفلاطون ومنها كلمة « ديميورج » الواردة فى قصيدة شيلى المسماه « بروميثيوس وقد فكت قيوده » . ومن الشائق أن نلاحظ أن هاتين الصناعتين هما وحدهما اللتان لهما فى الإغريقية ممثلان من الآلهة هما هيفايستوس Hephaestus أو (فلكان) صانع المعادن وبروميثيوس Prometheus وهو أيضاً إله من آلهة النار ولكنه فى عبادة أتيكا إله الخزافين . ولم يكن هناك إله لصناعة الأحذية أو للزراعة أو للبناء . ومن الواضح أن كل إنسان يعرف كيف يصنع هذه الأشياء ، أما بالنسبة للصناعة المعدنية المتقنة أو لصناعة قطعة رشيقة من الخزف فقد كان الأمر مختلفاً كل الاختلاف . « لعمرى كيف تصنع ؟ » ، لابد أن إلهاً قد صنعها « وقد صنع هيفايستوس الذى ورد ذكره فى قصة آريس Ares وأفروديتا Aphrodite الشائنة الممتعة التى حكاها هومر فى النشيد الثامن من

(١) الأوديسا النشيد ٧ .

الأوديسا شبكة من الحديد المطروق خفيفة كنسيج العنكبوت ودقيقة حتى لم يكن يستطيع رؤيتها الآلهة المنعمون ثم ادعى أنه مسافر إلى ليمنوس Lemnos فقال لها آريس « تعالى يا حبيبتى فقد ذهب زوجك إلى ليمنوس لزيارة أصدقائه البرابرة من السنتيانيين ، فجاءته أفروديتا ولكن الشبكة نزلت وأطبقت عليهما بشدة وهما راقدان حتى لم يستطع أحد منهما تحريك أى طرف من أطرافه . ونادى هيفايستوس وهو فى ثورة غضبه الآلهة الآخرين الذين جاءوا ليروا ما أصابه من سوء ، فلما رأوا حيلة هيفايستوس البارعة لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك . فالتفت أبوللون بن زيوس إلى هرميس وقال : « هرميس يا ابن زيوس ، هل كان الأمر يستحق ذلك ؟ فقال القاتل الجبار لغرض فى نفسه » : نعم إنى أود أن أستبدل مكانه بمكانى فى هذه اللحظة .

غير أن الصلة بين هذا وبين الاقتصاد الإغريقى القديم قد تكون بعيدة إلى حد ما .

ولم يكن الإغريق تجاراً فى تلك العهود القديمة ، فأدوات الترف التى كانت توجد بوفرة فى بيوت الأغنياء كانت تأتى من الشرق فى سفن فينيقية تحمل الرقيق إليهم كذلك ، ومنهم يومايوس Eumaeus راعى خنازير أودوسيوس المخلص إذ كان أبوه ملكا فى Suria « سوريا(١) » البعيدة عن صقلية ، وكان للملك جارية من صيدا كان قد اشتراها من قراصنة جزيرة تافوس(٢) الأشرار الذين كانوا قد خطفوها عنوة ، وفى ذات يوم جاءت إلى سوريا سفينة فينيقية تحمل سلعاً من الكماليات فغازل أحد بحارتها فتاة صيدا هذه وسمع قصتها واقترح عليها أن تعود معهم لأنه كان يعرف أن أبويها

---

(١) إحدى جزر السكوكلاديس فى بحر إيجه .

(٢) جزيرة تافوس ، تسمى اليوم ميجانيزى Meganizi ، وتقع قبالة ساحل أكارنانيا غرب بلاد اليونان .

على قيد الحياة وأنهما كانا من الأثرياء ، فوافقت الفتاة بالطبع وحسنت الخطة باقتراحها أن تحمل معها ابن الملك وهو ولد صغير ذكى كان فى رعايتها إذ كان يمكن بيعه بثمن حسن فوافق الفينيق على ذلك وظلت السفينة سنة فى سوريا وهم يبيعون الكماليات ويتزودون ببضائع أخرى من الماشية والجلود والمعدن الخام والنبيذ وهى الصادرات العادية ، فلما استعدوا للإبحار حمل الفينيق اللئيم إلى بيت الملك عقداً من العنبر ، وبينما كانت الملكة وغيرها من السيدات يفحصنه ويساومن فى ثمنه تسللت الجارية التى من صيدا بالطفل فى الشوارع المظلمة ولم ينكشف الأمر حتى كانوا جميعاً فى عرض البحر ، وقد نالت الفتاة جزاءها لأنها وقعت فى عنبر البضائع جثة هامدة ثم رفعت منه إلى سطح السفينة وألقيت فى البحر . وقد أبحرت السفينة إلى إيثاكا حيث بيع الطفل إلى لاأرتيس Laertes والد أودسيوس الذى رباه هو وانتكليا Anticleia كما لو كان ولدهما حتى كبر فأعطى رداء وعباءة جميلة وجعل مشرفاً على المزرعة من قبل الملك . كان هذا جانباً من تجارة البحر الأبيض المتوسط لا فى هذا العصر المظلم فحسب بل فى كل عصر آخر لم تكن فيه حكومة قوية تستطيع المحافظة على الأمن فى الشواطىء ومراقبة البحار .

وقد كانت التجارة الدولية إذ ذاك فى أيدى فينيقية ، وقد ظل الفينيقيون محتفظين بها فى أجزاء معينة من البحر الأبيض المتوسط حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد لأن قرطاجة كانت مستعمرة فينيقية ومن هنا جاء إسم الحروب الفينيقية (التى خاضتها قرطاجة) وقد نجح القرطاجيون فى إبعاد التجار الإغريق عن المثلث الذى يتكون من طرف صقلية الغربى ومضيق جبل طارق والطرف الشرقى للبرانس ، ولكن لنعد إلى العصر القديم حين كان الإغريق مشتغلين بالفعل بالتجارة الساحلية . إن هزيود فى قصيدة « الأعمال والأيام » يتكفل بإعطاء معلومات عن فصول السنة التى تستطيع فيها أن تبدأ الملاحة وتلك التى يجب عليك أن تكف فيها عن ذلك إن كنت

من الحق والجشع بحيث تحب ركوب البحر ، فقد كان رأى هزيود هو أن الملاحة وجمع الثروة عن طريق التجارة ليس أمراً طبيعياً ، لأن هزيود كان فلاحاً معتاداً على نظام الطبيعة الرتيب وطرقها البطيئة وعلى الثروة الحقيقية التي يمكن استخلاصها من الطبيعة . أما الثروة التي تجمع من التجارة فقد كانت أمراً مشكوكا فيه وتلازمها الأخطار من كل الأنواع : « أبتعد عن البحر المرير » هذه كانت نصيحة هزيود ، ومع ذلك فإننا نجد في الأوديسا — ربما في شكلها الأول — صورة مدينة من الواضح أنها إغريقية وهي ميناء حسن .

إن مدينتنا محوطة بقلاع ذات أسوار عالية ولها ميناء ممتاز على كلا جانبيها ويصل إليها الناس بوساطة طريق مرصوف عال ترفع السفن إليه ، ولكل صاحب سفينة منزلق لسفينته . وهنا مكان اجتماع الناس مشيد على كل جانب من معبد بوسيدون Poseidon الجميل بكتل من الحجر المأخوذ من المحاجر وهي مثبتة في الأرض إلى عمق كبير . وكذلك يعني البحارة هنا بحبال السفن السوداء وقلاعها وبتسوية مجاذيفها لأن فياكيانس لا يستخدمون القوس والنشاب بل يبذلون نشاطهم على ساريات السفن ومجاذيفها ويحبون أن يبحروا في السفينة الرشيقة عبر البحار التي انتثر عليها الزبد(١) .

من الواضح أن هومر Homer كان قد رأى مثل هذه المدينة الإغريقية ، غير أننا نستطيع أن نستنتج أنه لم تكن هناك مدن كثيرة مثلها وإلا لما فكر في أن يصف هذه المدينة بمثل هذه الدقة التي تسترعي الملاحظة ، كما أن فن الملاحة كما كان يمارسه فياكيانس على الأقل ما كان يمكن أن يكون محوطا بمثل هـذا السحر ، فبينما نقرأ في نبذة « أنهم يثقون في السفن السريعة التي تحملهم عبر البحار الواسعة لأن بوسيدون قد جعلهم شعباً ملاحياً وسفنهم هذه سريعة كالطير أو كالفكر نفسه » ، نجد في نبذة أخرى ملكهم

(١) الأوديسا — نبذة ٦ — ناوسيكا Nausicaa تتكلم .

يقول « لأن فياكيانس ليس لهم بحارة يمسكون الدفة أو مجاذيف تدفع السفينة كالتي في السفن الأخرى . إن سفننا تعرف بالسليقة ماذا يجول في ذهن بحارتها وتشير عليهم بعمله . فهي تعرف كل مدينة وكل أرض خصبة وهي تجرى وسط الضباب والسحاب في البحر اللانهائي دون أن تخاف التلف أو يجول بخاطرها أن تتحطم !! . »

لقد كان هومر إغريقياً من الأيونيين فهل من السخف أن نفترض أن إحدى المدن الأيونية التي بزت غيرها في الجرأة قد سبقت غيرها بمراحل في فن بناء السفن والملاحة وتركتها مندهشة ؟ أن الأوديسة تزخر بذكر البحر إذ كان العهد العظيم للاستعمار الإغريقي قد اقترب ولكن مازال علينا أن ننتظر مجيء هزيود الفلاح المنيد وتقويمه عن أعمال السنة ونصيحته « اذهب إلى البحر إن كنت مضطراً على أن يكون ذلك من منتصف يونيو إلى سبتمبر فقط ولو أنك تكون أحمق حتى إذ ذاك » وهي تذكرنا بأن هناك أكثر من نوع واحد من الإغريق وأن التعميم بالنسبة لهم أمر خطير .

هومر

إن أول الشعراء الأوربيين وأعظمهم يستحق أن نكرس له فصلا بالتأكيد سواء كان ذلك من أجل هومر ذاته الذى نستطيع أن نرى فيه كل الصفات التى يمتاز بها الفن الإغريقى أو بسبب التأثير الذى كان لقصائده على أجيال متعددة من الإغريق .

إنى أعتزم أن أذكر أقل ما يمكن عن المشكلة الهومرية المشهورة : من هو هومر ؟ وما مقدار ما كتبه من الألياذة والأوديسا ؟ ويمكننا أن نرى مبلغ غموض ما توارثه الإغريق من روايات Hellanicus عن حقيقته من أن هيلانيكوس وهو أحد الكتاب الأيونيين القدماء كان ينسب هومر إلى القرن الثانى عشر ، بينما قال هيرودوتوس بأنه عاش فى القرن التاسع أى أنه جاء قبل زمانه بأربعمائة عام على الأكثر . ولاشك أن هيرودوتوس كان مصيباً بشكل جوهرى . لقد افترض هيلانيكوس دون أن تأخذه فى ذلك أية ريبة أن الشاعر الذى وصف القتال فى طرواده بمثل هذا الوضوح لابد أنه قد رآه ، غير أن السؤال الهام ليس : من كان هومر ؟ بل ماذا كان عمله ؟ لقد سميت الألياذة والأوديسة بإنجيل الإغريق . وقد ظلت هاتان القصيدتان قروناً أساس التربية والتعليم الإغريقى ، سواء منه التعليم الرسمى أو ذلك الذى تقوم عليه حياة المواطن العادى الثقافية . فكان المحترفون الذين يتنقلون من بلد إلى آخر يتلون مقتبسات من هومر مصحوبة بالشرح والتعليق . ويرسم لنا أفلاطون صورة واضحة وإن تكن خبيثة بعض الشىء عن أحد هؤلاء المحترفين فى محاورة « أيون » Ion فيقول « لابد أنه شىء رائع يا أيون أن تتنقل هكذا من مكان لآخر وتجتذب حولك جمهوراً كبيراً

من الناس أينما ذهبت وتجعلهم يستمعون إلى كل كلمة تقولها بشوق واهتمام وأنت مرتد أحسن ثيابك . » وحتى تم استبدال هذا الإنجيل بإنجيل آخر كان ذكر اقتباس من هومر هو الطريقة الطبيعية لحسم أية مشكلة فى الأخلاق أوالسلوك . كما كان الاقتباس من هومر فى أية مراسلات دبلوماسية كالاقتباس من كتاب دومزدي (Domesday) الذى كان يحتج بأحكامه لتأييد أى مطلب إقليمى . وقد نشأ عن ذلك نوع من التمسك بالمبادىء التقليدية . فهومر هو مستودع الحكمة والعلم بأكمله . ويسخر أفلاطون من ذلك حين يجعل أيون يدعى أنه مادام خبيراً بهومر فهو خبير بكل شيء . وهكذا يمكن أن تجعله إحدى المدن قائداً لها كذلك لأنه يعرف بطبيعة الحال فن القيادة من هومر . والذى يعتبر أخطر من ذلك شأناً هو أن هومر استأثر بأذهان الإغريق وخيالهم وسيطر عليها جيلا بعد جيل ، سواء كانوا من الفنانين أو المفكرين أو من عامة الناس ، فاتجه الرسامون والشعراء إلى هومر يستلهمونه ويستمدون منه موضوعاتهم الواقعية . وقد قيل أن أسخيلوس تواضع فوصف إنتاجه بأنه « فتات مأدبة هومر » مع أن الدراما الأوربية لا تعرف شخصية أعظم من أسخيلوس . وأخيراً لقد كان ميراث الإغريق المشترك من هومر بعد اللغة الإغريقية ذاتها هو الذى أعطى الإغريق أعظم اعتقاد فى أنهم شعب واحد رغم الاختلافات والسخائم التى فرقتهم . ومن الواضح أننا يجب أن نعرف شيئاً عن هومر الذى يعتبر أول من عبر بوضوح عن الفكر الأوربى . وقد أومض فجأة كأنه علم فى رأسه نار وسط هذا العصر المظلم .

إن أول الإلياذة لايعتبر تعريفاً ضئيلا بهومر . وها نحن أولاء ننقل هنا فى أسلوب من النثر البسيط المشهد الرائع الذى تبدأ به الإلياذه ؛ إنها فقرة كان لابد للرجل الإغريقى العادى أن يحفظها عن ظهر قلب حفظاً يكاد يكون كاملا إن لم يكن كاملا بالفعل . وهى التى اعتاد رجال الحرب من أمثال بريكليس

Pericles والإسكندر ، والشعراء والنحاتون والرسامون والفلاسفة والعلماء والساسة والتجار وملاك الأرض فى الأرياف والصناع أن يطبعوه فى أذهانهم منذ الطفولة : —

أنشدى ياربة الشعر غضبة أخيليس Achilles بن بليوس Peleus تلك الغضبة المدمرة التى جلبت ألواناً من الحزن تعد بالألوف وأطاحت بأرواح أبطال صناديد كثيرين إلى عالم الأموات وتركت أجسادهم طعمة للكلاب والجوارح فتحققت إرادة زيوس . أبدئى حيث بدأ النزاع بين أجا ممنون ملك الناس وأخيليس العظيم .

من هذا الإله الذى أوقع بينهما العداوة ؟ إنه أبولون Apollo بن زيوس وليتو Leto الذى استشاط غضباً من الملك وأرسل وباء فاتكا على الجيش فأخذ الناس يخرون صرعى لأن أجا ممنون بن أتريوس Atreus كان قد عامل كاهنه بازدراء عندما جاء إلى سفن الآخيين السريعة ليدفع فدية ابنته وأحضر مالا يقدر من المال لشرائها واستردادها وكان يحمل على يديه وفوق عصاه المذهبة إكليل أبولون وقد توسل إلى الآخيين جميعاً كما توسل قبل كل شىء إلى قائديهم ولدى أتريوس قائلا :

« ياابنى أتريوس ويا أيها الآخيون الآخرون المدججون بأحسن السلاح عسى أن يهبكم الآلهة الذين يسكنون جبل أوليمبوس فتح مدينة بريام Priam وأخذ أسلابها والعودة إلى أوطانكم منصورين . أطلقوا لى سراح ابنتى فحسب وهاكم الثمن وأظهروا احترامكم لابن زيوس أبولون بعيد الرماية !! .

عند ذلك هتف الآخيون جميعاً : أجل ! احترموا الكاهن وأقبلوا هداياه الفاخرة . لقد هتفوا جميعاً ما عدا أجا ممنون الذى لم يرقه ذلك فطرد خريسيس Chryses بازدراء وقال له بغلظة « لا تدعنى ياسيدى أراك الآن

أو فى أى وقت تتسكع إلى جانب سفننا الجوفاء وإلا فلن تجد لك نصيراً فى صولجانك أو إكليلك المقدس . إنى لن أطلق سراح ابنتك فستدركها الشيخوخة فى بيتى بارجوس التى تبعد بعداً شاسعاً عن بلادها دون أن تنال بغيتك . إنها ستروح وتغدو إلى المنسج كما تأتينى فى فراشى . ابتعد ولا ترد الجواب وإلا فلن تذهب آمناً معافى .

هذا ما قاله فخاف الشيخ الكبير وأطاع وسار حزيناً بحذاء شاطىء البحر المتلاطم . بهذه الطريقة يبدأ أقدم عمل أدبى أوربى سنخاطر بالخوض فيه عن قريب . فلنقطع الترجمة لنقرر نقطة هامة .

إن دخول هومر فى موضوعه مباشرة أو دخوله « فى جوهر الموضوع in medias res » كما قال هوراس يعتبر من النقد الهومرى الذى جرت به العادة ، ويؤخذ كدليل على عبقرية هومر الأدبية وهو بالطبع هكذا . ولكن ربما استطعنا أن نسير فى البحث أكثر قليلا . إن هذا النقد ينطوى على شىء أكثر من حقيقة أن هومر لا يؤلف ملحمة طويلة كثيرة الاستطراد عن حرب طرواده التى استغرقت عشر سنوات كاملة بل يكتفى بجانب واحد منها . وأن شعوره المرهف بحسن السبك ينسق فنه بحيث يستطيع أن يختم قصيدته وموضوعه حتى دون أن يشير إلى طرواده . وهذا التحكم الفطرى فى السبك جدير بالملاحظة فعلا غير أن أصله أجدر بها فهو ليس بالإلهام السعيد ولا هو بمجرد مقدرة فنية . إن أصله أعمق من ذلك فهو يرجع إلى عادة عقلية تعتبر عادة هيلينية وليست هوميرية فقط . فمن الواضح أن هومر كان يستطيع أن يحدد موضوعه بهذه الطريقة ثم يعالجه بطريقة أشبه بالتاريخية بحيث يؤلف قصيدة فيها من الذكاء والسرعة والرشاقة ما تشاء وأن تكن فى جوهرها إخبارية تمثيلية . وهذا مالم يفعله هومر أو أى

شاعر من شعراء الإغريق الكلاسيين(١) . والإلياذه لا تصف حلقة من حلقات الحرب وتلون الوصف بأفكار عابرة عن هذه الناحية أو تلك من نواحي الحياة . بل على النقيض من ذلك قد أخذ الشاعر موضوعه أى هذا الجانب من الحرب كأنه قدر من مادة خام اعتزم أن يجعل منه بناء جديداً كله من تصميمه . وهو لن يكتب عن الحرب بل ولا عن جزء منها وإنما عن الموضوع الذى قرره بوضوح فى بيوت الشعر الخمسة الأولى . والذى يحدد شكل القصيدة ليس أمراً خارجياً مثل الحرب وإنما إدراكه الملىء بالأسى بأن عراكا بين رجلين قد جلب لكثيرين غيرهما(٢) العذاب والموت والعار وهكذا ، تحققت خطة زيوس ، وما معنى هذا ؟ هل معناه أن زيوس قد دبر هذا كله بصفة خاصة لأسباب خاصة به لا يمكن النفاذ إليها ؟ إن الأولى بنا أن نقول العكس أى أنه جزء من خطة عامة وليس بحادث مستقل أى ليس بشىء كان حدوثه بمجرد الصدفة فى هذه المناسبة ، بل هو شىء صادر من طبيعة الأشياء ذاتها ، فهو ليس خاصاً ولكنه عام ، وليس لنا أن نقرر ما إذا كان الذى دفع هومر إلى هذا الإدراك هو تفكيره فى هذه الحلقة من حلقات الحرب أو أن خبرته بالحياة هى التى أدت به إلى هذا الإدراك الذى رأى إذ ذاك أنه يمكن التعبير عنه بوساطة قصة إخيليس .

فالأمر الهام هو أن هذا موضوعه وأن مثل هذا السبب له مثل هذه النتيجة وأن الإلياذه تستمد وحدتها الجوهرية التى تسرى فيها من هذا الموضوع الذى أدركه إدراكا جلياً وليس من مجرد احكام الصناعة الأدبية ، رغم

---

(١) لنى أستخدم هذه العبارة الموجزة كسبا للوقت فليس هناك من شك فى أنه كان هناك كثير من الشعر الإغريقى الغث . فهذا ارستوفانيس Aristophanes مثلا كان دائم السخرية منه . أما ما لدينا الآن منه فهو من أحسنه فقد اختاره بعناية نقاد أكفاء جداً فى العهد الاسكندرى وما بعده .

(٢) أنظر بعده فى موضوع تأليف مسرحية أبا منون الشبيه بهذا .

طول الملحمة البالغ ورغم الإضافات[١] التي زيدت عليها فيما بعد وعلى ذلك فلو أننا تظاهرنا بالعلم لحظة لما كان صحيحاً تماماً أن نقول أن هومر بإغفاله السنوات التسع الأولى من الحرب دخل في صميم موضوعه مباشرة ، بل على العكس إنه بدأ موضوعه من أوله وقال هذا بكل وضوح :

إن الألوف من الرجال البواسل قد قتلوا واطخوا بالعار بسبب عراك وإذا لم ير القارىء سبب العراك فإن إدراكه لفكرة هومر يعتبر ناقصاً جداً . لقد تركنا الكاهن خريسيس يسير حزيناً في طريقه بجانب شاطىء البحر وقد أخذ يدعو أبولون أن ينتقم له .

هكذا أخذ يدعو فسمعه فويبوس أبوللون ونزل من قمة أولمبوس وهو مغضب محنق وقوسه يتدلى فوق كتفه وكذلك جعبته المحكمة الغطاء وكان كلما تحرك أخذت السهام تقعقع فوق كتفه فقد اشتد غضبه . لقد جاء وهو عابس كالليل ثم جلس على بعد من السفن وأطلق أحد السهام . كانت الضجة التي صدرت من قوسه الفضي رهيبة . وقد أخذ يهاجم قطيع الحيوان والكلاب السريعة أولا ثم صوب حرابه المؤلمة إلى الناس واستمر في إطلاقها حتى أوقدت أكوام كثيرة من الخشب لإحراق جثث الأموات .

وقد ظلت سهام الحرب تسقط تسعة أيام على الجيش فدعا أخيليس العظيم الناس إلى مجلس الشورى في اليوم العاشر وقد أوحت إليه بذلك الآلهة هيرا ذات الأذرع البيضاء لأنها كانت تحس بالقلق على الإغريق وهي تراهم يموتون .

---

(١) وحدة الأوديسا أوضح من ذلك بكثير ولها نفس الطبيعة بالضبط وليس الأمر ناتاً دو أن المادة مرتبة ترتيباً بارعا فحسب ورغم أن تصميم عقدة القصة هو تصميم فائق في الحقيقة . إن النقطة الحقيقية هي أن عقدة القصة دبرت هكذا لكي تؤكد هذه الفكرة وهي أن مخالفة القانون ضد لإرادة الآلهة ويجب أن تعاقب .

ولما انتظم عقدهم وقف أخيليس العداء السريع وقال « يا ابن آتريوس إنى أعتقد أننا سنرغم - إن نجونا من الموت - على العودة إلى وطننا مادامت الحرب والوباء كلاهما قد أخذا فى تمكير صفونا معشر الآخيين فى نفس الوقت . هلموا بنا إلى عراف أو كاهن ، أو قارىء الرؤا نسأله ، فإن زيوس هو الذى يرسل الأحلام ، فلعله يخبرنا عن مبعث غضب فويبوس أبوللون . فإن كان يرانا قد أخطأنا بسبب نذر أو قربان فرطنا فيه فربما نجانا من الوباء مقابل دخان الحملان والماعز التى نضحى بها .

هكذا تكلم أخيليس ثم جلس فقام من بينهم كالخاس Calchas أبرع عراف . إذ كان يعرف ماهو عليه وما كان وما سيكون ، فهو الذى سبق له أن أرشد السفن الآخيه إلى إيليون بفضل العلم السرى الذى لقنه إياه فويبوس أبوللون ولذلك تكلم عن حسن قصد وقال :

« أخيليس ياحبيب زيوس قد أمرتنى أن أفسر غضب الاله أبوللون الذى يرمينا من بعيد ؛ ولذلك سأتكلم : ولكن عليك أن تجعل بينى وبينك ميثاقاً وتقسم يميناً بأنك ستسارع إلى مساعدتى بالقول والعمل لأنى أعتقد أن رجلا سيغضبه قولى ، رجلا له سيطرة عظمى على كل الإغريق كما أن الآخيين يطيعونه كذلك . فحينما يغضب ملك من رجل فقير فإنه يكون أقوى منه بما لا يقاس فهو إن كظم غيظه الآن فإنه يحتفظ به فى قلبه لينفذه فى وقت آخر . قل لى ما إذا كنت ستحمينى .

فتعهد أخيليس بحماية كالخاس Calchas حتى ولو كان الأمير الذى أشار إليــــه هو أجاممنون نفسه . وعند ذلك أعلن كالخاس أن أبوللون غاضب من أجل المعاملة التى لقيها كاهنه من أجاممنون كما صرح بأن الوباء لن يتوقف حتى تعاد الفتاة لأبيها دون أية فدية بل ومعها قربان مكون من قطيع من الماشية . هكذا تكلم ثم جلس وعند ذاك قام فيهم البطل أجاممنون

بن أتريوس صاحب السيطرة الواسعة وهو غاضب وقلبه الأسود يطفح بالحقد كما كانت عيناه كالنار المتأججة ووجه القول إلى كالخاس أولا فنظر إليه نظرة تفيض بالشر وهو يقول « أنت لم تخبرنى عن شىء ســـار قط باعراف السوء ، إنك تفرح دائماً بالتنبؤ بالشر . فإنك لم تقل ولم تفعل شيئاً طيباً قط . وأنت الآن تتحدث إلى الإغريق عما يجول بفكر الاله كأنما أرسل بعيد الرماية هـذه المحن عليهم كيلا آخذ ثمناً مغرياً بدلا من ابنة خريسيس فإنى أود أن أحصل على تلك الفتاة فى بيتى لأنى أجدها أفضل من زوجتى كليتمنسترا Clytemnestra التى اقترنت بها .

إن كليتمنسترا لا تضارعها فى الحسن سواء كان حسن الوجه أو القوام أو الذكاء أو العمل اليدوى . ومع كل ذلك فسأعيدها إن كان هـذا هو الأفضل . فإنى أفضل أن يعيش الجيش على أن يموت . ولـكن أعطونى جائزة أخرى من جوائز الشجاعة لئلا أكون الإغريقى الوحيد الذى لم ينل جائزة ، فإن هذا لا يليق وأنتم جميعاً ترون أنى فقدت جائزتى » .

عند ذلك أجابه أخيليس العداء العظيم « يا ابن آتريوس المشهور ، يا أشد الناس طمعاً ، قل لى بربك كيف يعطيك الآخيون البواسل جائزة؟ إننا جميعاً نعلم أن ليس لدينا مستودع مشترك للثروة فكل الغنائم التى أخذناها من المدن قد وزعت بيننا ولا يصح استردادها من الجيش . أما أنت فعليك أن تسلم هذه الفتاة من أجل الإله ونحن معشر الآخيين سنرد إليك الثمن مضاعفاً ثلاث مرات أو أربع إن سمح لنا زيوس أن نأخذ أسلاب مدينة طروادة » .

فرد عليه أجا ممنون الشديد المراس بقوله « آخيليس يا شبيهاً بالإله إنك وإن تـكن محارباً عظيما فلا تحاول أن تخدعنى هكذا . إنك لن تمتاز على ولن تنال موافقتى . أتريد منى أن أستكين وقد انتزعت منى جائزتى لـكى تحتفظ أنت بجائزتك ؟ أتطلب منى أن أعيد هذه الفتاة ؟ إذن دع الآخيين

البواسل يعطونني جائزة تشرح صدري فتكون مكافأة قيمة بدلا منها ، فإذا لم تعطوني إياها فسآخذها بنفسي — سآخذ جائزتك أو الجائزة التي مع أجاكس أو أوديسيوس وسأذهب بنفسي وآخذها . ويستطيع من أذهب إليه أن يغضب إن شاء ، ولكن يمكننا أن نفكر في هذا في وقت آخر ، أما الآن فإننا سنرسل سفينة سوداء في البحر العظيم وسندعو لها الملاحين ونضع فيها الثيران كما نضع على ظهرها خريسيس الجميلة ، وسنعهد بقيادتها إلى رجل له سلطة ونفوذ مثل أجاكس أو إيدومنيوس أو أوديسيوس العظيم أو أنت يا ابن بليوس يا أكثر الناس إثارة للرعب لكي تقدموا القربان وتهدئوا من حدة بعيد الرماية .

فعبس اخيليس العداء السريع وقال له : « ياشديد الجشع ويا من لا تخجل أبداً ! كيف يرضى الآخيون أن يطيعوا أوامرك لهم بالزحف أو بقتال الناس في الحرب ؟ إن مجيئي إلى هنا للحرب لم يكن أهل طرواده هم السبب فيه فلم يكن بيني وبينهم أي نزاع . فهم لم يطاردوا أبقاري أو خيلي قط ، ولم ينهبوا المحاصيل من حقولي الغنية التي تمدني بالغذاء في فثيا (Phthia) ، فإن بيننا جبالا كثيرة ممتدة الظلال وبحراً واسعاً هادراً ، بل تبعناك يا من لا ضمير لك لنفوز من أهل طرواة بالمجد لمنلاوس ولك أيها الكلب . إنك لا تقدر ذلك وأنت الآن تهددني بالمجيء إلى وأخذ جائزتي . لقد كافحت كفاحاً مريراً من أجلها وقد قدمها إلى الآخيون . فعندما يأخذ الآخيون أسلاب مدينة قد اشتد الدفاع عنها فإن الجائزة التي آخذها لا تكون مثل جائزتك عند ذاك ، فإن ذراعي يكافح في غمار الحرب أكثر من ذراعك ، حتى إذا حان وقت توزيع الجوائز فإنك تأخذ أكثرها ، أما أنا فأذهب إلى سفني مكدوداً من الحرب . وقد حصلت على القليل . ولكني سأسافر إلى فثيا . إنه لأفضل كثيراً لي أن أعود إلى بلدي في سفني التي تمتاز بمقدمها الحاد . إني قليل

الرغبة فى أن أجمع الغنائم والثروة من أجلك ثم تطردنى ركلا بقدمك بعد ذلك » .

فرد أجا ممنون ملك الناس عليه بقوله « اهرب فرحباً بفرارك إن كان هذا ماتريد فإنى لن أرجوك أن تبقى من أجلى . إن عندى غيرك من يجلونني ، وفوق الجميع زيوس الذى يدبر كل شىء . إنى أبغضك أكثر من كافة الملوك الذين يرعاهم زيوس . إنك تحب الكفاح والنزال والحرب ومع أنك رجل قوى فإنى أظن هـــذه القوة هبة من عند الإله . إذهب إلى بلدك بسفنك ورجالك . إجعل لنفسك ماتشاء من الأهمية والسلطة بين محاربيك المتمردين . أنت لا قيمة لك عندى كما إنى أحتقر غضبك . ولكنى أستطيع أن أقول لك ما يأتى : إن فويبوس أبوللون سيأخذ منى خريسيس وسأجعلها ترحل فى سفينتى مع رجالى ، ولكنى سأذهب بنفسى إلى فسطاطك وآخذ جائزتك وهى برسيس Briseis الجميلة ، وستعرف عندئذ أن مقامى أعلى من مقامك ولن يجرؤ شخص آخر على أن يقف منى على قدم المساواة .

هكذا تكلم أجا ممنون غير أن كلامه كان فوق ما يحتمله أخيليس ، وقد تمزقت نياط قلبه فى صدره المغطى بالشعر الأشعث ، وتردد بين أن يستل سيفه المرهف من جواره ويبعد عنه الآخرين جميعاً ثم يقتل ابن أتريوس ، وبين أن يضع حداً لغضبه ويهدىء من نفسه . وبينما كانت تجول هذه الأفكار فى ذهنه أخذ يستل سيفه الكبير من غمده . ولكن أثينا Athena نزلت من السماء فقد أرسلتها الالهة هيرا ذات الأذرع البيضاء بسبب الحب والقلق اللذين كانتا تكنانه له ، فوقفت من خلفه وأمسكت ابن بليوس من شعره البنى بحيث ظهرت له وحده فلم يرها أحد سواه فبهت أخيليس ، وكانت عيناه تقدحان بالشرر وخاطبها بهذا الأسلوب الراقى . لماذا جئت يا ابنة زيوس حامل الدرع ؟ أجئت لتشاهدى عجرفة أجا ممنون بن أتريوس الدنيئة ؟

ولكنى أقولها بصراحة وأعتقد أن هذا ما سيحدث . إن غروره سيكلفه حياته يوماً ما » .

ولكى تنهى الترجمة نقول ان أثينا أخبرته أنها جاءت تطلب إليه أن يهدىء من غضبه وتبلغه أنهما سيقدمان لأخيليس يوماً ما فى مقابل هذه الإساءة ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يأخذه منه أجا ممنون .

وقد أطاع أخيليس بالطبع « لأن هــــذا أفضل » كما قال باختصار . وعادت أثينا إلى أوليمبوس أما أخيليس فقد انفجر غيظه فى أجا ممنون وبدأ كلامه بقوله « أيها السكير الذى له وجه كلب وقلب غزال ! » .

قد ترجمت هذا القدر الكبير لأسباب عديدة أحدها أن يكون لدينا نص نرجع إليه فى المستقبل وثانيها لكى يأخذ القارىء فكرة عن وضوحه كله . لقد تكلمنا وسنتكلم ثانية عن الطابع الفكرى للفن الإغريق وقد كان يحسن لذلك أن نرى القارىء بطريقة فعالة جداً أن هذا لايدل مطلقاً على التجريد أو الأحال . إن العراك بينهما يرى بكل جلاء فلا عجب أن اعتقد هيلانكوس Hellanicos أن هومر كان معاصراً لحرب طرواده . كما أن المظاهر ليست هى التى ترى وحدها بهذا الوضوح . إن العمل الفنى لهــذه النبذه كما يخبرنا هومر هو وصف العراك الذى جلب على الإغريق مثل هذا البلاء الكبير ، طبقاً لــا يدعوه هومر « خطة زيوس » وما ندعوه نحن « النتيجة الحتمية التى تطورت إليها الحوادث » . والسبب هو عجرفة أجا ممنون الدنيئة وغضب إخيليس المدمر فهذا أمر واضح كل الوضوح .

ليس ما يقدمه لنا هومر هما صفتان مجردتان فى حالة صراع ، فنحن نرى رجلين يتعاركان عراكا عنيفاً ، وليس هناك ماهو أكثر واقعية وأقل تجريداً من ذلك . وكما يحدث فى الحياة ، أن هناك ما يمكن أن يقال تأييداً

لكل من الطرفين إلا أن كلا الرجلين يشتطان أكثر مما ينبغي . إن العراك يحتدم لأن كل رجل منهما تصادف أن كان من الصنف الذى هو منه . هذا الأمر قد استغرق لحظة ولكنه أطاح بأرواح أبطال كثيرين إلى عالم الأموات وترك أجسادهم طعمة للكلاب والجوارح ، فتحققت خطة زيوس » .

هذه القدرة على رؤية الحادث المباشر بهذا الجلاء ، والخوف فى نفس الوقت من القانون العام الذى يمثله هذا الحادث ، كلاهما إغريقيان يتميزان بالطابع الإغريقى وإن لم يكونا من خصائص الإغريق وحدهم . إننا نرى جانباً من نظام العالم كله فى حادث واحد . ومع ذلك فمعالجة هذا الحادث تجتمع فيها كل البراعة التى فى أروع خبر صحفى . ولا يحتاج هومر إلى طمس معالم صورته الواضحة بتعميم التعليقات لأن كل تعليقاته قد سبق له أن قدمها فى التصميم الهندسى لبنائه الشامخ كله .

هناك شىء آخر . إن من الملاحظ فى هذه النبذة وفى الفن الإغريقى كله عدم وجود مناظر وراء الصورة . فنحن لا نرى أسوار طروادة السامقة ولا نهر سكامندر وهو يتلألأ من بعيد ولا أين عقد اجتماع الإغريق هذا . أكان فى فسطاط أو على سطح تل أو على الشاطىء بجانب السفن الجوفاء ؟ وكما أن اهتمامنا كله بالنسبة لموضوع تصوير الاصص الإغريقية يتركز فى صور الناس ، فإنه فى حالة المأساة الإغريقية يتركز فى صور الناس كذلك ، فليس هناك أى وجود لنور الشمس ولا للعواصف المرعدة التى يتميز بها فن شيكسبير . وإذا تكلمت إحدى الشخصيات عما حولها من المناظر الطبيعية فذلك لتؤكد أنها فى عزلة تامة عن باقى زملائها . ولو كان فى وسعنا أن نقول أن الإغريق لم يكونوا يحسون بالطبيعة ثم نقف عند هذا الحد لكان الأمر سهلا ميسوراً ولكننا لا نستطيع . فلو اقتصرنا على هومر لوجدنا أن أى إنسان لا يحس بالطبيعة ما كان يستطيع أن يستخدم مثل هذه الثروة من

التشبيهات الطبيعية وكلها دقيقة التفاصيل . وهى تشبيهات مأخوذة من الحيوان والطير والبحر والسماء والعواصف والصور التوضيحية الصغيرة التي تسترجع إلى الذهن ذكريات الزخارف الموجودة فى مخطوطات القرون الوسطى . وليس هناك أى جدال فى أن الإغريق كان يدرك جمال الطبيعة وتنوعها ، وفضلا عن ذلك فليست المناظر التي وراء الصورة الهوميرية هى التى لا وجود لها على العموم ، إذ أن الإلياذه تبدأ كما رأينا دون أدنى إشارة إلى المكان الذى تقع فيه الحوادث ، فلابد أننا فى مكان ما عند طرواده ، ولكن أين ؟ إن هومر لم يبلغ به الاهتمام حداً يجعله يخبرنا عن ذلك ، وهو لا يعطينا تلك التفاصيل التي لا يكاد يستطيع كاتب حديث أن يحذفها ، كالشخصيات الأخرى التي تقف من المشهد موقفاً سلبياً كزعماء الإغريق الآخرين وكالجيش فهو لا يصف إلا الشخصيات الجوهرية .

غير أن القارىء الحديث لا يفتقد فقط المناظر التي وراء الصور الهوميرية التي يتوقع أن يراها بل إنه يجد غيرها مما لا يستطيع فى أول الأمر أن يفهمه وهو الخاص بالعمل الإلهى . فنحن لا نرى أسوار طرواده ولكننا نرى بالفعل مجالس تعقد فى أوليمبس وآلهة يذهب كل منهم على انفراد ليتدخل فى القتال أو فى المناقشة كما فى هذه النبذة ، فلا عجب إن كان الانطباع الذى يتركه ذلك فى الذهن هو أن الشخصيات البشرية القائمة بالعمل ماهى إلا قطع تحركها على رقعة الشطرنج طائفة من آلهة غير مسئولين لهم أهواء متقلبة . غير أن من الصعب التوفيق بين هذا وصورة المسئولين ذوى الإرادة الحرة من الناس ، وهى التى تكبد هومر مشقة تصويرها لنا ، فأجا ممنون واخيليس رجلان قد بلغا أشدهما فعلا ، وهما يعاملان على أنهما قد بلغا مبلغ الرجال ، غير أن هذا الرشد والنضوج مما يحيرنا أحياناً نظراً للهمجية البدائية التى كثيراً ما نقابلها فى الصورة الهوميرية للحياة . ومع ذلك فإن الأمر يسير طبقاً لتدبير إلهى يبدو كأنه تدبير صبيانى ، كما نرى فى نزول أثينا من

أوديبوس فى النبذة التى بين أيدينا وشدها لشعر اخيليس وتقديمها المشورة النافعة له . وعلى هذا المنوال نجد الحال فى فصول المأساة المتأخرة ولو أن الأمر يسير بطريقة تبدو أقل جمالا ووضوحاً بكثير ، إذ يلوح أن الآلهة تتحكم فى أعمال الناس وتهديهم عن طريق العرافين والأحلام وما إلى ذلك حتى عندما يقدم لنا الشاعر هؤلاء الناس على أنهم مستقلون تمام الاستقلال ومسئولون عما يعملون .

إن موضوع ما وراء الصورة الهوميرية موضوع مربك إذن . ومع أن هذا ليس موضعاً للتحقيق فى الديانة الإغريقية فإن علينا أن نقدم للقارىء إيضاحاً مؤقتاً . ليس هومر بطبيعة الحال معرفة منظمة بالله فلم تكن قد وجدت بالفعل أية فكرة عن موضوع التفكير المنظم ، وفضلا عن ذلك فإنه يتصرف بطريقة تقليدية ، إذ لابد أن كتاباً كثيرين من كتاب الملاحم الشعرية قد وجدوا قبل هومر ، بمعنى أن من الممكن أن تكون القصائد التقليدية والقصائد الجديدة موجودة جنباً إلى جنب ، ففى أحد المواضع يقرر زيوس ضرورة معاقبة الإغريق ، ولذلك يستطيع أهل طرواده ردهم إلى سفنهم ، وفى موضع آخر ينزل إله أو الهة وسط ضجة النزاع لينقذ حبيباً فى خطر شديد وقد يحدث هذا على غير رغبة من زيوس . وعلى العكس من ذلك قد نصادف نبذة كتلك التى وردت فى مقدمة الأوديسا التى جعل الشاعر فيها زيوس يقول « ما أحمق الناس ! كم يلومون الآلهة بغير حق . لقد قدر عليهم أن يقاسوا الآلام ولكنهم يجلبون على أنفسهم شقاء أكثر وأشد مما هو مقدر عليهم نظراً لجهلهم ثم يعودون فيلومون الآلهة » ومعنى هذا بلغتنا الحديثة : الحياة شاقة على كل حال غير أن ذنوبنا وأخطاءنا هى التى تجعلها أشق مما يلزم . وليس من السهل التوفيق بين حكمة هذه العبارة الفلسفية الخطيرة وبين تقلب أهواء الآلهة الذى نجده فى النبذ الأخرى ، وأشق من ذلك التوفيق بينها وبين عدم الاحترام الذى يبعث

السرور وهو الذى لقيناه فى قصة أريس وأفروديتا .

ويلوح كل هذا محيراً إلى حد ما . أن المزج بين القديم والجديد مزجاً يعوزه النظام يفسر لنا شيئاً ما . أما بالنسبة لما عداه فقد يساعد القارىء أن يفكر فى الآلهة على أنها محاولة أولية لتعليل حدوث الأشياء لاسيما مايبدو غير عادى منها . فكما رأينا فى الفصل السابق كانت مهارة صانع المعادن فوق مهارة الرجل العادى . وبما أنها غير عادية فإنها ترجع إلى أصل إلهى . ولذلك كان لابد أن يكون هناك إله للنار . ونحن نعلم من النبذة التى اقتبسناها من الإلياذه أن اخيليس كانت له قوة خارقة للعادة ، وهى كما يقول أجاممنون هبة من إله . وهذا التفسير يحمل معه استنتاجاً فلسفياً جداً وإن كنا لانشتط فى الاستنتاج . فما يعطيه إله يمكن أن يأخذه إله آخر . كما أن هناك قوتين تتصارعان فى عقل اخيليس هما الغضب الأعمى وضبط النفس المبنى على الحكمة . وعلى حين أننا قد نقول « بمجهود فوق طاقة البشر من مجهودات ضبط النفس .. » إذا بالإغريق يقول « بمعونة أحد الآلهة .. » كما أن الشاعر الإغريقى أو مصور الأصص قد يصور أثينا بمظهرها الجسدى وهى تنصح اخيليس ، وليس الفرق بين الحالتين كبيراً . إن الحقيقة التى تقرر أن اخيليس يستمد قوته من إله أو يتخذ قراراً حكيما بمساعدة أثينا لا تنتقص قيد شعرة من عظمة اخيليس . فالآلهة لايحابون العاديين من الناس . وهذا الذى يحابونه بالفعل ليس رجلا عادياً . فعلينا ألا نظن أن الآلهة قد التقطت أى مخلوق ضعيف وأمدته بالقوة .

هذه اذن هى المناظر التى وراء الصورة الهوميرية وهى التى تجعلنا نرى الناس والحوادث بارزة لا فى الملاحم الإغريقية وحدها بل فى أغلب أنواع الفن الإغريقى الكلاسى الأخرى كذلك . ولقد انحط الفن بعد ذلك طبعاً إلى جمال أسطورى ، وهو تطور جاء بعد العهد الكلاسى ولكنه خلب لب روما واستهوى القرن الثامن عشر ، مما ترتب عليه أن صار لزاماً على القارىء الحديث قبل أن يحصل على منظر مباشر لهومر أو للأعمال

الأدبية الكلاسية الإغريقية التي جاءت بعده ، أن يطرح جانباً قدراً معيناً من الخزف الفاخر وما إلى ذلك من القطع الفنية الرشيقة . أما عند الإغريق فإن ما وراء الصورة لم يكن يعتبر من قبيل الزخرفة بل كاد يكون نوعاً من أصول فن المنظور لا بالنسبة للمكان بل بالنسبة للمعنى . فهو يجعلنا نرى الحادث المعين الذى نراقبه لا على أنه عمل مستقل عرضى فريد بل نراه على العكس من ذلك فى علاقته بالإطار الخلقى الفلسفى للعالم . وإنى أرى لزاماً على أن أكرر أن هذا الإطار ليس بالذى يفسره هومر عن وعى وإدراك — إذ أنه لم يكن له نظام فلسفى تام ، ومع ذلك فهو يرى أن هناك وحدة فى الأشياء وأن الحوادث لها أسبابها ونتائجها وأن هناك قوانين خلقية .

هذا هو الإطار العام الذى نرى أن العمل الخاص يدخل فيه ، فالأمور الإلهية التى تنطوى عليها الملحمة تدل فى نهاية الأمر على أن الحوادث الخاصة فريدة فى بابها كما أنها عامة فى نفس الوقت .

إذن فالإغريق الذين ظلوا ألف سنة يتجهون لهومر لتثقيف صغارهم ولمتعة الكبار وتعليمهم لم يتجهوا لمجرد تحف وآثار يجلونها أو لقصص تاريخية وطنية من قصص البطولة أو لروايات عن الجنيات ، وإنما اتجهوا لقصائد من الشعر كانت تتصف بكل الصفات التى جعلت الحضارة الإغريقية ما كانت عليه . لقد درسنا مقطوعة أدبية واحدة بشىء من التفصيل ، ولعلنا نكون قد رأينا جانباً من تلك القدرة الفكرية الفطرية التى تنتظم القصيدة كلها فى قوة أو جانباً من الرصانة الجوهرية التى تسرى فيها وكذلك جانباً من البصر النافذ الذى يرى بوساطته هومر حاجته ، وجانباً من الوضوح والإيجاز اللذين عن طريقهما يجعلنا نراها أيضاً . غير أن لهومر ولكل خلفائه العظماء صفة أخرى لم نتكلم عنها إلى الآن ، صفة يجب ألا ندع كل هذا الكلام عن قوة التفكير والخلق الرصين يحجبها عنا . هذه الصفة هى إنسانيته فلندع هومر نفسه يبسطها فهو كاتب أقدر منى .

القتال محتـــدم فى السهل الواقع أسفل طرواده والبطل الإغريق ديوميديس Diomedes ينشر من الدمار بين أهل طرواده ما يجعل هكتور Hector يترك ميدان القتال لـكى يطلب من نساء المدينة أن يصلين لأثينا طالبين مساعدتها ضد هذا الرجل الرهيب . وعندما يدخل هكتور من بوابة سكايا تحيط به فوراً زوجات وبنات مشتاقات لمعرفة أخبار رجالهن الذين فى ساحة الحرب ، ولـكنه يطلب إليهن جميعاً أن يصلين للآلهة ، كما أنه يبلغ الـكثيرات منهن ما يحزنهن . وبينما هو سائر فى طريقه إلى قصر أبيه الملك بريام تراه الملـكة هيكوبا وتسأله بعبارة من عبارات البطولة حقاً « لماذا تركت القتال المستمر وجئتنا يابنى ؟ إن الآخيين نذر الشر يضيقون علينا الخناق تضييقاً شديداً ولعلك تنوى أن تصلى لزيوس . انتظر قليلا فسآتيك بنبيذ حلو حتى تبدأ بتقديمه لزيوس ثم اشرب منه قليلا لأن النبيذ يقوى الرجل المتعب وأنت متعب من دفاعك عن أهلك وعشيرتك » !!

ولـكن هكتور يرفض قائلا « إن النبيذ قد يجعلنى أنسى واجبى كما أنه لا يليق بى أن أقدم قرباناً من النبيذ المقدس ويداى مخضبتان بالدماء » ويطلب من أمه أن تقدم لأثينا أجمل ثوب يحتويه القصر فتقدمه بالفعل ، ويخبرنا هومر عن المصدر الذى حصلت عليــه منه إذ اشترته من التجار الفينيقيين الآتين من صيدا . وعندما يرى هكتور باريس Paris يرده بقسوة إلى الميدان. وكان باريس قد جرح قبل ذلك وظل يقضى وقتاً ممتعاً مع هيلينا ، فقال هيكتور « ليت الأرض تبلعه » . ورأى هيلينا Helen التى أخذت تلوم نفسها كل اللوم قائلة « هلم فأجلس معى برهة لأن عدم استحيائى وطيش باريس يقع عبئهما على عاتقك أكثر ممـا يقع على أحد سواك » غير أن هكتور لم يكن يحب البقاء فرفاقه فى القتال فى حاجة إليه وهم متشوقون إلى عودته ولذلك قال « يجب على أن أذهب إلى بيتى وأرى خدمى وزوجتى العزيزة

وطفلى لأنى لا أعلم إن كنت سأعود إليهم مرة ثانيـة أو إن كان الآلهة سيجعلوننى أخر تحت وطأة أيدى الآخيين .

غير أن أندروماخا Andromche لم تـكن هناك إذ كانت قد سمعت أن أهل طروادة ردوا على أعقابهم فخرجت تجرى كالمجنونة إلى أسوار المدينة لترقب الحالة وقد أطاح القلق بلبها ووراءها المرضعة ومعها الطفل ، وهناك وجدها هيكتور فأمسكت بيده قائلة :

« إن قوتك هى التى ستقضى عليك ياهيكتور وأنت لا تشفق على طفلك أو زوجتك البائسة التى ستصبح أرملتك عن قريب ، فسيهاجمك الآخيون ويصرعونك . وإذا فقدتك فالأولى بى أن أموت فلن أجد من راحة لى إلا الحزن فليس لى أب أو أم فقد قتل اخيليس أبى إيتيون Eetion ومع ذلك (هنا أثر من الـكبرياء) فقد أبى اخيليس أن يأخذ سلاحه الذى دفن مع جثته . وقد كان لى سبعة إخوة فى بيتنا ولـكن اخيليس السريع العدو قتلهم عن آخرهم ، وقد ماتت أمى ملكة بلاكوس فى بيت أبى . إنك الآن ياهيكتور بمثابة أبى وأمى وأخى كما أنك زوجى الفخور . فتعال وترفق بى الآن وامكث على هذه الأسوار ولا تترك ولدك يتيماً وتتركنى أرملة من بعدك » . ولما كانت امرأة ذكية ترقب الأشياء من خلال دموعها فإنها قالت ضع رجالا عند هذه الشجرة حيث يقوم الإغريق بالهجوم ، فأجابها هيكتور ذو الخوذة اللامعة سأنظر فى هذا الأمر بإمعان ياسيدتى ولـكنى سأشعر بخجل عظيم أمام رجال طروادة ونسائها طويلات الثياب إذا ظللت أتلـكأ كالجبان بعيداً عن القتال ، كما أنى لا أجد للجبن مكاناً فى قلبى فقد تعلمت أن أكون شجاعاً على الدوام وأن أحارب فى طليعة رجال طروادة فأحرز مجداً عظيماً لى ولأبى . إنى لأعلم جيداً وأوقن بأن اليوم الذى تهلك فيـه مدينة طروادة المقدسة ويهلك فيه بريام ورجال بريام الأثرياء لآت ، غير أنى لست حزيناً على أهل طروادة أو على هيكوبا نفسها أو على الملك بريام أو على إخوتى العديدين النبلاء الذين سيقتلهم العدو وسيوارهم

التراب بقدر ما أنا حزين عليك إذ سيخطفك أحد الآخيين المتسربلين بالبرونز ودموعك تسيل مدراراً وينهى أيام حريتك . قد تعيشين عنـــد ذاك فى أرجوس وتشتغلين على النول فى بيت امرأة أخرى وقد تحملين الماء لامرأة من مسينا أو من هوبريا وأنت حزينة القلب ولكنك سترزحين تحت الأرغام الشديد . وقد يقول من يراك وأنت باكية إذ ذاك « كانت هـذه زوجة هيكتور أنبل محارب بين أهل طروادة ممن كانوا يروضون الجياد ، حين كانوا يحاربون حول إيليون » هذا ما سيقولونه وما سيثير كوامن الحزن فى نفسك وأنت تكابدين العبودية بعد أن يكون الموت قد حرمك من مثل هذا الزوج ، ولكن ليتنى أكون ميتاً والتراب متراكم فوق قبرى قبل أن أسمع صرخاتك أو تبلغنى أنباء القسوة التى ستتعرضين لها » .

هكذا تكلم هيكتور الذى كان يتألق بريقه ، وقد مد ذراعيه إلى إبنه ولكن الطفل صرخ وجفل إلى صدر مرضعته ذات النطاق المحكم لأنه فزع من منظر أبيه العزيز المتسربل بالبرونز ومن خصلة شعر الخيل التى رآها تهتز بشدة من أعلى خوذته . فقهقه أبوه ضاحكا وكذلك أمه النبيلة . وسرعان ما خلع هيكتور ذو البريق المتألق خوذته من فوق رأسه ووضعها على الأرض ، حتى إذا قبل إبنه العزيز وهدهده بين ذراعيه تضرع إلى زيوس وإلى باقى الآلهة قائلا : « ليتك تستجيب يازيوس أنت وباقى الآلهة لى فتجعل هـذا الولد مثلى مجداً كل التمجيد بين أهل طروادة ، وليته يكون ذا بأس شديد ويكون حكمه فى إيليون Ilion حكما عظيما ، وليت الناس تقول وهو عائد من الحرب « إنه أفضل من أبيه بكثير وليته يهلك الأعداء وينتزع منهم أسلحتهم وليت أمه تفرح به ! »

هذه المقطوعة تلقى ضوءاً على نفس البطل الهوميرى ذاتها . إذ أن الذى يدعوه إلى أعمال البطولة ليس شعوره بالواجب كما نفهم نحن أى شعوره بالواجب نحو الآخرين ، بل هو على العكس من ذلك شعور نحو نفسه ، فهو يكافح فى سبيل

ما نترجمه بكلمة « الفضيلة » areté وإن كانت تعنى فى الإغريقة « الامتياز أو التفوق »(١) فالذى يتنازع من أجله أجاممنون وأخيليس ليس من أجل فتاة بل هما يتنازعان من أجل جائزة « هى الاعتراف العام » بالامتياز » وسوف يكون لزاماً علينا أن نقول الكثير عن « الامتياز » لأنه يسرى فى صميم الحياة الإغريقة .

وعلى كل حال فإن مثل هذا المنظر فى اللغة الإغريقية يتطلب من الدارس الذى يكون قد وعاه عن ظهر قلب أن يبدأ أولا بتفسير الألفاظ المختلفة فى المخطوطات ويدقق فى تحرى الفروق البسيطة فى معانى الكلمات وفى التعقيدات النحوية ثم هو لا يستطيع أن يثق فى قدرته على ترجمتها ترجمة سليمة . وليس هذا المنظر بأى حال هو الوحيد من هذا النوع فى الألياذه ، كما أن هذه الإنسانية التى لا يحدها زمان ليست بقاصرة على أروع المناظر كما ستبينه ملاحظة خفيفة أو إثنتان : تمعن فى هذه النبذة القصيرة(٢) : « فتركهم ديوميديس راقدين رقدة الموت وراح يطارد أباس وبولوتدوس Polyidos ولدى يروداماس Eurydamas الشيخ الذى كان يستطيع أن يعبر الرؤا فقتلهما ديوميديس بقوته الزائدة ثم راح يطلب إكسانثوس Xanthus وثون Thoon ولدى فاينوبس Phaenops فقضى فاينوبس شيخوخة حزينة إذ أنه لم يترك له أولاداً آخرين يرثون أملاكه فقد قتلهما ديوميديس كليهما وسلبهما حلو الحياة فلم يرجعا إليه من ميدان القتال بل اقتسم الغرباء ميراثهم . »

تمعن فى بيت من الشعر ورد عن ديوميدس بعد ذلك بقليل(٣) . فحين يرى البطل الصغير جلوكس Glaucus الدمار الذى ينشره ديوميدس بين

---

(١) من الصعب أن نترجم كلة areté بمعنى الامتياز والتفوق لأنها كانت تعنى عند هوميروس كافة السجايا الفاضلة الكريمة التى تجعل الإنسان رجلا بكل معانى الكلمة (شجاعة . ومروءة وفضيلة) .

(٢) الإلياذه — نشيد ٥ ص ١٤٩

(٣) الإلياذه نشيد ٦ ص ١٢٧ .

أهل طروادة يصمم على أن يحاربه ، فيسأله ديوميديس طبقاً لقانون الفروسية عن هويته قائلا « لم تقع عيناى عليك قبل ذلك فى حرب تشرف الرجال وأنت تفوقهم جميعاً فى الشجاعة إذ تستطيع أن تقف هناك منتظراً رمحى الطويل » والآن تأتى الحقيقة التالية ذات المغزى الكبير ، فقـــد كان من الطبيعى جداً أن يقول ديوميديس « تعساً لحظ أولئك الرجال الذين يتصدون لقوتى » ولكنه يقول بدلا عن ذلك « تعساً لحظ أولئك الذين يتصدى أولادهم لقوتى » . إن مناظر القتال توصف بما يشبه اللذة فبطل الساعة يقتحم ما فى طريقه بغتة ويترك وراءه قائمة بقتلاه — والشاعر يخبرنا بدقة أين اخترق الرمح المميت جسد المحارب المهزوم بل إنه يخبرنا فى كثير جداً من الأحيان من أين خرج الرمح ثانية . والغالب يبنى لنفسه مجداً يعيش بعده . غير أن هومر له فكرة عن حياة الناس بمعناها الأوسع ، فهو لا ينسى أولئك الذين يكون مجد شخص آخر سبباً فى حزنهم ، كما أنه لا يقحمهم إقحاماً .

ومن الخطأ وصف الإلياذه بأنها مأساة لأنها (كأكثر الأشياء الإغريقية) تعتبر بالضبط ما كان يراد منها أن تكون . فهى ملحمة شعرية بكل الاستطراد والتوسع والصراحة التى للملحمة الشعرية . ومع ذلك فهى تراجيدية للغاية وهى فى هذا أيضاً إغريقية جداً . فالاتجاه إلى التفكير التراجيدى كان عادياً عند الإغريق . وقبل أن نحاول تفسير ذلك مستخدمين فى إيضاحنا هومر الذى يستوعب كل شىء قد يكون من المستحسن أن نتق نقطة أو نقطتين . فأولا ليس السبب فى هذا الاتجاه التراجيدى أن الإغريق كانوا يرون الحيـاة شيئاً تافها فقد وصفنا لك اللذة الظاهرة التى يصف بها هومر مناظر القتال ، وهو يصف كل ما عدا ذلك بنفس الحماسة الدقيقة . فقد كان يرى كل شىء بشوق واهتمام شديدين ، سواء كان يصف أودوسيوس وهو يبنى سفينة أو كان يصف أبطالا يعدون فى المعسكر طعاماً مشبعاً جداً يتناولونه فى العشاء وقد يغنون على أثر تناول وجبة الطعام . أما أن الحياة

كانت وادياً للدموع ليس لأى شىء أهمية فيه فتلك فكرة لم يعتنقها إلا قليل جداً من الإغريق ، فقد كانت لهم أشد رغبة فى العمل والنشاط بكل أنواعه الجسمية والعقلية والعاطفية ، وكانوا يجدون سروراً لا نهاية له أبداً فى عمل الأشياء وفى مشاهدة الكيفية التى تعمل بها الأشياء ، وتكاد كل صفحة من هومر تشهد بذلك . ومن المؤكد أن ذلك الفيض التراجيدى الذى يسرى فى ثنايا الإلياذه لا يرجع إلى أى إحساس بأن الحياة عديمة الأهمية إذ أنه كان شعوراً تراجيدياً وليس شعوراً بالكآبة والغم .

وعلينا ثانية ألا نتصور أن الميل إلى المأساة كان معناه كراهية الملهاة ، وما من شك فى أن الإلياذه ليس بها إلا القليل من الملاهى كما أنه ليس هناك ما يرفه عنا فى المآسى الأثينية المتأخرة إلا النزر اليسير من الكوميديا ، وأن يكن قد سبق لنا أن تعرفنا على قصة كوميدية مشهورة فى الأوديسة . وينبغى علينا ألا ننسى أن المرحلة الأثينية إن كان فيها أريستوفانيس وإسخولوس الذى كان له شهرة كبيرة فى العالم القديم بصفته مؤلفاً للمسرحية الساتورية الساخرة (١) فقد كان لها كذلك ما يقابلها وما يسمى بالملاحم المضحكة التى بقيت لنا منها ملحمة الضفادع والفئران . فالاتجاه التراجيدى الذى ينطوى عليه التفكير الإغريقى لا علاقة له بالكآبة إذ أن الإغريقى كان يحب الضحك كما كان يحب الحياة . ومنشأ هذا على ما أرى هما هاتان الصفتان العظيمتان اللتان كنا نتقصاهما فى هومر وهما التفكير المنطقى والإنسانية . وقد مكنت الصفة الأولى منهما الإغريقى كما حاولت أن أبين ذلك من رؤية الإطار الخارجى العظيم الذى يجب أن تقضى داخل نطاقه الحياة البشرية ، وهو الإطار الذى عبر عنه هومر بأنه إرادة الآلهة

---

(١) المسرحية الساتورية (Satyric drama) سميت هكذا لأن أعضاء الجوقة كانوا يظهرون فيها بمظهر الساتوروى واتباع إله الخمر ديونوسوس ، وكانت تعالج موضوعات مهمة فى قالب تهكمى .

وتدبيرهم من جهة وبأنه الضرورة الخيالية الغامضة التي يجب أن يخضع لها حتى الآلهة من جهة أخرى . فالأعمال لابد لها من نتائج والأعمال الناشئة من سوء التدبير لابد لها من نتائج متعبة . والآلهة عند الإغريق ليسوا خيرين بالضرورة فإذا صنع أحد مايغضبهم فإنهم يبطشون به دون هوادة . وكما يقول أخيليس لبريام المحطم ان الآلهة تعطى نقمتين فى مقابل كل نعمة واحدة . ولا يخفف من حدة هذا التقدير الواضح المشهد الإنسانى أى أمل باسم فى حياة أخروية أفضل من هذه الحياة أو أى اعتقاد فى التقدم . أما بالنسبة للحياة الآخرة فقد كان أمام الإغريق عند هومر أن ينتظر حياة خيالية مظلمة فى هاديس وكما قال أخيليس « إنى أفضل أن أكون عبداً على الأرض من أن أكون ملكا فى هاديس » وقد كان الأمل الوحيد فى الخلود هو أن تظل شهرة الإنسان باقية فى الفناء . أما التقدم فقد كان محالا لأن طبيعة الآلهة لاتتغير . أما أن تتغير طبيعة الناس فهذه فكرة ظلت مدة طويلة لا تخطر ببال أحد وحتى لو أنها خطرت له فقد كان الآلهة يعطون نقمتين فى مقابل كل نعمة، فالحياة كانت باقية على ما هى عليه فى كل أمورها الجوهرية .

ويستطيع الإنسان أن يتصور مثل هذه النظرة التى خلت بشكل ملحوظ من الأوهام البراقة وقد نمت حتى صارت ديانة جوفاء تؤدى به إلى الاعتقاد فى قضاء وقدر لا أمل فيهما وقد استسلم لهما الناس ، غير أنها كانت مقترنة بهذه اللذة التى تكاد تكون عارمة فى الحياة وبهذه النشوة فى روائع أعمال البشر وفى الشخصية الإنسانية . لقد كان الإغريق بعيداً عن التفكير فى أن الإنسان كم مهمل فى نظر الآلهة ، إلى حد أنه كان يجد من الضرورى عليه أن يذكر نفسه دائماً بأن الإنسان ليس بإله وأن مثل هذا التفكير ليس من التقوى فى شىء . ولم يحدث بعد ذلك قط أن نجد مثل هذه الثقة الفائقة فى الإنسانية إلى أن جاء الوقت الذى أسكرت الروح الإغريقية فيه إيطاليا

فى عهد النهضة ، وهى ثقة فى النفس لم تتقيد فى إيطاليا أثناء النهضة بالتواضع الذى فرضته على الإغريق نظرته الدينية الفطرية .

أما النغمة التراجيدية التى نسمعها فى الإلياذة وفى أكثر الأدب الإغريقى فقد نشأت من الصراع بين هاتين القوتين وهما اللذة العارمة فى الحياة والخوف الواضح من أن نطاق الحياة الخارجى لا يتغير :

« إن حياة الناس مثل حياة أوراق الشجر سواء بسواء . فالرياح تعصف بأوراق الشجر على الأرض ولكن الغابة القوية تنبت غيرها وهى التى تنمو فى فصل الربيع ، فسرعان ما يأتى جيل من الناس وسرعان ما يذهب غيره » .

وليست هذه الفكرة أو هذه الصورة خاصة « بهومر » أما الألم اللاذع فخاص به ومرجعه إلى مناسبة وروده فنحن لا نجده فى نظيره العبرى الرائع :

أما الإنسان فأيامه كالعشب . أنه يكون يانعاً مثل زهرة الحقل وإذا مرت بها الرياح عصفت بها فلا يعرف مكانها بعد ذلك .

ان النغمة هنا هى نغمة الذلة والاستسلام فالإنسان لا يزيد عن أن يكون عشباً إذا قورن بالله أما الصورة الهومرية فتستمد لوناً مختلفاً جداً من ملابساتها المفعمة بالكفاح وروائع أعمال البطولة . فالإنسان فريد فى بابه ومع ذلك فرغم محدته السامى ورغم التنوع الرائع الذى فيه يجب عليه أن يطيع نفس القوانين التى تخضع لها أوراق الشجر التى لا تحصى والتى لا يمكن التمييز بينها . ولا مجال لاحتجاج تمليه الروح الرومانتية . إذ كيف نحتج على أول قانون من قوانين الوجود ؟ كما أنه لا مجال للرضا والاستسلام اللذين نجدهما مثلا بين الصينيين الذين يعتبرون الفرد مجرد أصل لذرية فى طور التكوين أو محصولا من أوراق شجرة واحدة فى الغابة . أما فى الصورة الهومرية فإننا بدلا عن ذلك نجد هذا الصراع العاطفى الذى يعتبر نفحة من الروح التراجيدية .

ويمكننا أن نذكر أمثلة أخرى كثيرة من هومر وبخاصة من الإلياذه غير

أن واحداً منها يكفى فإنه يشرح هذه الروح من وجهة نظر أخرى . فإن مما يدل على قيود الحياة بل ومتناقضاتها أن أكثر الأشياء التى تستحق أن نحصل عليها لا يمكننا الحصول عليها فى أكثر الأحيان إلا بتعريض الحياة نفسها للخطر . فالبطل قد لا يستطيع أن يدلل على شجاعته ويفوز بالمجد إلا بموته الذى يبعث الحزن فى أقربائه . والجمال نجده محفوفاً بالخطر والموت . وهناك فاصل يتخلل وصف هومر للقتال العنيف الذى دار حول أسوار طروادة والذى كان يشاهده بريام وغيره من المسنين من فوق الأسوار :

وهكذا جلس أمراء طروادة على البرج ورأوا هيلينا وهى قادمة فقال بعضهم لبعض بصوت رقيق وألفاظ لها دلالتها ، إن أهل طروادة وكذلك الآخيين المسلحين بأحسن السلاح يستحقون لوماً قليلا على الويل الذى يقاسونه هذه المدة الطويلة بمثل هذه الشدة من أجل تلك الحسناء التى كأنها ربة من الربات،ومع ذلك ورغم أنها جميلة فلتركب سفينة إلى وطنها ولا تترك لنا ولأولادنا الحسرات ، هكذا كان كلامهم ، ولكن بريام نادى هيلينا قائلا «تعالى أيتها الإبنة العزيزة واجلسى إلى جوارى وانظرى إلى من كان زوجك وإلى أهلك وأصدقائك الآخرين . إنى لا ألومك فالآلهة هم الذين كانوا السبب فى ذلك وهم الذين جلبوا لنا الحرب والدموع » .

« الآلهة » فلا دفع للمسئولية بعبارات طنانة بل الاعتراف بأن مثل هذه الأشياء جزء مما هو مقدر على البشر ؛ فالجمال كالمجد لابد أن ننشده ولو كان الثمن هو الدموع والدمار . ألا تقع هذه الفكرة من أسطورة حرب طروادة فى الصميم ؟ إن اخيليس بطل هذه الأسطورة ورمز كمال الفروسية الإغريقية قد جعل له الآلهة الحق فى اختيار ما يلى بالضبط : إنهم منحوه إما حياة طويلة مع ضعة الشأن أو مجداً مع الموت المبكر . إن أول من وضع هـذه

الأسطورة قد عبر فيها لا عن خلاصـــة التفكير الإغريق فحسب بل عن التاريخ الإغريق كذلك .

لقد أفضت فى الكتابة عن الإلياذه لأنها تحتوى من جهة على قدر كبير من الروح الإغريقية الجوهرية ومن جهة أخرى لكى أطلع القارىء على ما كان يتثقف به الإغريق مدى قرون . أما الأدويسة فيجب أن نضحى بها ولو أنها كانت جزءاً من هذه الثقافة مساوياً للإلياذه وضرورياً لتكملتها من أوجه كثيرة ، فهى كما قال لونجينوس Longinus قصيدة عن الخلق أكثر مما هى عن العاطفة ، وهى تزخر بحب الإغريق للمغامرات والقصص الغريبة ، وهى كالإلياذه قصيدة كان من الممكن أن تكون حقيبة حافلة بالقصص القديمة لولا أنها تشتمل بدلا عن ذلك على وحدة ذكية فنية تصدر لا محالة عن فكرة مركزية واحدة هى ، فى هذه الحالة ، الاعتقاد فى عدالة نهائية . فهل كتب القصيدتين شاعر واحد ؟ وهل ألف كلا منهما شاعر واحد فعلا ؟ ومتى عاش هذا الشاعر أو هؤلاء الشعراء ؟ هذه هى المسألة الهوميريه التى ظل العلماء قرناً ونصف قرن يناقشونها ، ولا ينتظر منى القارىء أن أفصل فيها هنا . وقد كان للإغريق الذين عاشوا فى العصور التالية طائفة من الملاحم عن حرب طروادة منها اثنتان كانت لهما روعة فائقة كما كانتا تنسبان إلى هومر ، وقد ظل الناس يتقبلون هذه النسبة دون أن يأخذهم فيها ريب حتى العصور الحديثة حين أظهر البحث الدقيق كل أنواع التضارب فى الحقائق والأسلوب واللغة سواء فيما بين الملحمتين بعضهما وبعض أو فيما بين بعض أجزاء كل منهما والبعض الآخر . وكانت نتيجة ذلك المباشرة هى الاطمئنان إلى تقسيم القصيدتين تقسيماً دقيقاً لا سيما الإلياذة إلى أناشيد تمت إلى فترات مختلفة سماها النقاد تسمية مناسبة هى «الطبقات» ، وهم الذين لم يفرقوا

أحياناً تمام التفرقة بين البناء الفنى والتكوين الجيولوجى . وقد أثمرت دراسة شعر الملاحم عند الأجناس الأخرى ودراسة الطرق التى استعملها الشعراء المشتغلون فى محيط الروايات المأثورة إلى حد بعيد فى إعادة الثقة بوجود الوحدة الجوهرية فى كل قصيدة . بمعنى أن الذى لدينا فى كل حالة ليست قصيدة قصـــيرة من تأليف « هومر » حقيق أضاف إليها الشعراء الذين جاؤا بعده دون تمييز كثير أو قليل ، وإنما هى قصيدة اختمرت كوحدة فى عقل « هومر » متأخر نسبياً اجتهد فيها وأدمج فيها كثيراً من الروايات القديمة ، ولو أنه من المؤكد أن الإلياذه الحالية تحتوى بالتأكيد على بعض الأناشيد التى لم تكن من نظم هومر . أما معرفة ما إذا كان نفس الشاعر هو الذى نظم القصيدتين فهذه نقطة تختلف بشأنها الآراء ، ومن المحتمل أن تظل دائماً كذلك . فالفرق عظيم فى روح كل منهما وفى الطريقة التى تناول المؤلف بها كلا منهما . وقد لاحظ ذلك لونجينوس أدق النقاد القدماء فقال « إن مثل هومر فى الأدويسة كمثل الشمس الغاربة تبقى عظمتها دون شدتها » وقد تكون شمس الإثنين واحدة . غير أن الرجل الذى تعمق دراسة هومر إلى حد ترجمة إحدى قصيدتيه له الحق فى أن يبدى رأيه ، وعلى ذلك فمن الشائق ملاحظة أن أحد المترجمين الإنجليز بين الحديثين وهو « لورنس » يؤكد أن الشاعرين مختلفان إلى حد أنه لا يفكر فى بحث هذا الاحتمال . بينما يقول « ريو » إن شعور قرائه بالثقة فى أنهم بين يدى رجل واحد قد يكون شبيهاً بشعورهم إذا انتقلوا إلى قراءة مسرحية « كما تريد » بعد الفراغ من « الملك جون » (لشيكسبير) .

سنترك المسألة الهوميرية عند هذا الحد لأنها وإن كانت خلابة بالنسبة للعلماء إلا أن الواجب ألا نسمح لها بأن تحجب عنا « هومر » . وإنه لمن الشائق وإن يكن من العبث التفكير فيما كان يحدث لنا لو أن كل مصلحينا وثوارنا وواضعى خططنا وسياسيينا ومنظمى حياتنا عامة كانوا قد تشبعوا

بآراء هومر من شبابهم إلى شيخوختهم مثل الإغريق . لعلهم كانوا يدركون أنه فى اليوم السعيد الذى تكون فيه فى كل بيت ثلاجة لا ثلاجتان فى بيت واحد ، وتكون فيه الفرصة متاحة لنا جميعاً لنعمل للصالح العام (مهما يكن) ويكون فيه « الرجل العادى » (كائناً من كان) فائزاً وإن لم يكن متحمساً فسيظل الناس يجيئون ويذهبون كأجيال أوراق الشجر فى الغابة وسيظل الإنسان ضعيفاً والآلهة أقوياء فلا يعرف ماذا يضمرون ، وستبقى صفات الإنسان أهم من أفضل أعماله ، وسيظل العنف والتهور يؤديان إلى الدمار الذى يصيب البرىء كما يصيب المذنب . لقد كان من حسن حظ الإغريق أن وجد بينهم هومر وكانوا عقلاء حين أفادوا منه ما أفادوه .

البوليس (دولة المدينة)

« بوليس » Polis » هى اللفظة الإغريقية التى نترجمها بعبارة « دولة المدينة » وهى ترجمة رديئة لأن ال « بوليس » العادية لم تكن كثيرة الشبه بالمدينة كما أنها كانت أكثر من الدولة بكثير . ولكن الترجمة كالسياسة هى فن الشيء الممكن وطالما ليس لدينا هـذا الذى سماه الإغريق ال « بوليس » فلن يكون لدينا كلمة تقابلها . ونحن من الآن فصاعداً سنتجنب عبارة « دولة المدينـة » لأنها مضللة وسنستعمل الكلمة الإغريقية بدلا عنها . وسنبحث فى هذا الفصل أولا عن كيفية نشأة هذا النظام السياسى ثم نحاول أن نعيد بناء كلمة « بوليس » ونستخلص معناها الحقيقى بملاحظتها وهى قائمة بالعمل . وقد يكون هذا عملا طويلا ، غير أننا سنفيد فى نفس الوقت بتحسين معلوماتنا عن الإغريق . فنحن إن لم نأخذ فكرة واضحة عما كانت عليه « البوليس » وعما كانت تعنيه بالنسبة للإغريق يستحيل علينا أن نفهم التاريخ الإغريقى والعقل الإغريقى أو أمجاد الإغريق حق الفهم .

وأول سؤال لنا إذن هو ماذا كانت البوليس ؟ إننا نرى فى الإلياذة نظاماً سياسياً يبدو مألوفاً لنا ومن الممكن أن ندعوه طبقاً لأذواقنا إما نوعا راقيا أو نوعا منحطا من القبلية . وفى هذا النظام نرى ملوكا مثل إخيليس يحكمون رعاياهم وكذلك الملك العظيم أجاممنون ملك الناس وهو أشبه بأمير من أمراء الإقطاع . فهو ملزم ، سواء كان هذا الإلتزام راجعاً إلى الحق أو إلى العادة بأن يستشير الملوك والرؤساء الآخرين فى الأمور التى تتعلق بالصالح العام . فهناك مجلس يعقدونه بانتظام ويحمل الرئيس أثناء مناقشاته الصولجان وهو رمز السلطة وهـذا المجلس يمكن التعرف على أنه من الخصائص الأوربية

لا الشرقية كما أن أجا عنون ليس باله مستبد يحكم ولا معقب لحكمه . وكذلك هناك دلائل على وجود مجلس رمزى للشعب يستشار فى المناسبات الهامة ولون هومر وهو شاعر متأنق كما أنه ليس بمؤرخ دستورى على كل حال ، يقول عنه القليل . هذه باختصار هى الزواية المألوفه أو المتوارثه عن بلاد الإغريق قبل الغزو . وعندما يرتفع الستار مرة ثانية بعد « العصر المظلم » ترى صورة مختلفة كل الاختلاف . فلم يعد يوجد فى موكناى Mycenae أجاعنون يحكم رقعة واسعة من الأرض ويسيطر عليها . أما فى كريت التى كان يحكمها قديماً إيدومنيوس باعتباره ملكها الوحيد فإننا نجد أن بها أكثر من خمسين دولة بدلا من دولة واحدة . أما موضوع اختفاء الملوك فأنه أمرهين ولكن المهم هو أن الممالك قد ذهبت كذلك . وما هو صحيح عن كريت نجده صحيحاً عن بلاد الإغريق . فايونيا والجزر والبيلوبونيز فيما عدا أركاديا ووسط بلاد الإغريق فيما عدا الأجزاء الغربية وجنوب إيطاليا وصقلية عندما كانا إغريقيين — كانت كلها منقسمة إلى عدد هائل من الوحدات السياسية التى تحكم نفسها والمستقلة عن غيرها كل الاستقلال .

إن حجم « البوليس » من المهم ان ندركه . فحين يتناول القارىء الحديث ترجمة لجمهورية أفلاطون أو لسياسة أرسطو يلاحظ أن أفلاطون يقرر أن مدينته المثالية تضم ٥٠٠٠ مواطن ، كما أن أرسطو يقرر أن كل مواطن ينبغى أن يكون فى إمكانه معرفة جميع المواطنين الاخرين بمجرد النظر . وقد يبتسم القارىء لهذه التصورات الفلسفية ولكن أفلاطون وارسطوليسا خياليين . أن أفلاطون يتصور « البوليس » طبقاً للقياس الهيلينى العادى ، بل انه يعنى فى الحقيقة أن كثيراً منها كان بها أقل من ٥٠٠٠ مواطن . ويقول أرسطو بطريقته المسلية ، إذ أن أرسطو يبدو أحياناً كالخبير ، أن « البوليس » ذات العشرة مواطنين تعتبر مستحيلة لأنها لا يمكن أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتياً وأن « البوليس » ذات المائة ألف مواطن تعتبر شاذة

ومثيرة للسخرية لأنها لا تستطيع أن تحكم نفسها حكماً حسناً. وعلينا ألا نتصور أن هؤلاء المواطنين كانوا طبقة من السادة الذين يملكون آلافاً من العبيد ويتحكمون فيهم، إذ أن الإغريق العادى فى تلك العصور القديمة كان مزارعاً فإن كان يملك عبداً فقد كان ذلك يدل على أنه مقتدر. أما أرسطو فإنه يتكلم عن مائة ألف مواطن. فإن افترضنا لكل مواطن زوجة وأربعة أولاد ثم أضفنا بعدئذ عدداً وافراً من الرقيق والأجانب المقيمين فإننا نصل إلى عدد يقارب المليون وهو عدد سكان برمنجهام. إن دولة مستقلة مزدحمة بالسكان مثل برمنجهام تعتبر عند أرسطو نكتة مكشوفة. ويمكننا أن ننتقل من الفلاسفة إلى رجل عملى هو هيبوداماس Hippodamas الذى خطط بيريه طبقاً لأحدث أسلوب أمريكى، فقد قال إن عدد المواطنين المثالى هو عشرة آلاف مواطن، ومعنى هذا عدد كلى يبلغ حوالى ١٠٠٫٠٠٠ من السكان.

ولم يكن هناك فى الحقيقة إلا ثلاثة من « البوليس » فى كل منها أكثر من ٢٠٫٠٠٠ من السكان وهى (سرقوسة) واكراجاس Acragas (جرجنتى) فى صقلية، وأثينا. وقد كان عدد سكان أتيكا ٣٥٠٫٠٠٠ تقريباً عند نشوب حرب البيلوبونيز، نصفهم أثينيون (رجالا ونساء وأطفالا) وعشرهم من الأجانب المقيمين بها والباقى من الرقيق. أما اسبرطه أو لاكيدايمون فقد كان عدد المواطنين بها أقل ولو أن مساحتها كانت أكبر من غيرها. إذ أن الإسبرطيين كانوا قد فتحوا مسينيا Messenia وضموها إليهم فامتلكوا بذلك ٣٫٢٠٠ ميلا مربعاً من الأرض. وقد كانت هذه مساحة هائلة طبقاً للمقاييس الإغريقية تقتضى من المسافر المجد يومين حتى يقطعها. وكانت مساحة مدينة كورنثا التجارية الهامة ٣٣٠ ميلا مربعاً أى ما يساوى حجم مدينة هنتنجدن شير. وكانت جزيرة « كيوس » Ceos وهى فى حجم مدينة « بيوت » مقسمة إلى أربعة من « البوليس » وبذلك كان فيها أربعة جيوش

وأربع حكومات وربما كان بها أربعة تقاويم للزمن وأربع عملات مختلفة من النقد ومثلها من نظم المقاييس ، ولو أن احتمال وجود هذين الأخيرين أقل من سواه . أما موكيناى فقد انكمشت فى العصور التاريخية حتى صارت بقية من عاصمة أجا ممنون وإن ظلت مستقلة . وقد أرسلت جيشاً ليساعد قضية الإغريق ضد الفرس فى حرب بلاتايا Plataea وكان هذا الجيش يتكون من ثمانين رجلا وهو صغير حتى طبقاً للمقاييس الإغريقية . وإن كنا لم نسمع أن أية نكتة قد قيلت عن جيش تحتويه عربة .

إن من الصعب علينا أن نفكر طبقاً لهذه المقاييس فنحن الذين تعودنا على وجود دول مثـــل الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وهما من الكبر بحيث أننا نشير إليهما بالحروف الأولى من أسمائهما — نعتبر الدولة التى تتكون من عشرة ملايين دولة صغيرة .

وعندما يصير القارىء الذى يسهل توجيهه متعوداً على هذه المقاييس فإنه لن يقع فى الخطأ المبتذل الذى ينشأ من الخلط بين الحجم والأهمية . فنحن نسمع أحياناً الكاتب الحديث وهو يتكلم بزهو واحتقار عن « هذه الدويلات الإغريقية التافهة التى لم تكن تنفض لها منازعات » حقاً إن بلاتايا وسيكوون Sicyon وايجينا Aegina وباقى الدويلات تافهة إذا قورنت بالدول الحديثة . كما أن الأرض نفسها تافهة إذا هى قورنت بالمشترى ، ولكن مهلا فإن جو المشترى مكون بصفة رئيسية من النوشادر وهنا كل الفرق . فنحن لا نحب أن نستنشق النوشادر كما أن الإغريق ما كانوا يحبون كثيراً أن يستنشقوا جو الدولة الحديثة الواسعة . ولقد عرفوا دولة من هذا القبيل هى الإمبراطورية الفارسية التى اعتبروها مناسبة جداً للبرابرة . فالاختلاف فى المقاييس ، عندما يبلغ حداً كافياً من الكبر ، يدل على اختلاف فى النوع .

ولكن قبل أن نتناول بالدرس طبيعة « البوليس » ربما أحب القارىء أن يعرف كيف تحول ذلك النمط الفسيح نسبياً الذى كان موجوداً فى بلاد الإغريق قبل العصر الدورى إلى نمط مكون من مجموعة مختلفة من القطع الصغيرة وهذا هو ما يريد أن يعرفه المتبحر فى الأدب الكلاسى أيضاً ، غير أننا لا توجد عندنا سجلات ولذلك فكل ما نستطيع أن نعمله هو أن نقترح من الأسباب ما يمكن قبوله . فهناك أسباب تاريخية وجغرافية واقتصادية متى أوضحناها إيضاحاً مناسباً فربما استنتجنا أن أهم سبب من بينها كان بكل بساطة أن هذه هى الطريقة التى فضل الإغريق أن يعيشوا بمقتضاها .

إن مجىء الدوريين لم يكن هجوماً قامت به أمة منظمة على أمة أخرى . فالذين غزاهم الدوريون كان لهم فعلا نظامهم ولو أنه كان ضعيفاً منحلا . وبعض الغزاة وهم الطائفة الرئيسية التى فتحت لاكيدايمون لابد أنها كانت قوة مترابطة . أما من عداهم فكانوا جماعات صغيرة من المعتدين الذين أفادوا من الاضطراب العام فى الاستيلاء على الأرض الصالحة حيثما وجدوها . والدليل على ذلك أننا نجد أعضاء من نفس العشيرة فى دول مختلفة . فهذا بندار Pindar مثلا من مواطنى طيبة كان من عائلة إيجيداى Aegidae القديمة . إلا أنه كانت هناك إيجيداى أيضاً فى إيجينا وإسبرطة وكل منهما « بوليس » مستقلة تماماً ، وكان بندار يخاطبهم على أنهم أقاربه . وقد انقسمت هذه العشيرة بالذات تبعاً لذلك أثناء الغزو . وهذا أمر طبيعى جداً فى بلاد كبلاد الإغريق .

وفى مثل هذه الفترة من فترات عدم الاستقرار كان سكان أى واد أو جزيرة مضطرين أن يحاربوا دفاعاً عن حقوقهم عند أى إنذار مفاجىء . لذلك كان من الضرورى أن يوجد هناك حصن عال يكون فى العادة فوق قمة تل فى جهة ما من السهل يمكن الدفاع عنها ، وكانوا يقومون بتحصين هذا

« الاكروبوليس » أو المدينة العالية ويتخذونها مقراً للملك كما أنها كانت مكاناً طيباً للاجتماع ومركزاً للعبادة .

هكذا كانت بداية المدينة . أن الذى علينا أن نعمله هو أن نعلل لنمو المدينة ولبقاء مثل هذا الجيب الصغير من الناس وحدة سياسية مستقلة . أما الأمر الأول فتعليله بسيط فلنبدأ به . ذلك أن النمو الاقتصادى الطبيعى كان يحتم وجود سوق مركزى ، وقد رأينا أن النظام الاقتصادى الذى يدل عليه كلام هزيود وهومر كان هو الاقتصاد المنزلى المحدود . فقطعة الأرض سواء كانت صغيرة أو كبيرة كانت تنتج كل ما كان لازماً على وجه التقريب . أما ما لم تكن تستطيع إنتاجه فإنهم كانوا يستغنون عنه . فلما أصبحت الأمور أكثر استقراراً صار من الممكن وجود اقتصاد اكثر تخصصاً نوعاً ما وأمكن إنتاج سلع للبيع أكثر من ذى قبل ومن هنا كان ينشأ أحد الأسواق .

وعند هذه النقطة نستطيع أن نستند إلى العادات الاجتماعية عند الإغريق القدماء والمحدثين وهم الذين يميلون كل الميل إلى معاشرة الناس . إن المزارع الإنجليزى يحب أن يبنى بيته على الأرض التى يملكها ولا يذهب إلى المدينة إلا مضطراً . ويحب أن يقضى وقت فراغه القصير فى التفكير فى أمر طريف ألا وهو النظر إلى الباب الخارجى . أما الإغريق فإنه يفضل أن يعيش فى المدينة أو فى القرية وأن يخرج إلى عمله وأن يقضى وقت الفراغ الذى يتوفر له أكثر من سواه وهو يتحدث فى المدينة أو فى القرية . ولهذا يصبح السوق سوقاً للمدن ويقع بطبيعة الحال فى سفح «الاكروبوليس» كما يصبح مركزاً لحياة الناس الاجتماعية ، وسنرى عن قريب مبلغ ما كان لذلك من الأهمية .

ولكن لماذا لم تنم هذه المدن حتى تصير وحدات أكبر ؟ هذا هو السؤال الهام .

أما من الوجهة الاقتصادية فإن العوائق الطبيعية التى يكثر وجودها جداً فى بلاد الإغريق قد جعلت نقل البضائع عسيراً إلا عن طريق البحر الذى لم يصبح ركوبه آمناً حتى ذلك الوقت . وبالإضافة إلى ذلك فإن النوع الذى سبق أن تكلمنا عنه جعل من الممكن أن تكون هناك مساحة صغيرة متمتعة بكفاية ذاتية معقولة بالنسبة لشعب كالإغريق له فى الحياة مثل هذه المطالب المادية الصغيرة . هاتان الحقيقتان كلتاهما تؤدى إلى نفس الاتجاه . فلم تكن تعتمد بعض الجهات فى بلاد الإغريق اعتماداً اقتصادياً عظيما على البعض الآخر ، ولم يكن التجاذب المتبادل بين أجزاء البلاد المختلفة من الشدة بحيث يقاوم رغبة الإغريق فى أن يعيشوا فى مجتمعات صغيرة .

أما من الوجهة الجغرافية فإن البعض يصرح أحياناً بأن نظام « البوليس » المستقلة فرضته على بلاد الإغريق طبيعة البلاد . . وهذه نظرية جذابة لا سيما للذين يحبون أن يجدوا تفسيراً واحداً لها لأية ظاهرة ، غير أنه لايبدو أنها صحيحة . ومن الجلى بطبيعة الحال أن كثرة انقسام البلاد من الوجهة الطبيعية قد ساعد على ما ذكرناه . فلم يكن ممكناً أن يقوم هذا النظام فى مصر وهى بلاد تعتمد اعتماداً كلياً على مراقبة فيضان النيل مراقبة مناسبة ولذلك يجب أن تكون بها حكومة مركزية ، ولكن هناك بلاد كأسكتلنده مثلا مقسمة إلى أجزاء مثل بلاد الإغريق ومع ذلك لم يقم فيها نظام « البوليس » وعلى العكس من ذلك كانت توجد فى بلاد الإغريق كثيرات من « البوليس » المتجاورة مثل كورنثا وسيكون اللتين ظلتا مستقلتين كلا منها عن الأخرى مع أنه لم يكن بينهما أى فاصل طبيعى يمكن أن يضايق راكب الدراجة الحديث مضايقة خطيرة . وبالإضافة إلى ذلك كانت أكثر بلاد الإغريق جبالا هى بالذات المناطق التى لم تقم فيها « للبوليس » قائمة أبداً أو حتى العصور المتأخرة مثل أركاديا Arcadia وإيتوليا Aetolia اللتين كان بهما ما يشبه نظام الكانتونات أى المقاطعات

المستقلة ، بينما ازدهرت « البوليس » فى تلك الأجزاء التى كانت المواصلات بها سهلة نسبياً . وهكذا نجد أننا لازلنا نبحث عن التعليل .

لقد ساعدت الجغرافيا والاقتصاد على قيام هـذا النظام غير أن التعليل الحقيقى لقيامه يعود إلى خلق الإغريق الذى يصح أن يفسره لنا أصحاب المذهب الجبرى الذين لديهم الثقة اللازمة لعلمهم المحيط بكل شيء . ولما كان البحث فى هذا الموضوع سيستغرق بعض الوقت فإنه يحسن بنا أولا أن نجلو نقطة تاريخية هامة هى كيف أمكن أن يستمر مثل هـذا النظام السخيف فى الوجود أكثر من عشرين دقيقة .

إن سخريات التاريخ كثيرة مريرة غير أننا يجب ألا ننسى أن ننسب للآلهة الفضل على الأقل فى تهيئة أسباب الاستتار بشرق البحر المتوسط للإغريق وحدهم تقريباً مدة كافية لعمل ما يكاد يكون تجربة من تجارب المعمل لاختبار المدى والظروف التى تستطيع فيها الطبيعة البشرية أن تخلق حضارة وتحافظ عليها . فالإمبراطورية الحيثية فى آسيا كانت قد انهارت من قبل ، ولم يكن الاعتداء من خصائص المملكة الليدية ، بينما كانت الإمبراطورية الفارسية التى هزمت ليديا فى النهاية ما تزال فى دور التكوين فى الأجزاء الجبلية المنعزلة من القارة . وكانت مصر فى حالة اضمحلال . أما مقدونيا التى كان مقدراً لها أن تقضى على نظام « البوليس » فقد كانت فى حالة من العجز شبه بربرية لازمتها مدة طويلة ، ولم يكن أحد قد سمع بعد عن روما أو أية دولة ذات شأن فى إيطاليا . حقاً لقـد كان هناك الفينيقيون ومستعمرتهم الغربية قرطاجة ولكنهم كانوا تجاراً أولا وآخراً . ولهذا فإن ترك هذا الشعب الإغريقى الذكى النشيط حراً فى أن يعيش عدة قرون فى ظل نظام تلوح عليه سمة الحماقة فى الظاهر كان أمراً ملائماً لعبقريته ومساعداً لها على النمو بدلا من أن تبتلعه كتلة سخيفة لإمبراطورية واسعة فتقضى على نموه الروحى وتجعله ما صار إليه بعد ذلك جنساً مكوناً من أفراد المعيين والانتهازيين . ولقد كان من الواضح

أن شخصاً ما سينشىء ذات يوم دولة مركزية قوية فى شرق البحر الأبيض المتوسط تخلف قوة الملك مينوس البحرية القديمة ، فهل تكون يا ترى إغريقية أو شرقية أو غير ذلك ؟ سيكون هذا السؤال موضوع فصل آت بعد ذلك ، غير أننا لن نفهم تاريخ الإغريق إلا إذا أدركنا ما كانت تعنيه « البوليس » للإغريق . وعندما تدرك ذلك سنفهم أيضاً لماذا أنشأها الإغريق وتوسعوا فيها وحاولوا بمثل ذلك العناد أن يحافظوا عليها . دعنا إذن نفحص الكلمة وهى فى دور العمل .

كان معناها أولا ما أصبح يسمى فيما بعد « الأكروبوليس » أى حصن المجتمع ومركز حياته الاجتماعية ، أما المدينة التى كانت تنشأ حوله دائماً فقد كان يطلق عليها اسم آخر هو « آستو Astu » غير أن كلمة « بوليس » سرعان ما أخذت تعنى إما الحصن وإما القوم الذين استخدموا هذا الحصن ، إن جاز لنا أن نقول ذلك . ولهذا فنحن نقرأ فى ثوكوديديس « أن إبيدامنوس Epidamnus » هى « بوليس » على يمين المسافر بحراً فى خليج اليونان ، وليس هذا مثل قولك أن بريستول مدينة تقع إلى الغرب وأنت مسافر فى قناة بريستول لأن بريستول ليست دولة مستقلة يمكن أن تقوم الحرب بينها وبين جلوستر بل هى مدينة لها إدارة محلية فقط ، أما كلام ثوكوديديس فمعناه أن هنالك مدينة اسمها إبيدامنوس . وإن كان من الجائز أن تكون صغيرة جداً ، وهى المركز السياسى للأبيدامنيين الذين يعيشون فى رقعة الأرض التى مركزها لا « عاصمتها » هو هذه المدينة . وهم إبيدامنيون سواء عاشوا فى المدينة أو فى إحدى قرى هذه الرقعة من الأرض .

وقد يكون لرقعة الأرض وللمدينة أسماء مختلفة فى بعض الأحيان ، وهكذا نرى أن أتيكا هى رقعة الأرض التى يقطنها الآثينيون وهى تشمل أثينا أى « البوليس » بالمعنى الضيق وبيريه وقرى عديدة ، ولكن مجموع الأهالى كانوا آثينيين لا آتيكيين والمواطن مهما عاش فى أى جزء من أتيكا فهو آثينى .

بهذا المعنى تكون « البوليس » هى الدولة عندنا . وفى مسرحية سوفوكليس Sophocles المسماة « انتيجونا » Antigone يتقدم كريون Creon ليعلن أول تصريح له بصفته ملكا فيقول « سادتى ! أما بالنسبة « للبوليس » فقد أخرجتها الآلهة سالمة من العاصفة وأرستها على بر الامان . » هذه هى الصورة المألوفة « لسفينة الدولة » ونحن نظن أننا نعرف جلية الأمر ولكنه يقول فى المسرحية بعد ذلك ماينبغى طبعاً أن نترجمه بقولنا « لقد تم إعلان اعتلاء الملك للعرش » وإن كان هو يقول فى الحقيقة « لقد أعلنت « للبوليس » عن اعتلائه للعرش » أى للشعب لا « للدولة » ثم يتشاجر الملك فى المسرحية بعد ذلك مع ابنه شجاراً عنيفاً ويصرخ قائلا « ماذا ! هل هناك أحد سواى يحكم فى هذه الأرض ؟ فيجيبه هايمون Haemon : « هذه ليست « بوليس » يحكمها رجل واحد فقط » ، فيوضح الجواب جانباً هاماً آخر من فكرة « البوليس » كلها وهو أنها مجتمع وأن شئونها تخص الجميع . أما موضوع الحكم الفعلى فكان من الجائز أن يوكل إلى ملك يتصرف باسم الجميع طبقاً للعادات التقليدية أو إلى رؤساء عائلات نبيلة معينة أو إلى مجلس من المواطنين الحائزين لقدر معين من الممتلكات أو إلى المواطنين جميعاً . كل هذه وكثير من التعديلات التى أدخلت عليها كانت أشكالا طبيعية للحكم تمتاز جميعاً عند الإغريق عن الملكية الشرقية التى كان الملك فيها غير مسئول فهو لا يحمل سلطانه أمانة تفضلا من الله إذ أنه هو نفسه كان إلها . ومتى كانت هناك حكومة غير مسئولة كان ذلك يعنى أنه لم تكن هناك « بوليس » . فهايمون يتهم أباه بأنه يتكلم كأنه حاكم مستبد(١) « Turannos » يعمـــل على هدم « البوليس » لا « الدولة » :

---

(١) انى أفضل استخدام لفظ Turannos الإغريقى لهذه الكلمة العربية (ظاهريا) فهو المقابل الإغريقى لكلمة (ديكتاتور) وإن لم يحمل بالضرورة معنى كلمة مستبد .

فلنستمر فى إيضاح معنى الكلمة . إن الجوقة (المجموعة) فى مسرحية أريستوفانيس المسماه « أهل أخارنيا » حينما أعجبت بسلوك البطل توجهت إلى الجمهور برجاء هاك ترجمته الحرفية ، هل ترون أيها « البوليس » بأجمعه ؟ » وقد تترجم الكلمات الأخيرة أحياناً هكذا « يامن تزدحم بكم المدينة » وهى عبارة ذات جرس أفضل ولكنها تخفى نقطة جوهرية هى أن حجم « البوليس » جعل فى إمكان الفرد أن يلجأ إلى كل مواطنيه شخصياً ، وهذا ما كان يفعله بالطبع حينما كان يرى أن فرداً آخر من أفراد « البوليس » قد آذاه . فقد كان مفروضاً عند عامة الإغريق أن « البوليس » تستمد أصلها من الرغبة فى العدالة إذ أن الأفراد لا يلتزمون القانون أما « البوليس » فإنها تهتم برفع المظالم لا عن طريق جهاز متقن من أجهزة عدالة الدولة لأن مثل هذا الجهاز لا يمكن إدارته إلا بواسطة الأفراد وهم الذين قد تعوزهم العدالة كالمبدء الأصلى . إن الطرف الذى وقع عليه الظلم يتأكد من نيله العدالة إذا أمكنه أن يصرح بظلمته « للبوليس » بأكمله والكلمة هنا على ذلك تعنى « الناس » وهو ما يميزها تمييزاً فعلياً عن «الدولة» .

وكذلك سترينا يوكاستا locasta الملكة المحزونة فى مسرحية « أوديب Oedipus » شيئاً آخر عن مدى ماتعنيه هذه الكلمة . لقد تساءل الناس عما إذا كان زوجها أوديب هو الرجل الملعون الذى قتل الملك السابق لايوس فصاحت يوكستا « لا . لا ! هذا غير ممكن لقد قال العبد ان « لصوصاً » هم الذين هاجموه لا لصاً واحداً وهو لا يمكن أن يتراجع فى كلمته الآن فقد سمعته « البوليس » لا أنا وحدى . فالكلمة مستعملة هنا دون أن تقترن بالسياسة بتاتاً فهى ، إن جاز لنا أن نقول ذلك ، بعيدة عن محيط العمل الرسمى ومعناها « جميع الناس » . وهذا المعنى ليس بارز الاستعمال على الدوام وإن يكن موجوداً .

ثم أن ديموستينيس Demosthenes الخطيب يتحدث عن رجل « يتجنب المدينة » إذا لجأنا إلى الترجمة الحرفية التي قد تؤدي بغير الحريص إلى الظن بأنه كان يعيش فيما يشبه إقليم البحيرات أو « بيرلى » ولكن عبارة « يتجنب البوليس » لا تقصد الكلام عن محل سكناه فهي تعني أنه لم يكن يشترك في الحياة العامة ولهذا كان يتصف بنوع من الشذوذ لأنه لم تكن تهمه شئون المجتمع .

قد عرفنا الآن ما يكفي عن كلمة « بوليس » لكي نتحقق من عدم إمكان ترجمة مثل الجملة العادية الآتية :

« إن واجب كل إنسان أن يعاون « البوليس » . إذ لا يمكننا أن نقول « أن يعاون الدولة » فإن ذلك لا يبعث فينا الحماسة لأن الدولة لا « المجتمع » هي التي تأخذ منا نصف دخلنا ، والمجتمع عندنا من الكبر والتنوع بحيث لا يمكننا الإحاطة به إلا نظريا . إن كلمات « قريتي » و « نقابتي » و « طبقتي » هي ذوات موجودة لها معنى ندركه في الحال ، أما عبارة « يشتغل من أجل المجتمع » فمع أنها إحساس جدير بالإعجاب إلا أنه بالنسبة لأكثرنا غامض ضعيف . فما الذي كانت تعرفه أكثر أجزاء بريطانيا العظمى عن « المناطق المنكوبة » في سنوات ما قبل الحرب ؟ وإلى أي مدى يفهم أصحاب البنوك وعمال المناجم والمزارع بعضهم بعضاً ؟ أما كل إغريقي فقد كان يعرف « البوليس » فإنها كانت قائمة بأكملها أمام عينيه فكان يستطيع أن يرى الحقول التي تمدها بالغذاء أو لا تمدها به إن أصاب المحاصيل التلف ، كما يستطيع أن يرى كيف تداخلت الزراعة والتجارة والصناعة بعضها في بعض . وكان يعرف الحدود التي كانت فيها قوية أو ضعيفة . وإن كان بعض المتذمرين يدبرون انقلاباً فقد كان من الصعب عليهم مداراة هذه الحقيقة . كان أسهل على الإغريق إذن « أن يدركوا « البوليس » كلها والعلاقة بين أجزائها نظراً لصغر نطاق الأشياء عندهم ، ولهذا فعبارة « إن واجب كل إنسان أن يعاون

البوليس ، لم تكن تعبيراً عن شعور رقيق بل عن أبسط وألزم أنواع الإدراك السليم (١) فقد كان للشئون العامة وجود ملموس — ومساس بالأفراد أكثر مما يمكن أن يكون لها عندنا .

وإليك مثالا على هذه النقطة يعيننا على الفهم . كانت الديمقراطية الآثينية تفرض الضرائب على الأغنياء بمثل الغيرة النزيهة التى تفرضها بها الديمقراطية البريطانية ، إلا أنها كانت تفعل ذلك بطريقة الطف ، لمجرد أن الدولة كانت صغيرة جداً ولأن معرفة المواطنين بعضهم لبعض كانت وثيقة جداً . فالمفروض أن دافع الضريبة الإضافية عندنا يدفع مثل دافع ضريبة الدخل . ولكنه يكتب الشيك الخاص به معتقداً أنه يذهب إلى « بالوعة المجارى » . أما فى أثينا فمن كانت ثروته تزيد عن مبلغ معين كان عليه أن يؤدى « واجبات عامة» معينة أو بعبارة أخرى يؤدى أعمالا للشعب ، فكان عليه مثلا أن يقوم بتجهيز سفينة حربية لمدة سنة (وله الحق فى قيادتها إن شاء) أو أن يمول إنتاج مسرحيات تعرض فى المهرجان أو أن يجهز موكباً دينياً بما يلزمه . وقد كان هذا عبئاً ثقيلا لايرحب به أحد دون شك وإن كان من الممكن أن يجد فيه بعض التسلية على الأقل أو بعض الفخر ، فقد كان المرء يحظى بالسرور والشرف إن أخرج « ثلاثية » من المسرحيات إخراجاً جديراً بالإعجاب أمام إخوانه المواطنين . وهكذا نجد فى حالات أخرى لا تحصى ان حجم « البوليس » قد جعل ما نعتبره نحن معانى مجردة ليس إلا أو واجبات متعبة أشياء ملموسة حية . وقد كان هذا بطبيعة الحال سلاحاً ذا حدين . إذ أن القائد غير الكفء أو السيء الحظ مثلا كان هدفاً لا لغضب لا يضر لأنه موزع على الشعب بل كان هدفاً للاتهام المباشر . فلربما حاكمه وطلب إعدامه مجلس كان هو قد ساق كثيراً من أعضائه السابقين للموت .

---

(١) ولم يكن يترتب على ذلك طبعا أن الإغريق كانوا يلتزمون جادة « الادراك السليم » أكثر منا .

وخطبة بريكليس التأبينية التي دونها أو أعاد إنشاءها ثوكوديديس توضح مساس الشئون العامة بحياة الأفراد وتضيف شيئاً إلى فكرتنا عن «البوليس». فثوكوديديس يخبرنا أنه كان إذا مات بعض المواطنين فى الحرب وهو أمر كثيراً ما كان يحدث ، فقد كان على رجل تختاره « البوليس » أن يلقى خطاباً لتأبينه . والذى يقوم بتعيين مثل هذا الرجل فى أيامنا هذه هو رئيس الوزراء أو المجمع الأدبى البريطانى أو الإذاعة البريطانية . ولكن جرت العادة فى أثينا أن يختار المجلس رجلا قد اعتاد أن يخطب كثيراً فيه . وفى هذه المناسبة خاصة خطب بريكليس من فوق منصة عالية لكى يصل صوته إلى أكبر عدد ممكن ، فلنتمعن فى عبارتين استخدمهما بريكليس فى هذه الخطبة .

إنه يقارن « البوليس » الأثينى بالإسبرطى ويشير باهتمام إلى أن الإسبرطيين لا يسمحون بدخول الزوار الغرباء عندهم إلا وهم كارهون ، « بينما نحن نجعل « بوليسنا » للجميع . » فالبوليس » هنا ليست هى الوحدة السياسية ، وليس الأمر أمر إعطاء الأجانب جنسية البلاد وهو ماكان يفعله الإغريق نادراً لمجرد أن البوليس كانت اتحاداً وثيق الترابط . فالذى يقصده هنا بريكليس هو« أننا نفتح الباب على مصراعيه ليتاق الجميع ثقافتنا العامة » . كما يتضح ذلك من الكلمات التالية وإن تكن صعبة الترجمة « كما أننا لا نحرمهم من أى تعليم أو أية حفلة عامة » وهى كلمات لا يكاد يكون لها معنى حتى نتبين أن الدراما سواء منها المأساة والملهاة أو إنشاد الفرق للأناشيد الدينية أو القراءات العامة من هومر أو الألعاب كانت كلها ضرورية للحياة السياسية كما كانت تعتبر أجزاء عاديه من هذه الحياة . هذا ما كان يجول بذهن بريكليس وهو يتحدث عن التعليم والحفلات وفتح البوليس على مصراعيها للجميع .

غير أن علينا أن نتابع البحث أكثر من ذلك . إن قراءة الخطبة تدل على أن بريكليس في مدحه للبوليس الأثينية إنما يمدح ما هو أكثر من الدولة والأمة والشعب . إنه يمتدح أسلوباً من أساليب الحياة ، فهو لا يقصد أقل من ذلك عندما يسمى أثينا بعد الذى ذكرناه بقليل « مدرسة اليونان » . وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ ألسنا نمتدح أسلوب الحياة الإنجليزى ؟ حقاً إن فكرة كون الدولة عليها أن تحاول جدياً تحسين أسلوب الحياة تبعث فى أكثرنا الرعب . لقد كان الإغريق يفكرون فى البوليس على أنها شىء فعال خلاق يدرب عقول المواطنين وخصالهم أما نحن فنفكر فيها على أنها جهاز يعطينا الأمن والراحة . إن تدريب الناس على الفضيلة الذى تركته الدولة فى العصور الوسطى بين يدى الكنيسة والذى جعلته « البوليس » شغلها الشاغل تركته الدولة الحديثة لمن لا يعلمه إلا الله .

« فالبوليس » إذن التى كان معناها « القلعة » فى الأصل قد يبلغ بها الأمر أن تعنى حياة مجتمع من الناس بأكمله بما فى ذلك حياته السياسية والثقافية والخلقية بل والاقتصادية كذلك . وإلا فكيف نفهم غير ذلك من جملة أخرى وردت فى نفس الخطبة وهى « إن حاصلات العالم كله تأتينا نظراً لاتساع بوليسنا » فلابد أن معنى الكلمة « ثروتنا القومية » .

وقد كان الدين أيضاً مرتبطاً بالبوليس وإن لم يكن ذلك يعنى كل شكل من أشكال الدين(١) فقد كان الإغريق يعبدون آلهة أوليمبوس بالفعل فى كل مكان . فإن لم يكن لكل « بوليس » آلهتها الخاصة فقد كان لها على الأقل نظمها الخاصة بعبادة هذه الآلهة وعلى ذلك فقد كانت أثينا ربة « البيت النحاسى » تعبد فى أسبرطة غير أن أثينا لم تكن قط بالنسبة للأسبرطيين ما كانت عند الآثينيين وهى « أثينا بولياس Polias » أى أثينا حامية المدينة .

---

(١) مثل ديانات الأسرار .

وهكذا كانت هيرا فى أثينا ربة يعبدها النساء على الخصوص باعتبارها ربة المدفأة والبيت ، أما فى أرجوس فقد كانت هيرا الإغريقية أسمى معبودات الشعب .

ونحن نجد بين هـــذه الآلهة معبودات قبلية مثل جيهوفا موجودة فى مستويين فى وقت واحد إن جاز لنا أن نقول ذلك ، أى بصفتها آلهة لكل « بوليس » على حده وباعتبارها آلهة الجنس الإغريقى بأكله . ولكن إلى جانب هذه الآلهة الأوليمبية كان لكل « بوليس » معبوداتها المحلية الصغيرة كالأبطال وعرائس البحر والجبال . وكان كل منها يعبد طبقاً لطقوسه العريقة فى القدم والتى ما يكاد يتصور أحد وجودها خارج المكان المعين الذى كانت تمارس فيه الطقوس . ولذلك فرغم نظام الآلهة الأوليمبية الذى ينتظم بلاد الإغريق جميعاً وبالرغم من الروح الفلسفية التى جعلت الآلهة القبلية المجردة مستحيلة بالنسبة للإغريق فإن قولنا إن « البوليس » وحدة دينية وسياسية مستقلة يمكن أن يكون صحيحاً بوجه من الوجوه . لقد كان فى إمكان شعراء المآسى على الأقل أن يفيدوا من الاعتقاد القديم بأن الآلهة تهجر المدينة التى تكون على وشك السقوط فى يد العدو فقد كان الآلهة شركاء فى رفاهية المدينة ولكن لا تدركهم الأبصار .

ويمكننا أن نرى بأجلى مظهر كيف كان التفكير الدينى والتفكير السياسى مرتبطين أوثق الارتباط فى « الأوريستيا Orestia » التى كتبها ايسخولوس فقد كانت هذه تدور حول فكرة العدالة ، فهى تنتقل من الفوضى إلى النظام ومن النزاع إلى الصلح ، وهى تتحرك فى مستويين فى نفس الوقت أحدهما إنسانى والآخر إلهى . وفى مسرحية أجامنون نرى أحد قوانين العالم الأخلاقية وهو أن الجريمة لابد أن تستتبع العقاب ، يتحقق بأعظم الطرق البدائية الممكنة . فالجريمة تستدعى جريمة أخرى تثأر لها وهكذا دواليك

فى سلسلة ليس لها نهاية فى الظاهر ولكنها تحظى دائماً بتأييد زيوس . وتصل هذه السلسلة من الجرائم إلى ذروتها فى « خويفوروى Choephoroi عندما ينتقم أوريستيس Orestes لأبيه بقتل أمه ، وهو يفعل ذلك على كره منه لأن ابوللون بن زيوس الذى يتكلم أوريستيس بلسانه يأمره بذلك . لماذا ؟ لأن كليتمنسترا بقتلها الملك وهو زوجها فى نفس الوقت قد ارتكبت جريمة إن لم تعاقب عليها فإنها تحطم كيان المجتمع ذاته . إن الدفاع عن النظام يهم الآلهة الأوليمبيين فهم آلهة « البوليس » بصفة خاصة ولكن قتل أوريستيس لأمه يسىء أبلغ إساءة إلى أعمق الغرائز الإنسانية ولذلك تطارده معبودات أخرى دون هوادة هن ربات الانتقام . وليس لربات الانتقام اهتمام بالنظام الاجتماعى ولكنهن لا يستطعن السماح بهذه الإساءة البالغة إلى قدسية رابطة الدم التى تقوم وظيفتهن على حمايتها . وفى مسرحية اليومينيديس Eumenides يقوم صراع رهيب بين ربات الانتقام العريقات فى القدم والآلهة الأوليمبيين الذين يصغرونهن بشأن أوريستيس التعيس .

والحل هو أن تأتى أثينا بقرار جديد من زيوس من شأنه التخفيف ، وهو أن تقوم هيئة محلفين من المواطنين الأثينيين بمحاكمة أوريستيس على الأكروبوليس حيث هرب أوريستيس طلباً للحماية . فكان هذا أول اجتماع لمجلس الأريوباجوس Areopagus المختص بالمحاكمات . وتساوت أصوات المحلفين بالنسبة للطرفين فبرئت ساحة أوريستيس من باب الرأفة . أما ربات الانتقام اللاتى حرمن من فريستهن المشروعة عن طريق التحايل فقد هددن بتخريب أتيكا . ولكن أثينا أغرتهن أن يتخذن أثينا وطنا لهن دون أن تلغى وظيفتهن القديمة (كما كن يعتقدن فى أول الأمر) بل زادت إلهامهن فقد تقرر منذ ذلك الوقت أن يعاقبن أعمال العنف داخل نطاق « البوليس » وليس فى محيط العائلة فقط .

وهكذا صارت البوليس عند أيسخولوس بعد أن بلغت تمام نموها وسيلة

لتنفيذ القانون دون إحداث شيء من الفوضى ، إذ تحل العدالة محل الانتقام الخاص وبذلك يتم التوفيق بين مطالب السلطة والغرائز البشرية ، وتختتم سلسلة المسرحيات الثلاث المتتاليات بمشهد رائع عظيم التأثير ، فيه تستبدل ربات الانتقام الرهيبات ارديتهن السوداء بأخرى حمراء إذ لم يعدن ربات للانتقام بل ربات للخير Eumenides. كما لم يعدن خصيمات لزيوس بل صرن أعواناً له طائعات مكرمات مدافعات عن نظامه الاجتماعى الذى بلغ حد الكمال ضد أعمال العنف الحيوانى ، وبدأن يخرجن من المسرح القائم عند سفح الأكروبوليس أمام أعين المواطنين الأثينيين المجتمعين فيه يقودهن المواطنون القائمون على حفظ النظام إلى بيتهن الجديد فى الجانب الآخر من الأكروبوليس . وهكذا حلت طائفة من أعنف مسائل الإنسان الخلقية والاجتماعية وكانت وسيلة التصافى هى « البوليس » .

كان على المواطنين أيضاً أن يخرجوا من المسرح فى ذلك اليوم من بواكير ربيع سنة ٤٥٨ ق . م . من نفس الأبواب التى خرجت منها ربات الخير ولكن فى أية حالة عاطفية ؟ من المؤكد أن مثل هذه التجربة لم تقع لأى جمهور منذ ذلك الحين الذى أدركت فيه « البوليس » الأثينية ذروة مجدها عن ثقة واطمئنان ، لقد كان فى هذه الثلاثية نشوة روحية إذ رأى الأثينيون « البوليس » الخاصة بهم تبدو كنموذج للعدالة والنظام أو لما كان يسميه الإغريق العالم Cosmos ، فالبوليس التى رأوها كانت أو من الممكن أن تكون ذروة كل شيء . لقد رأوا ربتهم نفسها تترأس أول محكمة قضائية ، وهذه فكرة باعثة على السكينة والطمأنينة كما كانت تتضمن أكثر من ذلك . فالديمقراطية الناهضة قد قللت منذ وقت قريب من سلطات محكمة الأريوباجوس القديمة كما أن المصلح السياسى قد اغتاله أعداؤه السياسيون ،

ثم ماذا كان حال ربات الخير ساكنات البلاد الرهيبات اللائى تحولن إلى ذلك بعد أن كن ربات انتقام وظيفتهن الأخذ بثأر دم الأقارب المسفوح ؟ لقد كان هناك إنذار كما كانت هناك نشوة فرح فى فكرة أن « البوليس » يسكنها الأرباب وأفراد الشعب على السواء، فكانت بها آثينا من بين الأرباب الأولمبيين الذين أشرفوا على تكوين المجتمع المنظم كما كانت بها المعبودات الأقرب إلى البدائية وهن اللاتى أغرتهن آثينا بقبول هذا الأسلوب من أساليب الحياة المتحضرة واللائى سرعان ما كن يعاقبن كل من هدد استقرار البلاد بعمل من أعمال العنف الداخلية .

كان تفكير إيسخولوس الدينى متشبعاً إلى هذا الحد بفكرة «البوليس» ولم يكن هذا حال إيسخولوس وحده بل حال الكثيرين من مفكرى الإغريق الآخرين كذلك لا سيما سقراط وأفلاطون وأرسطو . فقد ذكر أرسطو عبارة نترجمها نحن ترجمة تعوزها الدقة إلى أقصى حـــد بقولنا إن الإنسان حيوان سياسى ! أما حقيقة ما قاله أرسطو فهو « إن الإنسان مخلوق يعيش فى « بوليس » كما أن ما تصدى أرسطو لإثباته فى كتابه السياسية هو أن « البوليس » هى الإطار الوحيد الذى يستطيع الإنسان داخله أن يحقق طاقاته الروحية والخلقية والفكرية على أكمل وجه .

هذا بعض ما تتضمنه هذه الكلمة من معان وسنقابل مزيداً منها فيما بعد ، إذ أنى تعمدت أن أذكر القليل عن معناها السياسى المحض وذلك لأؤكد الحقيقة القائلة إنها أكثر بكثير من أن تكون نوعاً من أنواع التنظيم السياسى . لقد كان « البوليس » مجتمعاً حياً مؤسساً على صلة الرحم الحقيقية أو المفروضة ، بمعنى أنه كان عائلة كبيرة يتحول فيها أكبر قدر ممكن من الحياة إلى حياة عائلية ، وفيه بالطبع منازعاته العائلية التى كانت مرارتها أشد لأنها كانت منازعات عائلية .

هذا هو ما يفسر لنا لا « البوليس » فحسب بل كذلك الكثير مما صنعه الإغريق وفكر فيه ويوضح لنا أنه كان اشتراكياً بصفة جوهرية أما فى كسب قوته فقد كان فردياً بصفة أساسية وكان فى إشباع حياته شيوعياً بصفة جوهرية . فالدين والفن والألعاب ومناقشة كل شىء كانت كلها ضرورات للحياة لا يمكن قضاؤها إلا عن طريق « البوليس » لا عن طريق تطوع جمعيات مكونة من أشخاص ذوى مشارب متشابهة كما هى الحال عندنا أو عن طريق متعهدين ينشدون رضا الأفراد (وهذا يفسر لنا إلى حد ما الفرق بين الدراما الإغريقية والسينما الحديثة) ، ثم إن الإغريق كان يريد أن يقوم بدوره فى إدارة شئون المجتمع . وعندما ندرك مبلغ ما تمتع به الإغريق من ضروب النشاط الشائقة والمثيرة والضرورية للحياة عن طريق « البوليس » وأن هذه الضروب كانت تمارس فى الهواء الطلق على مرأى من نفس الأكروبوليس كما كانت تحيط بكل فرد فى الدولة نفس الحلقة من الجبال ونفس البحر — عند ذلك يصبح فى ميسورنا أن نفهم التاريخ الإغريقى وأن نفهم أنه رغم ما كان يقتضيه الإدراك السليم لم يستطع الإغريق أن يحمل نفسه على أن تضحى « بالبوليس » وبما فيها من حياة واضحة جلية شاملة فى سبيل وحدة أوسع وإن تكن أقل أمتاعاً له . وربما جاز لنا أن ندون محاورة خيالية بين إغريق قديم وعضو حديث فى الأثينيوم(١) . فالعضو يأسف على ما كان يبدو عند الإغريق من الافتقار إلى الشعور السياسى . فيسأله الإغريق « كم هناك من الأندية فى لندن ؟ » فيقول العضو وهو يحزر : « نحو خمسمائة » فيجيبه الإغريق « لو تضافرت هذه الأندية جميعاً فكم تكون فخامة العمارة التى يبنونها . إنهم ليحصلون إذ ذاك على ناد فى سعة حديقة هايدبارك » فيجيبه العضو « ولكن هذا لن يكون نادياً »

---

(١) ناد أدبى فى لندن (المترجم) .

وعندها يقول الإغريق « صحيح جداً وكذلك لن تكون « البوليس » التى فى اتساع مدينتكم « بوليساً » .

وبعد فإن أوربا الحديثة رغم ثقافتها المشتركة ومصالحها المتبادلة وسهولة مواصلاتها تجد من الصعب أن تقبل فكرة الحد من السيادة القومية ولو أن ذلك يزيد من طمأنينة الحياة دون أن يزيد بشكل ملحوظ من كآبتها . لقد كان من الجائز أن يكسب الإغريق أكثر بجعل البوليس أقل رواء ولكن كم كانت تزداد خسارته بذلك . إن الذى جعل أخيليس عظيما لم يكن هو الإدراك السليم بل صفات أخرى .

(٦)

بلاد الإغريق الكلاسية ، العصر القديم

إن الخريطة الحديثة للبحر المتوسط والمياه المجاورة مليئة بالأسماء الإغريقية ، فسباستبول والإسكندرية وبنغازى وبطبيعة الحال أبولونيا التى تجاورها والتى لا تعرف صحفنا هجاءها الصحيح لأن عبادة أبوللون غير قوية فى شارع الصحافة — وسرقوسة ، ونابلى وموناكو . كل هذه الأسماء ، ومئات غيرها إغريقية الأصل ولو أن كثيراً منها حرفت إلى حد كبير بعد أن لاكتها الألسن الأجنبية طوال القرون ، وكثير منها لا يرجع إلى العهد الكلاسى القديم . أما الإسكندرية فإنها تخلد ذكرى مؤسسها الإسكندر الأكبر الذى سنختتم به هذا المجلد . وسباستبول هى اللفظة الإغريقية التى تعنى «مدينة أوغسطس» فهى إذن مؤسسة منذ زمن الإمبراطورية الرومانية ، وبنغازى هى بيرنيكا اللفظة الإغريقية المقدونية لفرينيكا Pherenike أى « جلابة النصر » وهو إسم إحدى ملكات أسرة البطالمة المقدونية التى حكمت مصر منذ عهد الإسكندر (٣٢٠ ق . م) حتى كليوباترا التى خلبت لب قيصر وشكسبير وشو . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً جداً من هذه الأسماء يرجع إلى الفترة التى ندرسها الآن أى إلى القرن الثامن والسابع والسادس ق . م . وقد بدأت مرسيليا حياتها باسم ماسيلا وقد أسس الإغريق ماسيلا Massilia حوالى سنة ٦٠٠ . وهذا الساحل يعتبر فى الحقيقة متحفاً للأسماء الإغريقية . وقد أخذت موناكو اسمها من معبد «هرقل مونويكوس Heracles Monoikos» ، أى هرقل الذى يعيش وحده » . ونيس كان اسمها نيكايا أى المنصورة . وعنتيب أصلها أنتيبوليس أى المدينة المقابلة . واجدى أصلها أجاثى Agathé أى المكان الطيب . كما أن جنوب غرب إيطاليا مملوء بالأسماء الإغريقية

فمثلا نابلي أصلها نيابوليس أي المدينة الجديدة وريجيو أصلها ريجيون أي الشق وسميت كذلك بالنسبة لوجود المضيق .

ولم يكن الشاعر الأيوني هومر يعرف شيئاً تقريباً عن غرب البحر المتوسط أو عن البحر الأسود . فقد كانت المعلومات عن هذه المناطق غامضة ومملوءة بالعجائب وكانت إيثاكا الواقعة بعيداً على الساحل الغربي من بلاد الإغريق تشير إلى حدود معرفته جهة الغرب ولا يبدو أنه كان متأكداً جداً حتى من إيثاكا . ومع ذلك في خلال ثلثمائة سنة على الأكثر نجد أن مدناً إغريقية قد استقرت لا حول بحر إيجه فقط بل كذلك في الأجزاء الأكثر اعتدالا من البحر الأسود بما فيها القرم وعلى طول الساحل الليبي وفي جنوب وغرب إيطاليا وصقلية وعلى الساحل الجنوبي من فرنسا والساحل الشرقي من أسبانيا . ولقد أصبحت صقلية والأجزاء المجاورة لها في إيطاليا تعرف بالفعل باسم «بلاد الإغريق الكبرى» ومن هذه لا من بلاد الإغريق الرئيسية استمدت روما أولا الحضارة الإغريقية .

ولم يكن هذا بأول توسع عظيم لبلاد الإغريق كما لم يكن آخر توسع لها . فقد رأينا كيف زحف الأيونيون (وغيرهم) نحو الشرق عبر بحر إيجه عندما جاء الدوريون ، ثم استقر الإغريق بعد ذلك بقرون في كل أملاك الإسكندر الجديدة — كما استقر بالفعل اليونانيون في أمريكا في القرن الماضي بأعداد كبيرة ، لدرجة أن المال الذي كانوا يرسلونه إلى وطنهم كان يكون جزءاً هاماً في الاقتصاد الأهلي . ولقد كان الإغريق عادة شعباً سريع التكاثر بينما طبيعة البلاد تفرض حداً معيناً جداً على عدد السكان ، وهذا صحيح فعلا حتى يومنا هذا في بلاد البحر المتوسط .

وما بلغنا عن أسباب حركة الاستعمار الكبرى التي بدأت حوالي سنة ٧٥٠ واستمرت نحو مائتي سنة وعن خط سيرها ضئيل للغاية ويبدو مؤكدا أن ازدياد عدد السكان هو سببه الرئيسي إلى حد معقول ولو أن عوامل

أخرى مثل الاضطراب السياسى والكوارث الآتية من الخارج لعبت دورها دون ريب . فمثلا عندما غزا قورش الأكبر أيونيا فى سنة ٥٤٥ فضل سكان مدينتى تينوس وفوكايا Phocaea الهجرة الجماعية على أن يعيشوا خاضعين لفارس . فاستقر سكان الجزيرة الأولى على ساحل تراقيا وأسسوا أبديرا ولكن سكان الجزيرة الثانية واصلوا السير وصمموا على الذهاب إلى كورسيكا فأغرقوا كتلة كبيرة من الحديد فى مينائهم (طبقاً للقصة الجميلة التى ذكرها هيرودوتوس) وأقسموا ألايعودوا حتى يطفو الحديد ، غير أن كثيرين منهم بعد أن بدأوا رحلتهم بوقت ليس بالطويل غلبهم الحنين إلى بلدهم فعادوا إليها ، أما باقيهم فقد استمروا حتى انضموا إلى مستعمرتهم التى كانت موجودة فى الاليا Alalia فى كورسيكا (وهى التى صارت اليريا Aleria فيما بعد ولا تزال موجودة كقرية صغيرة بهذا الاسم) .

ويبدو أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً جداً عن المستعمرات الأولى على الأقل ، فإنها لم تنشأ لأسباب تجارية ، فهى لم تكن « مراكز تجارية » فكل ما نعرفه عنها يوحى بأن « الأرض » هى وحدها التى كان يبحث عنها المستعمرون ، لأن الفلاح الإغريقى الذى يشتغل فى رقعة صغيرة جداً من الأرض كان يحيا حياة مزعزعة إذ أن توالى تقسيم قطعة الأرض المملوكة للعائلة سرعان ما كان يصل إلى النقطة التى تصبح فيها الزراعة المجدية مستحيلة ، وسنرى وشيكاعندما نتكلم عن أثينا أن هناك عادة مخالفة لأحكام الضمير وهى أن الممتلكات الكبيرة من الأرض تبتلع الممتلكات الصغيرة . والدعوة إلى إعادة توزيع الأرض كثيراً ما كانت تسمع فى بلاد الإغريق ، وقد كان الاستعمار صمام الأمان . وقد كان الفلاح الذى أصيب بالفقر مستعداً لتسليم قطعة الأرض المتضائلة المرهونه التى كان يمتلكها فى وطنه فى مقابل نصيب من الأرض الخالية فيما وراء البحار — وهكذا يمكنه أن يبدأ الكفاح من جديد فإما أن يتمتع بالرخاء هو وذريته فيصبحون ملاك الأرض النبلاء فى

« البوليس » الجديدة أو يفشلون فيصبحون على استعداد مرة أخرى للاستعمار أو للثورة .

ومع أن هدف الاستعمار الأول كان هو الأرض لا التجارة إلا أنه شجع التجارة والصناعة كليهما لدرجة أن بعض المستعمرات أنشئت فيما بعد رغبة فى التجارة دون الزراعة ، وكانت البلاد الجديدة تنتج أحياناً محاصيل تختلف عن محاصيل أرض بلادهم ، كما وطدت المستعمرات صلة الإغريق بالبرابرة الذين كانت عندهم أشياء شائقة للبيع . . وأصبح من الممكن الإفادة من بعض طرق التجارة القديمة كطريق العنبر الآتى من البلطيق وذلك بالاقتراب من حيث تبدأ ، وهكذا أصبح تبادل السلع أنشط ، وجلبت الاتصالات الجديدة أفكاراً جديدة ووسائل فنية جديدة ، فارتفع لواء الحضارة المادية تدريجياً بطريقة ليس فيها ظهور ملحوظ ، فكانت كورنثا مثلا وهى مدينة ذات موقع ملائم جداً للتجارة تشتغل ببناء السفن وصنع الأدوات البرونزية وترقية الأسلوب الطبيعى فى طلاء الآنية الفخارية بشكل لم تكن رأته بلاد الإغريق خلال عدة قرون ، على حين أن القرى الأركادية التى لم تكن تبعد عنها ثلاثين ميلا ظلت غير متأثرة بتاتاً بهذه الأشياء الجديدة . أما المدن الأخرى التى شاركت فى نمو التجارة والصناعة فهى إيجينا وخالكيس Chalcis فى يوبويا Euboea وميليتوس Miletus فى إيونيا . وقد اشتركت خالكيس فى أول حرب إغريقية فى العصور التاريخية وهى حرب مع جارتها أريتريا لامتلاك سهل ليلانتاين المجاور ، وقد تدخلت دول أخرى كثيرة مع كل من الجانبين مع أنه لم يكن لها مصلحة ظاهرة فى رقعة الأرض المتنازع عليها . ومن المحتمل أن المنافسات التجارية كانت تلعب دورها كذلك .

وإليكم طرفاً من الجانب السياسى للاستعمار ، فكلمة مستعمرة مضللة ولكنها كالعادة هى أحسن ما يمكن استعماله . أن المعنى الحرفى لكلمة

أبويكيا Apoikia الإغريقية هو «وطن بعيد» فالأبويكيا لم تكن تعني مطلقاً أي امتداد للمدينة الأصلية أي تبعية لها واعتماد عليها فقد كانت منشأة جديدة مستقلة. إن المدينة الأصلية كانت تنظم فوج المهاجرين وفي كثير من الأحيان كان يدعى أعضاء من المدن الأخرى للاشتراك فيه، إذ كانت المدينة الأصلية تختار من بين أفرادها قائداً رسمياً كان عليه أن يشرف على توزيع الأراضي الجديدة على المستعمرين، وكان يخلد اسمه تكريماً له بصفته «المؤسس». وقد جرت العادة أن تستشار عرافة دلفوى Delphi قبل محاولة إنشاء أية مستعمرة جديدة، ولم يكن هذا مجرد تأمين ديني ضد الأخطار المجهولة فإن دلفى كانت قد بلغت مركز الصدارة بين الأماكن الإغريقية المقدسة. ولما كان المستفسرون يستشيرون العرافة باستمرار من كل جزء من العالم الإغريقي ومن البرابرة أحياناً بالفعل فقد اكتسب كهنة دلفوى مقداراً كبيراً من المعلومات عن مختلف الأمور (فضلا عن النفوذ السياسي الهائل) فقد كان الإغريقي بذهابه إلى دلفوى لا يرجو أن ينال البركة وحدها من الكهنة إن جاز لنا أن نقول ذلك بل كان يطلب النصيحة المعتمدة على الخبرة من مكتب البحوث الاستعمارية.

وعندما كانت تنشأ المستعمرة كانت العلاقات التي تربطها بالمدينة الأصلية دينية وعاطفية محضة، وكانت النار التي تشتعل في مدفأتها العامة توقد من نار مجلوبة من المدينة الأصلية وكان المواطنون القادمون من المدينة يمنحون عادة بعض الامتيازات مجاملة لهم متى زاروا المستعمرة. فإذا تمخضت المستعمرة عن مستعمرة أخرى كان يراعى أن يطلب من المدينة الأصلية أن تعين مؤسساً للمستعمرة الجديدة. ولم يكن يوجد بينهما أي ارتباط سياسي بالمرة كما كان يمكن اعتبار الحرب التي تقع بين مدينة وإحدى مستعمراتها (كالحرب التي نشبت بين كورنثا وكوركيرا Corcyra وهي التي ورد ذكرها في الجزء الأول من كتاب ثوكوديديس) غير طبيعية وغير لائقة وإن

لم تعتبر ثورة وانفصالا ، ولهـــذا فإن تدفق الإغريق من بلاد الإغريق الأصلية ومن أيونيا ، مع أنه حمل معه النفوذ الإغريقى لكل جزء من البحر المتوسط إلا حيث كانت قرطاجة أو الأتروسكيون يقفون عثرة فى الطريق، لم يؤد إلى إنشاء إمبراطورية أو دولة إغريقية ، غير أنه كان يعنى فقط أن عدد « البوليس » الإغريقية قد زاد زيادة هائلة وأن عواطف المدن الأصلية ومنازعاتها قد أخذت تتكرر فى غيرها أيضاً .

وربما تساءل القارىء فى دهشة واستياء عما إذا كنا سنطلب إليه أن يتتبع تاريخ بضع مئات من الدول المستقلة فى وقت واحد ، وجوابنا على ذلك لا ، أولا لأن التاريخ السياسى يجب أن يوضع فى مكانه عند الكتابة عن شعب ما ، فهو قد يكون مجرد هيكل أو أسلوب من أساليب التعبير عن أخلاق الشعب ، وهو سواء كان خيراً أو شراً أحد مآثر الشعب وأن لم يحتو على قصته الكاملة ، وثانياً لأننا لا نعرف شيئاً مطلقاً عن أكثر هذه الدول كما أننا فى هذه الأيام نسجل الحقائق خدمة للتاريخ بحماسة فيها من مراعاة الضمير ما يجعل كتابة التاريخ مستحيلة . وبلاد الإغريق تضع مؤرخها على العكس فى مركز غير ملائم . إن فكرة تدوين الحوادث المعاصرة للإنسان فيما عدا قوائم أسماء القضاة والكهنة لم تكد تخطر بالبال قبل القرن الخامس ، وعندما ظهرت فعلا نجد أننا قد حصلنا لا على مجرد سجل للحوادث بل على تفسير لها كذلك فى نفس الوقت . ولكن حتى سجلاتنا عن القرن الخامس نادرة جداً ، أما بالنسبة للفترة التى سبقته فيبدو من المعقول لنا جداً أن ننظر بطريقة عامة جداً فى ثلاثة اتجاهات الواحد منها بعد الآخر . فلننظر أولا إلى أيونيا ثم إلى أسبرطة ثم إلى آثينا ، أما فى الفترات المتأخرة فسوف نركز اهتمامنا على آثينا ، أكثر من غيرها .

أيونيا

ظل الناس مدة طويلة يعتقدون أن الحضارة الإغريقية بدأت تفيق من العهد المظلم بين الإغريق الأيونيين أولا وأن الأيونيين هم الذين بدأوا يرتادون البحار ويؤسسون المستعمرات ويرقون الفنون ويعيشون تلك الحياة الكاملة الحرة التي أصبحت من خصائص الإغريق . فني أيونيا استمرت الثقافة المينوية القديمة باقية تتلكأ ، وفي أيونيا كان الاتصال المباشر بحضارات الشرق العريق . أما الآن فقد أصبح هذا الرأي عرضة للتحدي الشديد (ولا سيما من جانب د . م . كوك — صحيفة الدراسات الهيلينية ١٩٤٦) . ومن المسلم به أن الأدلة قليلة وليست مؤكدة غير أنه يبدو من الواضح بدرجة معقولة أن بلاد الإغريق الأوربية هي التي تزعمت الاستعمار وأن أول تأثير للشرق كان على الأجزاء الرئيسية من بلاد الإغريق على الأقل كما كان على الأيونيين ، فهومر وهو أول شاعر عظيم كان أيونيا غير أن أول نهضة لطلاء الأصص كانت في أتيكا .

وبالرغم من ذلك فإن ما نعرفه عن أيونيا في هذه الفترة القديمة يوحي لعقولنا بأنها كانت أكثر « عصرية » مما نعرف عن ثقافة أجزاء البلاد الرئيسية . ولا جدال في أن الحركة الفكرية العظيمة التي سنناقشها فيما بعد بدأت في أيونيا . وربما يرجع هذا الشعور « بالعصرية » فعلا إلى تأثير كل من الخلق والطبع الأيوني أكثر مما يرجع إلى أن الحضارة كانت أكثر تقدماً بها . ذلك لأن الأيوني كان أميل إلى الفردية من الإغريق الأوربي .

وقد أورد هيرودوتوس قصة لطيفة عن الأيونيين ليس من الضروري أن تكون صحيحة إذ أن هيرودوتوس لما كان كارياً من هليكرناسوس أي جاراً للأيونيين ، لهذا كانت عواطفه ضدهم تبعاً للقانون العام للجيران . وعلى الرغم من ذلك فمن الواضح أنه كان يتوقع أن تحظى هذه القصة بالتصديق

بين الأغريق الآخرين . ذلك أن قورش Cyrus العظيم ملك الفرس غزا الأيونيين، حوالي سنة ٥٥٠ ولكنهم ثاروا عليه بعد سنة ٥٠٠ بقليل فتجمع أسطول أيوني عند جزيرة ليد Lade الصغيرة . وألقى قائد الفصيلة الذي كان من فوكيا (على حد قول هيرودوتوس) خطبة لا تعوزها الثقة قال فيها « أيها السادة لقد تأزمت الأمور فإما أن نصبح أحراراً أو نكون عبيداً بل ونكون عبيداً آبقين حينذاك ، والآن إذا كنتم تريدون أن تتحملوا الشدائد مؤقتاً فإنه يمكنكم أن تهزموا العدو وتنالوا حريتكم ولكن إذا أصررتم على الكسل وعدم النظام فإني أخاف أن تدفعوا ثمناً غالياً لثورتكم فاستمعوا إلى وائتمنوني على أنفسكم لأني أتعهد لكم بالفوز ما لم تقف الآلهة معهم . فلما سمع الأيونيون ذلك وضعوا أنفسهم تحت رعاية ديونسيوس كما يقول هيرودوتوس : فأبحر بالسفن نهاراً وأخذ يدرب رجال المجاذيف على المناورات وحتم على الجنود من البحارة أن يرتدوا دروعهم الثقيلة مع أن شمس بلاد الإغريق لافحة ، فتحمل الأيونيون ذلك سبعة أيام رغم أنهم لم يكونوا قد اعتادوا ذلك ثم قال بعضهم لبعض « إلى أى إله أسأنا حتى وقع علينا هذا العقاب . هل أصبنا بلوثة فى عقولنا حتى سلمنا أنفسنا لمغرور أحمق من فوكيا التى لم تستطع أن تساهم فى الحرب إلا بثلاث سفن ؟ وها هوذا يأخذنا ويرهقنا بما لا طاقة لنا به ، إن نصفنا مرضى بالفعل وينتظر أن يصاب الباقون منا بالمرض عن قريب ، وليس هناك من عبودية أسوأ من ذلك فلنكف عن تحمل كل ذلك » وقد كفوا عن تحمل ذلك بالفعل كما قال هيرودوتوس . وبدلا من احتمال المشقة فوق ظهر السفن كانوا يقضون الأيام فى خيامهم على الشاطىء بطريقة أدعى إلى السرور مما أدى إلى النتيجة المحتومة .

إنها قصة تنم عن قصد سيء ولكن المبالغة التى تنم عن قصد سيء لابد لها من أصل ترتكز عليه ، فالأثر الذى تركه الأيونيون فى غيرهم من الإغريق

هو أنهم يعوزهم الجد والنظام ، ولقد وقفوا فى الحقيقة موقف الشجاعة من فارس ومع أن مدنهم المتفوقة لم تحافظ على ترابطها السياسى الذى كان من الممكن أن ينقذها إلا أنه لم يكن يليق بكثير من الإغريق أن يجعلوا من ذلك موضوع تقريع لهم . وتعطينا هذه النبذة المقتبسة من النشيد الهوميرى لأبوللون فكرة أيونية عن أيونيا :

غير أنك ياأبوللون تجد أعظم متعة لك فى جزيرة ديلوس Delos المقدسة التى يجتمع فيها الأيونيون هم وأولادهم وزوجاتهم وهم يجرون ثيابهم وراءهم ، وإن اشتغالهم بالملاكمة والرقص والغناء حين يأتى يوم المهرجان ليبعث فى نفسك السرور » .

« ولو أن إنساناً أقبل على الأيونيين وهم مجتمعون لقال إنهم لا تدركهم الشيخوخة ولا الموت . لأنه يرى لديهم جميعاً قسطاً كبيراً من الرقة والرشاقة ، وإنه ليسره منظر الرجال والنساء فى ثيابهم الجميلة كما يبتهج بمشاهدة سفنهم السريعة وممتلكاتهم العظيمة » .

إن الرقة والسحر هما سمتا الفن الأيونى كما أن القوة والجمال هما سمتا الفن الدورى . ويكفى أن يقارن الإنسان فن العمارة الأيونى بالدورى لكى يقدر ذلك . والاختلاف واضح جداً بين الخفة العامة التى فى الطراز الأيونى والزخارف الحلزونية الساحرة التى لرؤس الأعمدة الأيونية ، وبينما كان يحاول الدوريون والأيونيون على السواء أن يعبروا فى فن النحت عن الرياضى المثالى كان يجد الأيونيون لذتهم أيضاً فى المسائل التى تنشأ من حفر الصور المكسوة بالثياب ، كما حاولوا بنجاح بالغ أن يصوروا على الحجر مختلف أنسجة الجسم أو الصوف أو الكتان . فنحن نجد فى الفن الأيونى طابع الحسية البالغة الذى لا يظهر فى الفن الدورى . وكانت احتفالاتهم أيضاً أقل خشونة من احتفالات غيرهم . فكانت تبرز فيها الموسيقى والشعر

كما كانت أيونيا تترك فى النفس بوجه عام انطباعاً بهيجاً جداً فيه حيوية بالغة وهو يوحى ، بمجرد إيحاء ، بوجود نعومة شرقية فيه أو جنوبية على الأقل ، وليس مما يدعو إلى العجب أن نجد أفلاطون فى القرن الرابع يرفض الأساليب الأيونية فى الموسيقى والإيقاع باعتبارها شهوانية تبعث على الخور . ولكن يجب أن نتذكر أن أفلاطون رفض كثيراً من الأشياء الحسنة .

لقد كان القرن السادس هو العصر الذهبى للشعر الغنائى . فلقد انبعث الشعر الغنائى العاطفى من أيونيا دون سواها تقريباً إن جاز لنا أن نستخدم الإسم هذه المرة بمعنى جغرافى واسع كى يشمل شعراء ليسبوس Lespos الأيوليين وهم الذين تعتبر سافو Sapho أكبر فخر لهم . وليس لدينا من هذا الشعر الغنائى كله إلا النزر اليسير . ولدينا قدر كاف من شعر سافو (ذكر بعضه كتاب جاءوا بعد زمنها كما أن بعضه اكتشف حديثاً فى رمال مصر) يجعلنا نرى بأنفسنا كم كانت شاعرة عاطفية تجعل الإنسان يحبس أنفاسه من الروعة . وإن لم يكن لدينا من شعر أرخيلوخوس Archilochus (الأيونى) ما يكفى لندرك منه السبب فى أن الأقدمين وضعوه بعد هومر فى المرتبة .

قد أحببتك مرة فيما مضى من الزمان يا أتثس Atthis

لقد بقى لنا هذا البيت الجميل بلهجة سافو الأيولية لأن هفايستيون الذى كان مهتما بأوزان الشعر وكان غبياً شديد الغباء قد ذكره فى القرن الثانى الميلادى .

وقد اقتبس بلوتارخ الأبيات الآتية من الشعر المقذع فى مقال أخلاقى قائلا إن سافو كتبتها ضد سيدة غنية معروفة :

وحين تموتين ستـرقدين فى قبرك منسية إلى الأبد .

لأنك تحتقرين أزهار ربة الشعر الغنائى .
وسيجرى طيفك مع غيره فى ظلام هاديس .
كما يجرى هنا مغموراً لا يثير اهتمام أحد .

ويبدو أن مثل هذه الأبيات كانت هى العبارات السابقة واللاحقة لنبذة مليئة بالازدراء (مذكورة فى تعليق على بندار) وهى :

لقد خبت وبردت روح هؤلاء النسوة وخارت أجنحتهن .

وأشهر مقطوعة من شعر سافو الغنائى هى قصيدة الحب العاطفى الجياش التى وفق كل التوفيق فى نقلها إلى اللاتينية كاتولوس Catullus وهو الشاعر اللاتينى الوحيد الذى كان فى إمكانه ذلك . ولكن ليس الحب والكره هما كل ما طرقته من مواضيع الشعر كما ترى فيما يلى :

إن النجوم التى حول القمر الجميل
تستر جمالها المضىء مرة ثانية
عندما يكتمل القمر بدراً ويرسل نوره الوهاج
إلى الأرض كلها من تحته

ولا يكتب الشعراء الأيونيون الحقيقيون ، على قدر معرفتنا بهم ، بمثل العاطفة الجياشة التى تكتب بها سافو الأيولية ، ولكنهم يشبهونها كما أنهم لا يشبهون معاصريهم فى أسبرطه وأثينا الذين كانوا يكتبون فى مواضيع تهمهم كأفراد ، ومن النادر أن يكون شعرهم سياسياً مثل شعر ترتايوس Tyrtaeus وسولون Solon . وقد اشتهر أرخيلوخوس بهجائه الشخصى اللاذع أما أناكريون Anacreon فقد تغنى بالحب والخمر غناء مرحاً كما تغنى غناء حزيناً عن إقبال الشيخوخة . ولقد بقى من الشاعر الأيونى پوثرمس Pythermus بيت واحد فقط هو :

ليس هناك شىء آخر له أهمية غير المـال .

وهو شبيه جداً ببيت بيلوك Belloc : —

لكن المال يمنحني السرور دائماً .

وهناك بيت نموذجي آخر هو :

إني لأبغض المرأة الغليظة العقبين .

وكلنا نعرف قصة المرأة الأسبرطية التي قالت لإبنها وهو ذاهب للقتال « عد مع درعك أو عليه » ، لأن إلقاء الدرع كان فيه أعظم العار . ولكن أرخيلوخوس أمكنه أن يكتب ما يأتي بابتهاج واضعاً بذلك أساس أسلوب أدبي اتبعه هوراس بعد ذلك بأكثر من خمسمائة عام .

إن رجلا سعيد الحظ من تراقيا قد أخذ درعي العظيم .

فقد اضطررت إلى الفرار وألقيته في غابة .

ولكني نجوت والحمد لله .

أما الدرع فلسوف أحصل على آخر عظيم مثله .

إن هناك شيئاً جذاباً جداً عن الحياة الأيونية .

اسبرطه

لو أن أحد العلماء وجد هذا البيت من الشعر :

إني لأبغض المرأة الغليظة العقبين — في شذرة تشير إلى أنها لشاعر دوري :

لافترض في الحال أن هناك خطأ ما ، ولقد كان للأسبرطي ولا ريب أراؤه عن عقبي المرأة ولكن ما هكذا كان يكتب شعراء البلوبونيز فقد كان الدوريون أكثر رصانة كما أنهم كانوا أقل ميلا للفردية . فبينما كان الشعراء الأيونيون والأيوليون يكثرون من الكتابة عن حبهم وكرههم الشخصي كان ترتيوس في أسبرطه مهتما بحث مواطنيه ، على السمو إلى أعلى ذرى

البطولة ضد أعدائهم فى مسينيا Messenia ، كما أن الكمان Alcman كان يؤلف مدائح رصينة ولكنها جميـــلة . كانت تؤديها فرق الفتيات الاسبرطيات فى احتفالاتهن . وبينما كان الفلاسفة الأيونيون يكشفون طرقاً جديدة مثيرة من طرق التفكير مسترشدين فقط بمقدرتهم الفردية على استخدام العقل ظل الدوريون جميعاً يسيرون طبقاً لآرائهم ونظرتهم التقليدية إلى الأمور . وبينما كان المهندسون والنحاتون فى أيونيا ينشدون الرشاقة والتنويع كان أمثالهم فى البيلوبونيز يكافحون لإدراك الكمال متقيدين بنماذج قليلة صارمة . فالأيونى والدورى يمثلان كل التمثيل فكرتين متعارضتين عن الحياة — الفكرة المتحركة والفكرة الساكنة والفكرة الفردية والفكرة الجماعية والفكرة المركزية الطاردة والفكرة الجاذبة إلى المركز التى نستطيع أن نراها اليوم بالنظر إلى الغرب ثم إلى الشرق . وقد كان مقدراً لهذين الضدين أن يجدا التوفيق الذى كانا فى حاجة إليه فى أثينا مدة من الزمن . ومن هنا كان كمال الثقافة الآثينية فى عصر بريكليس . وكما أن النحت والعمارة فى أثينا كانا يجمعان بين الصرامة الدورية والرقة الأيونية وكما أن الدراما الآثينية جعلت من المديح الغنائى الجماعى ومن فن الممثل وحدة منظمة متناسقة فقد استطاعت كذلك الحياة الآثينية فترة قصيرة ان تجمع بين الحرية الأيونية والذكاء الفردى وبين الشعور الدورى بالنظام والتماسك ، غير أن هذا التوفيق من الآثينين كان ما يزال بعيداً فى أوائل الفترة الكلاسية .

لقد كانت اسبرطه ، التى ليس من السهل تقدير قيمتها ، تسيطر على الثقافة والتاريخ السياسى للبيلوبونيز وهو وطن الدوريين الرئيسى الوحيد . فقد كانت اسبرطه مدينة المتناقضات العجيبة التى لا يجد العقل الحديث أن من السهل إدراكها ، كما أن تاريخها القديم مجهول والأساطير فيه أكثر من الحقائق ، وهذه الحقائق الظاهرية يرجع الكثير منها إلى صياغتها من جديد طبقاً لفروض الفلاسفة المتأخرين ، إذ أن من متناقضات اسبرطه العديدة أن

هذه المدينة التي ثبت خواؤها بشكل بارز بين المدن الإغريقية في الشئون العقلية كانت تأسر دائماً لب فلاسفة الإغريق .

سبق أن رأينا كيف استولى الغزاة الدوريون على أكثر البيلوبونيز وكيف وطد الاسبرطيون أقدامهم بصفتهم أقلية متسلطة منعزلة في أحد الواديين اللذين يمتازان بأنهما من أخصب الوديان وأبعدها جنوباً عن الجزء الرئيسي من أوربا . ولو كان في وسعنا أن نقرر أن هذا الجنس الجرىء الذي كان يسكن الجبال والذي تغلبت عليه الحرارة والترف قد وقع خلال قرون قليلة في غيبوبة تكاد تكون شرقية لكان ذلك مما يسرنا . غير أن ذلك لم يحدث . إذ حدث العكس تماماً . فعندما انكمشت اسبرطه وسقطت لم يكن ذلك راجعاً إلى افتقارها إلى النشاط بل إلى حاجتها إلى المواطنين والأفكار ، وقد كانت مسئولية ذلك تقع عليها هي .

كان هناك حادثان حاسمان في التاريخ الاسبرطي لا نعلم شيئاً كثيراً عن أيهما . وقد كان أولهما هو تصميمهم على أن يظلوا بمعزل عن الشعب الذي قهروه . ونحن لا نعلم عن ذلك أكثر من مجرد هذه الحقيقة . ولو أننا نستطيع أن نرى أن ذلك نتيجة طبيعية لما يمكننا مشـــاهدته في تاريخهم كله وهو شعورهم القوى بأنهم مجتمع وثيق الارتباط بعضه ببعض . ولابد أنهم غزوا وادى يوروتاس السريع لأنهم جماعة عظيمة التنظيم تشعر أنها هي التي تقرر ما تريد . وظلوا دائماً على هذا الحال ، إذ لم يكونوا أفراداً يريدون أن يلائموا بين أنفسهم وبين نظام موجود من أنظمة الحياة بل كانوا مجتمعاً قد جاء ومعه نظامه الخاص الذي صمم على أن يحتفظ به ، ولذلك أصبح المجتمع في لاكيدايمون يتكون من طبقات مكونة بطريقة غير عادية (ولو أن ما يشبه ذلك قد حدث في تساليا) فقد كان الاسبرطياتيس Spartiates وهم الاسبرطيون الحقيقيون في القمة ومن دونهم البرياويكوى

Perioikoi أى الجيران . وهم طبقة من الأحرار لم تكن لهم حقوق سياسية ثم طبقة العبيد Helots فى القاع وهم ليسوا رقيقاً شخصيين للاسبرطيين بل رقيقاً للمجتمع الاسبرطى ، يشتغل أكثرهم فى الزراعة ويقدمون نصف المحصول للمواطنين المخصصين لهم .

أما الحادث الحاسم الآخر فإننا نعلم عنه أكثر من الأول بقليل ولو أننا لا نعلم عنه الشىء الكثير . ذلك أن التفريج الطبيعى لزيادة عدد السكان كما رأينا كان إرسال جالية للخارج . ولقد أرسلت أسبرطه جاليات كذلك ولو أنها لم تكن كثيرة جداً . وقد كانت تارنتم Tarentum واحدة منها . ولقد عالجت إسبرطه حاجتها الملحة إلى الأرض بطريقة أقسى من ذلك بكثير ، فقد غزت جارتها الغربية مسينيا واستولت على أرضها وحولت سكانها إلى رقيق . وقد كان مثل هذا الضم نادراً جداً فى بلاد الإغريق بسبب جلى هو أنه كان من المحال استغلال أرض الجار دون جيش قائم يسيطر عليها . وقد كانت اسبرطه هى الدولة الوحيدة التى كان لها جيش قائم فقد كانت طبيعة المواطنين تعتمد فى معاشها على عمل الرقيق .

على أن السيطرة على مسينيا كادت تكون أكثر من طاقة اسبرطه . فقد ثار أهالى مسينيا بعد الغزو بجيل أوجيلين أى حوالى نهاية القرن الثامن وكان من الواضح أن الثورة أمر بالغ الخطورة . ولم يقض عليها نهائياً قبل مضى حوالى عشرين سنة على ما يظهر . وإن إلحاح تورتايوس فى الرجاء والتشجيع لترينا أى جهود كان على اسبرطه أن تبذلها .

وقد ترتب على استعباد مسينيا أن صار الاسبرطيانيس أقلية فى بلادهم بصورة أشد من ذى قبل بل وأقلية مهددة كذلك . وربما كانت ثورة مسينيا هى التى دعت الاسبرطيين إلى اتخاذ نظام ليكورجوس Lycurgus الشهيرة. ونحن لانعرف شيئاً عن ليكورجوس وعما إذا كان حقيقة أو من

صنع الخيال (وقد قال ج . ب . بيورى وهو من أشد أنصار المذهب العقلى المنطق مايدل على طابع تفكيره وهو أن ليكورجوس لم يكن رجلا بل إلها فقط) . ومن الممكن أن تثبت أن كثيراً من هذه النظم ترجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، غير أننا نستطيع على الأقل أن نرى أن تغيراً هائلا حدث فى الحياة الاسبرطية حوالى هذا الوقت أى فى نهاية القرن السابع . فقد اختفى كل اللطف والجاذبية من الحياة الاسبرطية وأخذت المدينة تبدو فى مظهرها المألوف الذى تلوح عليه سيما الثكنات . لقد واجه «ليكورجوس» الموقف بمنطق لا يقبل الخطأ . فقد نظمت جماعة المواطنين طبقاً لما كان ينتظر من أقلية مسيطرة تتحكم وتستغل شعباً أكثر منها بكثير مكوناً من الرقيق النشيطين الخطرين .

وقد كان محرماً على الاسبرطى أن يشتغل بالزراعة أو التجارة أو أى مهنة إذ كان يجب عليه أن يكون جندياً محترفاً . فكانت له مزرعته التى يشتغل فيها الرقيق من أجله . وكان يتناول وجبات الطعام الرئيسية مع رفقائه علناً ويدفع نصيبه فى تكاليفها من مزرعته فإن عجز عن الدفع توقف مؤقتاً عن أن يكون مواطناً كاملا .

وكانت حياة الأسرة محددة تحديداً صارماً ، فالأطفال الذين يتقرر أنهم ضعفاء كانوا يعدمون ، وكان يعيش الأطفال مع أمهاتهم حتى سن السابعة ثم يتلقون من سن السابعة إلى الثلاثين نوع التعليم والتمرين العسكرى العام المناسب . وكانت الفتيات أيضاً تتلقى تدريباً مدنياً دقيقاً .

وكان هناك من الألعاب ما يلبس أثناءه الفتيات أقل الثياب حتى أن الإغريق أنفسهم كانوا يفزعون من ذلك . ولم يكن هناك تعليم رسمى فيه تثقيف للعقل ولو أن الإسبرطيين كانوا يؤكدون أهمية السلوك المتواضع وفضيلة الطاعة والشجاعة بالطبع . وقد كان إخضاع الرقيق يتم دون شفقة

فقد كانت هناك شرطة سرية مكلفة بقتل كل من يبدو خطره — هذا ما يقوله بلوتارخ وإن كان من الجائز أنه أخطأ الفهم .

ولم يهدف ليكورجوس إلى جعل هيئة المواطنين جهازاً حربياً كفئاً على استعداد دائم فحسب بل لقد تحمل شدائد غير عادية ليجعلها مكتفية اكتفاء ذاتياً وراكدة ، فلم تكن تشجع التجارة ولم تكن تسمح للزوار بالدخول إلا على كره . كما كانوا يطردون دون توان من وقت لآخر . وكانت الأفكار الأجنبية تستبعد مهما كلفهم ذلك (وقد يخطر ببال الذين لا يعرفون الحقائق حالة شبيهة بذلك فى وقتنا الحاضر) وفى الوقت الذى كان فيه لأثينا عملة متداولة عليها رقابة رشيدة كما كانت مقبولة فى كل مكان حتى فى بلاد الغال البعيدة ، كما كان لها فضلا عن ذلك نظام مصرفى مفيد جداً ، كانت اسبرطة ما تزال تستخدم عن عمد عملة حديدية قديمة قبيحة الشكل ولو أن استعمال الحديد إجبارياً فى بلادها لم يمنع الاسبرطيين الموجودين فى الخارج من رؤية مزايا الذهب الفائقة .

وكذلك كان دستورهم السياسى فى كثير من الأشياء يبدو مخالفاً للتفكير السليم . فقد كان لهم ملكان وهو ما يذكرنا بالقنصلين اللذين كانا على قدم المساواة (فى الجمهورية الرومانية) . وربما كان مرجع ذلك مختلفاً فى الحالتين ، غير أن النتيجة المطلوبة كانت واحدة . فى كل من الحالتين كانت الثنائية مانعاً من الحكم المطلق . وكان مما يقلل من شأن هذين الملكين فى وطنهما الأيفوروى . Ephors (أى المشرفون) وهم خمسة قضاة كانوا يختارون سنوياً بطريق الاقتراع السرى تقريباً . وقد كان أحد الملكين هو الذى يقود الجيش دائماً خارج البلاد . وكانت له عندئذ سلطات مطلقة . وكان هناك أيضاً مجلس الأعيان كما كان هناك مجلس للاسبرطيين جميعاً ، ولكنه لم يكن يستطيع المناقشة . فكان يعبر عن قراراته لا بالتصويت بل

بالصياح ، وهو ما كان يبعث على تسلية غيرهم من الإغريق . وكان الذى يكتب له الفوز هو أعلى صياح . وقد حير هذا الدستور واضعى النظريات من الإغريق المتأخرين وهم الذين اعتادوا أن يصنفوا كل شىء فى الأرض أو فى السماء فحاروا فى أمرهم هل يسمون ذلك الحكم ملكياً أم أرستقراطياً أم حكم الأقلية أم ديمقراطية . لقد كان دستوراً وصل إليه الاسبرطيون دون أن يلغوا أى شىء قديم (كالملوك مثلا) أو يتوسعوا فى شىء جديد إلى نتيجته المنطقية .

والمؤرخ إنما يؤدى واجبه عندما يشير إلى أن هـــذه الحياة السخيفة السلبية قد فرضها على الإسبرطيين تصميمهم على أن يعيشوا عالة على عمل الرقيق . وإلى أن جمودها قد أثبت فى نهاية الأمر أنها هدامة من الوجهة الخلقية والفكرية والاقتصادية . وإلى أن الحياة التى فرضها الإسبرطيون على الرقيق لابد أنها كانت كئيبة حتى ولو خامرتنا الريب فى أن التاريخ قد اهتم كعادته بتسجيل الجانب الكئيب ونسى ما عداه . غير أن المؤرخ لو وقف عند هذا الحد لما أدى كل واجبه . فقد كان لأسبرطة حتى حرب البيلوبونيز على الأقل روعة وتأثير فريد رغم وجود الرقيق ورغم هذا الجمود وهذا الجدب . وقد كان هناك عدد كبير من الإغريق ممن يعجبون إعجاباً شديداً بالمثل الأعلى للإسبرطيين على الأقل بل ويغبطونهم عليه رغم رؤيتهم عيوب إسبرطة بكل وضوح .

على أنه يهمنا أن ندرك أن هذه الحياة كانت مثلا أعلى لكل إسبرطى . ولقد تكلمت عن « استغلال » الرقيق (حتى أكون عصرياً) . ولو اشتمل هذا اللفظ على معناه الحديث لكان معنى ذلك أن المواطنين الإسبرطيين كانوا يعيشون فى دعة إلى حد ما على ثمرة جهد الرقيق . مع أن الحقيقة أن حياتهم كانت خشنة متقشفة بحيث لو خير الرجل الحديث لفضل أن يعيش

كالرقيق لا كالمواطن الإسبرطى . ولقد كانت هناك قصص لا تحصى عن إسبرطة والإسبرطيين . ومن المسلم به أن كثيراً منها سجله كتاب يحبون الإسبرطيين ، غير أن القصص الذى يعالج أسلوب الحياة الاسبرطية يشير كله إلى اتجاه واحد . فحين دعى أحد أهالى سيباريس المرفهين إلى تناول الطعام علناً فى إسبرطة مع الإسبرطيين قال « إنى أفهم الآن لماذا لا يخشى الإسبرطيون الموت !! » وقال زائر آخر عندما قدم إليه مرق إسبرطى أسود « أنتم فى حاجة إلى السباحة فى نهر يوروتاس قبل أن تتمكنوا من أكل ذلك » وعندما سئل الملك أجيسيلاوس Agesilaus عن أعظم فائدة قدمتها قوانين ليكورجوس للإسبرطيين أجاب « احتقار السرور » . وعندما رأى ديوجينيس Diogenes الزاهد وهو فى أولمبيا بعض شبان رودس فى ثياب جميلة جداً قال من فوره « هذا تكلف » فلما رأى بعض الاسبرطيين فى ثياب بالية قال « تكلف أعظم » .

أما أن كثيراً من أهل إسبرطة لم يعيشوا طبقاً للمثل الأعلى فى بلدهم فتلك ظاهرة نستطيع أن نفهمها بسهولة كبيرة . غير أن إسبرطة كان لها مثل أعلى بالفعل ، مثـــل شديد الإرهاق ولكنه كان يجعل قيمة لحياة الاسبرطى ويشعره بالفخر لأنه إسبرطى . وبطولة الجنود الاسبرطيين والنساء الاسبرطيات أسطورية وحقيقية معاً . وربما كنا أقل تأكداً من سلوك الاسبرطيين فى الحياة العادية لأن الإغريق الذين عرفوا إسبرطة معرفة كافية ليرووا عنها فيما عدا أهلها كانوا قليلين جداً ولكن القصة التالية من بلوتارخ مثل له دلالته . فقد أخذ رجل مسن أثناء الألعاب الأولمبية يتجول هنا وهناك باحثاً عن مقعد والجمهور يسخر منه ، فلما انتهى إلى حيث يجلس الاسبرطيون وقف كل شاب فيهم وكثيرون ممن تخطوا مرحلة الشباب وعرضوا عليه مكاناً للجلوس ، فهتف الجميع للإسبرطيين . وعندها قال الرجل المسن وهو يتنهد « إن الإغريق جميعاً يعرفون الصواب غير أن

الاسبرطيين وحدهم هم الذين يعملونه . إن الذى أثر فى الإغريق فى حقيقة الأمر ، حتى فيمن كانوا يمقتون الدولة الاسبرطية هو أن الاسبرطيين قد فرضوا على حياتهم نمطاً معيناً ونبذوا الكثير جداً من أجله . أما أن هذا النمط قد فرض عليهم من الخارج إلى حد بعيد فهو صحيح . إذ فرضه عليهم خطر الرقيق . غير أن من الحق أيضاً أنهم حولوا الإلزام الذى لم يفرض عليهم إلى إلزام اختيارى . ويجب على الإنسان عند دراسة التاريخ أن يحذر من رؤيته للشيء الواضح وتركه لما له مغزى ودلالة . والذى له مغزى هنا هو أن قوانين ليكورجوس كانت تهدف لا إلى مجرد إخضاع الرقيق إلى الدولة الإسبرطية بل إلى خلق المواطن المثالى ، وهذا مثل أعلى محدود ولكنه مع ذلك كان مثلا أعلى . إن الذى أعجب الإغريق هو أن قوانين إسبرطة قد أدت بصورة حاسمة جداً ما كان يعتقد الإغريق أنه أسمى وظيفة من وظائف القانون . إن فكرتنا عن القانون كلها رومانية إلى حد أننا نجد من الصعب علينا التفكير فى أن القانون أداة خلاقة بناءة ، غير أن هذه كانت الفكرة الاغريقية العادية . لقد كان أول تفكير للرومان فى القانون بطريقة عملية محضة . فالقانون عندهم هو الذى ينظم العلاقات بين الناس وشئونهم وهو مجرد وضع ما جرت به العادة فى الصيغة القانونية . ولم يبدأ رجال القانون من الرومان فى استنباط المبادىء القانونية العامة من قوانينهم ويتوسعوا فيها على ضوء المبادىء الفلسفية إلا عندما تأثروا بالنفوذ الإغريقى . أما الإغريق فقد كان يفكر فى قوانين «دولته» أى فى «النوموى Nomoi» مجتمعة على أنها قوة خلقية خلاقة . فلم يكن يقصد منها فقط نيل العدالة فى كل حالة فردية بل كان يقصد أيضاً إلى غرس العدالة فى النفوس . وهــــذا سبب فى أن الشباب الآثينى كان يتعلم «النوموى» وهى قوانين دولته الأساسية طوال السنتين اللتين كان يقضيهما فى الجيش . وهذه القوانين تتميز عن اللوائح الخاصة التى تنظم أموراً من قبيل تركيب الأنوار فى

السيارات وهى أمور كانت تتقرر بواسطة التصويت . ولم يكن للإغريق كنيسة أو دين مؤسس على تعاليم بل لم يكن لهم ما نظنه نحن (الإنجليز) بديلا مرضياً عنها أى وزيراً للتربية والتعليم فقد كانت « البوليس » تعلم المواطنين واجباتهم الخلقية والاجتماعية عن طريق القوانين .

ولهذا كانت إسبرطه موضع الإعجاب لأنها حسنة القوانين . وسواء أحببت مثلها الأعلى أو لم تحبه فقـــد كانت تدرب مواطنيها فعلا على هذا المثل الأعلى تدريباً تاماً إلى حد غير عادى عن طريق قوانينها ونظمها ، وكانت بالفعل تدرب مواطنين محبين لأنفسهم على الصالح العام . فإن كانت قد فشلت فى حالات بارزة للعيان فإن الخطأ خطأ القصور فى الطبيعة البشرية لا خطأ القوانين . لقد كانت موضع الإعجاب لأنها لم تغير قوانينها مدة قرون أو أن المفروض أنها لم تغيرها . ويبدو لنا هذا أمراً صبيانياً غير أن أى أمر إغريقى إن بدا لنا أنه صبيانى فالأولى بنا أن نعيد فيه النظر . ذلك أننا نعتقد أن من البديهى أن تتغير القوانين بتغير الظروف ، أما الإغريقى فلعله لم يكن ذليلا إلى هذا الحد أمام الظروف . وكان مايدعوه إلى ذلك فى دنياه التى تزيد ركوداً عن دنيانا أقل عما يدعونا . غير أنه كانت لديه فكرة تتفاوت درجتها تقوم على فرض نمط معين على الحياة لا المواءمة بين الإنسان وبين ذلك النمط . وهذا مافعلته إسبرطه (هكذا اعتقدالناس) عندما تقبلت قوانين ليكورجوس التى كانت قد وافقت عليها دلفوى . فلماذا إذن تغير النمط . إننا لا نبتسم عندما نسمع أن عقائد الكنيسة المقررة لم تتغير خلال قرون . لقد كانت قوانين ليكورجوس بالنسبة للاسبرطيين نموذجاً « للفضيلة » أى للامتياز البشرى من وجهة نظر هيئة المواطنين بالذات ، وكانت فكرتهم عن « الفضيلة » أضيق من فكرة الأثنيين ، وهى تسوء محبى الإنسانية الحديثيين بقدر ما تثير فيهم مطالبها الرعب . ومع أن هـذه المطالب قاسية فى جملة نواح ووحشية فى نواح أخرى إلا أن فيها صفة من

صفات البطولة . فليس هناك من يقول بأن إسبرطه كانت حقيرة كما أن الإسبرطي لم يكن يسلم بأن إسبرطه كانت مجدبة من ناحية الفن لأن الفن هو الخلق والإبداع واسبرطه إن لم تكن قد خلقت شيئاً من الكلام أو من الحجر إلا أنها خلقت رجالا .

آثينا

كان الآثينيون فى أتيكا وهى قطعة من الأرض مساحتها أقل بقليل من جلوسترشير . وكان عددهم فى أزهى عصورهم مثل عدد سكان بريستول تقريباً أو ربما أقل . كان هذا حجم الدولة التى أنجبت من الساسة فى مدى قرنين ونصف قرن سولون وبيسستراتوس Pisistratus وثميستوكليس Themistocles وأريستيديس Aristeides وبريكليس ومن كتاب المسرحيات إيسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس وأريستوفانيس ومناندر. كما أنجبت ثوكوديديس أعظم المؤرخين تأثيراً فى النفس وديموستينيز أشد الخطباء تأثيراً، ومنسيكليس Mnesicles وإكتينوس Iclinus مهندسي الأكروبوليس وفيدياس Phidias وبراكسيتيليس Praxiteles النحاتين ، وفورميو Phormio وهو من أبرع القواد البحريين ، وسقراط وأفلاطون . مع أننا لم نذكر فى هذه القائمة مجرد أصحاب المواهب . وفى نفس هذه الفترة ردت أثينا فارس مهزومة فى مراتون Marathon بمساعدة ألف رجل فقط من أهل بلاتايا وبذلت وحدها أكثر مما بذلته بقية بلاد الإغريق مجتمعة لتفوز بنصر حاسم أعظم من سابقه وهذا هو نصر سالاميس Salamis . والإمبراطورية الوحيدة الإغريقية الصميمة فعلا كانت أثينا هى التى أنشأتها . وفى جزء كبير من هذه الفترة كانت أصص الزرع الآثينية المحلاة بالرسوم الفاخرة مطلوبة ولها قيمة عظيمة فى إقليم البحر المتوسط كله وفى وسط أوربا . ولعل أعظم ما يجدر بنا أن نلاحظه على الإطلاق هو وسيلة التسلية الشعبية التى

تقابل السينما عندنا ، وهي أسمى وأدق دراما وجدت إلى الآن . وهذه الحقيقة بعيدة عن محيط خبرتنا بعداً جعل مؤرخاً حديثاً لبلاد الإغريق يفترض أن الآثيني العادي كان من الجائز أن يرحب بمسرحيات أحط مستوى لو كانت متاحة له . وهذا مالا يمكن التسليم به بتاتاً . فنحن لم نسمع بأن المواطن الآثيني العادي كان يذهب إلى المسرح متأخراً أي عند نهاية عرض المآسي واقتراب الوقت الذي تبدأ فيه المسرحيات الهزلية التي يبعث التقليد فيها على الضحك . بل على العكس من ذلك إن الملاهي التي كتبها أريستوفانيس تفترض دائماً أن أي محاكاة لأسلوب يوريبيديس أو أسخيلوس هي مما يجعل المسرح يدوي بالضحك . ولو إن الآثيني العادي كان يريد شيئاً أكثر « شعبية » لوجده ، فلقد كانت رقابته كاملة مباشرة . وموجز القول أن مساهمة هذه المدينة وحدها في الثقافة الإغريقية والأوربية مدهشة جداً . ومالم تكن مقاييس الحضارة عندنا هي الراحة والاختراعات فإن آثينا من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٣٨٠ (مثلا) تعتبر أعظم مجتمع متحضر وجد حتى الآن .

إن أمجاداً من هذا النوع وهذا المدى لتدل دلالة واضحة على شعب غني غنى غير عادي في العبقرية الفطرية . ولو أنها تشير إلى شيء آخر مثل ذلك في الأهمية وهو ظروف الحياة التي مكنت هذه العبقرية الفطرية من النمو والتعبير عن نفسها تعبيراً تاماً . ولهذا فسنتتبع في هذا الفصل والفصلين التاليين نمو « البوليس » الآثينية بشيء من التفصيل . إن ازدهار الثقافة الآثينية في القرن الخامس كثيراً مايسمى « معجزة » ، وقد كان يطلق على أمراض معينة كذلك في التعبير الدارج عند الإغريق كلمة « معجزة » أو « آتية من الرب » . غير أن أحد أصحاب المؤلفات الطبية من الإغريق عبر عن حكمة عظيمة بقوله إنه لايوجد مرض يشذ عن القاعدة بل كل الأمراض طبيعية وكلها آتية

من الرب وهدفنا أن نحاكى هذا الطبيب الذى يتبع الأصول العلمية بشكل ملحوظ ، وأن نبين كلما أمكننا ذلك أن أمجاد آثينا فى عهد بريكليس هى معجزة وهى طبيعية . مثلها فى ذلك مثل أمجاد أى زمان ومكان آخر . وسيكون علينا فى هذا الفصل أن نلاحظ نمو أثينا أثناء الحقبة الكلاسية الأولى .

قد رأينا أن الأساطير الآثينية تؤكد أن الآثينيين نشأوا فى أتيكا ، كما أن القائمة التقليدية للملوك الآثينيين — مهما بلغت قيمتها إذ أن لها شيئاً من الأهمية على الأقل — ترجع بنا تقريباً إلى القرن الرابع عشر . ونحن نعرف حالياً أنه كانت هناك مدينة موكينيه فى آثينا . ولكن آثينا ليس لها مركز ممتاز فى الإلياذة . فقد كان الاتحاد السياسى للإثنتى عشرة « بوليسا » الصغيرة فى أتيكا هو الذى مهد طريق العظمة الآثينية ، ومن الشائق أن نلاحظ أنه عندما أخذت صناعة الفخار فى الانتعاش من الانحطاط الذى حل بها فى الأزمنة الموكينية المتأخرة ومن ضعف الحياة الثقافية الإقليمية السائدة فى العهد المظلم إنما يبدأ هذا الانتعاش فى آثينا حوالى سنة ٩٠٠ . فأصص الزرع الديبلونية Dipylon (وهى التى سميت كذلك نسبة إلى بوابة ديلون التى عثر عليها بالقرب منها) مزخرفة طبقاً للطراز الهندسى السائد فىالفترة الموكينية ، ولكن القوة مالبثت أن عادت إليها فجأة فنبذت زخرفة عهد الانحطاط التى لامعنى لها ، ويبدو أن أتيكا التى كان تأثرها من الاضطراب الدورى أقل من غيرها من الجهات كانت أول من استأنف الاتصال بالثقافة القديمة .

ومن سنة ٩٠٠ إلى سنة ٦٠٠ حينما جعلت اسبرطه توطد تفوقها فى البيلوبونيز وتصبح القائدة المعترف بها للجنس الهيلينى كانت أثينا دولة من الدرجة الثانية بل حتى من الدرجة الثالثة . ولابد أن الذى اقترح اتحاد

أتيكا فى ذلك العهد ونفذه كان سياسياً عبقرياً . فهذا أول الأعمال السياسية العظمى التى قام بها هؤلاء القوم ، لأن الآثينيين كانت لهم دون شك عبقرية فى سياسة الحكم . والمقارنة بين الرومان والآثينيين فى هذه الناحية تثير السخرية لسخافتها . فقد كان للرومان مواهب كثيرة ، غير أن براعة الحكم لم تكن واحدة منها . إذ لم ينفذ أى إصلاح كبير فى روما دون حرب أهلية. ولقد كانت أعظم مأثرة للجمهورية هى ملء روما بالغوغاء الفقراء وتخريب إيطاليا وإثارة ثورات الرقيق وحكم الإمبراطورية أو على الأقل أجزائها الغنية بواسطة نوع من السلب والنهب الشخصى ما كان يطيقه أى ملك شرقى . بينما كانت أعظم مأثرة للإمبراطورية هى التسليم بأن الحياة السياسية كانت مستحيلة فى حقيقة الأمر ، وإنشاء نظام للحكم أشبه بالآلة الصماء بدلا عنها . وأنا أعرف أن الامبراطورية الآثينية استمرت خمسين سنة بينما استمرت الامبراطورية الرومانية خمسمائة عام . ولكن امتلاك إمبراطورية ليس بالضرورة دليلا على النجاح السياسى . وعلى أى حال فأنا أتكلم عن العبقرية لا عن النجاح . وفى الفترات التى كانت فيها الفوضى شائعة عملت الدولة الرومانية الكثير من أجل تنظيم حياة أفرادها وحمايتهم ، فيجب ألا ننسى أن العالم المكون من أوربا والبحر المتوسط كان أكثر سلاماً ونظاماً فى القرن الأول الميلادى منه فى أى قرن آخر سواء فى العصر القديم أو الحديث . ولكن لم يحدث قط أن الدولة الرومانية بحالتها التى ذكرناها غيرت من نظام حياة أفرادها كما فعلت « البوليس » الآثينية فى القرن السادس والخامس والرابع بل حتى بعد ذلك . فإذا استطاع نظام سياسى أن يفعل ذلك فإن للإنسان الحق فى أن ينسب العبقرية السياسية للشعب الذى ابتكره ، ولو أنه ينبغى على الإنسان أن يحاذر من الادعاء بأن ذلك النظام كان مثلا أعلى . وفى رأيى أن أعظم نواحى تجلى هذه العبقرية هو ميل

الآثينيين بصفة عامة إلى معالجة المشاكل الاجتماعية معالجة تدل على أنهم قوم معقولون يعملون متعاونين ولا يستخدمون العنف كالأطفال أو المتهوسين . ونحن نراهم يتصرفون المرة بعد الأخرى على الصورة الآتية : إن الطبقة الممتازة بينهم كانت تقرع الحجة بالحجة وتقبل الحكم الذى يصدر بروح الولاء على وجه العموم . وقد كان يسرى فى الحياة الآثينية شعور بالمصلحة المشتركة To Koinon كان نادراً فى بلاد الإغريق القديمة كما هو نادر فى بلاد الإغريق الحديثة بل فى أوربا الحديثة فعلا .

ومن المعقول أن نذكر اتحاد أتيكا على أنه أول مظهر لذلك . ويعطينا ثوكوديديس أول وصف تقليدى له . ومن المؤكد أنه غير دقيق فى أحد تفاصيله الهامة . وإليك وصفه لكيفية احتماء سكان أتيكا داخل حصون أثينا وبيريه : « لقد ذهبوا لاستحضار زوجاتهم وأولادهم وكل أثاثهم من الريف ولهدم الأجزاء الخشبية من بيوتهم كذلك . أما الماشية والغنم فقد بعثوا بها إلى يوبويا والجزر المجاورة ولكن هذا الانتقال كان على غير رغبة منهم لأن الجزء الأكبر منهم كان قد تعود أن يعيش فى الريف باستمرار . وكان الآثينيون قد اعتادوا ذلك أكثر من غيرهم . وقد كانت تسكن أتيكا دائماً على عهد كيكروبس Cecrops والملوك الأول حتى ثيسيوس Theseus مجتمعات مستقلة لكل منها قاعة اجتماعاته الرسمية وقضاته . ولم يكونوا يتشاورون مع الملك إلا فى أوقات الخطر . وكانت كل جماعة تدبر شئونها . كما كانت تحارب الملك أحياناً . غير أنه لما أصبح ثيسيوس ملكا وهو رجل قوى عاقل فقد نظم أتيكا من وجوه عديدة . فمن أعماله أنه ألغى مجالس المدن الأخرى وقضاتها ووحد بينها جميعاً وبين آثينا جاعلا للكل قاعة واحدة للاجتماعات الرسمية ومقراً واحداً للمجلس . ومع أنهم ظلوا جميعاً يتمتعون بممتلكاتهم كشأنهم قبل ذلك فإنهم أصبحوا أعضاء فى هذه المدينة فقط .

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن يحي الآثينيون احتفالا بالربة سونويكيا(١) من المصاريف العامة .

كان خطأ ثوكوديديس فى التاريخ بالطبع . فنسبة هذا الحادث لثيسيوس تجعله قبل حرب طرواده . وفيما عدا ذلك يمكننا أن نعتبر هـذه الرواية مما يمكن تصديقه إلى حد كبير . فقد كانت الملكية فى حالة انحلال كما كانت عاجزة تماماً أمام رؤساء العائلات (أو العشائر) النبيلة الأقوياء وهم الذين مزقوا ملكية قديمة للآخيين إلى عـدد من « البوليس » الصغيرة تضم كل « بوليس » منها بضعة عشائر (وقد ظلت هذه العشائر المحلية تثير المتاعب حتى قضى عليها كليسثينيز Cleisthenes حوالى سنة ٥٠٠ ق . م) وقد كان فى أتيكا وفى أتيكا وحدها تقريباً ما يكفى من الإدراك السليم لجعلها ترى حمق هذا النظام . ولو أن الإغريق كانوا يرونه نظاماً مناسباً . ولابد أن الذى قضى عليه هو مجهود سياسى مشترك لا مجهود ثيسيوس العاقل القوى ، فقد كانت الملكية موجودة بالاسم فقط حوالى ذلك الوقت كما تدل على ذلك فعلا الروايات بكل جلاء .

أما الأمر الثانى الذى ترامى إلى مسامعنا فهو أن شخصاً يدعى دراكو Draco قام بنشر مجموعة للقوانين سنة ٦٢١ ق . م فقد كان القانون قبل ذلك ممـا جرى به العرف والعادة . وكانت الطبقة النبيلة التى جاءت فى أعقاب الملكية هى الحفيظة على هذا القانون التقليدى وهى التى كانت تحكم بمقتضاه وتنفذه . وكان هزيود قد كتب قبل ذلك ينتقد انتقاداً مراً الأمراء الذين يأخذون الرشاوى ويصدرون أحكاماً ملتوية . وكان السيل قد بلغ الزبى

---

(١) لقد ابتدعت الربة سونويكيا Synoecia (اتحاد البيوت) لهذه المناسبة أو لعلها اقتبست من هذه المناسبة إذ كان الاحتفال أكثر من ابتهاج سنوى عام فقد كان اعترافا جدياً وقبولا من الجميع لعملية الاتحاد .

فى أتيكا ، وكما أصبح رؤساء القبائل المسنون فى أسكتلنده ملاكا للأرض بوضع اليد فكذلك كان الحال فى أتيكا . وقد ضج الذين كانوا فريسة لذلك بالشكوى . ولا شك أن اتحاد أتيكا جعلهم أكثر شعوراً بقوتهم وبالمظالم الواقعة عليهم . وعلى كل حال فقد كفل هذا القانون المستمد من التقاليد بكل مافيه من جفاء وقسوة شيئاً من الحماية ضد الظلم والتعسف على الأقل . غير أنه لم يكن كافياً . فكم من فلاح وقع فى الدين ورهن أرضه أولا للنبيل الغنى فلما عجز عن سداد ديونه استعبده الغنى بل وباعه فى الخارج . وقد اشترك الناس فى المطالبة بإلغاء الديون وتحرير المستعبدين وإعادة توزيع الأرض . وقد تركت ضروب السخط فى ذلك الوقت أثراً عظيما فى تاجر أثينى سبق له أن قام بأسفار كثيرة كما أنه كان فيلسوفاً وسياسياً إلى حد ما بل وشاعراً عظيما . هذا الرجل هو سولون . ومع أنه سمى بأعظم اقتصادى فى العصر القديم إلا أنه لم يكن يعرف فى الحقيقة كثيراً عن الاقتصاد السياسى . فقد كان يبدو لعقله البسيط أن مصدر المتاعب ليس هو النظام الاقتصادى بل الجشع والظلم . وقد أعان ذلك ببلاغة عظمى فى قصائده . وكانت النتيجة رائعة . فقد اتفقت الأحزاب المعارضة بتلك الطريقة البسيطة المباشرة التى كانت تستطيع تلك الدول الصغيرة أن تستخدمها على أن تعطى سولون سلطات دكتاتورية طوال المدة اللازمة للقضاء على ضروب السخط والتذمر .

أن كثيراً من الدول الإغريقية التى وصلت إلى تلك الحالة لم تفعل شيئاً حتى انتقمت الطبقة المظلومة لنفسها بالثورة والمصادرة . فكانت النتيجة الطبيعية أن أصبحت الثورة ومقاومة الثورة من نصيبها دائماً . أما سولون فلم يرد التورط فى ذلك . فقد قضى قضاء مبرماً على استعباد الناس بسبب الديون كما أنه خفض مقدار الديون وحدد قدر الأراضى التى يجوز امتلاكها ورد الأراضى التى فقدها المدينون إليهم . وأعاد إلى أتيكا الذين بيعوا

للخارج . غير أن أعظم خدمة قدمها لاقتصاد إتيكا كانت إقامة الزراعة فيها على أساس جديد . فقد كان جانب من المتاعب اقتصادياً محضاً نشأ من استخدام العملة . غير أن السبب الرئيسى فى ذلك كان يرجع إلى أن أتيكا لم تكن مكتفية اكتفاء ذاتياً بطبيعتها . فقد كانت أغلب أرضها من الضعف بحيث لا تسمح بزراعة القمح ، بينما كانت صالحة من جهة أخرى لزراعة الزيتون والكرم . ولذلك شجع سولون التخصص وإنتاج زيت الزيتون وتصديره ، كما شجع الصناعة فشجع الصناع الأجانب بأن تعهد لهم بجعلهم مواطنين آثينيين حتى يقيموا فى أتيكا ، كما أمر كل والد بتعليم ابنه إحدى الصناعات . وعلى الذين يعتقدون أن الإغريق كان أرستقراطياً بطبيعته وأنه يحتقر العمل أن يتذكروا هذه الملاحظة . وقد كانت نتيجة ذلك المباشرة نمو صناعة الخزاف الأثينى وفنه حتى أصبح الأثينيون بفضل مهارتهم وذوقهم يحتكرون أصص الزهر الفاخرة التى وصلت إلى كل بلاد البحر المتوسط بل وإلى وسط أوربا .

وقد كانت هناك مسألة سياسية بطبيعة الحال إلى جانب المسألة الاقتصادية . فقد كان يحكم أثينا حكام (Archons) يقوم بانتخابهم سنوياً من الأسر النبيلة مجلس يتكون من كافة المواطنين الحائزين على ملكية عقارية معينة . وكان هؤلاء الحكام يصبحون أعضاء فى مجلس الأريوباجوس (تل أريس) بعد بقائهم عاماً فى الحكم ، كما كانوا من وجهة النظر التاريخية بمثابة الملكية القديمة حين تتولى مهمة الحكم . وقد صار المجلس الذى كانوا ينضمون إليه هيئة قوية مترابطة كمجلس الشيوخ الرومانى الذى كان عظيم الشبه به . فلم يتدخل سولون فى شئون المجلس القديم ولكنه ألغى شرط مؤهل نبل المولد واستبدله بمؤهل الملكية العقارية . وهكذا أصبح فى إمكان طبقة التجار الجديدة أن تطمع فى أعلى الوظائف ، كما أصبح من الممكن أن يتغير طابع المجلس بمضى الزمن . وقد سمح لجميع المواطنين بدخول المجلس وزادت سلطاته بطرق غير واضحة تماماً ، غير أن المجلس أصبح على الأقل من

الأهمية بحيث يشتمل على لجنة منتخبة مكونة من ٤٠٠ عضو أشبه بلجنة تنفيذية لإعداد أعماله .

وبعد أن قام سولون بكل هذه الأعمال تخلى عن وظيفته الاستثنائية وعاد إلى أسفاره .

وإنه ليكون من أعظم بواعث الرضى أن يتمكن الإنسان الآن من أن يقول « ما كاد سولون يغادر البلاد حتى هبت العاصفة بأقصى شدتها ، فقد أثار غضب الفقراء أن ماناله كان قليلا جداً كما أثار غضب النبلاء أنهم أرغموا على التنازل عن كثير جداً ، فكان الفريقان يشتركان في بغضهما الشديد لسولون ولو أن ذلك لم يكن كافياً لمنع الثورة من أن تعم أتيكا كلها . كنا عند ذلك نعتبر هذا أمراً مألوفاً ونشعر بالراحة لأن هؤلاء الآثينيين مثلهم كمثل من عداهم من الناس تماماً . غير أن ذلك لم يحدث ، فإن القوانين الماركسية من جهة لم تكن قد صدرت بعد ومن جهة أخرى كان الآثينيون يرون أن الصالح العام أهم من المنفعة الحزبية . وهم في هذه الناحية إن لم يكن في غيرها يشبهون الجنس البريطاني إلى حد ما .

كما أن تاريخ أتيكا من الجهة الأخرى ليس قصة من قصص الجنيات ، فإن سولون لم يحرك عصا سحرية فقد عاد القلق السياسي إلى الظهور وأوجد هذه المرة في آثينا ما أوجده في كثير من المدن الإغريقية الأخرى حوالى ذلك الوقت أي حاكما مستبداً .

فقد كان بيزستراتوس حاكما مستبداً من النوع المألوف . وكان الأسلوب الفني لهذا الحاكم المستبد وكذلك سياسته شبيهين جداً بما نجده في زماننا ، فالحرس الشخصي وحريق الرايشستاغ والألعاب الأولمبية ببرلين وتجفيف

المستنقع البونتى وتطهير الفورم Forum(١) كل هذه الأشياء لها أشباهها فى قصة بيزستراتوس وغيره من المستبدين الإغريق . غير أن هناك اختلافاً كبيراً جداً بين الفريقين ، فقد كان المستبدون الإغريق دائماً على وجه التقريب أرستقراطيين ومتحضرين فكانوا بعيدين كل البعد عمن عرفناهم من العوام المتهوسين أعداء المثقفين ، إلى حد أن عدداً منهم وجد له مكاناً فى مجلس الحكماء السبع . وهكذا كان بيزستراتوس مثلا حسناً للحاكم المستبد .

ويصف هيرودوتوس (الذى كتب هذا بعد عهده بأكثر من قرن تقريباً) مجيئه بالطريقة الآتية : —

كان ابقراط Hippocrates وهو أحد النبلاء الآثينيين يشاهد الألعاب الأولمبية وقد أعد أضحية وضع لحما فى إناء كبير الماء فوجده يغلى مباشرة مع أنه لم يكن قد وضعه على النار ، ففسر خيلون الاسبرطى أحد الحكماء السبعة هذه الأعجوبة بأن نصح ابقراط بألا يكون له ولد أبداً ، ولكن ابقراط انجب ولداً بالفعل وهو بيزستراتوس Pisistratus ثم حدث أن قام نزاع فى أتيكا بين سكان الساحل بقيادة ميجاكليس Megacles وسكان المدينة بقيادة من يدعى ليكورجوس (ويتكلم غيره من الثقاة عن حزبى الساحل والسهل وقد يدل هذا بصفة ضمنية على شىء من تضارب المصالح بين التجار وملاك الأراضى ، ولكن من الجائز أننا نبالغ أكثر مما ينبغى فى تفسير السياسة الإغريقية طبقاً للمنطق ، لأن المنازعات المحلية والشخصية البحتة كان يتتبع الإغريق أنباءها بحماسة عظيمة دائماً) فأنشأ بيزستراتوس الذى كان يهدف إلى تولى السلطة العليا حزباً ثالثاً . وحينما جمع أعوانه بحجة حماية أهل التلال (وهم الطبقة الريفية التى تعتبر أفقر من غيرها) دبر الحيلة الآتية : أصاب نفسه وبغاله بجراح وقاد عربته إلى الميدان كما لو كان يحاول الهرب من أعداء خارج الميدان وطالب بحرس شخصى . ولما كان مواطناً ممتازا سبق أن استولى على نيسايا Nisaea وغيرها من الميجاريين فقد سمح له الآثينيون بأن يختار

(١) يشير المؤلف الى بعض أعمال هتلر وموسولينى فى ألمانيا وإيطاليا (المترجم) .

لنفسه بعض المواطنين على ألا يتسلحوا بالحراب بل بالعصى ، فاستولى بواسطتهم على الأكروبوليس كما استولى على الحكم . ولكنه لم يتدخل فى أمر القضاة الموجودين إذ ذاك أو فى القانون ، وحكم المدينة حكما حسناً .

وقد جعل ذلك ميجاكليس وليكورجوس منافسيه من النبلاء يثوبان إلى رشدهما ، فاتفقا وطردا بيزستراتوس ولكنهما ما لبثا أن تنازعا مرة ثانية واستمرا كذلك إلى أن وعد ميجاكليس أن يؤيد بيزستراتوس (الذى كان منفياً) إذا تزوج ابنته فتمت الصفقة ولكن الصعوبة كانت فى تنفيذ الخطة مرة ثانية . وهنا يروى هيرودوتوس الخطة الثانية بشىء من الحدة .

لقد دبرا فى رأيى أعظم خطة مثيرة للسخرية خطرت ببال إنسان ، لاسيما إذا وضعنا موضع الاعتبار أولا أن الإغريق كانوا دائماً يمتازون عن البرابرة بسعة الحيلة وبعدهم عن الحمق الساذج ، وثانياً أن هذه الحيلة قد نفذت فى الآثينيين الذين يعتبرهم الناس أذكى الإغريق . فقد كانت هناك امرأة تدعى فوا Phye (١) طولها ستة أقدام إلا بوصتين كما كانت جميلة جداً فألبسوها درعا على هيئة سترة كاملة ودربوها على تمثيل الدور الذى كان عليها أن تلعبه وأركبوها عربة سارت داخل المدينــــة حيث نادى المنادون (الذين كانوا قد أرسلوهم إلى هناك) « يارجال أثينا رحبوا ألطف ترحيب ببيزستراتوس الذى تكرمه الالهة أثينا نفسها فوق كل من عداه من الناس ، وهى تقوده الآن فى عربتها إلى قلعتها الخاصة » ونشروا ذلك فى أرجاء المدينة فاستقبل الناس بيزستراتوس وهم يعتقدون أن هذه المرأة هى الربة أثينا كما أنهم تقدموا لعبادة مخلوق بشرى .

وقد تكون القصة السالفة صحيحة . ولعلنا لا ننسى كيف عالجت بعض الصحف الإنجليزية موضوع « ملائكة مونز » بطريقة جدية . وإذا صح أن

---

(١) اختيار الاسم مناسب جداً لأن فوا بالاغريقية معناها « النمو » أو « طول القوام » .

هذه الحيلة قد نفذت فن المؤكد أن ميجا كليس وبيزستراتوس وجدا فيها تسلية أكبر مما وجد هيرودوتوس .

وقد كان على هذا النبيل البارع أن يدبر حيلة لعودته مرة أخرى لأنه تنازع مع ميجا كليس قبل أن يستقر به المقام . وقد اتبع فى هذه المرة طرقا عسكرية قويمة ساعدته عليها إهمال خصومه واستسلام مواطنيه . وفى هذه المرة لم يتحمل من زملائه النبلاء أى عبث ، ولو أن ذلك لم يقتض أى سفك للدماء . ففر الكثيرون وأخذ من الآخرين أبناءهم رهائن ووضعهم فى إحدى الجزر التى كانت تحت سيطرته . فلما تم له ذلك واصل الإدارة الصالحة عشرين سنة (٥٤٦ — ٥٢٧) وساعد الفلاحين الفقراء بطرق مختلفة ووزع عليهم الأراضى المصادرة وأنشأ قناة تمد أثينا بمورد من الماء الذى كانت فى حاجة شديدة إليه وساهم على العموم فى رخاء أتيكا واستقرار نظام حكمه ، ولكنه اهتم كذلك بزيادة شهرة أثينا الدولية . ولما كان لغيره من الحكام المستبدين حاشية سنية فقد صمم على أن تكون له حاشية كذلك . وقد بقى إلى وقتنا هذا ما يكفى من أعمال النحت وطلاء الاصص التى تمت فى عهده مما يدل على أن هذه الفنون ازدهرت فاتسمت بالأناقة التامة والبهجة . ونحن نعلم أنه اجتذب إلى بلاطه الشاعرين الأيونيين سيمونيديس Simonides وأناكريون Anacreon مثلما فعل بعدئذ بالضبط هييرو Hiero حاكم سرقوسة المستبد الذى اجتذب إلى بلاطه سيمونيديس Simonides وباخيليديس Baechylides وبندار الجاد الرزين وكذلك اسخيلوس نفسه . وقد أنشأ بيزستراتوس المبانى ككل الحكام المستبدين . وأفخم مشروع له هو معبد لزيوس أوليمبوس غير أن استكماله كان فى حاجة إلى انتظار حاكم أقوى من بيزستراتوس هو الإمبراطور هادريان Hadrian الذى لازالت تعتبر بقايا معبده أحد المناظر الرائعة فى أثينا .

وهكذا عمل بيزستراتوس على أن يرفع شأن أثينا من مدينة ريفية صغيرة إلى مدينة ذات أهمية دولية . غير أن جانباً آخر من سياسته الثقافية كانت له أهمية أكبر : فقد أعاد تنظيم بعض الأعياد الوطنية على نطاق واسع وكان من بينها عيد ديونيسيوس Dionysus وهو أحد آلهة الطبيعة (وليس إله الخمر وحدها بأية حال) . وبالتوسع فى هذا العيد أعطى بيزستراتوس لأول مرة أهمية علنية لفن جديد وهو الدراما التراجيدية . وقد كانت أنواع مختلفة من الدراما متوطنة فى بلاد الإغريق ، فكان هناك الرقص المسرحى وحفلات الطقوس الدينية التى كانت تقام تكريماً لديونيسيوس وتستخدم الإشارات والمحاكاة الهزلية للأشخاص ، لاسيما أن الرقص مع النشيد الحماسى لديونيسيوس بدأ يتخذ صورة درامية (هذا على الأقل ما يقوله أرسطو) فكان يبتعد أثناءه رئيس فرقة الإنشاد ويستمر فى محاورة شعرية غنائية عاطفية مع باقى الفرقة . وقد اتخذت مثل هذه الدراما البدائية فى أتيكا شكلا فنياً ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى حد بعيد إلى رجل واحد هو ثسبيس الذى لا نعرف عنه إلا النزر اليسير ، وقد رفع بيزستراتوس من شأنها باستخدامها فى مهرجانه الجديد ، وقد أجريت أول مباراة تراجيدية فى سنة ٥٣٤ . وقدمت فيها الجائزة لثسبيس Thespis . وليس هناك ما يعبر عن روح أثينا الجديدة ويسمو بها أبلغ من هذه الدراما العلنية التى ستكون لدينا فرصة فيما بعد لتحدث عنها فيها .

ولكن هذا الحاكم المستنير أعطى شعر الملاحم والدراما التراجيدية الجديدة أهمية علنية . فقد جعل القراءات التى لشعر هومر جزءاً من المهرجان السنوى العظيم ، « مهرجان أثينا المتحدة » وهناك قصة بالفعل لا يمكن أن نتتبعها إلى عهد أبعد من شيشرون Cicero أى بعد بيزستراتوس بخمسمائة عام) تقول إنه أخرج أول نص ثابت لشعر هومر ، مع أن هذا غير محتمل على الإطلاق ، وإن كان يعكس على الأقل الأثر الذى تركه بيزستراتوس فى تاريخ ثقافة الإغريق .

وكان ذلك كله أكثر من مجرد إشباع لغريزة تقدير الجمال عند حاكم مستبد بل كان جزءاً من سياسة لا يستطيع إدراكها إلا رجل ذو بصيرة نافذة، فقد كان تقدير الفن والأدب حتى ذلك الوقت محصوراً فى دائرة ضيقة جداً إذ كان النبلاء الأثينيون فى الحقيقة هم ورثة عصر البطولة الذى كان قد بعد عهده وهو الذى كان فيه المترنمون بقصائد هومر من أصحاب الأصوات الرخيمة على اتصال بالقصور، وكانوا يغنون فى حفلات العظماء. فقد كان هدف بزستراتوس أن يتيح للكثيرين ما كان حتى ذلك الوقت امتيازاً(١) للقليلين.

لم تكن فى الأصل كلمة Tyrant (أى حاكم مستبد وهى لفظة ليست إغريقية بل مأخوذة من ليديا Lydia تستدعى إلى الذهن أى معنى من المعانى الفظيعة التى أصبحت لها فيما بعد والتى بقيت ملازمة لها إلى الآن، ولذلك ظل الإغريق يذكرون بالحمد ما كانوا مدينين به للحكام المستبدين. ومع ذلك فقد كان صعباً على الإغريق ألا يسمح له بتولى إدارة شئونه العامة بنفسه، كما أن من الطبيعى أن تأخذ الحكومات الاستبدادية فى الانحطاط، فهذا ديونيسيوس حاكم سرقوسه كان يؤنب أحد أبنائه ذات مرة على مسلكه الوقح تجاه أحد المواطنين فأجابه «إنى لا أتبع مثل هذا السلوك إطلاقاً» فقال أبوه «عجباً! ولكن أباك لم يكن مستبداً قط» فأجابه ابنه «نعم وما دام هذا شأنك فإن ابنك لن يكون مستبداً» وقليل من الحكومات الاستبدادية أمكنها أن تعمر أكثر من الجيل الثالث. وهذا الحكم انتهى فى الجيل الثانى فقد قتل هيباركوس Hipparchus أحد أبناء بزستراتوس فى عراك خاص أما ابنه الثانى هيباس Hippias فقد كانت تساوره الريب فى وجود دوافع سياسية معادية ولم يكن ذلك دون سبب معقول، ولذلك أخذت مظالم حكمه

---

(١) روبنسون فى زيتو هلاس. Zito Hellas ص ٥١.

تفاقم حتى طردته أسرة نبيلة منفية هى أسرة الكمايونيديس بمساعدة إسبرطه وبتأييد الآثينيين العام .

ومع أن نهاية الاستبداد قد قوبلت بالترحاب إلا أن هذا الحكم كان له فضل كبير على أثينا ، ولما كان بيزستراتوس قد حافظ محافظة دقيقة على أسس دستور سولون الديمقراطى المعتدل ، فقد تلق الآثينيون تدريباً فى إدارة شئونهم الخاصة مدة جيل من الزمان تحت الوصاية الرشيدة . وقد ظلت أمور أثينا تسير على ما يرام بعد سقوط الاستبداد مع أن الذى كان متوقعاً هو حدوث رد فعل ارستقراطى . وقد حاول ذلك بالفعل شخص يدعى إيساجوراس بمساعدة مسلحة من إسبرطه ، غير أنه كانت هناك جماعة أرستقراطية أخرى يرأسها ثالث سياسى آثينى بارز فى ذلك القرن وهو كليسثينيز Cleisthenes الذى انضم إلى جانب الشعب وفشل الإنقلاب .

غير أن ما عمله كليسثينيز كان أكثر من ذلك بكثير ، فقد أتم إصلاح الدستور ، فقد كان الفضل فى قوة الأسر النبيلة فى « البوليس » المنظمة من الناحية الإسمية تنظيما مركزياً راجعا إلى أن البوليس فيما يختص بموضوع انتخاب القضاة Archons كانت مقسمة إلى قبائل أو مجموعات من الأسر بحيث أن الرئيس المعترف به لأى جماعة كان من المؤكد انتخابه . وقد ثبت أن تلك الجماعات كانت أقوى مما ينبغى لسلامة « البوليس » . وقد عالج كليسثينيز هذا الخطر بابتداع دستور صورى مخالف لما جرت به العادة ولكنه أدى الغرض منه فى الواقع على أتم وجه . فقد أنشأ عشرة « قبائل » جديدة كل الجدة زودها جميعاً بالأنساب العريقة وجعل كلا منها تضم عدداً متساوياً تقريباً من الوحدات الإدارية التى لا يجاور بعضها بعضاً ، وهذا كل ما فى الأمر . وقد قسم كليسثينيز أتيكا إلى ثلاث مناطق على وجه التقريب هى المدينة والساحل وداخلية البلاد . وكانت كل « قبيلة » من هذه القبائل الجديدة تضم وحدات إدارية من كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة . فكانت كل قبيلة

لذلك تكون قطاعا مستعرضاً من جميع السكان وعندما كانت تجتمع لإدارة شئونها كان مكان اجتماعها الطبيعي هو أثينا . وقد ساعد هذا تلقائياً على توحيد « البوليس » ولما كانت كل قبيلة تضم زراعاً وطائفة من أهل التلال وصناعاً وتجاراً من أثينا وبيريه وطائفة عن يسكنون السفن لم يكن فى إمكان العصبيات المحلية والعائلية أن تفعل إلا القليل فى انتخاب القضاة . كالم تكن تستطيع أن تعبر عن آرائها إلا فى جلسات المجلس العلنية حيث كان يمكن فهمها على حقيقتها .

إن كون مثل هذا النظام المصطنع قد سار على ما يرام يحتاج إلى بعض الإيضاح فإنه يبدو صبيانياً جداً بينما الآثينيون يعتبرون عكس ذلك على خط مستقيم ، ولو أن نظاماً كهذا فرض علينا لقضى عليه من بادىء الأمر لأنه مصطنع أو « مدبر » .

أما الإغريق فلم يكن يعترض على شيء جديد إذ أن مجرد كون العقل البشرى قد أنتجه بعد تفكير منطقى رصين كان مما يشفع له . وقد رأينا قبل بضعة صفحات أن هذا كان سبباً من الأسباب التى جعلت الدستور الإسبرطى موضع إعجاب الإغريق كما أن علينا أن نتذكر أن الإغريقى وإن كان من أنصار المذهب الفردى إلا أنه كان يحب أن يعمل مع الجماعة . فقد كان يريد من جهة أن يشترك فيما كان حوله ، كما أنه كان يحب المنافسة من جهة أخرى .

وقد أرضى نظام كليستينيز كل هذه المطالب الفطرية ، إذ أنه أنشىء بكل مهارة ووضوح ليسد حاجة ماسة وهى جعل البوليس كلا متكاملا ، فقد ترك للآثينى وحدته الإدارية لقضاء شئونه المحلية ومن أهمها اعتماد قبول المواطنين الجدد ، فقد كان من الضرورى أن يقبل أعضاء الوحدة الإدارية الطفل الحديث الولادة من الوجهة الشرعية كما أن هذا النظام جعل

ولاء الأثيني « للبوليس » أشمل ، فإن المواطن لم يكن يعطى صوته بوساطة « القبائل » فحسب بل كان يحارب كذلك عن طريق « القبائل » بحيث أصبح هذا النظام الجديد يدخل فى تكوين فرقته العسكرية كذلك . ولما كانت المباريات المسرحية أيضاً تجرى عن طريق « القبائل » فقد وجهت شغفه بالمنافسة توجيهاً هادفاً خلاقاً .

وقد صحب تغيير هذه الأسس السياسية تغييراً فيما فوقها من بناء أيضاً . فقد أعطت إصلاحات سولون كل مواطن دوراً يلعبه فى الدولة ولو أنه كان دوراً محدوداً جداً فيما يختص بالطبقات الفقيرة . وقد واصل كليستنيز الأرستقراطى ما بدأه سولون وكاد يتمه . فقد اقتضب سلطات مجلس الأريوباجوس (المحكمة العليا) إلى حد بعيد وجعل المجلس الذى يضم المواطنين جميعاً هو الهيئة التشريعية الوحيدة النهائية ، كما جعل القضاة مسئولين أمامه أو أمام لجان من المجلس لها صفة الهيئات القضائية . ولم يبق على الجيل التالى إلا أن يلغى آخر مؤهلات العضوية الخاصة بالملكية العقارية وأن يتخذ الخطوة الأخيرة التى تبدو سخيفة فى ظاهرها وهى خطوة اختيار القضاة بوساطة القرعة ، وعندها أصبح نظام الحكم الأثيني ديمقراطياً إلى الحد الذى استطاعت مهارة الإنسان فى الابتكار أن تصل إليه .

هذه ، باختصار شديد ، كانت الحوادث التى حولت أثينا فى أقل من قرن من « بوليس » من الدرجة الثانية قد مزقها النزاع الاقتصادى والسياسى إلى مدينة مزدهرة تنعم بوحدة جديدة وهدف جديد وثقة جديدة . وكما أن اسبرطة وجدت لها مثلا أعلى فقد وجدت أثينا مثلا آخر .

وقد أفضت هكذا فى الكلام عن أثينا فى القرن السادس فذلك وحده هو الذى يجعلنا نستطيع أن نفهم أثينا فى القرن الخامس . إن الثقافة الرفيعة يجب من وجهة النظر التاريخية أن تصدر من طبقة أرستقراطية ، فهى وحدها التى لديها الوقت والنشاط الضروريان لخلقها . فإذا ظلت مدة أطول مما ينبغى

قاصرة على الطبقة الأرستقراطية بلغت أولا حد الإتقان ثم أصبحت سخيفة بعد ذلك . وهذا هو ما يحدث بالضبط للطبقة الأرستقراطية فى التاريخ السياسى، إذ تصبح شراً مستطيراً إذا أصرت على أن تعيش أكثر مما تستلزمه وظيفتها الاجتماعية . أما فى الميدان السياسى فقد جعل الإدراك السليم السائد فى أثينا وهو الذى بلغ حد العبقرية عند سولون وبيزستراتوس وكليستينيز، الطبقة الأرستقراطية الأثينية بصفة عامة تشترك فى النظام الديمقراطى قلباً وقالباً حين كانت لا تزال فى عنفوان نشاطها .

وقد جاءت غالبية رجال الحكم الأثينيين فى الجيلين التاليين من أرق العائلات ، وأبرز مثل على ذلك هو بريكليس . فإذا أردنا أن نقابل بين ما حدث هناك وما حدث فى فرنسا الحديثة ، نجد أنه كان لابد من استخدام المقصلة لاستئصال الطبقة الأرستقراطية التى عاشت بعد الفترة التى كانت فيها مفيدة جداً . وكان من نتيجة ذلك أن اضطرت البقية الباقية سواء كان لديها ما تقدمه لفرنسا الجمهورية أو لم يكن ، أن تعيش مترفعة عن الآخرين. أما فى الميدان الثقافى فقد اشتركت عامة الأثينيين فى الثقافة الأرستقراطية حينما كانت لاتزال جديدة خلاقة . وبمقارنتها بانجلترا نجد أن أحد الأسباب فى أنها كانت متحضرة بصورة جوهرية فى القرن الثامن عشر هو أنه لم يكن عندنا قط (معشر الإنجليز) فاصل حاد بين علية الطبقة المتوسطة وبين الطبقة الأرستقراطية ، بحيث أن الأولين تثقفوا بثقافة الآخرين وظلوا بذلك معقولين . وهذا هو السبب فى انتشار الآداب العامة فى ذلك العهد وفى وضوح الذوق السليم فى الفن المعمارى والفنون الصغيرة إذ ذاك ؛ على عكس المبالغة والتطرف السخيف فى أوربا الذى تميز فيه فن الباروك Baroque بالإسراف فى الرسوم الزخرفية التى تكاد تبرر وحدها قيام الثورة الفرنسية . فلم يستطع المجتمع البورجوازى الذى خلف الطبقة الأرستقراطية فى أوربا أن يتعلم شيئاً ذا بال من فن الباروك . ولقد كان من الممكن أن تتثقف الطبقة

الوسطى الآخذة فى النهوض فى انجلترا فى القرن التاسع عشر بثقافة القرن الثامن عشر وتواصل حلها بسلام لولا الثورة الصناعية التى رفعت بصورة أسرع مما ينبغى طبقة جديدة من الكثرة والثقة بالنفس بحيث لا يمكن اشتغالها بذلك . ولهذا فالمجتمعات الديمقراطية الحالية فى انجلترا وأوربا (فيما عدا البلاد الأسكنديناوية) ليس لها صلة بأحسن تقاليدهم الموروثة وذلك لأسباب مختلفة . ولقد نجت أثينا من ذلك بسبب حكمة القرن السادس السياسية من جهة وبسبب سياسة بيزستراتوس الثقافية من جهة أخرى . وكانت النتيجة أن الثقافة الأثينية فى القرن الخامس كان لها رصانة المجتمع البورجوازى السليم وتماسكه فضلا عن رشاقة الأرستقراطية ورقيها وبعدها عن الغرض .

(٧)

بلاد الإغريق الكلاسية

القرن الخامس

حدثت فى آسيا خلال القرن السادس حوادث كان مقدراً لها أن تؤثر تأثيراً عميقاً فى الإغريق. فى سنة ٥٦٠ استقبلت مملكة ليديا فى الجزء الغربى من آسيا الصغرى ملكا لا يزال اسمه مألوفاً لدينا وهو كرويسوس Croesus الأسطورى. وقد نجح فى إخضاع مدن الإغريق فى أيونيا غير أن كرويسوس كان رجلا متحضراً ومحباً للإغريق إلى حد ما. ولم تكن فتوحاته من الكوارث المحضة. وكان يقنع بحكم المدن عن طريق حكام مستبدين (Tyrannoi .) موالين له.

وقد اعتلى عرش مملكة ميديا الواقعة أبعد من ليديا شرقا ملك فارسى هو قورش العظيم. ولما كان يحكم شمال أراضى ما بين النهرين فقد هزم مملكة بابل التى كان يحكمها إذ ذاك ابن شخصية مألوفة هى نبوخذ نصر ملك اليهود، ولكنه التفت أولا إلى ليديا جارته الغربية. ولقد كانت هاتان الدولتان مشتبكتين على عهد أسلاف قورش وكرويسوس فى حرب حدث فى نهايتها كسوف كلى للشمس تأثر به الجيشان إلى حد أنهما رفضا أن يواصلا القتال كما جاء فى الخبر. وهذا هو الكسوف الذى كان قد تنبأ به طاليس المليطى[١]. أما الحرب الثانية فقد بدأها كرويسوس بعد أن استشار عرافة دلفوى التى كان يكن لها أعظم احترام (كما قال الإغريق)

---

(١) أنظر الفصل العاشر

فأنبأته أنه لو عبر نهر هاليس الذى يفصل بينه وبين قورش فإنه يحطم إمبراطورية قوية وقد عبر نهر هاليس وحطم بالفعل إمبراطورية عظمى ولكنها كانت إمبراطوريته هو لسوء الحظ ، إذ أن هذا الأحمق كان قد نسى أن يسأل عن الإمبراطورية التى كانت ستتحطم(١) . وقد أوصلت هذه الحرب سلطة الفرس إلى ساحل بحر أيجه حوالى سنة ٥٤٨ ق . م .

أن رواية هيرودوتوس لهذه الحوادث تعتبر من أمتع الأجزاء فى كتابه الشائق . ومما له دلالة عظمى أن أول تاريخ لما بين النهرين قد كتبه مؤرخ إغريق . وهذا التاريخ يزخر بالقصص الممتازة ، فهناك قصة ميلاد قورش وهى أطول بكثير مما نستطيع أن نذكره هنا . وهى باختصار القصة المألوفة للطفل العجيب الذى ينتظر أن يولد وأن يفعل هذا الأمر أو ذاك . وهناك من يحاول أن يحول دون ولادة الطفل أو أن يقتله ولكن محاولته تبوء بالفشل وتتحقق النبوءة بطريقة مذهلة . ومن الصور الإغريقية للقصة أسطورة أوديب . ومن الشائق مقارنة قصة قورش التى رواها هيرودوتوس بقصة أوديب الملك التى ألفها صديقه سوفوكليس وهى فى جوهرها نفس القصة ولكنها عند سوفوكليس ذات مغزى أعظم بكثير .

ثم أن هناك قصة اجتماع كرويسوس بسولون . ولابد أن نفسح لها مكاناً هنا لأنها تلق الضوء على العقل الإغريق . فعندما قام سولون باسفاره احتفى به كرويسوس احتفاء ملكياً فخماً وأطلعه على ضخامة كنوزه (ولوكانت القصة صحيحة من الوجهة التاريخية لكان سولون فى عداد الأموات قبل هذا الحين بمدة) فقال كرويسوس « إنى أعرف ياسولون شهرتك كفيلسوف كما أعرف أنك قد طوحت بك الأسفار وعرفت أموراً كثيرة فأخبرنى عن

(١) مما يمكن أن يتبادر إلى الذهن أن سياسة العرافة كانت تهدف إلى توريط كرويسوس وقورش فى حرب طويلة تكون من مصلحة بلاد الاغريق .

أسعد[1] رجل قابلته . وقد وجه إليه هـذا السؤال كما قال هيرودوتوس ظناً منه أنه « أسعد » الناس ، ولـكن سولون أجابه دون تردد . إن أسعدهم هو تِلوس Tellus الذى كان يعيش فى آثينا فقد كان يتمتع بالحياة فى « دولة » محكومة حكما حسناً ، وكان له أولاد شجعان طيبون كما رأى ميلاد أحفاد له أصحاء ، وبعد أن قضى حياة سعيدة بالقدر الذى تسمح به طبيعة الإنسان مات وهو يحارب حرباً مجيـــدة دفاعا عن آثينا ضد إلوسيس وقد كرمه الناس تكريماً رائعاً عند دفنه كما أنهم يذكرونه بالحمد والثناء .

ثم سأل كرويسوس عن أسعد الناس بعده راجياً أن يأتى ذكره هو فى المقام الثانى . ولـكن سولون قال « إنهما كليوبيس وبيتون من أهل أرجوس » . فقد كان لهذين الشابين ثروة كافية كما أحرزا جملة انتصارات فى الألعاب . وكان لموتهما ذكر مأثور . وقد كان على أمهما أن تصل راكبة إلى معبد هيرا على بعد خمسة أميال لحضور مهرجان هناك . فلما وجدا أن الثيران لم تأت من الحقول بسرعة كافية قاماً بجر العربة بنفسيهما ، فهلل جميع من بالمهرجان لقوة الشابين وهنأوا أمهما . وقد طلبت وهى فى نشوة السعادة من الربة أن تمنح ولديها أعظم نعمة يمكن أن يحظى بها الإنسان فأجيب دعاؤها ، إذ نام الشابان فى المعبد المذكور بعد تقديم القربان وبعد الفراغ من المهرجان ولم يستيقظا قط .

وقد تضجر كرويسوس من الظن بأنه أقل « حظاً » من المواطنين العاديين ولـكن سولون أشار إلى أن الإنسان يعيش أياماً كثيرة وفى كل يوم يأتيه شىء مختلف ، ولهذا فلا يدعى الإنسان بأنه سعيد حتى يموت فمن يدرى ما يصيبه . غير أن القصة لا تنتهى هنا فبعد ذلك بسنين هزم قورش كرويسوس لشدة دهشة الجميع وأخذه أسيراً وأوثقه ووضعه على كومة

---

(١) كلمة « سعيد » ليس لها الدقة الواجبة هنا ولـكن يبدو أنها أحسن ما عندنا ولو استخدمنا عبارة « حسن الطالع » لأدت معنى اللفظ الأغريقى بطريقة أفضل .

من الخشب لإحراقه سواء كان ذلك (على حد قول هيرودوتوس) وفاء بنذر أو قرباناً من أجل النصر أو ليرى هل ينقذ أحد الآلهة رجلا متعبداً جداً مثل كرويسوس. حتى إذا أشعلت الكومة تذكر كرويسوس كلمات سولون فوجع بصوت عال وذكر اسمه ثلاث مرات. ولما سئل عن السبب باح به فرق له قلب قورش. ومن الشائق أن ندرك لماذا جعلته هذه القصة الإغريقية المحضة يلين، فلم يكن ذلك لوازع خلق بصفة خاصة فهو لم يدرك أنه كان قاسياً قسوة بشعة وإنما خطر بباله أنه يوشك أن يحرق رجلا آخر وهو حي، وأن ذلك الرجل كان قبل ذلك منعما موفقاً مثله. وهو بهذا يتبع الحكمة الإغريقية القائلة « إعرف نفسك » ومعناها تذكر من أنت أنك رجل عرضة للموت وأحكامه وقيوده. ولهـــذا فقد أمر بالنار أن تطفأ خوفاً من القصاص العادل، على حد قول هيرودوتوس، واعتقاداً منه بأن ما هو بشري لا يثبت على حال واحدة، غير أن إطفاءها إذ ذاك كان قد أصبح مستحيلا ولهذا فقد دعا كرويسوس أبوللون أن ينقذه إن كانت قرابينه الغالية قد جلبت له شيئاً من محبة الرب، وعند ذاك تجمعت السحب في السماء الصافية ونزل المطر مدراراً وانطفأت النار وصار كرويسوس وقورش صديقين بعد ذلك. وقدم كرويسوس نصيحة بارعة لقورش عن كيفية إدارة شئون الليديين. هـذه هي الطريقة التي رأى هيرودوتوس أن التاريخ ينبغي أن يكتب بها.

وفي سنة ٤٩٩ وقع حادث حدد طابع القرن الجديد. فقد ثارت المدن الأيونية على دارا Darius ملك الفرس. وقد انبرى هيرودوتوس لشرح الموقف، فذكر كيف أن أريستاجوراس Aristagoras حاكم مليتوس ذهب إلى كليومينيس Cleomenes ملك أسبرطه طالباً معونته ووصف له بالتفصيل أجناس آسيا الخاضعة للفرس وجميعهم أغنيـــاء غنى لا يصدق، كما أنهم لا يميلون للحرب فهم يعتبرون غنيمة باردة للأسبرطيين. ولإيضاح قوله

« أحضر معه ، كما قال الإسبرطيون » لوحة صغيرة من البرونز منقوشاً عليها محيط الأرض الخارجي بأكمله والبحر والأنهار جميعاً » ، وهذه في الحقيقة أول خريطة ورد عنها أي شيء مكتوب . كما أنه أخذ يقارن في الختام بين فقر الحياة في بلاد الإغريق ورغـــدها في آسيا ، فوعده كليومينيس بالرد عليه في اليوم الثالث . وفي ذلك اليوم سأله كليومينيس عن المسافة بين ساحل البحر الأيوني وبين مدينة الملك . ومع أن أريستاجوراس كان ماكراً في كل ماعدا هذا الموضوع بحيث خدع الملك بمهارة فائقة ، فقد صدرت منه هفوة هنا لأنه ما كان ينبغي عليه أن يقول الحق إن كان يريد ذهاب الإسبرطيين إلى آسيا . ولكنه أخبره بصراحة أن الرحلة تستغرق ثلاثة أشهر . وعند ذلك قطع كليومينيس عليه وصفه للرحلة قائلا : أيها الضيف الآتي من ميليتوس ، غادر أسبرطة قبل الغروب فأنت تذكر أموراً لا يحبها الإسبرطيون وتحاول أن تستدرجهم إلى رحلة تبعد ثلاثة أشهر عن البحر .

ولكن الرجل الأيوني حاول أن يلعب دوراً آخر إذ تظاهر بأنه سائل وعاد إلى كليومينيس فوجده مع ابنته جورجو Gorgo الصغيرة ، وطلب من كليومينيس أن ينحي الطفلة جانباً ويصغي إليه مرة ثانية ، ولكن كليومينيس وافق على الإصغاء إليه دون أن يبعد الطفلة عنه ، ولذا وعد أرستاجوراس أن يعطيه عشر قطع ذهبية إن قبل أن يقدم المعونة الإسبرطية ثم أخذ يزيد فيما يعرضه عليه حتى أوصله إلى خمسين ، وعند ذلك صرخت جورجو قائلة « يا أبت إن لم تبتعد فسيغويك هذا الغريب » . فابتعد عنه كليومينيس لذلك ولم تنل أيونيا أية مساعدة من إسبرطه .

ومع ذلك فقد حصل الأيونيون على بعض السفن من آثينا ومن أرتريا الواقعة في يوبويا ، وقد قامت هذه القوات بنهب سارديس Sardis عاصمة كرويسوس القديمة . ومع ذلك فقد فشلت الثورة إذ أظهرت بوضوح لفارس

انها لا أمل لها فى الاحتفاظ بأيونيا فى وقت السلم مالم تستعرض قوتها على الأقل فى بحر إيجه . فأرسلت لذلك حملة سنة ٤٩٠ ضد المدينتين المعتديتين فنهبت أرتريا ونزلت قوة فارسية على ساحل أتيكا الشرقى عند مراثون . وكان مع الفرس هبياس بن بيزستراتوس الذى كان مغيظاً لأنه كان قد طرد من آثينا قبل ذلك بعشرين سنة ، وكان المقرر أن يعاد تنصيبه حاكما تحت حماية الفرس .

ولولا قوة صغيرة مكونة من ألف رجل من بلاتايا لترك الآثينيون وحدهم يواجهون الفرس . وقد انتصروا بعد أن كلفهم ذلك ١٩٢ رجلا . وقد اشترك فى هذا القتال أسخيلوس وأخوه فقتل الأخ وعاد أسخيلوس إلى بيته . وإن لنا أن نبتهج بذلك فهو لم يكن حتى ذلك الوقت قد كتب مسرحيات « الفرس » ، « وسبعة ضد طيبه » ، و « بروميثيوس » ومسرحيات أورستيس الثلاث المتتالية .

وكان من الواضح أن فارس ستعيد الكرة ولكن لحسن الحظ شغلتها عن ذلك ثورة فى مصر كما شغلها موت دارا مدة عشرة سنين . وقد قررت هذه السنين العشر مصير آثينا . فقد تصادف أن عثر على عرق ثمين جداً من الفضة فى منطقة التعدين فى سونيوم . وقد كان لهذه المدن الإغريقية الصغيرة آراء بسيطة جداً ومباشرة عن المالية العامة والأخلاق العامة وأغلب الأشياء الأخرى . وذلك أنهم اقترحوا أن يوزع المال بين المواطنين على هيئة حصة أرباح ولكن ثمستوكليس Themistocles نظر نظرة أبعد من ذلك . فقد حدث أن آثينا كانت تحارب جزيرة ايجينا المجاورة وهى مدينة تجارية هامة ولكن نقص السفن كان مما يعوقها . ولذلك أغرى ثمستوكليس الآثينيين بإنفاق هذا المال الذى لم يكن فى الحسبان فى إنشاء أسطول ، كانت إيجينا هى الهدف المباشر من إنشائه ولكن الخطر الفارسى كان فى ذاكرته كما كان فى إمكانه دون شك أن يتنبأ بأن لآثينا مستقبلا باعتبارها قوة تجارية وبحرية .

وقد أنشىء الأسطول فى الوقت المناسب إذ جاء الهجوم الفارسى الثانى فى سنة ٤٨٠ ولم يكن فى هـذه المرة مجرد حملة تأديبية بل كان غزواً برياً كاملا . وفى هذه المرة تحقق نوع من الوحدة الإغريقية ولو أن أرجوس فى البيلوبونيز بقيت فى معزل لاشتراك الإسبرطيين الذين تكرههم فى الحرب . ونحن لانستطيع أن نروى هنا قصة حرب العامين إلا أن هيرودوتوس رواها على أحسن صورة مع أنه وهو أعظم المؤرخين إنسانية لم يفهم استراتيجيتها قط فهماً حقيقياً ، فقد سقطت خطوط الدفاع الشمالية واحداً بعد الآخر ولو أن موقعة ترموبولاى تعتبر حلقة مجيدة كما حدثت موقعة بحرية فى المياه المجاورة بعيداً عن رأس أرتميزيوم ولـكنها لم تكن مثبطة للهمم ، فقد أظهرت أن السفن الإغريقية التى كان ثلثاها تقريباً آثينيا كما كانت أثقل من السفن الفارسية وأبطأ ، تستطيع أن تحارب بشىء من الأمل ضد أسطول العدو (وأكثره فينيق وأيونى) فى المياه الضيقة حيث لم يكن يستطيع العدو أن يقوم بمناورات . ولـكن جاء الوقت الذى كان على الآثينيين أن يغادروا فيه أتيكا وينقلوا غير المحاربين وما استطاعوا من متاع إلى جزيرة سلاميس التى كانوا يستطيعون منها أن يروا الفرس وهم يحرقون بيوتهم ويدمرون معابدهم على الأكروبوليس .

ثم جاء أمر يعتبر من أعظم ما ثار حوله الجدل فى التاريخ ، وربما اختلط الأمر على هيرودوتوس بالنسبة لبعض التفاصيل ولعله اعتبر من الحقائق ما كان مجرد تبادل للاتهامات فى أعقاب الحرب ، غير أن هذه صورة لحادث إغريقى يصورها أحد الإغريق ، وهى فى جوهرها صحيحة عن بلاد الإغريق . ذلك أن الإغريق من سكان الشمال كانوا قد استسلموا وأخذوا يحاربون إلى جانب الفرس ، ولم يبق من المحاربين إلا أهل البيلوبونيز وبعض الجزر وآثينا ، أما أتيكا فقد سقطت . وكانت قوات البيلوبونيز البرية عند المضيق مشتغلة بتحصينه ، وكان أغلب القواد البحريين يحبذون إرجاع الأسطول

المتحالف من سلاميس مخافة أن يحاصره الفرس هناك، ولكن ثمستوكليس رأى أن المياه الضيقه داخل سلاميس قد تعطي أسطول الإغريق فرصة للانتصار ، أما في المضيق فهزيمته مؤكدة حتى لو تجمع الأسطول واتحد وهو مالم يكن محتملا . فاستحث ثميستوكليس القائد الأعلى الأسبرطي Eurypiades يوريبياديس على أن يعيد فتح باب المناقشة (على حد قول هيرودوتوس) فوافق وأخذ ثميستوكليس يتكلم قبل أن يفتح يوريبياديس باب المناقشة رسمياً في الاجتماع ، فقال القائد الكورنثي « يا ثميستوكليس إن الذين يبدأون في الألعاب أسرع مما ينبغي يضربون بالسياط » فأجابه « ولكن الذين يبدأون متأخرين عما ينبغي لا يفوزون بالجوائز » وأخذ يشرح قضيته . لكن أديمانتوس الكورنثي قال انه ليس له الحق مطلقاً في الكلام لأنه لم يعد يمثل مدينة . فتكلم ثمستوكليس عندئذ كما روى هيرودوتوس بغلظة شديدة عن اديمانتوس وكورنثا على السواء قائلا إن لدى الآثينيين حتى الآن مدينة أوسع ومساحة أكبر من كورنثا . إذ أنه مادام لديهم مائتا سفينة كاملة العدة فإنهم يستطيعون أن يغزوا أرض أي إنسان ، ثم التفت إلى يوريبياديس وقال لهذا الرجل البائس إنه إن لم يوافق على أن يبقى ويحارب في سلاميس فإن الآثينيين سينسحبون بسفنهم ويعيدون إنشاء مدينتهم في إيطاليا ، فلما ووجه يوريبياديس بذلك اضطر إلى الموافقة .

بقي عليه بعد ذلك أن يغري كسيركسيس بالحرب في المياه الضيقة ، وقد كان ذلك سهلا جداً بالنسبة لثميستوكليس . فقد أرسل عبداً يملكه شخصياً في قارب إلى المعسكر الفارسي يقول إنه جاء من طرف ثميستوكليس الذي كان يقف سراً إلى جانب الفرس — وهو أمر كان من الممكن قبوله إلى حد ما ، ويعلن أن الإغريق سيتقهقرون بالليل عن طريق المنفذ الغربي لخليج سلاميس وأن على الفرس لذلك أن يسدوا المضيق الغربي حتى يوقعوا الإغريق في الشرك ، فانخدع الفرس تماماً وأرسلوا قسما من الأسطول لسد

المنفذ الغربى ، كما تجمع باقيه داخل المياه الضيقة فلما غربت الشمس — أين كان ؟

لقد انتصروا انتصاراً ساحقاً وكان أعظم الفخر لأثينا . ثم جاء دور الأسبرطيين فى الصيف التالى ، فقد انهزم جيش الفرس فى بلاتايا بفضل ثبات الفرق الأسبرطيه ثباتاً رائعاً لا بفضل القيادة الأسبرطيه التى كانت ضعيفة (وإن كان أهل طيبه قد حاربوا بشجاعة إلى جانب الفرس) . فانتهى الغزو الكبير . وكان كل ما بقى هو تحرير أيونيا والتأكد من أن ملك الفرس لن يجرؤ على التدخل بعد ذلك فى شئون الإغريق الأحرار . ولكن مما يؤسف له أن ملكهم استطاع بعد ذلك بمائة عام أن يفرض صلحاً من إملائه على الدول الإغريقية المتحاربة دون أن يقاتل فى معركة واحدة .

ولقد كان النصر بعيد الأثر فى نفس الوقت على بلاد الإغريق ، إذ كان الإغريق قبل ذلك يحسنون الظن بأنفسهم دائماً حين يقارنون أنفسهم بالبرابرة . وقد تأيدت لديهم هذه الفكرة فكانوا يرون دائماً أن نظمهم الحرة أحسن من الاستبداد الشرقى ، وقد أثبتت الحوادث أنهم على حق . فبينما كان العاهل الآسيوى يرغم الناس على الطاعة عن طريق التعذيب والضرب بالسياط ، كان الإغريق يتخذون قراراتهم عن طريق المناقشة والإقناع ثم يتصرفون تصرف رجل واحد وبذلك انتصروا . فلا عجب أن ملأ الجيل التالى أعلى واجهات معابده بصورة منحوتة تمثل الحرب الأسطورية القديمة بين العمالقة من أهل الأرض وآلهة أوليمب . لقد انتصر آلهة الإغريق مرة ثانية فقد هزمت الحرية والعقل الاستبداد والفزع .

وقد كان هناك ما يدعو أثينا خاصة أن تشعر بالزهو والفخار . لقد رأى الناس فى أثينا هذا النصر وهم الذين كانوا قد سمعوا من آبائهم كيف حرر سولون أرض أتيكا بالذات من استعباد الأثرياء ووضع قواعد

الديمقراطية ، وقد رأوا بأنفسهم بزستراتوس يقرض الفقراء بذور القمح ويجعل بالتدريج من أثينا الهادئة مدينة تسترعي بعض التفات الإغريق . كما أنهم رأوا وهم في منتصف العمر نهاية الاستبداد ووضع دستور جديد حر بواسطة كليستنيز . ولقد حدثت في أثينا منازعات مريرة كما بلغ الشعور الحزبي فيها غاية الشدة ، واتخذ لونا مسرحيا في القصة التي حكاها أحد الناس لهيرودوتوس عن انتقال أرستايديس Aristeides العظيم ليلا وهو زعيم حزبي منفي(١) من مقره المؤقت في إيجينا إلى سلاميس قبل المعركة البحرية مباشرة واستدعائه لثيمستوكليس من مجلس الحرب وقوله له ، لقد كنت أنا وأنت ألد الأعداء أما الآن فالمنافسة بيننا قائمة على أينا يمكنه أن يقدم أعظم خدمة لأثينا ، ولقد تسربت من بين الفرس لأقول لك إن أسطول الفرس محيط بنا فادخل المجلس وأخبره ، فقال ثيمستوكليس ، حمداً للرب ! ولكن أدخل «أنت» وقل لهم ذلك فإنهم يصدقونك» . وقد رأى الأثيني ديمقراطيته الناشئة تصمد لمثل هـــذه المنازعات الحزبية كما رأى جيش أثينا منتصراً في مراثون ، ثم رأى مدينته تلجأ إلى البحر دفعة واحدة وتخاطر بكل شيء فيه . ثم رأى مدن أتيكا تحترق والأوكروبليس الخالد موطن كيكروبس Cecrops وارخثيوس وثيسيوس والربة أثينا نفسها ، وهو خراب يباب . ومع ذلك فقد خرجت منتصرة كما عملت أكثر من غيرها على إنقاذ بلاد الإغريق . ولم يكن لبلاد الإغريق إذ ذاك قائدة واحدة بل قائدتان فكانت تقف مدينته الريفية الهادئة والكل معجب بها إلى جانب اسبرطه مدينة البطولة . ومثل

---

(١) كان هذا النوع من النفي Ostracism تدبيرا ابتكره كليستنيز ليكبح من جماح العداوات الشخصية الموجودة في الحياة العامة في أثينا . فكان المجلس يستطيع أن يقرر هذا النفي دون ذكر الأسماء . وعند ذلك كان يستطيع أي مواطن أن يكتب على قطعة من الفخار اسم أي مواطن يجب أن يراه مبعدا عن المدينة ابعاداً شريفاً لمدة عشرة سنوات . فإذا صوت ٦٠٠٠ رجل أو أكثر ضد أي رجل فلا بد من نفيه دون عقوبة أخرى . وقد كانت هذه وسيلة لأبعاد زعيم أي حزب خطر .

هذا النجاح الذي يناله الناس لا بحسن الحظ ولكن بحسن الإدراك وبضبط النفس لا بالتسلط وفرض الذات كان بطبيعة الحال حافزاً لجهود أكبر. وعندما جاءت الحرب الفارسية كانت أثينا قد عرفت نفسها لتوها فما الذي لم يكن فى استطاعتها؟. إن هناك شبها بين أثينا فى سنة ٣٨٠ وانجلترا فى سنة ١٥٨٨، ففيما نظر الناس كانوا يرون إمكانيات مثيرة. بل إن نظرة الأثينى كانت أبعد مما رآه الإنجليزى. فن الوجهة السياسية كان من الممكن أن تصبح أثينا زعيمة حلف بحرى يمكن مقارنته بحلف إسبرطه البيلوبونيزى، كما كان يستطيع الناس أن يفخروا بأن مدينتهم كانت تفعل ماتفعله لا بواسطة حكام يعملون بالنيابة عنهم بل بوساطة الأثينيين العاديين أنفسهم فى مجلسهم الأعلى. ومن الوجهة الفكرية كانت دنيا التفكير والعلم بأكملها آخذة فى التفتح، ويعود كثير جداً من الفضل فى ذلك إلى ذوى قرباهم فى أيونيا. أما فى التجارة والصناعة فقد كانت أثينا تعمل على أن تلحق بالمدن الإغريقية الأخرى التى كانت قد سبقتها بكثير. وقد كان أقتران ذوق أتيكا وذكائها بموقعها المركزى وموانيها الممتازة وقوتها البحرية الغلابة مما يبعث الرهبة حقاً. وإلى جانب هذا كانت أثينا مثل لندن تتمتع بمزايا معينة مما لا يمكن تقديرها، وهى مستمدة من استقامتها وأساليبها المبنية على الإدراك السليم. أما من الوجهة الفنية فقد كانت أمامها دنيا جديدة آخذة فى التفتح، فقد كان الكفاح الطويل مع البرونز والرخام قد أوصل فن العمارة إلى حافة الكمال الكلاسى. وكان على الفنانين الأثينيين الذين كانوا يشتغلون على الدوام تقريباً من أجل «البوليس»، أن يقرنوا ما بين الرشاقة الأيونية والقوة الدورية. وكان الخزافون والرسامون الأثينيون على وشك أن يحققوا أعظم انتصاراتهم. وأخذ أعظم الفنون الأثينية كلها وهو دراما المآسى يزداد ثقة واستثارة كل عام، كما أخذ الفنانون يغامرون مغامرات شائقة جداً فى محاولات بسيطة مرحة غير منظمة سرعان ماتمخضت

فى حقيقة الأمر عن ملهاة أريستوفانيس ومنافسيه الطريفة وإن أعوزتها الأصالة . هكذا كانت روح عصر بريكليس الذى كان فجره قد أخذ يبزغ، لاسيما إذا تذكرنا أنه كان غارقا فى أشعار هومر الخالدة ، وهو الذى علم هذه العادة العقلية (الأرستقراطية فى جوهرها مهما وجدت فى أية طبقة من طبقات المجتمع) وهى التى تتطلب الجودة قبل الكم والكفاح النبيل قبل العمل العظيم والشرف قبل الثراء .

أما التاريخ السياسى فأنى مضطر أن أعالجه بطريقة مختصرة جداً . لقد أدى التحالف الإغريقى واجبه المباشر بإبعاد الفرس عن أوربا ولكن بقى تحرير أيونيا وتحطيم قوة الفرس البحرية . وقد أظهرت إسبرطه فى هذا الموضوع قليلا من الاهتمام ، إذ أن إسبرطه كانت من الوجه الأساسية دولة برية ذات اقتصاد زراعى . وكان يسرها ألا تكون أية دولة أو مجموعة من الدول الإغريقية من القوة بحيث تهددها فى البيلوبونيزا وتستثير شبح ثورة الرقيق المفزع الموجود هناك باستمرار ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان تحرير أيونيا والدفاع عن جزر بحر إيجه أمراً خاصاً بالسفن أى من شأن أثينا . وقد كانت أثينا على استعداد كبير لهذا العمل الذى كانت تستطيع أن تذكر نفسها بأنه يناسبها باعتبارها الموطن الأصلى للجنس الايونى .

وقد نظمت أثينا لذلك أتحاداً بحرياً كان مقره الرئيسى جزيرة ديلوس المركزية المقدسة. وقد ساهمت المدن التى اشتركت فيه وهى بالفعل جميع مدن بحر إيجه البحرية، بعدد ثابت من السفن والرجال أو ما يقابل ذلك من النقود إن آثرت ذلك . وكان الذى يحدد التقديرات هو ارستايديس الأثينى أو « ارستايديس العادل » . ويدل على عدله الحقيقة القائلة أن أحدا لم يتحد أى تقدير من تقديراته . وكانت الحقيقة البارزة فى هذه الأعمال تفوق أثينا الهائل ، فقد كان لها أسطول من ٢٠٠ سفينة على حين أن كثيراً من الأعضاء

كان النصيب المقدر لكل منهم هو سفينة واحدة . وكان يفضل عدد كبير من الحلفاء الصغار أن يدفع نصيبه مالا ويكتفى بذلك .

وقد استمرت العمليات الحربية ضد الفرس بضعة أعوام ثم قامت مسألة لا حل لها وهى حق الخروج من الحلف . فقد رفضت جزيرة ناكسوس Naxos الهامة أن تستمر بعد ذلك عضواً فى الحلف . فقد توقف تهديد الفرس إذ ذاك فلماذا تساهم ناكسوس إذن بقوات فى حلف لم يكن يخفى وراءه فى الحقيقة إلا أثينا ؟ وقد كانت أثينا تستطيع أن ترد على ذلك رداً معقولا بقولها إن لم يوجد الحلف فسيعود تهديد الفرس عن قريب ، ولذلك عاملت هذا الخروج على أنه ثورة وسحقته وفرضت على أهل ناكسوس جزية يدفعونها . وقد عاملت الثورات الأخرى التى من هذا القبيل بنفس الطريقة ، ثم أرغمت دول بحر إيجه التى وقفت بمعزل عن الحلف أن تنضم إليه وكان هناك مبرر أيضاً لذلك ، إذ لماذا تتمتع أية دولة فى بحر إيجه بالأمان الذى يتكفل به غيرها دون أن تساهم فيه ؟ ثم حدث أمران ينمان عن ذكاء وقد ساعدا على تحويل الحلف إلى إمبرطورية . فقد نقل المركز الرئيسى للحلف من ديلوس إلى أثينا أى من جزيرة صغيرة كان الناس يذهبون إليها لأغراض دينيه بصفة أساسية إلى المدينة التى كان يسر الناس أن يذهبوا إليها لقضاء أى مأرب . وقد كان من الممكن تبرير هذا النقل بموضوع مريب هو السهولة الإدارية ، كما كان يمكن بيان أن خزانة الحلف تكون آمن فى أثينا ، بل إنها كانت كذلك بالفعل لأن أثينا كانت قد فقدت لتوها أسطولاين فى مغامرة مصرية . ولكن رغم كل ذلك فإنه قوى لدى أثينا وغيرها فكرة أنما كان حلفا بالاسم كان إمبرطورية بالفعل . ثم أصبحت المنازعات التجارية بين الأعضاء تحال إلى المحاكم الأثينية ، وقد كان هذا فى الحقيقة تبسيطاً عظيماً فى الإجراءات . فى حالة عدم وجود أى نظام من نظم القانون الدولى كانت الإجراءات القضائية بين أهالى المدن المختلفة ممكنة فقط إذا كان بين المدينتين معاهدة تنص

عليها بوضوح ، وإلا فقد كانت مصادرة بضائع الطرف الآخر أخذاً بالثأر — وهو نوع من القرصنة الرسمية — هو الوسيلة الوحيدة للتأكد من أن الشكاوى ينبغى الإصغاء إليها . ولقد كانت المحاكم الأثينية نزيهة بشكل معقول كما كانت غير متأثرة بالأغراض الشخصية . وقد بذلت عناية كبيرة للتأكد من أن أى أثينى لم يكن يتمتع بأى امتياز عند مقاضاة عضو من مدينة محالفة . ومع ذلك فإن الأمور كانت تبدو سيئة .

وتتضح كفاية آثينا ونزاهتها بوجه عام فى إدارة الحلف من حقيقة أن المدن ظلت تنضم له باختيارها ، وأنه عندما وقعت الحرب بينها وبين إسبرطه ظل الأعضاء على وجه العموم على ولائهم لأثينا بشكل يثير الدهشة ولو أنهم كانوا يدعون رعايا مدينة إمبراطورية .

ولكن لم يكن هناك بد من أن يأخذ المواطن الأثينى فى التفكير بروح إمبراطورية عندما كان يرى أعضاء الحلف يأتون إلى أثينا للتقاضى ، وعندما كان يعلم أن ثروة الحلف محفوظة فى الأكربوليس الخاص به وأن سياسة الحلف كان يجب أن تكون فى الحقيقة مقبولة من أثينا ، وأن قوة الحلف العسكرية كانت تتكون إلى حد كبير من سفن ورجال أثينيين . كان كل ذلك مما يبعث الزهو فى الأثينيين كما كان مربحاً لهم ، فقد كان المحلفون من المواطنين يتقاضون أجوراً على عملهم ، وقد كان جزء كبير من المال الذى يساهم به عدد متزايد من الحلفاء بدلا عن السفن والرجال يذهب بطريقة شرعية إلى جيوب الأثينيين على هيئة أجور مدفوعة فى مقابل خدمات .

وفضلا عن ذلك فقد وجد قدر كبير من المال سبيله إلى أثينا عن طريق سياسة بركليس فى التعمير . وربما كان ذلك مما يثير الريبة والتساؤل أكثر من سواه . فقد أخذت أموال الحلف تتراكم ، بينما لم تكن المعابد التى دمرها الفرس قد أعيد تشييدها بعد . وقد كان جزء من سياسة بركليس وهو

امتداد لسياسة بيزستراتوس يهدف إلى جعل أثينا مركز بلاد الإغريق الفنى والفكرى والسياسى لاسيما وأن أثينا كان بها مشكلة للبطالة . ويعتبر البارثنون Parthenon وهو المدخل إلى الأكروبوليس وعلى جانبيه معارض للصور ، هو وغيره من المبانى ثمرة هذه الحاجات والرغبات وإن كانت قد قوبلت باحتجاجات حتى فى أثينا . ولكن بريكليس رد عليها بأن الحلفاء كانوا يدفعون المال لأثينا من أجل حمايتهم وأنهم لا يدفعون مبلغاً باهظا . وقد قام الحلف بحمايتهم وكان الأسطول الأثينى كفئاً للغاية كما كان هناك احتياطى كاف من النقود ، فكان لأثينا الحق فى إنفاق الفائض على مثل هذه المبانى والتماثيل التى كانت تشرفها وتشرف كل بلاد الإغريق . وكان فى إمكانه أن يحتج ولعله قد احتج فعلا بأن أثينا وحدها هى التى سلمت مدينتها باختيارها لمن دمروها لكى تواصل الحرب من أجل حرية الإغريق، وربما قال إذ ذاك ما قاله بعدئذ فى خطبة التأبين « إننا نفتح مدينتنا على مصراعيها للجميع » .

ولكن لماذا لم تصبح أثينا عاصمة دولة إيجية متحدة؟ لقد استطاعت روما أن تمنح أهل المدن اللاتينية الأخرى وإيطاليا بأكملها والإمبراطورية كلها الحق فى أن يكونوا مواطنين بها . ومادامت روما قد استطاعت ذلك فلماذا لم تفعله أثينا ؟ .

إن تبرير ذلك بالكلام عن عدم المقدرة السياسية أو قصر النظر لا يكفى . إن الحقيقة التى لا مفر منها والتى نحاول كثيراً جداً أن نتهرب منها هى أن كل شىء علينا أن ندفع ثمنه . وهناك أشياء كثيرة مرغوب فيها ولكن ثمنها أكبر مما نقدر عليه . ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان الوجود البشرى مليئاً بالأسى . ونحن أنفسنا (أى الإنجليز) مر بنا مثل يوضح ذلك : فقد طافت بعقول بعض ساستنا أحلام جميلة عن اقتصاد وطنى يخطط تخطيطاً متقناً ويأتى بالنتائج المطلوبة بكفاءة تامة . وهذا شىء رائع ، غير أن ثمن ذلك كان العمل

الموجه ، إلا أن الرجل الإنجليزى بتعوده الغريب على الحرية الشخصية رفض أن يدفع الثمن .

ولقد ألف الإغريق أيضاً نظام المدينة المستقلة كما حاولنا أن نبين ذلك فى فصل سابق . فقد كانت « البوليس » بالنسبة للعقل الإغريقى هى التى تحدد الفرق بين الإغريق والبربرى . فهى التى مكنته من أن يعيش الحياة الذكية المسئولة المليئة بأوجه النشاط التى أراد أن يعيشها . ولم تكن أثينا لتستطيع أن تجعل من حلفائها مواطنين لديها دون أن تقتضب ضروب النشاط السياسى لكل مواطن أثينى كما تقتضب مسئوليته . فكان لابد أن يوكل الحكم إلى من يمثلون الدولة الجديدة وعندها كان يشعر الأثينى بأن « البوليس » لم تعد ملكا له ، فكانت تفقد الحياة طعمها ولذتها . وبهذه المناسبة نرى أن الرومانى كان يستطيع تحت الضغط الشديد أن يجعل اللاتين مواطنين له فى المدينة Civitas لأن المدينة كانت مجرد جهاز من أجهزة الحكم ، وطالما أنها كانت تحميه فلم يكن يهمه كثيراً من يدير شئونها ، أما الأثينى فلم يكن يفكر هذا التفكير وكذلك حلفاء أثينا فمن المؤكد ، أن أثينا لو كانت عرضت عليهم أن يكونوا مواطنين لما قبلوا ذلك ، لأن الإغريقى إن لم يكن يقيم على مسيرة يوم من مقره الانتخابى كان يرى أن حياته أقل من حياة الرجل الحقيقى .

وقد يبدو هذا شاذاً للعقل الحديث . فلا شك أنه يلوح شاذاً لأولئك الروس الذين يعرفون عنا أننا نؤثر أفكارنا عن الحرية الشخصية أكثر من الانتصارات الحقيقية أو المنتظرة التى يجلبها نظامهم . ولكن كان أمام الإغريق فعلا أن يختاروا ما يأتى : إما أن يقبلوا طرازاً من الحياة أدنى بكثير مما كانوا يتمتعون به بتوسيع « البوليس » وفقدانها بالفعل وإما أن يهلكوا فى النهاية ، فإن أعملنا الرأى بتلك الروح التى فكر بها قورش عند كومة الخشب المعدة لحرق كرويسس ورأينا أننا أيضاً مجتمع سياسى معرض

الخطر ، ومتعلق تعلق اليأس بفكرة معينة عن الحياة . فإننا لا نستريح إلى حكمنا على الإغريق بعض الشيء . وقد كانت سياسة بريكليس ، أى تلك السياسة التى كانت سائدة فى المجلس الأثينى ، تحاول أن تفيد إلى أقصى حد من النظامين . فتمتع تمتعاً كاملا بالبوليس وبالإمبراطورية كليهما . وربما كان الحكم الذى تصدره ضد بريكليس منطوياً على إخلاص أكثر لو أننا نحن أنفسنا نجحنا فى التوفيق بين حبنا للحرية وحبنا للبقاء .

وقد كان الذى يوجه سياسة أثينا أولا خلال نصف القرن الذى فصل الحرب الفارسية عن حرب البيلوبونيز هو كيمون Cimon الأرستقراطى (بن ملتياديس Miltiades المنتصر فى ماراثون) ثم تلاه بريكليس . وقد كانت سياسة كيمون هى طرد الفرس والاحتفاظ بالعلاقة الطيبة مع إسبرطه . وقد كانت السياسة الأولى أسهل من الثانية . فإن نمو أثينا السريع بل أكثر من ذلك ان تحول الحلف إلى إمبراطورية لا تكاد تكون مقنعة ، أثار الخوف والحقد كليهما إلى حد أن سياسة كيمون أصبحت مستحيلة بشكل واضح . أما بريكليس الذى كانت سيطرته على المجلس من سنة ٤٦١ حتى وفاته ٤٢٩ لا ينازعها أحد تقريباً ، فقد تقبل عداوة إسبرطه على أنه لامفر منها وعقد الصلح مع فارس وحاول أن يجعل تحدى أثينا فى بلاد الإغريق بما لا يستطاع . وقد كان النشاط الذى أبداه الأثينيون خلال تلك السنين مما لا يكاد يمكن تصديقه . فقد كان هدفهم الذى حققوه فترة وجيزة من الزمن هو الاحتفاظ بإمبراطورية شملت أو تحكمت لا فى بحر إيجه كله فحسب بل فى خليج كورنثا وبويوتيا كذلك . وكان هناك من كانوا يحلمون ومن استمروا يحلمون بغزو صقلية البعيدة . ويجب ألا يخفى كلامنا عن المناقشات والمسارح والمحاكم والمواكب حقيقة أن أثينى القرن الخامس كان رجلا يحب العمل أولا وقبل كل شيء . فقد كان عند الأثينيين فى سنة ٤٥٦ قدر كبير من المسئوليات الخاصة فى وطنهم ، ولكن ذلك لم يمنعهم من إرسال مائتى

سفينة لمساعدة مصر فى ثورة لها ضد الفرس ، وحين دمرت هذه السفن أرسلوا قوة أخرى بمثل هذا العدد لاقت نفس النتيجة . وقد كانت هناك حرب فى ذلك الوقت لها ذكر باق لأنها سجلت أسماء الذين قتلوا فيها من قبيلة إريختايد فى عام واحد فى قبرص ومصر وفينيقيا وهاليس Halieis (فى البلوبونيز) وإيجينا وميجارا . وليس هناك من يقول إن الإغريق قد استخلوا الإمبراطورية كسبتها جهود الآخرين وتضحياتهم . وفى سنة ٤٣١ اشتعلت نار الحرب التى كانت كل بلاد الإغريق تعتقد أنها واقعة لا محالة . وسنذكر شيئاً عنها فى الفصل التالى ، أما هذا الفصل فيمكن أن نختتمه باستعراض قصير للنظم الديمقراطية التى سارت أثينا فى الحرب بمقتضاها . وستسبق ذلك صورتان للخلق الأثينى مأخوذتان من تاريخ ثوكوديدس عن الحرب ، وقد قدم الأولى كورنثى جاء إلى إسبرطه ليحث الإسبرطيين على إعلان الحرب .

قال الكورنثيون : ليس لديكم فكرة عن الصنف من الناس الذى منه الأثينيون وكيف أنهم يختلفون عنكم كل الاختلاف . إنهم يفكرون دائماً فى تدابير جديدة وهم سراع فى إعداد خططهم وتنفيذها ، أما أنتم فقانعون بما لديكم ولا تريدون أن تعملوا حتى ما كان ضرورياً . وهم جريئون محبون للمغامرة وأصحاب مزاج دموى ، أما أنتم فحريصون وليس لكم ثقة فى قوتكم ولا فى أحكامكم . وهم يحبون المغامرات الخارجية أما أنتم فتكرهونها لأنهم يعتقدون أنهم يتجهون للكسب أما أنتم فتعتقدون أنكم تتجهون للخسارة . وهم عندما ينتصرون يفيدون من ذلك إلى أقصى حد وإذا انهزموا كان تراجعهم أقل من أى إنسان . وهم يكرسون أنفسهم لأثينا كما لو كانوا ملكا لها ويستخدمون عقولهم من أجل أثينا بأعظم طريقة فردية ممكنة . وهم يضعون الخطة فإذا فشلت ظنوا أنهم خسروا شيئاً هاماً ، وإذا نجحت رأوا هذا النجاح تافهاً إذا قيس بما سيفعلونه بعد ذلك . ومحال عليهم أن يتمتعوا

بالسلام ويربحوا أنفسهم أو أن يسمحوا لغيرهم بالسلام والهدوء(١) .

وهاك بريكليس نفسه بعد ذلك بعامين فى خطبته التأبينيه ، إنه يمتدح أولا سماحة أثينا ، فالقانون فيها لايميل مع الأهواء وتكريم الناس قائم على الاستحقاق لاعلى الحزبية أوالطبقية ، والتسامح شائع فىالشئون الاجتماعية ، وفى الشئون العامة يسود ضبط النفس وعدم العنف ، كما أن أثينا عظيمة الثراء فى أمور الحضارة الروحية والفكرية والمادية .

وإلى هنا كان بريكليس يقارن أثينا ببلاد الإغريق عامة وهاهو ذا يفكر فى إسبرطة بصفة خاصة .

« إننا نسمح لأى إنسان بدخول مدينتنا ولا نطرد الأجانب مخافة أن يروا أكثر مما ينبغى ، فنحن فى الحرب نثق فى شجاعتنا وجرأتنا أكثر مما نثق فى الخدع الحربية والاستعدادات . إن أعداءنا يستعدون للحرب بالتدريب المضنى منذ الصغر ، ولكننا نستمتع بالحياة ، وهذا لايجعلنا أقل جرأة فى مواجهة الخطر . وبالفعل لم يجرؤ الإسبرطيون على مهاجمتنا دون مساعدة حلفائهم . ولذا فإن لنا ميزتين ترجعان إلى استعدادنا الطبيعى أكثر مما ترجعان إلى القوانين . فنحن نتفادى الجهود التى تبذل فى البداية كما أننا عندما يحين وقت الاختبار نكون مثلهم أكفاء . ونحن نحب الفنون ولكن دون إسراف فى حب الظهور كما نحب الأمور العقلية ولكن دون ميل منا إلى النعومة واللين » .

وبعد هذه المقارنة المباشرة مع إسبرطه يعود بريكليس إلى التعميم ثانية فيقول « إن الثروة فى أثينا تعطى مجالا للعمل وليست مبرراً للافتخار ، أما الذى يشين المرء فهو الكسل لا الفقر . إن لدى أى رجل منا وقتاً يكرسه لشئونه الخاصة أو لشئون المدينة ، ومع ذلك فأصحاب الأعمال أكفاء جداً للحكم على

(١) ترجمة بتصرف لثوكوديدس ، الكتاب الأول ، فصل ٧٠ .

الأمور السياسية(١) . إن البعض يدعو من لا يشترك فى الأعمال العامة رجلا هادئاً أما نحن الأثينيين فندعوه عديم النفع . ونحن لا نعتبر الكلام عائقاً عن العمل بل مقدمة ضرورية له ، وإن جرأة غيرنا من الناس لتقوم على الجهل كما يقوم خوفهم على التقدير والتدبير ، أما نحن فنستطيع أن نتدبر الأمور ثم نكون جريئين مع ذلك . ونحن كرماء لا ابتغاء مصلحة ذاتية ولكن عن ثقة فى أنفسنا ، ومدينتنا هى فى الواقع مدرسة لكل بلاد الإغريق» .

لا ريب أن خطبة بريكليس هذه تعطينا صورة مثالية عن أثينا ولكنها رغم كل ذلك صورة حقيقية بصفة جوهرية ، وعلى كل حال فالمثل العليا لقوم جزء هام عام عليه . وليست الحقيقة الجوهرية فى هذه الصورة مجرد استعراض تام ، بل عندما نفكر فى أى جانب من جوانب نشاط أثينا فى عهد بريكليس نستطيع أن نرجع إلى هذه الخطبة وما تتضمنه من ثناء عظيم على مدينة أثينا ، فنعتقد بأن الأثينيين فى هذه الفترة لابد أنهم كانوا فعلا هكذا فى كل الأمور الجوهرية. وعندنا جمال البارثنون المذهل — فحجمه متواضع جداً وطوله ٢٢٠ قدماً فقط ولكن تأثيره فى منتهى القوة ، وهو إن يكن فى الصور الفوتوغرافية مجرد معبد من معابد الإغريق إلا أنه فى الحقيقة أروع بناء موجود . كما أن هناك مسرحيات سوفوكليس التى وضعها لهؤلاء الأثينيين الذين قابلوها بالإجلال . وأنا نفسى — إن جاز لى أن أجعل نفسى مرجعاً — قد أعطيت محاضرات مفصلة عنها لمدة ثلاثين سنة ، ومع ذلك أجدها الآن أكثر جدة وتشويقاً وإمتلاء بالأفكار مما وجدتها فى أى وقت سابق ، وليس فيها شىء تافه يمكن إهماله ، وكذلك ليس فيها ما يقصد به إلى الظهور (رغم أن أسلوبها

---

(١) من الواضح أن هذا نقد لمدن تجارية وصناعية أخرى مثل كورنثا ، وهو يتضمن أمراً شائقاً هو أن هذه المدن لم يكن يحكمها أصحاب الأعمال . ولقد يسر المكتب المركزى لحزب المحافظين أن يعرف بالضبط المرجع الذى اقتبسنا منه هذه الفقرة ، توكوديدس ، الكتاب الثانى فصل ٤٠ .

الفني فائق) كما أنها ليس بها شيء يعتبر في الدرجة الثانية . وهناك أيضاً ما قد يكون أفصح في الدلالة من أي شيء ، أعني الشواهد الحجرية البسيطة التي نحتها نحاتون أسماؤهم مجهولة وهي في جلالها الهادىء وإخلاصها مؤثرة إلى أقصى حد . وهناك أشياء عادية مما تستعمل في المنازل لها نفس هذه الصفات ولن يكون الإنسان في أي مكان متأكداً من أنه لن يصادف شيئاً مبتذلا أو عجيباً أو شاذاً أو سطحياً مثلما يتأكد من ذلك في أثينا في عهد بريكليس . ولا أدل على طابعها في هذا العصر من الملهاة ، ففيها ما يخدش الحياء بشكل فاضح مما لا يمكن معه أن يطبع اليوم ، ومع ذلك فهو مما لا يسخر الإنسان منه . ويرجع كل ذلك إلى أن شعباً من معدن كريم كان يعيش في أحوال جعلته يعتاد على أسمى أنواع الجهاد الروحي والعقلي والجسماني .

وهذا يعود بنا ثانية إلى « البوليس » ، فالبوليس إنما وجدت كانت تجعل الحياة كاملة عتلئة كما كانت تجعل لها معنى ، وقد كان هذا ملاحظاً بصفة خاصة في أثينا حيث بلغت الديمقراطية السياسية أقصى حدودها المنطقية . وهناك بطبيعة الحال من يجحدون أن أثينا كانت ديمقراطية على الإطلاق لأن النســاء والأجانب المقيمين بها والرقيق لم يكن لهم صوت في إدارة شئونها . وإذا عرفنا الديمقراطية بأنها مشاركة كل سكان البلاد من البالغين في إدارة شئونها فإن أثينا لم تكن ديمقراطية لا هي ولا أية دولة حديثة ، لأن كل دولة حديثة يجب أن تكل أمر الحكم إلى ممثلين من الإداريين المحترفين بسبب حجمها ، وهذا نوع من الأوليجاركية (حكم الأقلية) .

أما إذا عرفناها بأنها اشتراك كل المواطنين في الحكم فعندئذ تكون أثينا ديمقراطية . ويجب أن نتذكر أن المؤهل العادي للمواطن الإغريقي هو

أن يكون أبوه على الأقل إن لم يكن أبواه كلاهما مواطنين . لأن الدولة الإغريقية كانت (نظرياً وعاطفياً) مجموعة من الأقارب لا مجرد سكان منطقة ما.

غير أن تعريف الديمقراطية(١) الدقيق غير هام بالنسبة لهدفنا الحالى ، فما يهمنا هو أن نرى كيف أن نظم أثينا السياسية أثرت فى حياة الأثينى ، وعقله وسنصفها فى هذا الفصل ، أما فى الفصل التالى فسنلاحظها أثناء العمل تحت ضغط حرب بالغة الخطورة .

وقد كان المجلس أسمى السلطات كلها ، وكان يبذل كل شىء ممكن للاحتفاظ له بمكانته فى الحقيقة وعلى الورق . ولم يكن من الممكن فى أثينا أن يقبض هذا الجهاز على الحكم . وهذه ميزة أخرى للبلاد ذات الحيز الصغير . وقد كان المجلس يتكون من كل أثينى بالغ تعترف وحـــدته الإدارية بشرعيته ، ولم يكن قد سبق أن حرم من حقوقه عمداً بسبب جرم خطير . ولم يبق أثر لحيازة مؤهل الملكية إلا فى الجيش . وهو أمر له مغزاه ، وقد كانت « البوليس » هى مجتمع المواطنين إلى حد بعيد كما أنهـا كانت دولة فوق البشر إلى حد ضئيل ممـا ترتب عليه أن المواطن كان عليه أن يجد معداته الحربية ، فكان من نتيجة ذلك أن الرجل الذى كان من الغنى بحيث يمتلك جواداً كان يحارب فى سلاح الفرسان على جواده ولو أن « البوليس » كانت تدفع أجر طعام الجواد أثناء الخدمة . أما من

---

(١) ما دام لمعنى كلمة « ديمقراطية » أهمية فى الموضوع فمن الممكن أن نضيف ملاحظة هنا عن استعمال الكلمة عند الاغريق . ففى الكلام العادى كانت Demokratia (ومعناها الحرفى حكم الشعب) هى الديموقراطية السياسية كما وصفناها من قبل . ولكن أصحاب النظريات السياسية لاسيما أفلاطون وأرسطو كانوا يستعملونها بمعنى الحكم بواسطة الشعب ولذلك نددوا بها باعتبارها نوعاً إما من الأوليجاركية أو من الاستبداد المعكوس أى من الحكم الذى تدعو إليه المصلحة الذاتية ، أما الاسم الذى يطلق على الحكم القائم على الموافقة العامة دون علاقة بطبقة من الطبقات فهو Polity

كانوا متوسطى الثراء فقد كانوا يخدمون فى سلاح المشاة البطىء، ويأخذون معهم دروعهم . أما الفقراء الذين لم يكن فى إمكانهم إلا التقدم بأنفسهم فقد كانوا يشتغلون مساعدين أو يجدفون فى سفن الأسطول . وكان الأجانب المستوطنون يؤدون الخدمات العسكرية إلى جانب المواطنين . أما الرقيق فلم يشتركوا قط فى خدمة الجيش أو الأسطول إلا مرة فى لحظة من لحظات الخطر العظيم حين دعى الرقيق إلى الانضمام إليهما مع وعدهم (وعداً أوفوا به) بالحرية وكافة الحقوق المدنية (لا السياسية) .

وقد كان هذا المجلس وهو اجتماع عام لكل المواطنين من الذكور المقيمين فى أتيكا هو الهيئة التشريعية الوحيدة ، وكان له الرقابة التامة على الإدارة والقضاء . فلننظر أولا فى موضـــوع الإدارة . كانت محكمة الأريوباجوس Areopagus القديمة تتكون إذ ذاك (فى القرن الخامس) من قضاة سابقين تنحصر مهمتهم فى النظر فى جرائم القتل . أما القضاة التسعة Archons الذين كانت لهم سلطة كبيرة فى وقت ما فقد أصبحوا يختارون من أعضاء المجلس بوساطة التصويت السرى سنوياً . فكان من الجائز أن يجد أى مواطن فى أى سنة نفسه أحد قضاتها التسع ، وكان معنى هذا بطبيعة الحال أن تولى منصب القضاء فيها وإن كانت له مسئولية إدارية إلا أنه لم تكن له سلطة حقيقية ، فقد بقيت السلطة للمجلس الذى كان يجتمع مرة فى كل شهر ما لم يدع للاجتماع خصيصاً للفصل فى أمر ذى بال ، وكان كل عضو يستطيع أن يخطب إذا استطاع أن يجعل المجلس يصغى إليه ، كما يستطيع أن يقترح ما يشاء على ألا يتعدى ضمانات دستورية دقيقة معينة ، غير أن مثل هذه الهيئة الكبيرة كانت تحتاج إلى لجنة لتحضير أعمالها والتصرف فى أمورها الهامة العاجلة ، وقد كانت هذه اللجنة هى مجلس الخمسمائة Boulé (البوليه) الذى لم يكن ينتخب علناً بل كان يختار بطريق التصويت السرى بمعدل خمسين من كل قبيلة . ولما كان هذا المجلس

يختار اعتباطاً ويتكون من قوم مختلفين كل الاختلاف سنوياً لم يكن من الممكن أن يسوده شعور جماعى ، وكان الهدف كل الهدف هو ألا يسيطر شيء على المجلس ، وكان الأعضاء الذين تتكون منهم أكثر اللجان الإدارية (الإدارات الحكومية) هم من مجلس (البوليه أو الخمسمائة) ولكن لما كان خمسمائة شخص لا يمكن أن يظلوا مجتمعين فى جلسة مستمرة كما أن عددهم كان أكثر بكثير من أن يكونوا لجنة تنفيذية ذات كفاية ، فقد كان هناك مجلس داخلى « Pritany » يظل فى جلسة مستمرة عشر العام ، وهو يتكون بدوره من الخمسين رجلا المختارين من كل من القبائل العشر، وكان أحد هؤلاء ينتخب بالاقتراع السرى كل يوم ليكون الرئيس ، وإذا كان هناك اجتماع للمجلس فقد كان يرأسه ، وكان يعتبر الرئيس الأسمى للدولة لمدة أربع وعشرين ساعة . (ولما كانت بلاد الإغريق ذات تصرفات مسرحية شائقة فقد تصادف أن شغل سقراط هذا المنصب يوماً قرب نهاية الحرب عندما ساد المجلس الاضطراب والعنف — كما كان يحدث أحياناً وليس غالباً — ولما طولب بطريقة غير قانونية بتاتاً باتهام مجلس القواد بأجمعه بالخيانة لفشله فى إنقاذ الباقين على قيد الحياة من معركة أرجنوساى Arginusae البحرية التى انتصروا فيها ، فقد تحدى سقراط الجمع المضطرب ورفض أن تؤخذ الأصوات على هذا الاقتراح المخالف للقواعد) وكان على القضاة الذين يتركون مناصبهم أن يقدموا إلى المجلس تقريراً عن أعمالهم الرسمية ، ولم تكن تنتهى مسئوليتهم حتى يمروا بهذه المراجعة . وهذه تعتبر رقابة أخرى على الإدارة . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة أثينا أو ببيع ممتلكاتهم حتى تتم هذه الإجراءات .

وكان هناك منصب واحد هام لا يمكن أن يترك عرضة لمخاطر التصويت السرى وهو قيادة القوات البرية أو البحرية ، إذ كان القواد أو أمراء البحر العشرة Strategoi ينتخبون علناً ولكن سنوياً . ولو أن

إعادة انتخابهم كان مسموحاً بها بل كانت أمراً عادياً بالفعل . ولم يكن من غير المألوف أن يكون الآثيني قائداً فى معركة وجندياً عادياً فى معركة تالية . وقد كانت هذه حالة متطرفة للفكرة الأساسية المطلوبة من الديمقراطية وهى « أن تحكم مرة وأن تحكم مرة أخرى » كما لو كان على عضو نقابة العمال فى سنة أن يعود بصفة أوتوماتيكية إلى منضدة العمل فى السنة التالية . ولما كان هؤلاء هم المواطنون الوحيدون المنتخبون بكل صراحة على أساس الكفاية الخاصة وهم يشغلون وظائف بمثل هذه الأهمية فقد كان للقواد نفوذ عظيم فى شئون المدينة بطبيعة الحال . وقد قاد بريكليس الآثينيين مدة طويلة جداً عن طريق هذه الوظيفة وعن طريق تفوقه الشخصى فى المجلس .

ولقد كان المجلس لا يكتفى بمراقبة التشريع والإدارة فحسب بل بمراقبة العدالة أيضاً . وكما أنه لم يكن هناك إداريون محترفون فكذلك لم يكن هناك قضاة أو محامون محترفون . وقد ظل مبدأ التجاء المعتدى عليه مباشرة إلى زملائه المواطنين طلباً للعدالة مرعياً فى المحاكم المحلية فيما يختص بالأمور التافهة وفى المحاكم الآثينية بالنسبة للأمور الجنائية والمدنية الهامة . وكان المحلفون فعلا قسما من المجلس يتراوح عددهم بين ١٠٠١،٢٠١ تبعاً لأهمية القضية ولم يكن هناك قاض بل كان مجرد رئيس شكلى فقط مثل رئيس المحلفين عندنا . ولم يكن هناك محامون ، فكان الطرفان يترافعان فى قضيتهما ، ولو أنه كان فى إمكان المدعى أو المدعى عليه فى الحقيقة أن يحصل على كاتب محترف للخطب يصوغ له خطبته وإن كان هو يحفظها عندئذ ويلقيها بنفسه ، وقد كان كل من هؤلاء المحلفين الشعبيين من الثقاة فى القانون وواقع الحياة ، ولم يكن هناك استئناف . وإذا كان الذنب مما لم يقرر القانون عقوبة محددة عليه فقد كان المدعى إذا كسب قضيته يقترح العقوبة ، لأن العدد الكبير من المحلفين لم يكن يستطيع أن يحدد الحكم بطريقة مريحة ، كما أن المتهم كان يقترح

بدلها ، وكان على المحلفين اختيار أحداهما . وهذا يفسر الإجراء الوارد في كتاب أفلاطون « Aplogy » فعندما أدين سقراط طالب الاتهام بعقوبة الإعدام ، أما سقراط فقد اقترح أولا حرية المدينة مقابلا لهاثم أقترح رسمياً — لا النفي وهو ما كان الحلفون يقبلونه بسرور — بل غرامة تكاد تكون من قبيل العبث والسخرية .

هذه النظرة الفاحصة ولو أنها موجزة تظهر نقطة جوهرية هي أن الشئون العامة في أثينا كان يتولاها الهواة بقدر الإمكان . أما المحترفون فقد كانوا ينحون أضيق مجال ممكن ، بل أن الخبير بالفعل كان في العادة عبداً للجميع . وكان كل مواطن بدوره إما جندياً (أو بحاراً) أو مشرعاً أو قاضياً أو إدارياً إن لم يكن بصفته أحد القضاة التسعة الكبار فسيكون ذلك قطعاً بصفته عضواً في مجلس (البوليه أو الخمسمائة) . وقد يرى القارىء أن هذا الاستخدام غير المألوف للهواة مثير للسخرية . ولقد انتقده سقراط وأفلاطون بالفعل انتقاداً شديداً ، ولو أن ذلك لم يكن لأنه غير مجد بقدر ما كان لأنه يكل مهمة « الفن السياسي » الكبرى — وهي الارتقاء بالناس إلى مستوى أفضل — إلى رجال يجهلونها جهلا تاماً .

وقد كان وراء كراهية الآثينيين للاحتراف ما يكاد يكون نظرية قائمة عن « البوليس » مؤداها أن واجب اشتراك الفرد في الوقت الملائم من حياته في كل شئون البوليس إنما هو دين عليه نحو « البوليس » ونحو نفسه على السواء . فقد كان ذلك جزءاً من الحيـــاة المليئة بالنشاط التي كانت « البوليس » وحدها تستطيع أن تتيحها . فلم يكن الحصول عليها في استطاعة الرجل المتوحش الذي يعيش لنفسه فقط ولا « البربرى » المتمدين الذي يعيش في إمبراطورية متسعة يحكمها ملك وتخدمه الشخصيون . فقد كان حكم الناس لأنفســهم عن طريق المناقشة وكذلك رياضة النفس على النظام والمسئولية

الشخصية والاشتراك المباشر فى حياة البوليس فى كل صغيرة وكبيرة هى أنفاس الحياة بالنسبة للأثينى .

ولم يكن ذلك مما يتفق مع حكم دولة متسعة حكما تمثيلياً . هذا هو السبب فى أن أثينا لم تستطع أن تنمو مثل روما فتضم إليها عدداً من « البوليس » الأخرى . فقد كانت مسئولية اتخاذ الإنسان لقراراته وتنفيذها وتقبل النتائج بالنسبة للأثينى جزءاً ضرورياً من حياة الرجل الحر . وقد كان هذا أحد الأسباب — التى جعلت مأساة أرسخيلوس وسوفوكليس وملهاة أرستوفانيس هى الفن الذى يحبه الشعب فى أثينا بينما السينما هى فننا المحبوب . وقد كانت عادة الأثينى أن يعنى بالأشياء الهامة ولهذا فقد كان يبدو أى فن لا يعالج المواضيع الهامة فناً صبيانياً .

وربما أوحى وصف الدستور الأثينى هذا وهو وصف قصير جداً بحكم الضرورة إلى القارىء بفكرتين على الأقل ، هما أن هذا الأمر كله كان يؤخذ مأخذ الهواية إلى حد بعيد . كما أن الأثينيين كان عليهم أن يقضوا وقتاً كبيراً جداً فى الأعمال الهامة إن كان يرجى لهذا النظام أن يسير حقاً على ما يرام .

فلنبدأ بالنقطة الأولى ، لقد كان الحكم عندهم حكم الهواة بأدق معانى هذه الكلمة أى الحكم بواسطة أناس يحبون الحكم والإدارة . وقد يكون التعبير عنها هكذا مضللا لأن كلمتى « حكم » و « إدارة » قد اكتسبت لدينا أهمية عظمى فهما أمران فى حد ذاتهما أو مطلبان يكرس بعض الذين أسىء توجيههم حياتهم من أجلهما ، أما بالنسبة للإغريق فقد كانا مجرد وجهين من الأوجه العديدة فى حياة « البوليس » . إن مباشرة أعمال « البوليس » لم تكن واجباً على كل إنسان نحو البوليس فقط بل نحو نفسه كذلك . كما أن كل إنسان كان مهتما ومشغوفاً بها إلى حد يشغل كل وقته وجهده فقد كانت

جزءاً من الحياة الكاملة المليئة وقد كان هذا هو السبب فى أن الآثينى لم يكن يستخدم الإدارى أو القاضى المحترف قط إن كان فى أمكانه ذلك ، فقد كانت « البوليس » نوعا من « الأسرة الفائقة » . والحياة العائلية تعنى الاشتراك اشتراكاً مباشراً فى شئون الأسرة ومشاورتها . وهذا الموقف تجاه «البوليس» يفسر لنا أيضاً السبب فى أن الإغريق لم يبتكر — كما نقول — الحكومة التمثيلية ، فما الذى كان يدعوه إلى ابتكار شىء كان الإغريق جميعاً يكافحون من أجل إلغائه وهو أن يحكمه أحد غيره ؟

ولكن أكان هذا الأمر أمر هواية بمعناها الآخر أى بمعنى قلة الكفاية أو عدم الأهمية ؟ إننا نستطيع على ماأعتقد أن نجيب على هذا السؤال بكلمة « لا » إذا كان المعيار الذى نقيس به الأشياء هو الحكم كما يوجد عادة بين الناس وليس الكمال . فقد كان نظام الحكم عندهم مستقراً إذ أنه نهض بسهولة جداً من ثورتين كان الحكم خلالهما أو ليجاركيا وقد نشأتا بسبب ضغط الحرب الفاشلة . ولقد كفل نظام الحكم الحصول على إمبراطورية وحسن إدارتها ، وأفلح فى جمع الضرائب وضبط الاقتصاديات والمالية والعملة المتداولة بحزم ملحوظ . ويبدو أنه حافظ على مستوى من العدالة العامة لم تبلغه حكومات معينة فى زماننا . ولقد خسر حرباً خطيرة لافتقاره إلى الشجاعة أو الحماسة بسبب أخطاء جسيمة فى الحكم على الأمور . وأى نظام من نظم الحكم معرض لذلك ، فإذا حكمنا عليه طبقاً لهذه الأمور جميعاً أى طبقاً لمعايير الكفاية العادية فيجب ألا نصدر الحكم على هذه التجربة من تجارب الديمقراطية المنطقية بأنها لم تكن ناجحة .

أما الآثينى فإنه كان يتقبل كل اختبارات الكفاية هذه على أنها مشروعة

ولكنه كان يضيف إليها اختباراً آخر وهو هل ضمنت للمواطن العادى حياة طيبة إلى حد معقول ، أى هل شحذت تفكيره وأرضت روحه بالإضافة إلى القيام بما ننتظره نحن اليوم من الحكومة ؟ فعند الإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن يكون هناك تردد على الإطلاق . ولقد استخدم فلاسفة مثل سقراط وأفلاطون اختباراً أدق بكثير : فتساءلوا عما إذا كان نظام الحكم هذا قد درب الناس على الفضيلة ؟ وقد قال أفلاطون فى محاورة Gorgias أن ثيمستوكليس وكيمون وبريكليس ، قد ملأوا المدينة بالتحصينات والسفاسف التى من هذا النوع ، ولكنهم فشلوا تماماً فى أول واجب للسياسى وهو جعل المواطنين أفاضل ، . غير أن قليلا جداً من الحكومات هى التى هدفت إلى الكفاية التى من هذا النوع .

وعند التمعن فى كفاية نوعها أدنى من هذا يجب أن نتذكر شيئين أحدهما صغر الدولة ، إذ أن هذا الاجتماع الإقليمى الأثينى وهو المجلس مثله كمثل المجلس المحلى النشيط فى أيامنا هذه كان يعالج فى أغلب الأحيان مسائل يعرفها كثير من أعضائه على الأقل معرفة مباشرة . ثم إن تعقد الأمور كان أقل بكثير عما هو عليه اليوم . ولا نقصد بالفعل تعقد الأمور الفكرى أو الخلقى فهو هو ذاته دائماً وإنما نقصد تعقد التنظيم . فإذا أعلنت الحرب لم يكن يقتضى الأمر «تعبئة كافة موارد الأمة» وما يستتبعه من لجان لا تنتهى ومن استهلاك هائل للورق بل كان الأمر يستدعى مجرد ذهاب كل إنسان إلى بيته من أجل درعه ورمحه وطعامه اليومى وإبلاغ المسئولين عن حضوره لتلقى الأوامر . وقد ارتكب المجلس أسوأ أخطائه باتخاذه قرارات فى مواضيع تتعدى نطاق معرفته الشخصية . وهكذا أصدر فى وسط الحرب قراراً بغزو صقلية وهو قرار مفعم بالمصائب رغم أن القليلين جداً كما قال ثوكوديديس كانوا يعلمون موقع صقلية لا مقدار حجمها .

وكذلك يجب على الإنسان أن يتذكر أن كل أعضاء هذا المجلس فيما عدا أصغرهم سناً كانت لهم تجربة مباشرة بالإدارة فى الوظائف المحلية والقبلية المختلفة وفى المحاكم، وأن خمسمائة رجـــل جديد كانوا يشتغلون كل سنة فى مجلس (البوليه أو الخمسمائة) ، فيعدون مشروعات القوانين لعرضها على المجلس ويستقبلون البعثات الأجنبية ويعالجون الشئون المالية وكل ما عدا ذلك من الشئون . فإذا أخذنا ٣٠٠٠٠ على أنه تقدير معقول لعدد المواطنين فى العادة فإنه يتضح أن اشتغال كل مواطن فى (البوليه أو مجلس الخمسمائة) كان أقرب احتمالا من عدم اشتغاله . ولقد كان المجلس غالباً ما يتكون فى حقيقة الأمر من رجال يعرفون ما يتكلمون بشأنه عن تجربة شخصية .

وهذا ينقلنا إلى بحثنا الثانى وهو كيف كان الآثينى العادى يجد وقتاً يتسع لهذا كله . فهو لم يكن رجلا فوق البشر كما كان اليوم عنده يتكون من أربع وعشرين ساعة مثل يومنا الحالى . ومن الواضح أن هذا سؤال هام . لقد كان الإغريق يمتلكون الأرقاء مثلهم مثل كل الشعوب المتمدينة فى الزمن القديم وفيما تلاه من الأزمنة . وقد استنتج من ذلك الكثيرون ممن لم يقرأوا أريستوفانيس بل قرأوا « كوخ العم توم » أن ثقافة أتيكا كانت من شأن طبقة تنعم بالفراغ وتعتمد فى معاشها على الرقيق ، وقد يكون فى هذه العقيدة ما تعتزى به نحن الذين لنا مقدرة اقتصادية أكبر ، وإن كان عندنا من الحضارة الحقيقية أقل منهم بكثير . غير أن هذه عقيدة زائفة من أساسها . إن الشبه قليل جداً بين الرق عند الإغريق فى القرنين الخامس والرابع وبين الضياع الرومانية الكبيرة Latifundia التى كان يفلحها الرقيق، والتى نشأت عن تناقص سكان الريف .

فأولا إن نظام الرق فى الزراعة لم يكد يكون له وجود فى بلاد الإغريق ، كما أن التقليد الذى ظل قائماً عندهم هو أن المواطن كان يملك أرضه دون أن

يقدم له الرقيق فائدة تذكر في زراعة مثل الأرض المحدودة التي كانت له . إذ كان للعبد أن يأكل تقريباً بقدر ما ينتج من المحصول ، وكان الفلاح الثري مثله كمثل المواطن الذي يسكن المدينة يفضل أن يكون له قليل من الأرقاء الذين يستخدمهم غالباً في قضاء حاجاته الشخصية والمنزلية . وكان للأثيني الذي يخرج لشراء حاجاته عبد إن أمكنه ذلك يحمل له ما يشتريه كما كان عنده في البيت عبد أو إثنان أو جارية أو جاريتان يؤديان عمل الخادم أو المرضع عندنا . وقد زاد ذلك من مسرات الحياة عندهم ورقى الحضارة إلى حد ما مثلما أعان الخدم الذين أعتدنا أن نستخدمهم سيدات الطبقة الوسطى على لعب البردج عصر كل يوم ، وكما ساعدوا الأساتذة على تأليف الكتب . ولكنهم لم يكونوا عماد الحياة الاقتصادية في أتيكا بكل تأكيد . ويقدر حجة(١) حديث في تاريخ الإغريق أن حوالى ١٢٥٠٠٠ عبد كانوا في أتيكا قبل حرب البيلوبونيز كان يتولى منهم الخدمة المنزلية حوالى ٦٥٠٠٠ أي أكثر من النصف بقليل ، كما كان هناك في تقدير الأستاذ جوم حوالى ٤٥٠٠٠ أثيني سنهم فوق الثامنة عشرة . وبذلك كان العدد الكلي لسكان آثينا أكثر من ١٠٠٠٠٠ . وهذا يجعل نصف عبد تقريباً لكل آثيني في المتوسط . ولكن من المحال أن نقدر عدد الأسر التي لم يكن بها أحد من الأرقاء ، وعدد التي كان بها أرقاء كثيرون ، ويقدر الأستاذ جوم أن ٥٠٠٠٠ من الارقاء الآخرين كانوا يشتغلون في الصناعة و ١٠٠٠٠ في المناجم . وقد كان الآثينيون يعاملون الأرقاء المشتغلين في المناجم بقلوب قاسية إلى أقصى حد . وهذه هي الوصمة الوحيدة الخطيرة التي تلطخ إنسانية الآثينيين العامة ، فقد كان لأرقائهم على العموم حرية كبرى وحماية قضائية أكثر بكثير مما يلقاه المواطن السود في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، إلى حد أن الإسبرطيين كانوا يسخرون

---

(١) تاريخ الاغريق ، المجلد الأول من تاريخ الحضارة الأوربية بقلم — أ — جوم أصدار (آبر) ولعل هذا هو أحسن « موجز تاريخي » موجود عن حضارة الإغريق .

من أنك لا تستطيع أن تفرق فى شوارع آثينا بين العبد والمواطن ، غير أن الآثينيين كثيراً ما كانوا يجعلون الأرقاء يشتغلون فى المناجم حتى الموت ، فقد كانت الأحوال أسوأ بكثير منها فى مصانعنا فى أفظع الأوقات ، ولو أن الآثينى كان من حقه أن يعتذر بأن الآثينيين لم يدعوا على الأقل بأن هؤلاء الضحايا كانوا مواطنين لهم نفوس خالدة ، كما أن أسوأ الأرقاء هم الذين كانوا يرسلون إلى المناجم . على أن ذلك كان شيئاً بشعاً . فمن جهة كان هذا بلا ريب مما ينطبق عليه المثل القائل « بعيد عن العين بعيد عن القلب » ومن جهة أخرى ما كان يمكن تقريباً تشغيل المناجم دون شىء «من هذا القبيل» . إن أكثر الحضارات لها فظائعها الخاصة ، فنحن نقتل ٤٠٠٠ مواطن سنوياً فى الطرقات لأن أسلوب حياتنا الحاضرة لا يمكن استمراره بغير ذلك . إن فهمنا لهذه الظروف لا يعنى بالضرورة الصفح عن ذلك ولكن ليس هناك من ضرر أن حاولنا أن نفهم .

أما الخمسون ألفاً المقدر اشتغالهم فى الصناعة فيبدوا أن هذا عدد هائل بالنسبة إلى عدد السكان كله ، فلو كان عندنا فى بريطانيا العظمى عدد من الأرقاء المشتغلين بالصناعة يمكن مقارنته بذلك ، أى نحو عشرة ملايين لكنا نعيش الآن فى غاية الراحة لولا قوانين الاقتصاد التى من المؤكد أنها تقرر أن أحوالنا كانت تكون أسوأ منها فى أى وقت . ولكننا عندما نحاول أن نقدر الأثر الاقتصادى والاجتماعى لهؤلاء الخمسين ألفاً من الأرقاء ، ينبغى لنا أن نتذكر أن عملهم عندما لم تكن هناك آلات لم يكن ينتج فائضاً كبيراً يعيش عليه الآخرون بل كان ينتج شيئاً لم يكن كبيراً بكل تأكيد ، لقد كان هناك حد فعال بالنسبة لاستخدام الأرقاء فى الصناعة .

ففى أوقات الكساد كان العبد الكسول خسارة تامة ، فقد كان يتعين إطعامه . وكانت قيمته الكلية أقل من قيمة طعامه . ولذلك نرى أن «المصنع»

العادى كان يستخدم الأرقاء والمواطنين كليهما ، كما كان من الممكن طرد المواطنين . ولقد كان « المصنع » فى جميع الأحوال شيئاً صغيراً جداً بالفعل . فلو أنه كان يستخدم عدداً يصل إلى عشرين من الأرقاء لكان يعتبر مشروعاً كبيراً حتما . وقد أصبحنا نعرف بفضل الكشف حديثاً عن بعض النقوش شيئاً عن إدارة العمل فى بعض مبانى الأكروبوليس . فنحن نعرف أن آثينا كانت دولة بها أرقاء ، ولذلك فإننا نتوقع بكل اطمئنان أن يكون البارثنون والأريختيوم Erechtheum وبقية المبانى قد بنى كلا منها مقاول يستخدم فرقا من الأرقاء . فاذا أمعنا الفكر ربما كان من السخف أن نفترض أن المهارة والنحت اللذين بهذه الجودة وهذه الرصانة وهذه الرقه والذكاء هى من ابتكار ملاك الرقيق . فهذه المبانى تختلف عن الأهرام كل الاختلاف ، وإنا لنجد أن ما تم بناؤه ليس من قبيل الأهرام ولكنه شىء آخر غيرها مما لا يكاد يصدقه العقل . لقد أنشئت هذه المبانى عن طريق آلاف من العقود المستقلة ، فأحد المواطنين ومعه أحد الارقاء يتعاقد على أن يستحضر حمولة عشرة عربات من الرخام من بنتليكوس ، أو مواطن يستخدم أثنين من الآثينيين كما يملك ثلاثة أرقاء يتعاقد على حفر حزوز فى أحد الأعمـدة . لقد أعانهم الرق كما تعيننا الآلة أما القول بأنه كان عماد الاقتصاد الآثينى فهذه مبالغة خطيرة . والقول بأن الرق حدد طابع المجتمع وأبعد المواطن العادى عن العمل الشاق أنما هو قول مضحك . أما الذى أدى إليه فعلا فهو أنه خفض مستوى الأجور ، إذ أنه لو أصبح شراء الرقيق أكسب فى النهاية لما استخدم أحد الأحرار فى العمل ، غير أن امتلاك الأرقاء كان عملا عظيم التوريط .

وفى بحثنا إذن عن مصدر وقت الفراغ الذى يبدو أنه كان عند الآثينيين بمثل هـذه الوفرة لابد أن نعطى للرق الأهمية التى يستحقها لا أكثر . وفى أغلب الأحيان كان فى وجود الرق مجرد زيادة فى فراغ أولئك الذين كانوا يتمتعون براحة كافية . وعلينا أن نعطى أهمية أكثر بكثير ، على ما أعتقد ،

لمستوى المعيشة البسيط كل البساطة الذى كان يعيش فيه حتى الآثينى الغنى . لقد كان بيته وأثاثه وثيابه وطعامه بحالة ينبذها الصانع البريطانى باحتقار ، وهو لا يستطيع بالفعل أن يعيش عليها فى مناخ بريطانيا .

صحيح بطبيعة الحال أن الآلات تنتج لنا أغلب الأشياء التى تعد بالألوف أما الإغريق فلم يكن حالهم كذلك ولكن ذلك سلاح ذو حدين . ونحن لا نبحث الآن موضوع الراحة بل موضوع الفراغ وهو الذى كان يقدره الإغريق أكثر من كل شىء إلا المجد . وليس من الواضح أن الآلات زادت من فراغنا بوجه عام ، ولكنها زادت زيادة هائلة من تعقيدات الحياة بحيث أن قدراً كبيراً من الوقت الذى يوفره لنا الإنتاج الآلى يأخذه منا العمل الإضافى الذى يخلقه عصر الآلات .

وثالثاً عندما يحسب القارىء مقدار وقت العمل الذى يقضيه ليستعين به على دفع ثمن الأشياء التى كان الشخص الإغريقى يستغنى عنها بكل بساطة ، من أمثال أرائك الجلوس والبنيقات وأربطة الرقبة وأغطية الفراش وأنابيب الماء الجارى والتبغ والشاى ، وظائف الحكومة ، فليفكر فى الأعمال التى يزاولها وتستنفد وقته والتى لم يكن يعملها الرجل الإغريقى ، مثل قراءة الكتب والصحف اليومية والسفر يومياً للعمل والتسكع حول المنزل وتشذيب العشب النامى فى الحديقة وهو يعتبر من ألد أعداء الحياة الاجتماعية والفكرية فى مناخ بلادنا (إنجلترا) . ثم أن دورة العمل اليومى لم تكن تنظمها الساعة بل الشمس ، إذ لم يكن هناك ضوء صناعى مفيد . وكان النشاط يبدأ فى الفجر ، ففى محاورة « بروتا جوراس » التى كتبها أفلاطون أن شاباً متحمساً يريد أن يرى سقراط بسرعة وينادى عليه مبكراً إلى حد أن سقراط كان مايزال فى الفراش (والاحرى أن نقول على الفراش وأن نفترض أنه ملتف فى عباءته) . وكان على الشاب أن يتحسس طريقه إلى الفراش لأن النور

لم يكن قد بزغ بعد . ومن الواضح أن أفلاطون يعتقد أن هذه الزيارة تمت في وقت مبكر، ولو لم تكن فيها مخالفة صارخة . وإننا لنغبط الأثينيين العاديين الذين يبدو أنهم كانوا يستطيعون أن يقضوا ساعتين كل عصر في الحمامات أو الجمناز يوم (وهو مركز ثقافي رياضي متسع يعده الجمهور لنفسه) . وليس في وسعنا أن نقتطع لأنفسنا مثل هذا الوقت في منتصف النهار، بل إننا نستيقظ في السابعة وما يتبع ذلك من الحلاقة والإفطار وارتداء هذه السترة الكاملة من الدروع الثقيلة . وهكذا لا نبدأ العمل قبل ٨٫٣٠ أما الإغريقي فقد كان يستيقظ بمجرد أن يبزغ النور وينفض عنه الغطاء الصوفي الذي كان يلتحف به للنوم ثم يلفه حوله برشاقة جاعلا منه سترته . وكان يرسل لحيته ولا يتناول طعاماً للإفطار بل كان مستعداً لمواجهة العالم في خمس دقائق . ولم يكن العصر هو منتصف اليوم بل هو آخره على وجه التقريب .

وختاماً لقد كان هناك أجر يدفع عن كثير من أنواع الخدمة العامة كما كان يدفع أجر عن حضور جلسات الجمعية العمومية(١) وقد وجدت آثينا في الحقيقة ما وجدناه نحن خلال هذا القرن، وهو أننا إن أردنا من المواطن العادي أن يكرس وقتاً للخدمة العامة فالواجب علينا أن نعوضه عن ضياع وقته . ولو أننا لم نقرر حتى الآن مبلغاً من المال لمساعدة الفقراء على دفع أجور مقعدهم في مسرح حكومي لا نمتلكه . وقد كان أعضاء « البوليه » أي مجلس الخمسمائة والقضاة التسعة والموظفون الآخرون والمحلفون الذين يشتغلون في المحاكم يتقاضون أجوراً ولو أنها قليلة من الأموال العامة التي كانت إلى حد ما مكاسب الإمبراطورية. ويبدو أنه قد أصبح مقرراً بجلاء أن المواطنين الأثينيين كانوا يلعبون دوراً أقل في صناعة أتيكا وتجارتها في القرن الرابع

---

(١) الجمعية العمومية أو مجلس النواب ekklesia ، ومجلس الشيوخ Boulé .

بينما كان دور الأجانب المقيمين أكبر . وليس السبب هو أن الآثينيين كانوا يعتمـــدون على الرق أكثر في معيشتهم ولكن اعتمادهم على أجور الحكومة كان أكثر .

وهذه التجربة في الحكم الديمقراطي لا يمكن تكرارها أبداً إلا أن نشأت دول مستقلة من الصغر بحيث نستطيع أن نقطعها في يومين مشياً ، كما أن الطريقة المنطوية على الثقة التي استحث بها الآثينيون رغبتهم في الاشتراك شخصياً وبطريقة مباشرة في كل ناحية من نواحي الحكم إلى حدها الأقصى المنطقي ، يكاد يلوح أنها تعد مقصوداً لضعف الطبيعة البشرية . فهل من الممكن أن يحظى شعب بأكمله بالحكمة المستمرة وضبط النفس لإدارة شئونه الخاصة إدارة حكيمة ؟ وهل يستطيع شعب أن يدير شئون إمبراطورية وأموالها الخاصة دون أن يتطرق إليه الفساد ؟ وهل يستطيع أن يدير شئون حرب ؟ وما هي عوامل الإغراء والخطر التي تهاجم الديمقراطية ؟ إن آثينا تمدنا بتجربة معملية تقريباً في الحكم الشعبي إلا أنها حدثت قديماً جداً وبلغة ميتة جداً ولعله مما يستحق اهتمامنا اليوم أن نوليها شيئاً من العناية .

الإغريق فى الحرب

لقد كان العالم الإغريق منقسما حينذاك . فقد كانت الإمبراطورية الآثينية التى كان الناس يدعونها علناً « مستبده » تقف فى جانب وتقف فى الجانب الآخر إسبرطه وعدد من الولايات التى كانت تعطف على إسبرطه (وبخاصة بويوتيا Boeotia) وكانت الجماعة الأولى قوية فى البحر أما الثانية فكانت قوية براً وكانت الأولى أيونية بصفة أساسية أما الثانية فكانت دورية — على أن هذا التقسيم لم تكن له أهمية فى حد ذاته . وكانت آثينا تحبذ بل تصر على أن تكون دساتير حلفائها ديمقراطية ، أما الجماعة الأخرى فتحبذ الأوليجاركيات (حكومات الأقلية) أو الديمقراطيات المحدودة على أكبر تقدير وهو موقف مألوف . لقد كان هناك شعور عام بأن تصرف آثينا لا يطاق بالنسبة لتقييد الحكم الذاتى عند حلفائها الإسميين . وقد ساعد هذا إسبرطه على أن تتقدم بصفتها نصيرة الحرية الإغريقية . وكان هناك أيضاً منافسة تجارية بين آثينا وكورنثا ، كما كان هناك خوف فى كورنثا من أن تجارتها مع الإغريق الغربيين مهددة . وفى هذه المرة كان الكورنثيون هم الذين حثوا الإسبرطيين على قبول التحدى الآثينى . ولقد سبق أن ذكرنا وصفاً يصور لنا أخلاق الآثينيين ألقاه فى هذه المناسبة خطيب كورنثى فى إسبرطه .

لقد كانت هذه الحرب نقطة تحول فى تاريخ « البوليس » الإغريقية فقد استمرت على وجه التقريب من سنة ٤٣١ إلى سنة ٤٠٤ أى سبعاً وعشرين سنة من القتال الذى فيما عدا فترات توقف قصيرة استمر فى كل جزء من العالم الإغريق تقريباً فى كل بحر إيجة ، فى خالكيدونية وحولها وفى بريوتيا وحول سواحل البيلوبونيز وفى شمال غرب الإغريق وفى صقلية حيث دمرت

حملتان قويتان أرسلهما الآثينيون على عجل دون أن يبقى منهما أحد تقريباً على قيد الحياة وتركت أتيكا كلها — فيما عدا المدينة وبيريه اللتين كانتا محاطتين بخط من التحصينات — مكشوفة للجيوش الإسبرطية. وكانت عرضة للنهب والتخريب بطريقة منظمة. وفى العام الثانى من الحرب عندما اضطر سكان الريف فى أتيكا إلى ترك بيوتهم للأعداء والاحتماء داخل الأسوار والسكنى حيثما استطاعوا انتشر الوباء واستشرى عدة أشهر. ويعطينا ثوكوديديز (الذى أصيب به ولكنه شفى منه) بطريقته التى تبدو هادئة فى الظاهر وصفاً عنه تقشعر منه الأبدان. وهو يعلق أهمية خاصة على الانهيار الخلقى الذى سببه. لأن طاعة القانون والدين والأمانة واللياقة تلاشت أثناء هذا العذاب. وقد مات ربع سكان البوليس تقريباً بما فيهم بريكليس. ومع ذلك فقد أفاقت آثينا وخاضت البحار واستوردت قمحها بانتظام وأرسلت الأساطيل والجيوش وكانت تستطيع أن تعقد الصلح فى مناسبتين أو ثلاث بشروط ملائمة إلى أن فقدت آخر أسطول لها بطريقة تدعو للذل بعد الوباء بخمس وعشرين سنة واضطرت إلى الاستسلام تحت رحمة إسبرطه.

ومع ذلك فقد استمرت حياة البوليس طول هذا الوقت، ولم يكن يتقرر شىء له أهمية إلا بوساطة الأهالى فى مجلس الأمة. وكان القواد ينتخبون وتفتح الجبهات الثانية والثالثة والرابعة وتناقش شروط الصلح وتدرس التقارير الواردة من الجبهة بوساطة هذا المجلس المكون من جميع المواطنين وهو الذى لم تخنه شجاعته أثناء الحرب إلا مرة واحدة بعد كارثة صقلية، حين خدع المجلس حتى سلم سلطاته إلى هيئة أصغر منه لم تكن فى الحقيقة إلا ستاراً لجماعة من المصممين على أن يكونوا القلة التى تحكم البلاد، وتحكموا حكماً إرهابياً عدة أشهر ثم أسقطوا وجىء بديمقراطية محدودة (مدحها ثوكوديديز مدحاً عظيماً) ولكن سرعان ما حمل المجلس العبء ثانياً وصار مفتوحاً للجميع.

ولم تكن الحياة السياسية هى التى استمرت فقط بل ان الحياة الفكرية

والفنية قد استمرت كذلك . إن التفكير فى حالة آثينا أثناء الحرب يثير إحساساً بالهوان عند أولئك الذين يذكرون انهيار حياتنا الثقافية فى الحرب العالمية الأولى واهتمام السلطات الشديد بإغلاق كل ما يمكنها إغلاقه (فيما عدا التجارة والعمل اللذين تركا يسيران كالمعتاد) والهوس الشعبى الذى جعل سماع بيتهوفن وفاجنر مما يتنافى مع الوطنية ، وحماقات النقاد والخط من شأن المسرح . فعندما تعرض الآثينيون لأشد المخاطر واقترب منهم العدو حتى عسكر فى أتيكا وقتلت نسبة كبيرة من المواطنين واشتد عوز العائلات استمر الآثينيون فى أعيادهم لا بقصد اللهو والمتعة بل باعتبارها جزءاً من الحياة التى كانوا يحاربون من أجلها . ففى الروايات المسرحية التى أخرجت لهم وباسمهم استمر سوفوكليس يفكر فى المشاكل النهائية للحياة الإنسانية والخلق الإنسانى دون أن يذكر كلمةواحدة عن الحرب كما استمر يوريبيديس يعرض بأن النصر أجوف ويقبح الأخذ بالثأر ، وأعظم مايثير الدهشة هو أن أريستوفانيس استمر يسخر من قادةالشعب المحبوبين وقواد الجيش والشعب صاحب السيادةنفسه ، كما أستمر يعبرعن كراهيته للحرب وعن مباهج السلام فى ملاه تجمع بين حضور الذهن والخيال والتهريج وجمال الشعر الغنائى ، وقلة الاحتشام ووضع الجد فى قالب الهزل .

وقد كان سقراط طوال هذا الوقت فى آثينا يناقش ويقرع الحجة بالحجة وينتقد — إلا عندما كان فى بوتيديايا يحارب ببسالة فى صفوف الجيش — محاولا أن يقنع كل من يريد أن يصغى إليه أن الخير الأسمى هو خير النفس وأن الجدل الدقيق هو الوسيلة الوحيدة لإدراكه .

ومن جهة أخرى عندما نلتفت إلى سنى الحرب الختاميه نجد ماهو جدير بالرثاء والتنديد بقدر ماوجدنا من قبل ما يستحق إعجابنا . فنجد هذا الشعب نفسه يمزقه الخلاف ويكل نفسه إلى جماعة الكيبياديس ، الذين خانوا آثينا

وإسبرطه كلا بدوره والذين كانوا يقتضون النصر الظاهرى من الهزيمة ثم يبددون النصر وينقلبون بوحشية على القواد الذين أحرزوه لهم والذين كانت لهم قدرة على النشاط المتقد ثم على خسارة كل شيء عن طريق إهمال يوم واحد كما يبدو لنا ، وليس فى التاريخ ما يكشف عن الخلق الإنسانى فى قوته وضعفه أكثر من هذه الحرب إلا حلقات قليلة . وشعور الإنسان نحو الحرب مثل هذا الشعور يعود كله تقريباً إلى عبقرية ثوكوديديز مؤرخها المعاصر لها .

وبدلا من أن أعطى وصفاً متكلفاً عن الحرب سأترجم أو أشرح فقرات قليلة من تاريخ ثوكوديديز آملا أن يعطى ذلك للقارىء فكرة عن الرجل نفسه وعن الإغريق فى وقت الحرب وعن المجلس الأثينى أثناء قيامه بالعمل وعن تأثيره على حياة المواطنين وعن اضمحلال الروح الأثينية بصورة محزنة تحت ضغط الحرب . وقد كان ثوكوديديز آثينيا مثريا عريق الأصل وكان معجباً بريكليس دون خلفائه وقائداً للجيش فى مراحل الحرب الأولى وكاتباً يترك عقله أثراً دامغاً على قارئه . أما من حيث القوة المركزة والفهم العميق للأشياء فلا يجارى ثوكوديديز إلا إغريقيان آخران أحدهما ايسخيلوس والثانى هو الشاعر الذى كتب الإلياذة .

ويمكننا أن نبدأ بوصف ثوكوديديز لمناقشة جرت فى المجلس قبل نشوب الحرب مباشرة . وكان قد جاء وفد من إسبرطه يطلب طلبات دبلوماسية معينة من الآثينيين ، من بينها بصفة خاصة أن يرفعوا الحظر على التجارة مع ميجارا وهى عضو فى التحالف البيلوبونيزى . وأخيراً جاء آخر السفراء من أسبرطة وهم رامفياس Rhamphias وميليسيبوس Melesippius وأجيساندر Agesander ولم يتكلموا عن الموضوعات المذكورة من قبل إنما هذا ما قالوه : « إن الإسبرطيين يريدون أن يستمر السلام وهذا ممكن إن تركتم الإغريق وشأنهم » فدعا الآثينيون مجلساً(١) للاجتماع وعرضوا الأمر للمناقشة

(١) هو مجلس « البوليه » .

وقرروا أن يناقشوا هذه الطلبات ويردوا عليها رداً نهائياً . وتكلم كثيرون في شتى النواحي فاقترح البعض ضرورة الدخول في الحرب واقترح الآخرون ضرورة سحب القانون الخاص بميجارا وعدم السماح له بأن يقف في طريق السلام ، وأخيراً تقدم بريكليس بن كسانثيبوس Xanthippus كبير مواطني زمانه وأقدرهم سواء على القول أو العمل وأشار عليهم بما يلي :

أن رأيي هو هو دائماً وهو أننا ينبغي ألا نقوم بأي تنازل لإسبرطة . ولو أني أعلم أن الذين يستميلهم الناس ويغرونهم حتى يعلنوا الحرب يغيرون أفكارهم عندما يجدون أنفسهم في وسط الحرب ويدعون الحوادث تغير من أحكامهم، غير أنه من الواضح لي أنه يجب على أن أقدم لكم نفس النصيحة التي سبق أن قدمتها وأطلب من أولئك الذين يغريهم زملاؤهم حتى يدلوا بأصواتهم في جانب الحرب أن يؤيدوا عزمنا المشترك إذا دهتنا الكوارث، وألا يدعوا ذكاء خاصاً إذا نجحنا لأنه كثيراً ما يحدث أن تكون الأعمال والقرارات على السواء نتائج غير متوقعة بتاتاً . وهذا هو السبب في أننا ننسب للصدفة الأمور التي يتضح أنها جاءت مناقضة لكل ما حسبناه .

ويخلص بريكليس من مثل هذه المقدمة التي تمتدح الثبات والاعتدال في الحكم إلى مناقشة منطقية جداً يقصد بها إلى إثبات أن التنازل حتى عن شيء تافه إنما يفسر بالخوف ويؤدي إلى مطالب جديدة ، وأنه إذا استدعى الأمر الحرب فلن يتغلب سكان البيلوبونيز لحاجتهم إلى الموارد والوحدة . ثم قال لو كنا من أهل الجزر فهل كان يوجد أحد لا يمكن غزوه أكثر منا . علينا إذن أن نفكر في أنفسنا بصفتنا من أهل الجزر فننزل عن أرضنا وبيوتنا ونحمي البحار والمدينة[1] ولا نخاطر بمعارك لا فائدة منها من أجل

---

(١) يدل هذا بوضوح على أن جمهور المستمعين لبريكليس كانوا يعيشون في أتيكا خاصة لا في أثينا وبيريه .

أتيكا . وينبغى علينا أن نحزن لا على ضياع البيوت والأراضى بل على الأرواح التى نفقدها، فليست هذه هى الأمور التى تكسب الرجال بل الرجال هم الذين يكسبونها ، ولو اعتقدت أنكم تفعلون ذلك لحرضتكم على الخروج منها وتدميرها بأنفسكم لتروا سكان البيلوبونيز أن هذا لن يجلب لهم النصر . إن لدى أسباباً أخرى للثقة إذا امتنعتم عن محاولة كسب أراض جديدة لأنى أخاف من أخطائنا أكثر مما أخاف من خطط العدو . وهكذا بعد أن اقترح بريكليس رداً قوياً ليس فيه تحد ، جلس وكان على المجلس أن يتخذ قراراً . ولما كان الأثينيون يعتقدون أنه قدم أحسن نصيحة فإنهم أدلوا بأصواتهم كما أوصاهم ، ورجع مبعوثو اسبرطه إلى وطنهم ولم يعودوا إلى أثينا .

وقد عجلت بالحرب هجمة مفاجئة من طيبة على بلاتايا سنرويها فيما بعد . ثم غزا الإسبرطيون أتيكا وظلوا يدمرون أراضى قرية (أو مدينة) أخارناى Acharnae الهامة . فلما رأى الأثينيون الجيش فى أخارناى أى على بعد ستة أميال فقط من المدينة أحسوا بأن ذلك شىء لا يطاق وبأنها إهانة عظمى أن يكون العدو قائماً بتخريب أرضهم أمام أعينهم ، وهذا شىء لم يكن قد رآه الشبان ولم يره الكبار إلا فى حروب الفرس . فصمم الجميع ولا سيما الشبان على الخروج لمقاومتهم وألا يتحملوا ذلك على مضض ، وأخذوا يتجمعون وجرت بينهم مناقشات حامية فكان البعض يحثهم على الخروج والآخرون يحاولون أن يثنوهم عن ذلك ، وكان المتنبئون يقصون عليهم كل أنواع النبوءات والناس يصغون إليهم بحماسة وأخذ الأخارنيون يحثونهم على الزحف لعلمهم بأنهم يكونون جانباً كبيراً من الجيش ولأن أرضهم هى التى كانت تخرب . وكانت المدينة منزعجة من كل وجه من الوجوه كما كان الناس فى غيظ من بريكليس إذ نسوا كل النصيحة التى سبق له أن قدمها لهم وكانوا يلومونه لأنه قائدهم وقد رفض أن يقودهم للخروج وكانوا يعتبرونه مسئولا عن كل ما أصابهم . فلما رآهم بريكليس غاضبين

ورأى أن وجهة نظرهم ليست سليمة بالمرة ، ولما كان متأكداً من أنه محق في رفض مهاجمة العدو فإنه لم يستدع المجلس إلى الانعقاد في جلسة رسمية أو غير رسمية مخافة أن يتورطوا عند الاجتماع وهم في حالة غضب لا حالة تفكير سليم بل اهتم بالدفاع عن المدينة وجعلها هادئة بقدر الإمكان . وجعل يرسل الفرسان باستمرار ليبعد العدو عن الأرض القريبة من المدينة ثم قام في نهاية العام بهجوم مضاد بإرسال أسطول لنهب شواطيء البيلوبونيز وتخريبها . لقد ذكرت هذا الحادث لنفس السبب الذي لاريب أنه دفع ثوكوديديز إلى إعادة ذكره وهو الإشارة إلى مقدار الخطر الذي كان يتعرض له الدفاع ضد الحماقة . ونظراً لأسلوب الحياة الأثيني فلم يكن هنالك من دفاع في الحقيقة إلا جماع حسن الإدراك عند عامة الشعب . فلم يكن أي حافز قوي عند الجمهور مثل « دعنا نفتح الجبهة الثانية الآن» يتبدد في الملاحظات المكتوبة بالطباشير على الجدران أو في التهيج الصحفي ، بل كان من الممكن أن يقدم للمجلس رأساً وينفذ مباشرة ، وكان هذا وحده مما يشجع على الشعور بالمسئولية . كما كان ينتظر من أي مواطن يطالب مثلا بأن « تفتح جبهة ثانية الآن » أن يوضح كيف يكون ذلك وأين وبأي قوات فلم تكن الدولة عرابة god mother من الجنيات كما لم يكن يديرها خبراء بل كانت هذا المواطن والمواطنين الذين يجلسون حوله ويستمعون إليه .

فلما وسعت الحرب الطويلة لا من الثغرة التي بين النبلاء وبين عامة الشعب أو بين الأغنياء وبين الفقراء - بل بين طبقة التجار والصناع الذين أقبلت عليهم الدنيا وبين الزراع الذين قاسوا الويلات ، وكذلك لما أصبح للمدينة قادة ليسوا كبريكليس البعيد النظر ذي الرأي المستقل بل رجال لهم حكمة أقل وروح أحط يميلون إلى استثارة الشعب واستغلاله أكثر من ميلهم إلى كبح جماحه — لم يعد عند ذلك الدفاع ضد الحماقة قوياً إلى الحد الكافي .

وقد حدثت مثل هذه اللحظة فى السنة الثانية من الحرب ، وهى من أحلك اللحظات التى قاستها أثينا . إذ أن الإسبرطيين لم يأتوا إلى أتيكا المرة الثانية فحسب بل اجتاح الوباء المرعب أثينا كذلك . وهذه هى النتيجة الوحيدة لاستراتيجية بريكليس التى لم يكن فى مقدوره أن يتوقعها ، فغير الأثينيون رأيهم وأخذوا يلومون بريكليس اعتقاداً منهم أنه هو الذى أغراهم بالدخول فى الحرب وأنه هو مصدر كوارثهم وكانوا تواقين إلى عقد الصلح مع إسبرطه وأرسلوا لها المبعوثين فعلا دون جدوى . وقد دفعهم اليأس إلى استخدام العنف مع بريكليس ولذلك دعا المجلس (إذ كان لازال قائدهم) عندما رأى أن الغضب يتأجج فى صدورهم وأنهم يفعلون فى الحقيقة ما كان قد توقع أن يفعلوه .

لقد كانت خطبة بريكليس (وهى من الطول بحيث لا يمكننا اقتباسها حتى بعد أن اختصرها ثوكوديدز) رائعة كما كان استقبال هذا الشعب البائس لها رائعاً . وأنه لشىء رائع أن نجد زعيا شعبياً يتكلم بمثل هذه الروح السامية ويعتمد هكذا كل الاعتماد على الحجة المنطقية . وسواء كانت حجة صحيحة أو خاطئة فليس هذا بموضوع بحثنا الآن . وقد كان مضمون الخطبة على العموم ما يأتى :

لقد دعوت هذا المجلس الخاص لأذكركم بحقائق معينة ولأحتج على بعض أخطائكم . تذكروا أنه أهم للبوليس أن تزدهر من أن تقبل الدنيا على أفراد من المواطنين بينما تهلك « البوليس » فإنهم يهلكون معها . أما إن أصاب مواطن سوء الحظ ولم يصب المدينة فإن هناك أملا فى إصلاح حاله.

وأنتم تحت تأثير آلامكم الخاصة غاضبون على لأنى حثثتكم على إعلان الحرب . ولهذا فأنتم غاضبون أيضاً من أنفسكم لأنكم أدليتم بأصواتكم معى. لقد فهمتمونى على ما أنا عليه كما أعتقد أى على أنى أبعد نظراً من الكثيرين

وأقدر منهم فى الخطابة ـ فإن الإنسان إذا لم يستطع أن يعبر عن نفسه تعبيراً واضحاً فلن يكون عنده بعد نظر ـ كما أنى أصدق منهم فى الوطنية وفى النزاهة الشخصية . فإن كنتم أدليتم بأصواتكم معى لأنكم فهمتمونى على هذا النحو فلن تستطيعوا أن تتهمونى اتهاماً نزيها بأنى أسأت إليكم . أنا لم أتغير ولكنكم أنتم الذين تغيرتم . لقد نزلت بكم مصيبة وأنتم لا تستطيعون أن تثابروا على السياسة التى اخترتموها عندما كانت الأمور على ما يرام . إن عزمكم الخائر هو الذى يجعل نصيحتى تبدو لكم خاطئة . إن الغيب الذى لا نتوقعه هو الذى يحطم روح الإنسان .

إن لكم (بوليسا) عظيمة وشهرة عظيمة فيجب أن تكونوا جديرين بهما . والبحر وهو نصف الدنيا ملك لكم . ويجب أن تفكروا فى أتيكا على أنها حديقة صغيرة فقط تحيط بقصر . وإذا كنتم تهربون من مشاق السيادة فلا تطالبوا بشىء من مفاخرها . ولا تظنوا أنكم تستطيعون أن تتنازلوا بسلام عن إمبراطورية تعتبر فى الحقيقة حكماً استبدادياً ، فالبديل عن الإمبراطورية بالنسبة لكم هو العبودية .

إننا يجب أن نتحمل ضربات العدو بشجاعة وضربات الآلهة باستسلام . يجب ألا تلومونى على مصائب ليست فى الحسبان ما لم تكونوا على استعداد لأن تنسبوا إلى الفضل فى الانتصارات التى لم نحسب لها حساباً .

وقد حاول بريكليس بهذه الخطبة كما قال ثوكوديديز أن يحول غضب الأثينيين عن نفسه كما يحول أفكارهم عن بؤسهم إذ ذاك . فمن الوجهة السياسية أقنعهم فلم يعودوا يحاولون عقد الصلح ولكنهم لم يتوقفوا عن استيائهم منه حتى ألزموه بدفع غرامة من المال . ولكن لم يمض وقت طويل حتى انتخبوه قائداً ثانية ووكلوا إليه كل شىء . وهذه هى الطريقة التى يتصرف بها كل جمهور مجتمع .

وإذا جال بفكرنا أن هذا الوباء كان فى بشاعة وباء لندن مضافاً إليه فزع الأثينيين من أن العدو خارج حصونهم يحاصرهم بداخلها فإنه يجب علينا أن نعجب بعظمة الرجل الذى استطاع أن يخاطب مواطنيه مثل هذا الخطاب، كما نعجب بعظمة الشعب الذى استطاع لا أن يصغى فقط لمثل هذه الخطابة فى مثل هذا الوقت بل أن يقتنع بها فعلا إلى حد كبير. لقد كان للديمقراطية الأثينية أخطاء وعيوب كثيرة، غير أن أى تقدير صحيح لها لا بد أن يضع موضع الاعتبار تأثيرها على القوة العقلية والخلقية الرئيسية للشعب الأثينى. وقد يرى البعض أنها فشلت، غير أن هذا الحكم إن كان صحيحاً فإنه يصدر على مدى إمكانيات الطبيعة البشرية أكثر مما يصدر على نظام سياسى معين، وقد توفى بريكليس بعد ذلك بشهور قليلة وهو لم يكد يكون قد شفى من إصابته بهذا الوباء وقد أخذ ثوكوديديز بطريقته المتحفظة يشيد بفضل مثل هذا الرجل المتناهى فى العظمة ويقابل بينه وبين خلفائه الذين أغفلوا نصيحة بريكليس بألا يحاولوا توسيع دائرة الإمبراطورية أثناء الحرب بل « فعلوا عكس ذلك على خط مستقيم. واتبعوا من أجل المطامع الخاصة والربح الخاص سياسة وخيمة فيما يختص بأثينا وحلفائها على السواء بالنسبة لأمور كان يبدو ألا علاقة لها بالحرب، وهى إن نجحت جلبت الربح والتقدير لبعض الأفراد ولكنها لو فشلت لأضرت بالبوليس فى متابعة الحرب ».

إن المقام يجب أن يتسع لمناقشة برلمانية أخرى. فى سنة ٤٢٨ ثارت لسبوس Lesbos وهى جزيرة كبيرة أكبر مدنها ميتيلينيه. وقد كانت إحدى الحليفات القلائل « المستقلة » الباقية وكانت الثورة تهديداً قاتلا لأثينا. وكان اللسبيون قد اعتمدوا على العون الأسبرطى الذى لم يأت قط. وقد أخمدت الثورة وخضع اللسبيون دون قيد أو شرط. فكيف كانوا سيعاملون؟ كان على المجلس أن يقرر ذلك وكانت هناك شخصية مسيطرة على المجلس إذ ذاك هى كليون بائع الجلود (الذى سخر منه أرستوفانيس Aristophanes

دون شفقة على اعتبار أنه مهرج أى عنيف .) وكان من الواضح أنه رجل قدير وخطيب مفوه وإن لم يكن على غرار بريكليس ولولا ذلك لما استطاع أن يؤثر فى المجلس . ولكنه كان رجلا ذا طبع حاد وعقل وضيع . وقد حث الآثينيين على أن يتخذوا طريق الشدة . فأرسلت سفينة فى ذلك المساء إلى ميتيلينيه ومعها تعليمات للقائد الآثينى بقتل جميع الرجال وبيع النساء والأطفال بيع الأرقاء .

« وفى اليوم التالى شعر الآثينيون بالندم وأخذوا يفكرون فى أن المرسوم الذى أصدروه كان قاسياً ليس فيه أى تمييز فهو يقتل « بوليساء » بأكملها لا المذنبين فقط ، وقد استغل مبعوثون من ميتيلينيه Mitylène ذلك بمساعدة بعض الآثينيين لحثوا السلطات على دعوة المجلس فى الحال .

وبعد بضعة خطب لصالح كل من الجانبين (لم يذكرها ثوكوديديز) نهض كليون Cleon ويمكن تلخيص خطبته فيما يأتى :

إن هذه المناقشة تزيدنى وثوقاً فى اعتقادى أن الديمقراطية لا يمكنها أن تحكم إمبراطورية . إن حلفاءكم ليسوا مرتبطين بكم بمنفعتهم بل بقوتكم ، ولهذا فأى شفقة تظهرونها الآن لن تكسب لكم عرفاناً بالجميل بل ستؤخذ على أنها علامة من علامات الضعف وسيثور غيرهم إذا رأوا أن فى إمكانهم الثورة دون عقاب . أن التردد هو أسوأ الأخطاء السياسية . وأن من الأفضل أن يكون لنا قوانين رديئة عن ان نقوم بتغييرها باستمرار ، وما سبق أن قررناه مرة يجب إن يبقى . أن المواطن البطىء الفهم يتصرف خيراً من المواطن الماهر فهو يقنع بإطاعة القانون ويحكم على الخطب بطريقة نزيهة عملية بينما يحاول الآخر أن يبدو أبرع من القانون ويعامل الخطب على أنها تمثيليات خطابية يكون نقدها على هذا الأساس . وهؤلاء هم الذين أعادوا فتح هذه المناقشة ولا شك أنهم سيحاولون أن يثبتوا أن الميتيلينيين قد قدموا لنا خدمة لا أنهم أساءوا إلينا .

إنه خطأ كم لأنكم تعاملون مجلساً يزن الأمور بميزان الحكمة كما لو كان مشهداً مسرحياً . لقد أساءت إليكم ميتيلينيه أكثر مما أساءت إليكم أى مدينة بمفردها . لقد كانت ثورتها عارمة ليس لها عذر أو مبرر فليعاقبوا كما يستحقون فما فعلوه كان عن روية وتدبير ولا يمكن تبرير إلا الأعمال التى لا تصـــدر باختيار الإنسان . ولا تجعلوا هناك تفرقة حمقاء بين الاستقراطيين والعوام فلقد انضم العوام إلى الآخرين ضدنا وكان من الممكن أن يفيدوا من الثورة لو أنها نجحت ، أما وأنها قد فشلت فليدفعوا الثمن وإلا فلن يبق لكم حلفاء . إن العطف واجب نحو الرحماء لا نحو الأعداء الألداء . وينبغى أن تظهروا الاعتدال نحو أولئك الذين ستكون ميولهم نحوكم طيبة فى المستقبل لا نحو أولئك الذين لن تنقص كراهيتهم لكم ، أما من جهة هذا العائق الثالث نحو الإمبراطورية وهو شهوة الخطابة ـ والخطابة يمكن شراؤها ـ فدعوا الخطباء البارعين يبدوا مهارتهم فى أشياء ذات أهمية صغيرة .

وهى خطبة بارعة بها من الحق ما يكاد يكفى لإخفاء تملقه الرعاع بشكل جزئى وتشجيعه للعنف ، غير أن الإنسان ليتساءل هل كان يجرؤ كليون أن يتكلم هكذا بحضرة بريكليس ؟ .

وقد رد عليه رجل لم يذكر قط فى مكان آخر وإن كان اسمه يستحق البقاء كما خلده ثوكوديديز وهو ديودوتوس Diodotus بن يوكراتيس Eucrates .

« إن التسرع يتبع الحماقة والغضب يتبع الخشونة وانحطاط العقلية وكلاهما أعداء للنصح الرشيد . ومن يجادل فى أن الأعمال ينبغى ألا تفسرها الأقوال ، إما أنه غبى أو خائن فهو غبى إذا ظن أنه يمكنه أن يعبر بأية وسيلة أخرى عن شىء غير مؤكد يقع فى المستقبل ، وهو خائن إذا تهرب من الدفاع عن قضية شائنة وحاول بدلا من ذلك أن يربك خصمه وجمهوره بالاتهام الباطل .

وأخبث الكل هم أولئك الذين يذكرون تلميحاً أن الخطباء مرتشون . إن الاتهام بالجهل يمكن تحمله ولكن لا يمكن تحمل الاتهام بالرشوة لأن الخطيب إذا كان ناجحاً فى حياته أصبح موضعاً للشبهة ، على حين أنه إذا فشل اعتقد الناس أنه عاجز وخائن أيضاً ، وهكذا يمنع الطيبون من تقديم نصيحتهم للمدينة . فالمشورة الحكيمة التى تعطى بإخلاص أصبح الاشتباه فيها لا يقل عن النصيحة الفاسدة .

ولكنى لم أقف لأدافع عن الميتيلينيين ولا لأتهم أحداً غيرهم فليست المسألة مسألة جرم ارتكبوه ولكنها مسألة مصالحنا . ونحن الآن لا نفكر فى الحاضر وفيما يستحقونه ولكن فى المستقبل وكيف يمكن أن يخدمونا أجل خدمة . إن كليون يؤكد أن قتلهم يخدمنا أجل خدمة بتثبيط عزم الآخرين على الثورة وأنا أناقض ذلك بشكل جلى .

ان عقوبة الإعدام قد شرعت فى مدن كثيرة لذنوب كثيرة ومع ذلك فالناس يرتكبون الجرائم بدافع من الأمل فى النجاح ، ولم تقم أية مدينة بالثورة إلا وهى معتقدة أن الثورة ستنجح . إن الناس ميالون بطبيعتهم إلى ارتكاب الأخطاء فى الأمور العامة والخاصة . وقد فشلت العقوبات المتزايدة فى القوة فى منع ذلك ولكن الفقر يوحى بالإهمال بسبب الحاجة ، والثروة توحى بالطمع بسبب الاعتداد والكبرياء وما عدا ذلك من أحوال الحياة توحى بالانفعالات المناسبة ، فالمحاولة يزجيها الأمل والرغبة تعاون الرجاء والصدفه تستحث الناس أكثر بأن تتيح لهم أحياناً مالا يتوقعونه من النجاح وهكذا تشجع الناس على التعرض لأخطار فوق إمكانياتهم . وبالإضافة إلى ذلك فإن كل فرد حين يعمل مع الآخرين يتمادى فى أفكاره إلى حد التطرف . وبذلك دعونا لا نرتكب عملا من أعمال الحمق بالوثوق فى عقوبة الإعدام ، وعدم إعطاء الذين ثاروا أى مجال لتغيير رأيهم . فأية مدينة ثائرة فى وقتنا

الحالى إذا وجدت أنها لا تستطيع الفوز فإنها تستسلم وهى قادرة على دفع تعويض لنا . ولكن سياسة كليون ستضطر كل مدينة ثائرة إلى الثبات حتى النهاية فلا تترك لنا إلا الخرائب . وبالإضافة إلى ذلك فالعامة فى كل مدينة ميالون لكم أحالياً فاذا ثار الأرستقراطيون فإما أنهم لاينضمون إليهم أو ينضمون إليهم على كره منهم . والعامة فى ميتيلينيه لم يساعدوا الثورة وعندما حصلوا على السلاح سلموا المدينة لكم فإذا قتلتموهم الآن فسيكون هذا لفائدة الأرستقراطيين .

أنا لا أرغب أكثر من كليون فى أن يكون رائدكم العطف والاعتدال ولكن أطلب منكم أن تتيحوا لقادة الثورة محاكمة متزنة وأن تدعوا الباقين دون عقاب . فهذه هى السياسة المفيدة والقوية لأن الفريق الذى يفكر بحكمة ضد عدوه يكون مخيفاً أكثر من الذى يتصرف بعنف هووليد الإهمال » .

وقد انتهى التصويت ولكن ديودوتوس فاز .

« وقد أرسلوا فى الحال سفينة حربية أخرى بكل سرعة لكيلا يجدوا (البوليس) قد دمرت لأن السفينة الأولى قد سبقتها بيوم وليلة . وقدقدم مبعوثو ميتيلينيه الخمر وكعك الشعير للبحارة ووعدوهم بمكافآت عظيمة إن وصلوا إليها أولا . وقد أظهر البحارة من الحماسة ماجعلهم يأكلون ويشربون وهم يجدفون . وكانوا ينامون مناوبة . وحيث أنه تصادف عدم وجود رياح معاكسة كما أن السفينة الأولى لم تكن قد تعجلت فى مثل هذه المهمة البغيضة بينما جرت الثانية قد ما كما وصفت فان ـــ باخيس (القائد الأثينى) كان قد قرأ المرسوم وكان على وشك تنفيذه عندما وصلت السفينة الثانية إلى البر ومنعت المذبحة . لقد كانت ميتيلينيه قريبة جداً من الدمار » .

إن هذه المناقشة ومناسبتها ونتائجها توحى إلينا بأفكار كثيرة عن وحشية القتال بين هؤلاء الإغريق المتحضرين لايكاد يوجد لهامثيل منذ ذلك الوقت حتى

زماننا المتحضر وكذلك عن اكتمال الحياة فى آثينا اكتمالا ترضى عنه النفوس عندما كان يطلب من المواطن العادى أن يبت فى أمور بمثل هذه الضخامة وهذا التعقيد . فلا عجب أنه كان يشمئز من الاستبداد وحكم الأقلية اللذين يسلبان من حياته هذا النشاط الفياض الذى ينطوى على المسئولية كما يتركانه دون دفاع فى نواح أخرى . ولكن الأولى بنا أن نمعن فى خطبة ديودوتوس فهى أولا خالية تماماً من العاطفية ، وهو ينوّه علناً أنه يطالب باستعمال الرأفة . فديودوتوس لا يرسم صورا لصفوف من الأجساد الراقدة على شاطىء لسبوس وللأرامل والأيتام الباكين وهم يساقون إلى الأسر بل هو يناقش قضيته فقط محتجاً بالمصلحة القائمة على حسن الإدراك. وأنه ليكون من الخطر البالغ أن تستنبط من هذا أن ديودوتوس والآثينيين عموماً كانوا من العاكفين على ممارسة سياسة الدولة ذوى القلوب الجامدة . إن هذا الجمع بالذات من المواطنين الذين اشتركوا فى هذه المناقشة ربما اجتمعوا فى الأسبوع التالى فى المسرح وشاهدوا مسرحية ليوربيديس — مسرحية مثل « هيكوبا Hecuba » أو « نساء طروادة » عن نفس هذا الموضوع أى موضوع قسوة الانتقام وعدم جدواه ، مسرحية يتم إخراجها رسمياً ويختارها قاضى المحكمة العليا Archon المسئول . وليس لنا أى حق فى أن نفترض أن ديودوتوس لم يكن يحس بأى عاطفة . ولكن المناسبة فى نظره كانت تتطلب التفكير المنطقى لا العاطفة . وهو يواجه كليون لا بإظهار إحساسات أرق بل باستخدام حجج أدق ، وهذه الخطبة تشبه من هذه الناحية الشعر الإغريقى والفن الإغريقى حيث أن سيطرة العقل على الوجدان تزيد من التأثير الكلى .

وهاتان الخطبتان تعتبران نموذجاً إغريقياً من وجه آخر ، ولو أن شرحى لمناهما لا يكاد يكون فيه إنصاف لهذا الوجه وهو الشغف بالتعميم . وجملة ديودوتوس الأخيرة يصح أن تكون مثالا لذلك . فلم يكن الإغريقى

يشعر بالسعادة إلا إذا استطاع أن يوجد الصلة بين الحالة الخاصة والقانون العام ، ففي التعميم يمكن رؤية الحقيقة واختبارها .

إن من الشائق تتبع سلوك المجلس طوال الحرب فى تاريخ ثوكوديديز لنرى كيف نما نوع معين من عدم المسئولية — وتعتبر ملاحظات كليون عن المسرح دليلا على ذلك — وكيف ازداد عدم تحمله للرقابة سواء كانت رقابة الفطنة أو رقابة القوانين وكيف أخذ مذهب كليون عن استخدام القوة يسود أكثر فأكثر وخاصة فى معاملة ميلوس المحايدة البريئة معاملة بربرية ، وكيف وجه المجلس هياجه إلى القواد المخفقين بل حتى إلى الناجحين ، حتى ليأخذ الإنسان فى التساؤل متعجباً عما كان يدعو أى قائد للمخاطرة بخدمة بلاده ، وبالرغم من قليل من الأمثلة البارزة على الاعتدال والنبل الحقيقى فإن هذا على وجه العموم سجل كئيب للانحلال تحت وطأة الحرب والقيادة الانتهازية . وينبغى أن نقرأ تاريخ ثوكوديديز المفجع حسبما أراده هو منه فلا نقرأه باعتباره مجرد سجل لما فعله شعب معين فى هذه الظروف الخاصة بل باعتباره تحليلا للسلوك الإنسانى فى السياسة والحرب . ولما كان القيام بذلك على الوجه الصحيح يحتاج إلى كتاب وحده فليس من الممكن عمله هنا ، ومادمنا إلى الآن نعنى بمدينة إغريقية دون غيرها فيصح أن نختتم هذا الفصل بحادثين يزيدان من فهمنا للموضوع .

فأولهما له صفة اللقطة السريعة التى ترينا شيئاً من حظوظ « بوليس » إغريقية عادية جداً فى الحرب وشيئاً عن الإمبراطورية الآثينية من وجهة نظر حليف خاضع لها . فقد أخرجت أسبرطه أثناء الحرب رجلا واحداً فقط هو براسيداس يعتبر شخصاً جذاباً وعلى جانب من العبقرية كذلك . وقد قاد معركة باهرة فى شمال بلاد الإغريق حيث كان لأثينا كثير من الحلفاء البحريين لا سيما مدينة امفيبوليس الهامة التى استولى عليها

(وبالمناسبة كان ثوكوديديز نفسه القائد الآثيني فى ذلك الوقت فى هذا الإقليم وقد نفى من أثينا لفشله فى الوصول إلى ميدان المعركة بسرعة كافية لإنقاذ أمفيبوليس ولم يرجع إلا عندما انتهت الحرب بعد عشرين عاماً ، ومع ذلك فإنه يروى ذلك بأدق طريقة موضوعية دون كلمة دفاع واحدة بل ولا يذكر نفيه إلا بعد ذلك بكثير فى مناسبة مختلفة جداً) .

« وفى نفس الصيف زحف براسيداس Brasidas مع الخالكيديين على كسانثوس قبل حصاد الكروم بقليل ، وكان أهل كسانثوس منقسمين بشأن السماح له بالدخول ، فكان هناك الذين اشتركوا مع الخالكيديين فى دعوته ، والعوام المعارضون له . ولكن عندما استحثهم براسيداس على السماح له بالدخول وحده على أن يصدر قرارهم بعد أن يستمعوا إلى ما كان عليه أن يقوله لهم ، سمحوا فعلا له بالدخول خوفاً على فاكهتهم التى كانت لا تزال على الأشجار . فجاء ليتكلم أمام الناس وكان خطيباً قديراً جداً على رغم أنه إسبرطى » .

وأخذ براسيداس يعرض القضية الإسبرطية قائلا إن الإسبرطيين يحررون بلاد الإغريق من الاستبداد الآثينى . وأخذ يعلن دهشته من أن يجد بواب أكانثوس Acanthus مغلقة أمامه فى نهاية زحفه الخطر فى بلاد الإغريق ويعــــدهم بأنهم لو انضموا إلى التحالف الإسبرطى فسيجدون الاستقلال التام ، وأن إسبرطة لن تتدخل بأية وسيلة فى سياستهم الداخلية أأما إذا رفضوا فإنه سوف يخرب بلادهم وهو ما يقضى به العدل وأن يكن على كره منه .

وقد كان براسيداس رجلا صادقاً وكانت خطبته فى تلك الظروف تستميل الناس إليه . وبالإضافة إلى ذلك فإن بلاد الإغريق لم تكن على وجه العموم تعرف قيمة الوعود الاسبرطية التى لم تكن تساوى شيئاً . وهكذا ، بعد أن تكلم الكثيرون إلى جانب الفريقين أعطوا أصواتهم

سراً . ولما كانت الوعود التي أعطاها براسيداس جذابة ولما كانوا خائفين على ما كيهم مالت الأغلبية إلى جانب الثورة على الأثينيين وجعلوا براسيداس ضامناً للإيمان التي حلفتها السلطات الإسبرطية قبل إرساله ، على أن الذين ينضمون إليه يكونون حلفاء مستقلين . وعلى هذا الأساس سمحوا للجيش بالدخول ، ولم يمض وقت طويل حتى انضمت — ستاجيروس Stagirus إليهم فى الثورة ـ هكذا كانت حوادث الصيف » .

ولبكن بده قصة بلاتايا المحزنة هو آخر صوره نعطيها عن الإغريق حين يتحاربون ، فقد كانت بلاتايا مدينة صغيرة فى بويوتيا قرب حدود أتيكا . وكانت كل حكومات مدن بويوتيا أو ليجركيه كما كانت متحالفة فى العادة مع طيبه أهم تلك المدن . وكانت بلاتايا ديمقراطية على علاقات وديةمع الأثينيين . ومما يجدر ذكره أن سكان بلاتايا كانوا الإغريق الوحيدين الذين ساعدوا أثينا فى مرانون . وقد كانت هذه الصلة بين مدينة من بويوتيا وآثينا مما يثير طيبه باستمرار . وفى أثناء التوتر الذى سبق الحرب مباشرة سنة ٤٣١ ساعد الحادث الآتى على التعجيل بالحرب :

« دخل جنود طيبه بأسلحتهم بلاتايا فى أوائل الربيع حوالى سنة ٣٠٠ فى أول جولة من جولات الحراسة بالليل تحت قيادة قائدين من قواد الاتحاد البويوتى . وكان قد دعاهما إلى ذلك وسمح لهم بدخولها بعض سكان بلاتايا وهم ناوكلايديس وشركاؤه الذين أرادوا أن يحطموا خصومهم ويسلموا المدينة لأهل طيبة حتى يحظوا بالسلطة لأنفسهم وكان أهل طيبة من جهتهم يرون أن الحرب آتية . وكانوا مهتمين بالاستحواذ على بلاتايا قبل نشوبها . وحيث أن الوقت كان وقت سلم فلم تكن هناك حراسة مما جعل دخولهم المدينة أسهل . وقد وضعوا السلاح على أرض السوق وأخذ يحرضهم أولئك الذين أدخلوهم المدينة على الذهاب تواً إلى بيوت أعدائهم . ولكنهم بدلا عن

ذلك صمموا على محاولة استرضاء الناس وأن يضموا المدينة إليهم بالاتفاق ظناً منهم أن هذه أحسن طريقة ولذلك أذاعوا أن كل مواطن يريد أن يكون حليفاً للبويوتيين عليه أن يأخذ سلاحه وينضم إليهم طبقاً للعوائد التقليدية .

ولما علم أهل بويوتيا أن جنود طيبه فى المدينة ذعروا وخيل إليهم (لعجزهم عن رؤيتهم فى الظلام) أنهم أكثر منهم عدداً بكثير . فوافقوا على شروطهم دون مقاومة لأن أهل طيبه لم يستخدموا العنف مع أى إنسان . ولكنهم أثناء المفاوضات رأوا أن الطيبيين لم يكونوا كثيرين واعتقدوا أنه يمكنهم التغلب عليهم بسهولة لأن غالبية أهل بلاتايا لم يكونوا يرغبون فى ترك تحالفهم مع أثينا . فقرروا أن يقوموا بالمحاولة وأخذوا يتجمعون بعمل ثغرات فى الجدران التى تفصل بيوتهم بعضها عن بعض ووضعوا عربات البضاعة بعرض الشوارع كالمتاريس واتخذوا إجراءات أخرى مناسبة فلما تم الاستعداد فاجأوهم قبل الفجر حين تكون ظروف الطيبيين أسوأ وهم فى مدينة أجنبية .

ولما رأى الطيبيون أنهم خدعوا ضموا صفوفهم وحاولوا أن يصدوا الهجوم ، فردوهم على أعقابهم مرتين أو ثلاث مرات . ولكن البلاتيين هاجموهم ثانية بضجة شديدة بينما كان النساء والرقيق على الأسطح فى نفس الوقت يصرخون ويقذفونهم بالأحجار والقراميد . وكان قد سقط مطر غزير أيضاً بالليل مما جعل البلاتيين يصابون بالفزع ويهربون من المدينة، غير أن أكثرهم لم يكونوا يعرفونها أو يعرفون أين يلجأون طلباً للأمان فى الظلام والوحل ولهذا قتل كثيرون منهم . وكان أحد سكان بلاتايا قد أقفل أحد الأبواب الكبيرة التى دخلوا منها مستخدماً ذراع الحربة كالمزلاج . فلم يكن الفرار ممكناً من هذا الطريق وقد تسلق بعضهم سور المدينة ليتجنبوا المطاردين ووثبوا أرضاً ولكن أكثرهم قتل . وانطلق البعض لا الكثيرون من باب

ليست عليه حراسة لأن امرأة أعطتهم بلطة حطموا بها المزلاج . واندفعت الأكثرية التي كانت تقف معاً إلى بناء كبير كانت أبوابه مفتوحة ظنا منهم أنها أبواب المدينة . فلما وجدهم أهل بلاتايا قد وقعوا في الشرك تناقشوا في هل يشعلون النار في المبنى ويحرقونهم حيث كانوا . ولكنهم قبلوا في النهاية استسلام هؤلاء وغيرهم من الطيبيين الذين وجدوهم يتجولون في المدينة وذلك دون شرط .

وقد اتخذ هؤلاء التعساء رهائن لإرغام جيش طيبه الزاحف على ترك بلاتايا ثم قتلوا في الحال وهي نصيحة من أثينا تنطوى على حكمة أكثر جاءت بعد الأوان . ويمكن ذكر نهاية القصة ونهاية بلاتايا باختصار . فقد حاصر سكان البيلوبونيز المدينة ففر جزء من الأهالى بجسارة وسط الحصار مخترقين صفوف العدو ووصلوا أثينا سالمين . واستسلم الباقون في النهاية بشرط أن يخضعوا للإسبرطيين بصفتهم قضاتهم فيعاقبون المذنبين على ألا يكون العقاب مخالفاً للعدالة . وكانت فكرة الإسبرطيين عن العدالة هي أن يسألوا كل واحد من أهل بلاتايا على حده عما إذا كان قد فعل شيئاً أثناء هذه الحرب لمساعدة إسبرطه وحلفائها . وقد أشار متكلم بلسان أهل بلاتايا إلى أنه لم يكن هناك مايدعوهم لذلك لأنهم بحكم حقهم الصريح المقرر بالمعاهدة كان عليهم أن يكونوا متحالفين مع أثينا متى اختاروا ذلك ، كما أشار أيضاً إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها مدينته لبلاد الإغريق أثناء الحربين الفارسيتين كما أشار إلى خدمة قدمت لإسبرطة بعد ذلك . وذكر الإسبرطيين أيضاً بالفضيحة والعار الذى يبوؤون به في أعين الإغريق بتدمير مدينة في مثل شهرة بلاتايا . ولكن لم يجد كل ذلك شيئاً فقد كرر الإسبرطيون سؤالهم « هل قدمتم لإسبرطة أى خدمة في هذه الحرب ؟ » .

ومن بين الذين كانوا يقولون لا كان الرجال يقتلون والنساء يبعن سبايا . « هكذا كانت إذن نهاية بلاتايا في السنة الثالثة والتسعين من تحالفها مع أثينا » .

ويصف ثوكوديديز عمداً هذا الأمر المريع بعد ميتيلينيه مباشرة، والتناقض بينهما بين . فني أثينا حظي صوت الإنسانية على الأقل بفرصة سماعه في المجلس وفي المسرح على السواء . وأما إسبرطة فلم يكن بها شعراء حينذاك . ومن المحتمل أن معاملة الإسبرطيين لأهل بلاتايا هي التي حفزت يوريبيديس لكتابة أندروماخا وهي مسرحية عن زوجة هكتور الملكة الأسيرة التي حولها الشاعر إلى هجوم شديد على قسوة الإسبرطيين وخداعهم ، ومع ذلك فقد استسلم الأثينيون إلى فلسفة القوة المجردة إلى حد أنهم هم أنفسهم ارتكبوا جريمة أفظع من جريمة الإسبرطيين بعد ذلك بحوالي عشر سنين وذلك بمهاجمة جزيرة ميلوس المحايدة التي لم يقع منها أي اعتداء وبقتل سكانها أو استعبادهم . وقد استعرض ثوكوديديز في حوار صوري النتائج السياسية والأخلاقية التي ينطوي عليها هذا العمل بطريقة غير تاريخية بالمرة . وهو لا يعلق عليه بل ينتقل مباشرة إلى الحق الجنوني في نظره وهو الخاص بالهجوم الأثيني المشئوم على صقليه .

وثوكوديديز مثله كمثل أكثر الفنانين الإغريق يعمل على البناء لا على الاستعراض فيعبر عن أعمق أفكاره بترتيب مادته ترتيباً معمارياً .

اضمحلال (البوليس)

شاهدت حرب البيلوبونيز فى الواقع نهاية دولة المدينة باعتبارها قوة خلاقة تشكل حياة كل أفرادها وتحقق أغراضها . وقد أخذت بلاد الإغريق خلال القرن الرابع تتجه باستمرار نحو اتجاهات فكرية جديدة وأسلوب حياة جديدة حتى أن عصر بريكليس من الوجهة العقلية لا بد أنه كان تلوح لأولئك الذين ولدوا فى نهاية القرن بعيداً بعد العصور الوسطى عنا .

إن التاريخ السياسى لبلاد الإغريق خلال هذا القرن مضطرب ومتعب وباعث على الكآبة ويكفينا منه ملخص قصير جداً . لقد توقف كسب إسبرطة للحرب على أخطاء الأثينيين أكثر مما توقف على البراعة ، كما توقف على نجاح إسبرطة أكثر من آثينا فى الحصول على مساعدة الفرس التى كان ثمنها الانسحاب من أيونيا . فما كسبته إسبرطة وأثينا معاً من كسرسيس Xerxes ردته أثينا وإسبرطة لارتكسرسيس Artaxerxes وهما تتحاربان ، لقد انتهت إمبراطورية أثينا ولكن « التحرير » الذى وعدت به إسبرطة كان من السوء بحيث أن كثيراً من الإغريق كانوا يؤثرون عليه العودة إلى استبداد « أثينا » . فقد كان معنى « التحرير » هو فرض حكومات الأقلية (الأوليجركية) فى كل مكان تقريباً مع حاكم إسبرطى لحفظ النظام . ونحن نرى إسبرطة فى أسوأ حالاتها فى هذه الفترة . فإن الإسبرطى لم يتعلم قط كيف يكون حسن المعاملة فى الخارج ، فقد كان فى فى بلده مطيعاً ومقتصداً بالضرورة، أما فى الخارج فلم يكن يؤتمن على السلطة أو المال « فالحرية التى منحت لبلاد الإغريق كانت حرية إسبرطة فى تهديد من تشاء ، أما من أفاد

حقاً من الحرب فهى فارس التى استردت إيونيا . ولم تكن تستطيع بلاد الإغريق وهى مفككة أن تسترجعها منها، ولذلك كان حكم كل مدينة إغريقية لنفسها حكما كاملا مما يرغب فيه الجميع سواء منهم الإغريق أنفسهم أو إسبرطة أو فارس .

ومن بين الحكومات الأوليجاركية التى أقامتها إسبرطة أو أيدتها كانت توجد فى أثينا جماعة من القساة المتعطشين لسفك الدماء يعرفون باسم «الثلاثين» وعلى رأسهم شخص يدعى كريتياس كان قبل ذلك زميلا لسقراط وقد حكموا حكما إرهابياً لمدة أشهر قليلة . ولكن حكومة الأقلية ما كانت تستطيع البقاء طويلا فى أتيكا . فقد أعيدت الديمقراطية بشجاعة واعتدال يكفران بعض الشىء عن الحق والعنف ـ المستخدم أحياناً ـ اللذين أظهرتهما الديمقراطية أثناء الحرب . صحيح أن الديمقراطية العائدة قد حرضت فى سنة ٣٣٩ ق.م على إعدام سقراط ، غير أن ذلك كان بعيداً عن أن يكون عملا من أعمال الغباء الوحشى . دع القارىء يتذكر ماشهده وقاساه المحلفون الذين نظروا هذه القضية — فقد هزم الإسبرطيون مدينتهم وأجاعوها حتى أوشكت على الهلاك وجردوها من أسلحتها وحصونها وتحطمت ديمقراطيتها وتعرض الناس لاضطهاد واستبداد وحشى. ودعه كذلك يفكر فى أن الرجل الذى سبق أن ألحق بأثينا أشد الضرر كما سبق أن قـــدم أبرز الخدمات لإسبرطة هو الأرستقراطى الأثينى الكبياديس Alcibiades وأن الكبياديس هذا كان قبل ذلك رفيقاً دائماً لسقراط — وأن كريتياس Critias المرعب كان رفيقاً ثانياً له . ودعه يفكر كذلك فى أنه بالرغم من أن سقراط كان مواطناً إخلاصه واضح أشد الوضوح فقد كان أيضاً ناقداً صريحاً لمبدأ الديمقراطية . ولن يكون هناك ما يدعو للعجب إذا ظن كثير من الأثينيين السذج أن خيانة الكبياديس وغضب كريتياس وعصابته من حكومة الأقلية إنما كانا نتيجة مباشرة لتعاليم سقراط . وإذا كان غيرهم كثيرون ـ ممن نسبوا ويلات المدينة ، وإن لم يكن ذلك دون أسباب معقولة ، إلى قلب معايير

السلوك والأخلاق ـ قد أرجعوا بعض المسئولية فى ذلك إلى تساؤل سقراط العلنى المستمر عن كل شيء ، فهل يمكن لاستفتاء يجريه معهد جالوب اليوم فى مثل تلك الظروف أن يبرىء سقراط ، وبخاصة بعد دفاعه هذا الدفاع الذى لا ينطوى على أى تساهل ؟ نحن نشك فى أن الأرقام تكون فى صالحه أى نشك فى حصوله على أصوات أكثر من ٦٠ إلى ٥٠١ . ودع القارىء يفكر فى أن عقوبة الموت التى تلت ذلك كانت باختياره فقد رفض عمداً أن يقترح الذهاب إلى المنفى كما رفض عمداً أن يحمل سراً خارج السجن . وليس هناك ما هو أسمى من موقف سقراط أثناء المحاكمة وبعدها . ويجب ألا نصبغ هذا السمو بالعاطفية بأن نمثل سقراط على صورة ضحية لجماعة من الغوغاء الجهلة . إن موته يكاد يكون مأساة من مآسى هيجل أى ، صراعاً يكون الطرفان فيه على حق .

لم تستمر سيطرة إسبرطة مدة طويلة . فقد كان عنفها الاستبدادى مما أثار ضدها حلفاً من المـــدن الأخرى حاربها الحرب المعروفة باسم «الحرب الكورنثية» ثم جاء الصلح ثانية سنة ٣٨٧ فى صورة مخزية هى مرسوم من ملك الفرس يجعل كل المدن الإغريقية تتمتع بحكم نفسها . وقد كانت المدن الرئيسية إذ ذاك هى أثينا وإسبرطة وطيبة . وكانت كل اثنتين منها على استعداد للتجمع لمنع الثالثة من أن تصبح أقوى مما ينبغى . وكانت آثينا آخذة فى الانتعاش ببطء سواء من الوجهة الاقتصادية أو السياسية حتى أنها كونت حلفاً ثانياً . فقد كانت دول بحر إيجه فى حاجة شديدة إلى نوع من السلطة المركزية . وفى سنة ٣٧١ وقع حادث هز بلاد الإغريق هزاً عنيفاً . فقد هزمت طيبه جيش إسبرطة فى قتال مباشر فى ليوكترا .

فقد كان فى طيبه فى ذلك الوقت رجلان عبقريان هما بيلوبيداس وأبامينديس . وكانا قد ابتكرا تكتيكا عسكرياً جديداً جريئاً فبدلا من جعل

المشاة المزودين بالدروع الثقيلة والأسلحة يصطفون ثمانية صفوف (على جانبيها الفرسان وجنود المناوشات) أنقصا من صفوف الجناح والقلب وأكثرا من صفوف الجناح الآخر حتى بلغت حداً غير عادي وهو خمسون صفاً . وهذه الكتلة من الرجال قامت ، كما فى هجوم لعبة الرجبى ، باختراق صفوف الإسبرطيين بثقلها ليس إلا . فحدث ما لم يكن يمكن تصديقه . ولكن لم يكن لطيبه أى فكرة سياسية تساهم بها . وقد زحف أبامينندس أربع مرات وسط البيلوبونيز لكى ينشىء مدينة جديدة مركزية من الاركاديين سكان الجبال ضد إسبرطة . وفى آخر حروبه كسب معركة معدة منظمة فى مانتنايا ولكنه قتل أثناءها وانهار تفوق طيبة التى أعطت إسبرطة ما كانت تستحقه . ولكن هذا الدرس الخاص من دروس العدالة أساءت بلاد الإغريق استخدامه عند ظهور تهديد فى الشمال لم يكن أحد يشتبه فى وجوده .

ذلك أن مقدونيا لم تكن تعتبر قط جزءاً من بلاد الإغريق . فقد كانت بلاداً بدائية غير متحضرة لا تكاد تكون متحدة ، تحت حكم أسرة ملكية تدعى أنها من أصل هيلينى وأن جدها الأكبر هو إخيليس ولا أقل من ذلك . وكان لهـــا حاشية بلغت من الحضارة على الأقل ما جعلها تغرى يوريبيديس بالذهاب إليها من أثينا قرب آخر حياته . وفى سنة ٣٥٩ ق.م تولى فيليب الثانى العرش بالطريقة المعهودة أى عن طريق سلسلة من الاغتيالات العائلية . وقد كان داهية طموحاً نشيطاً . وكان قد قضى جزءاً من شبابه فى طيبة حيث رأى مقدار ما أخذت بلاد الإغريق تبلغه من من الضعف وتعلم شيئاً من تكتيك بيلوبيداس الحربى الجديد . فأخذه عنه وأجرى فيه تحسيناً . وهو ابتكار الرباعى المقدونى المشهور الذى ظل يسيطر على ميادين القتال حتى هزمته الفصيلة الرومانية . إن الهدف الذى وضعه فيليب الصغير نصب عينيه كان حكم العالم الإغريقى بما فيه أثينا إن أمكن وبدونها إذا لزم الأمر . وهو ما كان يبدو للنظر السطحى مستحيلا

فقد كانت تهدد مقدونيا من الشمال الغربى قبائل إيليرية ، كما أنها كانت بلاداً متأخرة تفصلها عن بحر إيجه حلقة من المدن الإغريقية . وكان الأسطول الآثينى قد عاد إلى تفوقه مرة ثانية إلا أن فيليب كانت لديه بعض المزايا الكبرى ومن بينها القوة البشرية الكافية ومنجم للذهب كان قد كشف حديثاً . وفضلا عن ذلك كانت له الامتيازات التى يتمتع بها المستبدون دائماً وهى السرية والسرعة والخيانة . وقد تصدى للقبائل الإيليرية فجعل مقدونيا تنعم بالأمن فى وقت وجيز جداً واستولى على مدينة أمفيبوليس الإغريقية التى كان من الممكن أن تعوق زحفه نحو الجنوب . وأمفيبوليس Amphipolis هى المستعمرة الآثينية التى كان ثوكوديديز قد فشل فى إنقاذها من براسيداس . وقد فتحها فيليب بطبيعة الحال ليوفر على الآثينيين العناء كما كان يعتزم تسليمها لهم فى الحال أو بعد قليل ! ثم وجه التفاته إلى المدن الإغريقية الأخرى لا سيما أولينثوس Olynthus التى سبق أن كانت مركزاً لاتحاد هائل جداً . ولما كانت إسبرطة لا تحب الاتحادات فقد كان حلها للتحالف الأولينثى مما سهل الأمر على فيليب . وقد ابتدأ عند ذاك صراع طويل مفجع بين أعظم شخصيتين فى سياسة القرن الرابع وهما فيليب نفسه ومواطن آثينى حر كان كاتباً محترفا للخطب ووطنياً تشبع بآراء ثوكوديديز وربما كان أعظم خطيب جاد به الزمان ألا وهو ديموستينيز . وكان قد رأى الخطر متأخراً بعض الشىء بل أنه لم يره أولا فى صورته الكاملة . ولكنه رآه على الأقل وأخذ يرجو الآثينيين فى يأس متزايد فى خطبة بعد أخرى أن يقفوا ويقاوموا ، وكانت أثينا فى سنة ٣٥٠ على النقيض المؤسف من أثينا فى سنة ٤٥٠ . فى سنة ٤٥٠ كانت قوات أثينا فى كل مكان وكان المواطنون مستعدين لأى شىء . أما فى سنة ٣٥٠ فقد اضطر ديموستينيز أن يتوسل إليهم أن يدافعوا عن أعظم مصالحهم الحيوية ويرسلوا قوة يتكون جزء منها على الأقل من المواطنين ، إذ أن استخدام الجنود المرتزقة كان قد أصبح شائعاً وأن

يرغموا الجيش على البقاء فى مكان الحرب حتى لا يذهب إلى جهة أخرى تكون معركتها أكثر ربحاً . وكان مضطراً أن يرجوهم التوقف عن إرسال « جيوش على الورق » فلا يرسلوا قائداً مهمته أن يستخدم الجنود المرتزقة الذين كثيراً ما كانوا يتركون دون أجر . وقال لهم « إن حلفاءكم يخشون الحملات التى من هذا القبيل مثل خشيتهم من الموت » ولكن الآثينيين لم يكونوا يريدون رؤية الحقائق الكريهة بل كانوا يرغبون فى تصديق فيليب عند قوله « هذا بالتأكيد هو آخر مطلب لى خاص بالأرض » كما كانوا يرغبون فى الإنصات إلى وزراء المالية الحريصين وإلى ناصحين أقل منهم أمانة وهم الذين كانوا يسخرون من ديموستينيز ويؤكدون للآثينيين أن فيليب كان رجلا أميناً مثقفاً وأنه أحسن صديق لهم . وقد نشرت صحيفة إنجليزية فى سنة ١٩٣٧ عنواناً ضخماً هو « هل مات هتلر ؟ » وفى سنة ٣٥٧ ق . م . قال ديموستينيز للآثينيين « أنكم تجرون هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً هل مات فيليب ؟ لا . إنه لم يمت ولكنه مريض . وماالفرق عندنا بين أن يكون ميتاً أو حياً ؟ أنكم إذا سرتم فى أموركم على هذا النحو فسيؤدى عملكم إلى قيام فيليب آخر ضدكم » إن الشبه بين الحالين قريب لدرجة تجعل قراءة خطب ديموستينيز السياسية مريرة لا تحتمل . ولعل التاريخ الحديث كان يختلف عما هو عليه الآن كل الاختلاف لو كان عندنا سياسى يقود الناس ويعرف خطب ديموستينيز ، وكذلك لو كان عندنا مجلس للعموم قادر على أن يرى أن تاريخ الإغريق قد يكون لديه ما يقوله عن المسائل المعاصرة ، وأن ماحدث قبل زماننا بكثير قد لايكون بالضرورة غير ملائم ليومنا هذا .

وفى النهاية عندما تضافر تراخى الآثينيين مع حزازات الإغريق والخيانة الواضحة من بعض أصدقاء فيليب من الآثينيين على إحداث أسوأ ما يمكن ، انتصر ديموستينيز فقامت أثينا بمجهود عظيم يستحق الثناء ، فأنهت نزاعها مع طيبة الذى استمر عهداً طويلا وزحفت الجيوش المجتمعة معاً

ضد فيليب ولكن النتيجة كانت ذلك الانتصار الغادر فى خايرونيا الذى قضى على الحرية ، واضطر الإغريق فى النهاية أن يفعلوا ما أمروا به فركز فيليب الحاميات المقدونية فى ثلاث مدن استراتيجية أصبحت « أصفاد الإغريق » .

وتوفى بعد ذلك بسنتين ولو أن ابنه وخليفته كان الملك المقدونى العادى التافه لكان من الممكن جداً أن ينتهى الأمر بالبلاد إلى ضآلة الشأن ، ولكان من الممكن أن تستعيد بلاد الإغريق حكمها لنفسها الذى كان يتسم بطابع الفوضى . ولكن خليفة فيليب لم يكن تافهاً فقد كان الاسكندر الأكبر وهو من أكثر من نعرفهم من الناس إثارة للدهشة . كان شاباً فى العشرين وكان فى حركته كالبرق الخاطف . فى خلال خمسة عشر شهراً قمع فتنة فى تساليا وزحف وسط بلاد الإغريق على مدن كانت تدلى بأصواتها لتشكر قتلة فيليب كما كانت تفكر فى الثورة ، فكادت تهلك من الرعب . وقاد معركة سريعة حتى نهر الدانوب ليؤمن مؤخرته . ولما أغرى ذهب الفرس طيبة على الثورة ضد حاميتها المقدونية كما أغرى غيرها من المدن على التفكير فى الثورة زحف مرة ثانية إلى بلاد الإغريق واستولى على طيبة ودمرها وترك فيها بيتاً واحداً قائماً هو :

بيت بنداروس ، حين وقعت على الأرض ، المعابد والأبراج .

استغرق ذلك كله خمسة عشر شهراً فقط ، وقد وعى كل من الإغريق وجيران مقدونيا الشماليين درسهم ، وقد عبر الإسكندر البحر إلى آسيا فى الربيع التالى (٣٣٤ ق . م) كما أنه مات بعد إحدى عشرة سنة وعمره ٣٣سنة . ولكن الإمبراطورية الفارسية كانت قد أصبحت مقدونية حينذاك كما أصبح البنجاب كذلك فترة قصيرة ، وهو الذى لم يكن الفرس قد حكموه قبل ذلك قط . على أن الإسكندر لم يقم بغزو كاسح فقط فإنه كان يدعم

فتوحه حيث ذهب بإنشاء مدن إغريقية بطريقة مدروسة بعناية . وبعضها لا سيما الإسكندرية في القطر المصرى تحمل إلى هـذا اليوم الإسم الذى أعطاه لها .

ولما مات فيليب كانت دول من أمثال أثينا وطيبة تعتبر كبيرة قوية فى نظر الإغريق ، أما عندما مات الإسكندر فقدكان ينو الإغريق من وطنهم إلى إمبراطورية تمتد من الأدرياتيك إلى نهر السند ومن بحر قزوين إلى مصر العليا . فقد أحدثت هذه السنون الثلاث عشرة تغيراً كبيراً . إذ انتهت بلاد الإغريق الكلاسية واتخذت الحياة منذ ذلك الوقت شكلا ومعنى مختلفاً كل الاختلاف .

ونحن إذ نواجه مثل هذا الانهيار المفاجىء لنظام سياسى بأكمله نبحث بطبيعة الحال عن تفسيرله . وليس من الصعب أن نجد سبباً مباشراً على الأقل ، وهو أن الحروب التى استمرت قرناً كانت قد أنهكت بلاد الإغريق من الوجهة المادية والروحية . ولم يكن من الممكن أن تسير الأمور على هـذا النحو فلم تعد دولة المدينة تقدم أسلوباً مقبولا من أساليب الحياة . وكما تحاول أوربا الغربية اليوم فى ظروف مشابهة إلى حد ما أن تتحسس طريقها إلى وحدة سياسية أكبر ، فكذلك كان هناك فى القرن الرابع قبل الميلاد بعض من أخذوا يتباعدون إما عن « البوليس » نفسها أو عن المبدأ الديمقراطى . فلقد كان إيسوكراتيس « الشيخ البليغ » الذى ذكره ميلتون فى قصيدته ميالا كل الميل إلى المبدأ الملكى . فقد أثنى على رجل يدعى إيفاجوراس كان حاكما مستبداً فى قبرص ، كما أخذ يدعو إلى أن المدن الإغريقية عليها بدلا من أن يحارب بعضها بعضاً أن تنضم تحت لواء فيليب فى هجوم كبير على الإمبراطورية الفارسية الآخذة فى الاضمحلال . كما أن أفلاطون كان قد أعرض عن الديمقراطية وهو يائس وأعلن فكرة « الملك

الفيلسوف » — ولم يكتف بذلك بل قام بزيارتين لصقلية يحدوه أمل يائس فى أن يجعل من ديونيسيوس حاكم سرقوسة الشاب ملكا فيلسوفاً .

غير أن البوليس لم تثبت فشلها من الوجهة الخارجية فقط بعدم إعطائها بلاد الإغريق أسلوباً معقولا من أساليب الحياة بل ان الزمام كان قد أخذ يفلت من يدها من الوجهة الداخلية أيضاً كما يمكننا أن نشاهد ذلك بأجلى وضوح فى حالة أثينا . فالمقابلة بين عصر ديموستينيز وعصر بريكليس مما يثير الفزع ، ففكرة استخدام الجنود المرتزقة كانت تبدو لأثينا فى عهد بريكليس إنكاراً للبوليس وهو ماكانت تعنيه بالفعل . إن أثينا فى القرن الرابع قبل الميلاد تعطينا فكرة الخمول السياسى الذى يكاد يصل إلى حد عدم الاكتراث ، فقد كان الناس مهتمين بأمور أخرى غير البوليس ولم يتصرف الآثينيون بطريقة جديرة باسمهم العظيم إلا فى آخر يوم نزل به القضاء المحتوم غير أن الوقت كان قد فات إذ ذاك .

إن التضاد بين العهدين يصل إلى حد بعيد إذ أن أثينا لم تكن قد أنهكتها حرب البيلوبونيز الطويلة فقط فإن المجتمعات تفيق من مثل هذا الإنهاك . ولقد كانت أثينا بالفعل فى القرن الرابع نشيطة ومحبة المغامرة بدرجة كبيرة فى أوجه أخرى . ونحن لانستطيع أن ننسب التغيير إلى مجرد الخور ولا إلى مجرد رد فعل إجهاد الحياة السياسية فى القرن الخامس لأن رد الفعل يستنفد قوته بمضى الزمن . إن الذى نقابله فى القرن الرابع هو تغير دائم فى مزاج الناس يدل على ظهور موقف مختلف تجاه الحياة ، فقد كان هناك اتجاه أعظم نحو الفردية فى القرن الرابع يمكننا أن نراه أينما نظرنا فى الفن والفلسفة والحياة . فالنحت مثلا يبدأ فى الاتجاه إلى ذاته يفحصها وإلى الاهتمام بالخصائص الفردية والأمزجة العابرة بدلا من أن يعبر عن المثل العليا والعموميات . فهو يبدأ فى الحقيقة فى تصوير الناس لا « الإنسان »

وهذا نفس ما حدث بالنسبة للدراما . ونحن نرى فى الدراما أن التغير لم يكن مفاجئاً . ففى العشرين سنة الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد كانت المأساة قد أخذت تبتعد عن الموضوعات الهامة والعامة وتهتم بالشخصيات الشاذة (كما فى مسرحيتى الكترا Electra وأوريستيس ليوريبيديس) أو تعنى بالقصص الرومانتية عن المخاطر الغريبة وضروب الفرار المثيرة (كما فى مسرحيتى إيفيجينيا فى تاوريس وهيلين) . كما نجد فى فلسفات ذلك العهد مدارس مثل الكلبيين Cynics الزاهدين فى الملذات أو القورينائيين Cyrenaics الداعين إلى الملذات ،وكان أعظم سؤال يتردد هو أين يوجد الخير ؟ خير الإنسان ؟ ولم يكن الجواب على ذلك يقيم للبوليس أى حساب . أما الكلبيون ومثلهم المتطرف هوديوجينيس فقد قرروا أن الفضيلة والحكمة تدركان بالحياة طبقاً للطبيعة ونبذ ألوان الغرور مثل الرغبة فى التكريم والراحة . وهكذا عاش ديوجينيس معتكفاً وكان على البوليس أن تستغنى عنه . أما القورينائيون فقد كان مذهبهم طلب الملذات وهم يرون أن إدراك الحكمة يكون باختيار الملذات اختياراً صحيحاً وتجنب ما يعكر صفو الحياة ، ولهذا فقد تجنبوا البوليس هم كذلك . وقد صيغت كلمة Cosmopolis (الوطن العالمى) فعلا فى ذلك الوقت لتعبر عن فكرة أن المجتمع الذى يدين له الرجل العاقل بالطاعة لم يكن شيئاً أقل من مجتمع الناس ، فأينما عاش الرجل العاقل فإنه كان مواطناً زميلا لكل رجل عاقل آخر ، ولكن بصرف النظر عن هذا المعنى الفلسفى فقد كانت فكرة الوطن العالمى هى التى تقابل بالضرورة فكرة الفردية الجديدة وتكملها أى أن الوطن العالمى كان قد بدأ يحل محل البوليس .

فإذا تركنا الفن والفلسفة والتفتنا إلى الحياة والسياسة نجد ما يعتبر فى جوهره نفس الشىء . فالمواطن العادى مهتم بشئونه الخاصة أكثر من اهتمامه « بالبوليس » فإن كان فقيراً فهو يميل إلى اعتبار « البوليس » مصدراً

للمنافع . مثال ذلك أن ديموستينيز كافح كفاحاً شديداً لإقناع الناس بأن يكرسوا للدفاع الوطني الايرادات التي كانوا يجعلونها بانتظام لصندوق المسرح ، وهو ليس المال المعد لاخراج المسرحيات ولكنه المال المعد لتمكين المواطنين من دخول المسرح والمهرجانات الأخرى مجاناً . إن المحافظة على هذا المال يمكن الدفاع عنها متى افترضنا فقط أن المواطن كان يبدى من الهمة في خدمة « البوليس » مثلما كان يبدى في قبول ماتمنحه له من المزايا . وإذا كان المواطن غنيا فان انشغاله بأموره الخاصة كان أشد وقد كان ديموستينيز يعقد مقارنة تبين الفرق بين المنازل الفخمة التي كان يبنيها أغنياء عصره وبين المنازل البسيطة التي كان أغنياء القرن السابق يقنعون بها ، كما أن الملهاه (الكوميديا) كانت تبين بوضوح عظيم تغير مزاج الجمهور . فقد كانت الملهاة قديما سياسية تماما اذ كانت حياة « البوليس » هي محل الانتقاد والسخرية على المسرح . أما في القرن الرابع فقد كانت تجد مادتها في الحياة الخاصة والحياة المنزلية . وكانت نكتها عن الطباخين وأثمان السمك كما كانت عن الزوجات السليطات والأطباء الذين تعوزهم الكفاية .

وبمقارنة آثينا في عهد بريكليس بآثينا في عهد ديموستينيز نجد اختلافات أخرى ذات مغزى وان كان يبدو أن علاقتها قليلة بنمو الفردية التي نحن بصدد بيانها . فالشخصيات التي توجه المجلس لم تعد موظفي الدولة المسئولين كما أصبح قيام موظفي الدولة المسئولين بالقيادة في ميدان القتـــال أقل من ذي قبل . ومن المؤكد أن انفصال هذه الوظائف لم يكن مطلقا ، ومع ذلك فما له دلالة أن نجد خطباء محترفين مثل ديموستينيز ومنافسه ايسخنيس Aeschines من البارزين في المجلس الذين يوفدون بصفة مبعوثين ومع ذلك فهما لا يشغلان وظائف حكومية كما أن اشتغالهما بالقيادة في ميدان القتال أندر من ذلك . وكذلك نجد سياسيا مثل اوبيولوس الذي كرس مواهبه العظيمة للإدارة الرشيدة والذي لم يشتهر فيما عدا ذلك ، كما نجد قوادا مثل ايفيكراتيس Iphicrates وخابرياس Chabrias

اللذين كانا محترفين بالفعل يخدمان دولا أجنبية حين لم تحتجهما أثينا ويعيشان خارجها بالفعل . وقد تزوج إيفكراتيس بنت ملك من تراقيا وساعده بالفعل ضد أثينا ذات مرة بينما عين الآثينيون زوجاً آخر لابنة ذلك الملك اسمه خاربديموس Chandemus قائداً بصفة منظمة مع أنه لم يكن أثينياً بالمرة بل كان مجرد قائد موهوب للجنود المرتزقة .

فإذا أجلنا النظر بعد ذلك فى بلاد الإغريق كلها فإننا نجد أن نظام البوليس قد أخذ ينهار ، وإذا نظرنا داخل أثينا نجد أن البوليس كانت آخذة فى التفكك بل إن انهيار دولة المدينة يبدو أشد بغتة عما كان فى الحقيقة ، فلم يكن الأمر أمر معركة واحدة ولا أمر عشرة أعوام بل ولا جيل واحد ، فما الذى جرى ؟ لقد وجدنا بعض الدلالات ولكن ماذا كان السبب ؟ لماذا انهارت «البوليس» فى القرن الرابع لا فى الخامس ؟ ولماذا استطاعت بلاد الإغريق أن تتضافر ضد فارس ولم تستطع ذلك ضد فيليب ؟ هل هناك أية علاقة بين هذا الانهيار وبين الفردية التى لاحظناها ؟ أو بين ذلك وبين الاستخدام المشئوم للجنود المحترفين ؟ لو أننا تمعنا مرة ثانية فيما كانت البوليس تعنيه وتتضمنه فإنى أعتقد أننا نتمكن من اكتشاف علاقة وثيقة بين كل هذه الأمور .

لقد جعلت « البوليس » للهاوى فكان مثلها الأعلى أن كل مواطن عليه أن يلعب دوره فى أوجه نشاطها الكثيرة جميعاً (وهذا يختلف باختلاف ما إذا كانت البوليس ديمقراطية أو أوليجاركية) وهو مثل أعلى يمكن أن نتبين أنه وصل إليها من فكرة هوميروس عن « التفوق » areté باعتبارها امتيازاً ونشاطاً شاملا فهى تنطوى على احترام للحياة بصفتها كلا أو وحدة وكره للتخصص نتيجة لذلك، كما أنها تتضمن احتقاراً للكفاية أو لعلها تتضمن فكرة أسمى بكثير من الكفاية أى الكفاية التى توجد فى الحياة نفسها

لا فى أحد مناحيها فقط . وقد سبق لنا أن رأينا إلى أى مدى ذهبت أثينا الدعقراطية فى تقييد مجال الخبير المحترف . لقد كان واجباً على الإنسان نحو نفسه ونحو البوليس أن يكون كل شيء .

ولكن فكرة الهاوى هذه تتضمن أيضاً أن الحياة فضلا عن كونها كلا متكاملا فهى بسيطة . فإذا كان على رجل واحد أن يؤدى كل أدواره فى الفترة التى يعيشها فيجب ألا تكون هذه الأدوار أصعب مما يستطيع الرجل العادى أن يتعلمه ، وهذا هو الأمر الذى انهارت «البوليس» عنده . إن الرجل الغربى منذ عهد الإغريق لم يستطع قط أن يدع الأشياء وشأنها بل لابد أن يسأل ويكتشف ويتحسن ويتقدم والتقدم هو الذى حطم «البوليس» .

لننظر أولا إلى الناحية الدولية . إن القارىء الحديث الذى يتجه إلى أفلاطون وأرسطو ، هذين الفيلسوفين السياسيين اللذين يختلفان عن بعضهما كل الاختلاف لابد أنه يعجب من إصرارهما على أن «البوليس» ينبغى أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتياً من الناحية الاقتصادية . فالاكتفاء الذاتى بالنسبة إليهما يكاد يكون أول قانون فى وجودها . وهما يؤثران إلغاء التجارة بصورة عملية . ويبدو من الوجهة التاريخية على الأقل أنهما كانا على حق . لقد كانا يعتقدان اعتقاداً راسخاً أن نظام المدن الصغيرة الإغريقى كان الأساس الوحيد الصالح للحياة المتحضرة من الوجهة الحقيقية وهذا مبدأ معقول . غير أن مثل هذا النظام كان من الممكن أن يصح فقط لو أن أحد شروط ثلاثة تحقق وأولها أن كل «بوليس» ينبغى أن تدبر أمورها وتسيرها بذكاء وضبط للنفس لم يبد أن الجنس البشرى قادر عليهما إلى الآن . وثانيها . على أسوأ الفروض أن «البوليس» ينبغى أن تكون من القوة بحيث تحافظ على النظام دون رغبة فى التدخل بلا لزوم فى شئون غيرها الخاصة وهذا ما فعلته أسبرطه حيناً من الدهر وبطريقة جزئية . وثالثها أن النظام بأكمله ينبغى أن يكون من الاتساع بحيث أن أعضاءه ينبغى ألا يتعدى أحدهم على

اختصاص الآخر ، وبعبارة أخرى يجب أن يكونوا مكتفين اكتفاء ذاتياً . وقد كان هذا الشرط مستوفى فى العصر القديم ، غير أن فتح البحر الأبيض المتوسط ونمو التجارة غير الأمور ، إذ أدت المنافسات التجارية فى الحال إلى حروب على نطاق واسع . فأخذ العالم الإغريقى يتقلص وأصبح لا مفر من الاصطدامات . وقد دفع نمو أثينا هذه العملية إلى الأمام . فقد كان نظامها الاقتصادى كله يناقض قانون الاكتفاء الذاتى لأن أثينا منذ عهد سولون أخذت تعتمد أكثر فأكثر على تصدير النبيذ والزيت والبضائع المصنوعة وعلى استيراد القمح من البحر الأسود ومصر . ولهذا فقد كان عليها أن تشرف على جزر بحر إيجه بصورة ما وبخاصة الدردنيل . غير أن مثل هذا الإشراف كان لا يتفق مع نظام دولة المدينة كما أوضحت ذلك بلاد الإغريق لأثينا بطريقة جافة . وبدأ النظام يختل حالما بدا يناقض القانون الذى يقوم عليه وجوده .

ولكن «البوليس» فرضت البساطة فى أمور أخرى غير الأمور الاقتصادية. دعنا نتمعن فى التكتيك الحربى والبحرى وهو مالا يعتبر طفرة كبيرة منا . إننا جميعاً نعرف كيف يحارب الإغريق اليوم من قمة جبل إلى قمة جبل آخر. إنها طريقة للقتال فرضتها عليهم طبيعة البلاد . ومع ذلك فقد كانت الحرب التى تشنها دولة المدينة فى هذه البلاد ذاتها يقوم بها مشاة يحملون سلاحاً ثقيلا ولا يستطيعون الحرب إلا فوق أرض منبسطة . فقد كان الفرسان بل وأعجب من ذلك الجنود المزودون بأسلحة خفيفة يستخدمون المعاونة فقط لحماية الجناحين وحماية حركة التقهقر وما أشبه ذلك . وهذا أمر يبدو خلواً من الذكاء بصورة غريبة بين قوم يحبون المغامرة حباً جماً . ولكن تفسير ذلك سهل ، فقد كان الجندى هو المواطن وكان أكثر المواطنين فلاحين وكان لابد للمعارك من أن تكون قصيرة إذ أن المحاصيل إذا لم تزرع وتحصد جاعت وماتت البوليس ولهذا كانوا يبحثون دائماً عن قرار

حاسم سريع . والجنود الجبليون نادراً مايستطيعون تحقيق ذلك ، وفضلا عن ذلك فمع أن المواطن كان ينتظر منه أن يكون كفئاً فى استخدام السيف والدرع وفى نظام الاشتباك فى القتال عن كثب وهو نظام بسيط وإن يكن شاقاً إلا أنه لم يكن يملك الوقت الضرورى لإتقان فن الحرب الجبلية الذى تزيد مشقته على سابقه . ولقد كان لدى اسبرطة وحدها جيش محترف من المواطنين (يساعد على تموينه عمل الأرقاء) ولما كانت متفوقة فى حرب الاشتباك عن كثب فإنه لم يكن لديها دافع يحفزها إلى تغيير وسائلها .

ولكن حدث أن قائداً آثينياً مغامراً قاد أثناء حرب البيلوبونيز معركة فى المنطقة الجبلية الواقعة غربى بلاد الإغريق دون أن يلقى نجاحاً كبيراً ووجد أن موقف المشاة المزودين بالأسلحة الثقيلة خطير ضد الجنود المزودين بالأسلحة الخفيفة الذين يعرفون كيف يضربون الضربة ويفرون ثم يضربون الضربة الثانية . ولم يذهب هذا الدرس هباء إذ أن تكتيك الجنود المسلحين بأسلحة خفيفة قد درس دراسة كان من أثرها أن القائد الآثينى إيفكراتيس Iphicrates ومعه بعض الجنود المزودين بالأسلحة الخفيفة فاجأ فصيلة إسبرطية على أرض وعرة ومزقها كل ممزق . لم تكن لهذا الحادث فى حد ذاته أهمية كبيرة ولكنه رغم ذلك كان نذيراً بما سيحدث ، إذ كان يدل على أن التكتيكات العسكرية كانت قد أخذت تبلغ من التخصص حداً فوق متناول الجندى المواطن . فاليوم الذى كان يستطيع فيه سياسى مثل بريكليس أن يكون كذلك قائداً كفئاً للجنود كان قد ذهب أو كاد . فقد أخذ القتال يصبح مهنة تحتاج إلى مهارة . ولقد سبق لنا أن قابلنا بعض القواد المحترفين ، كما كان من السهل أن تؤلف الجيوش من بين العاطلين والمطرودين أو مجرد المغامرين الذين خلفتهم الحروب الطويلة وراءها . ولقد كان العشرة آلاف جندى المشهورين بقيادة كسينوفون يؤلفون مثل هذه القوة . ولهذا كان هناك بعض العذر للآثينيين فى أنهم أخذوا يعتمدون على الجنود

المرتزقة أكثر مما يلزم أى على المحترفين ، فقد كان من الممكن الإشارة إلى أن هـذا هو الشيء العملى ، غير أن الخطر من الالتجاء إليه واضح . أما من جهة خصمهم النهائى فيليب فقد كان له جيش قائم حسن التدريب على أحدث تكتيك مستعد للضرب فى أى وقت وفى أى مكان . وهو جيش مكون من الجبليين الجفاة الذين لم تثقل المدنية كاهلهم . ولم تكن البوليس تستطيع أن تقاوم هذه الوسيلة بمثلها دون أن تتوقف عن أن تصبح بوليسا .

وتنطبق نفس القصة على التكتيك البحرى فقد تحققت هنا أيضاً مهارة الخبرة ولكنها تكلفت ثمناً لم تستطع «البوليس» فى النهاية دفعه . فى الحرب الفارسية كانت السفن الإغريقية بطيئة ثقيلة . فأصحابها يشتغلون فوق الأرض وخبرتهم بالملاحة قليلة مثلها كمثل الأسطول الرومانى فى الحرب البونية الأولى . وكانت الفكرة هى دفع سفينتهم بشدة نحو العدو ثم محاربته من فوق سطحها . أما بعد ذلك بخمسين سنة أى فى حرب البيلوبونيز الأولى فقد كانت السفينة الآثينية ذات صفوف المجاذيف الثلاثة سفينة بالمعنى الحقيقى مبنية كسفينة السباق . فقد ضحى الآثينيون بالثقل فى سبيل السرعة وخفة الحركة . وكان المجذفون وهم طبعاً من المواطنين لا الأرقاء — مدربين إلى درجة عالية من البراعة . فى إحدى الخطط البحرية مثلا كانوا يجذفون تجذيفاً سريعاً متجهين نحو سفينة العدو كأنما يريدون مصادمتها ثم ينحرفون عنها فى آخر لحظة ممكنة فتمرق المجاذيف القريبة بجانب سفينة العدو وتكتسح كل المجاذيف التى فى هذا الجانب ، بينما يحدث الرماة الذين على السطح أقصى ما يستطيعون من الضرر ثم يدورون بسرعة نحو العدو الذى شلوا حركته ويضربونه كما يشاءون .

مثل هذه الخطط تحتاج إلى دقة عظيمة وشجاعة من جانب كل من يعنيهم الأمر . ولذلك كاد يكون لزاماً على الملاحين أن يكونوا محترفين فى الحقيقة . ولكن كيف تجعل من المواطنين الذين يحتاجون إلى كسب عيشهم ملاحين

محترفين ؟ وما دامت مقدرة العمال على الإنتاج ضعيفة جداً فكيف كانت تستطيع أثينا أن تكرس مثل هذا العدد الكبير من العمال لأسطولها ؟ كان ذلك ممكناً فقط لأنها كانت تأخذ الجزية من حلفائها الخاضعين لها . فكانت الوحـــدة السياسية الكبيرة وهى الإمبراطورية الأثينية هى التى تستطيع فى الحقيقة دفع تكاليف هذه الدرجة من التخصص ، أما «البوليس» فلم تكن تستطيع ذلك . ولكن الوحدة الكبيرة لم يكن يستطيع الناس قبولها ـ وهذه نقطة لها بعض الأهمية بالنسبة لأوروبا الغربية حالياً . وقد نالت أثينا فى الحقيقة هذه الخبرة البحرية (وغير ذلك من الأمور) عن طريق استغلال المدن الأخرى . وكان هذا إهانة لعواطف الإغريق . ففيه إنكار لأحد القوانين الأساسية للنظام كله . وقد جلب هذا الإنكار معه عقوبته .

رأينا منذ لحظة أن التقيد الاقتصادى باعتباره إنكاراً للاكتفاء الذاتى كان يتعارض مع البوليس فى ناحيتها الدولية . والآن ونحن ندرس حالة أثينا خاصة يمكننا أن نلاحظ أن نتائجه من الوجهة الداخلية كانت خطيرة كذلك . ومع أن قانون أفلاطون صحيح بالفعل بالنسبة للخارج فلا شك أن تجربة أثينا الداخلية هى التى أدت إلى صياغته . فقبل منتصف القرن الخامس كانت بيريه قد أصبحت إلى حد كبير أكثر موانى البحر المتوسط حركة ، وقد أعلن بريكليس بفخر وهو يرفض قانون أفلاطون مقدماً ، أن منتجات العالم أجمع تأتينا » . وهو ما كان يحدث بالفعل ، فإنها كانت تأتيهم — ومن بينها الطاعون . ولقد ازدهرت بيريه وأثينا نفسها وأقام بهما أجانب مغامرون وظهرت بها صناعات وأصبحت المدينة المزدوجة مركز العالم . وقد كان ذلك شيئاً رائعاً ومثيراً جداً ولكنه كان أكبر مما تستطيع البوليس أن تهضمه . وقد كانت البوليس مكونة من مجتمع من أصحاب المصالح ، ولكن مصالح العناصر التجارية والزراعية الأثينية وكذلك طابعهم بدأت تتشعب بشكل شديد ، فكانت العناصر التجارية تتكون من الديمقراطيين المتطرفين

والاستعماريين وحزب الحرب . فإن كانوا أغنياء منحتهم الحرب فرصاً للتوسع التجارى ، وإن كانوا فقراء أعطتهم عملا وأجراً ولكنها كانت تعطى سكان الريف بيوتاً غير مسقوفة وتؤدى إلى قطع ما يملكون من أشجار الزيتون البطيئة النمو . وكان أكثر زعماء المجلس بعد بريكليس من أهل بيريه وهم التجار الناجحون من أمثال كليون . فكانوا ذوى مقدرة عظيمة أحياناً ولكنهم كانوا انتهازيين . إذ كانت لهم بحكم طبيعتهم وتدريبهم آراء متحيزة مما جعل لهم خصوماً ذوى آراء أشد منهم تحيزاً وعنفاً . وبالإضافة إلى ذلك أن تعقيد الحياة المتزايد الناشىء من هذا النمو التجارى جعل هناك نوعاً من القوة المركزية الطاردة داخل «البوليس» . فأصبحت شئون الناس الخاصة أكثر تشويقاً وتطرفاً فى مطالبها بحيث أخذوا يميلون إلى الانسحاب من الأمور العامة وأصبح الخمول السياسى فى أثينا فى القرن الرابع نتيجة مباشرة لذلك .

ولكن هذا التقدم المدمر لم يكن مقصوراً على الجانب المادى للحياة ، ومن الحق أن نؤكد أنه بدأ به . وكان أريستوفانيس يرى أن سبب ذلك هو محاولة الناس أن يكونوا أمهر مما ينبغى . ويمكننا أن نذكر الكثير تأييداً لهذا الرأى البسيط .

فقد ظلت الأخلاق الإغريقية أجيالا عديدة مثل الخطط الحربية الإغريقية تقليدية محضة تقوم على فضائل العدالة والشجاعة وضبط النفس والحكمة وهى الفضائل الأساسية . وكان يبشر شاعر بعد آخر بنفس هذه العقيدة أى بجمال العدالة واخطار الطمع وحماقة العنف . فكانت عقيدة خلقية لا يمارسها كل الإغريق بالفعل أكثر مما يمارس العالم المسيحى بأجمعه المسيحية . ورغم ذلك فقد كانت مثل المسيحية مثالا يحتذى مسلماً به . فإن ارتكب إنسان إساءة كان معروفاً أنه قد ارتكب إساءة . وهذا هو الأساس

القوى البسيط الذى كان من الممكن أن تقوم عليه حياة مشتركة . وهنا أيضاً نجد مصدر قوة الفن الإغريقى الكلاسى وبساطته . وقد قام الفن الأوروبى الوحيد الآخر الذى يقارب الفن الإغريقى فى هذه الصفات وهو فن القرن الثالث عشر على مثل هذا الأساس .

ولكن القرن الخامس غير ذلك كله . فقبل نهايته لم يكن يعرف إنسان أين هو . إذ أن المهرة من الناس أخذوا يقلبون كل شىء رأساً على عقب أما البسطاء فكانوا يشعرون أنهم متخلفون عن زمانهم . فإن تكلم أحد عن الفضيلة وجد الرد « إن هذا كله يتوقف على ما تقصده بالفضيلة » وهو ما لم يكن يعرفه أحد . وهذا من أسباب انصراف الشعراء عن هذا الميدان . وكما أن الأفكار الجديدة ومكتشفات العلوم الطبيعية قد غيرت نظرتنا تغيراً كبيراً خلال السنين المائة الأخيرة فهدمت عند كثير من الناس الدين والأخلاق التى توارثوها حتى أصبح الشيطان لا يجد ما يعمله ، وأصبح الإثم فى نظرهم لا وجود له وأصبحت كل العيوب الإنسانية نتائج لطبيعة الجسد أو ناشئة عن البيئة ، كذلك شجعت تأملات الفلاسفة الأيونيين الجريئة فى القرنين السادس وأوائل الخامس على البحث العلمى المنظم فى اتجاهات كثيرة مما كانت نتيجته زعزعة كثير من الأفكار المسلم بها فى الأخلاق زعزعة شديدة .

حقاً لقد كان هناك سقراط وهو أنبل من عاش بالتأكيد . فقد اهتم بتأملات الفلاسفة الطبيعيين ولكنه عدل عنها باعتبارها عديمة الجدوى وتافهة كذلك متى قورنت بالسؤال الهام التالى : كيف ينبغى لنا أن نعيش ؟ ولم يكن هو يعرف الجواب على هذا السؤال ، ولكنه أخذ يعمل على اكتشافه بفحص أفكار الآخرين فحصاً دقيقاً . وقد بين هذا الفحص لسقراط وللشبان الذين كانوا يتبعونه أينما ذهب أن الأخلاق التقليدية لا أساس لها فى المنطق . ولم يستطع أحد فى أثينا أن يعطى تعريفاً لأية فضيلة خلقية

أو فكرية يمكن أن يظل قائماً صحيحاً بعد محادثة مع هذا البناء الهائل تستغرق عشرة دقائق . وقد كان تأثير ذلك هداماً على بعض الشبان . فقد تحطمت عقيدتهم فى التقاليد الموروثة ، ولم يستبدلوها بشيء آخر وتزعزع إيمانهم بالبوليس . إذ كيف كانت تستطيع البوليس أن تدرب مواطنيها على الفضيلة علماً بأن أحداً لم يكن يعلم ما هى . ولهذا أخذ سقراط يتحسر على حمق أثينا الديمقراطية التى كانت تهتم باستشارة خبير فى شيء تافه مثل بناء جدار أو حوض لبناء السفن بينما كانت تسمح لأى إنسان بأن يصرح بما يجول فى ذهنه الذى لم يتهذب بالنسبة لمسائل الأخلاق والسلوك التى كانت أهم من ذلك بما لا يقاس .

لقد كان الهدف السامى لسقراط ولأفلاطون من بعده هو وضع الفضيلة على أساس منطق لا يمكن مهاجمته وجعلها موضوعاً لعلم دقيق يمكن الإحاطة به وتعلمه لا لرأى تقليدى خطير ، وهذا هدف يستحق الثناء ولكنه أدى إلى الجمهورية مباشرة وهى النقيض المحترف للبوليس الهاوية . لأن تدريب المواطنين على الفضيلة أى على حكم البوليس يجب أن يوكل إلى أولئك الذين يعرفون ماذا يقصد بالفضيلة . وإصرار أفلاطون على العلم كان تأثيره تفتيت المجتمع إلى أفراد كل منهم خبير فى مطلب واحد فقط يلزمه أن يقتصر عليه . وسيد الفنون وأهمها وأصعبها هو « فن السياسة » . ومن يتقن هذا الفن عند اكتشافه يجب أن يحكم . ويكفينا ذكر هذا القدر عن « البوليس » ونظريتها القائلة ان الحياة الطيبة معناها الاشتراك فى كل شيء .

وقد أنتجت هذه الفورة الفكرية فضلا عن سقراط جمهرة من قوم أقل منه هم السوفسطائيون الذين كان تأثيرهم على البوليس أهم من تأثيره . إن لفظ « سوفسطائى » ليس له معنى يحط من قدر الإنسان بالمرة . أما الذى أعطاه هذا المعنى فهو سقراط لأنه كان يكره أساليبهم وأهدافهم

على السواء ، إذ كانوا مدرسين لا مستفسرين ، وكانت أهدافهم عملية لا فلسفية . ومعنى الكلمة هو معلم « الحكمة » Sophia وهى إحدى الكلمات الإغريقية الصعبة التى معناها إما « الحكمة » أو « المهارة » أو « المقدرة العملية » . ولعل كلمة « أستاذ » هى تقريباً المقابل الحديث لكلمة « سوفسطائى » فهى مثل الكلمة الأولى لها معان تتفاوت بين أساتذة اللغة الإغريقية وأساتذة علم فراسة الدماغ . ومع أن بعض الأساتذة يشتغلون بالبحث إلا أنهم جميعاً يقومون بالتعليم وتدفع لهم أجور . وقد كان هذا عاراً كبيراً على السوفسطائيين . وقد كان بعضهم أساتذة جادين ومربين أو علماء . بينما كان الآخرون أشبه بباعة السلع التافهة المتجولين فكانوا يعلنون أنهم يعلمون الفن السامى الذى يهدف إلى التقدم فى الحياة . فهل تريد تحسين ذاكرتك ؟ أم تريد أن يكون لك ١٠٠٠ ج دخلا فى السنة ؟ إن من السوفسطائيين من كان يعلمك ذلك بأجر . فقد كان السوفسطائيون يذهبون من مدينة لأخرى يلقون محاضرات عن موضوعاتهم الخاصة . ومنهم من كان يتعهد فعلا بأن يحاضر فى أى موضوع وإن كان ذلك دائماً فى مقابل أجر . وقد كان الشبان الطموحون المتسائلون يحبونهم حباً جماً . ويمكننا أن نشير إلى أثر تعليمهم تحت عنوانين :

أولها أنهم مثل سقراط أخذوا ينقدون الأخلاق البالية . وقد قام البعض بمحاولات جدية لإرسائها على أساس وطيد . وكان الآخرون يعلمون مذاهب جديدة مثيرة مثل « ثراسيماخوس » Thrasymachus الذى يبرز اسمه فى أول كتاب « الجمهورية » والذى يصوره الكاتب لنا كرجل عديم الإحساس لا يطيق أى فكرة ولو غامضة عن العدالة . ولنضرب مثلا واضحاً دقيقاً . إنه عندما أكره على أن يبين رأيه واضحاً دقيقاً قال « العدالة بكل بساطة هى مصلحة الطرف الأقوى » . وكان يرى بروتاجوراس وهو رجل أعظم من سابقه بكثير أنه ليس هناك خير أو شر مجرد « فالإنسان

هو مقياس كل شيء ، أى أن الحق والأخلاق أمور نسبية . ونحن الذين رأينا إلى أية استعمالات دنيئة يمكن أن تنزل بالمذهب العلمى القائل ببقاء الأصلح يمكننا أن نتصور بدون صعوبة كبيرة أية منفعة يمكن أهل العنف والمطامع أن يجنوها من هذا القول . ومن الممكن أن تعطى مظهراً علمياً أو فلسفياً محترماً لأى شر . والناس يستطيعون أن يعملوا أعمالا خبيثة دون أن يعلمهم السوفسطائيون ، غير أنه كان من المفيد أن يتعلموا الحجج التى تجعلها طيبة فى نظر الرجل البسيط .

أما السوفسطائيون الذين لم يتعرضوا للأخلاق فقد كان لهم تأثير كالآخرين . إذ أن التعليم كان أثراً من الآثار الفرعية لحياة البوليس يشترك فيه الجميع . وكان أصحاب المواهب الفطرية يسبقون الباقين وإن كان الكل موجودين فى صعيد واحد ، وهكذا بقيت وحدة البوليس . وبظهور السوفسطائيين أصبح هناك تخصص فى التعليم كما دخله الاحتراف ، فأصبح مباحاً فقط للذين يستطيعون أن يدفعوا أجره وكذلك يريدونه . وهكذا أصبحت هناك هوة حقيقية لأول مرة بين المستنيرين والبسطاء . مما كانت نتيجته الطبيعية ان الطبقات المتعلمة فى المدن المختلفة أخذت تشعر أنها تشترك فيما بينها أكثر مما يشترك المتعلمون مع غير المتعلمين فى مدينتهم نفسها . وهكذا أصبح الوطن العالمى أقرب .

وقد كانت البلاغة أهم فن عملى يعلمه السفسطائيون وكان الإغريق قد حللوا فن الإقناع لشدة أهميته لهم وأتقنوه ونظموه . فقد كان قبل ذلك مسألة ذكاء فطرى ومران ثم صار من الممكن تعلمه إذ ذاك فى مقابل أجر يدفع فأخذ الناس يمارسونه بحماسة .

ولقد كان الأثينيون الذين يجدون لذة كافية فى الكلام الذى توفرت حججه وحسنت صياغته يفتتنون — لفترة ما على الأقل — بالأسلوب

المتقن والمناقشات الدقيقة التي ابتكرها هؤلاء المحترفون وعلموها حتى أصبحوا — على حد قول كليون — خبراء أكثر منهم مواطنين. بينما كان الرجل البسيط الذي ينهزم في المناقشة أو يخسر قضيته يتذمر من الطريقة التي كانت تحور بها العدالة (ومسرحية السحب ، لارستوفانيس توضح هذا) فأنت أن لم تتقن هذا الأسلوب الجديد تصبح أو يمكن أن تصبح في مركز ضعيف إن كان عليك أن تعرض قضية على زملائك المواطنين . وهذه هي نفس الظاهرة التي وجدناها من قبل . فالخبير الواسع الخبرة والمتخصص لم يكن له مكان طبيعي في البوليس . فإذا ظهر ، وهو ما كان يحدث في كثير من فروع الحياة ، كان يؤدي إلى إضعاف تماسك المدينة وتخطي الحدود الطبيعية لها .

العقل الإغريقى

الآن وقد ألقينا نظرة فاحصة موجزة على تاريخ الإغريق حتى انتهت فعلا دولة المدينة يمكننا أن نتوقف لنلقى نظرة على طبيعة العقل الإغريقى وبعض مآثره خلال هذه الحقبة .

ربما كانت أبرز علامة مميزة للعقل الإغريقى هو إدراكه للأشياء ككل متكامل . وقد سبق لنا أن قابلنا بعض الأمثلة البارزة التى تعبر عن ذلك فى الطريقة التى يتبعها هومر ، فرغم حبه العظيم لذكر التفاصيل ومايميز كلا منها على حده ، فإنه يعرضها باحكام فى إطار شامل . أو الطريقة التى تدل على أن كثيراً من الإغريق متعددو الجوانب فى وقت واحد، فسولون مصلح سياسى واقتصادى ورجل من رجال الأعمال وشاعر . أو الطريقة التى لا تكون فيها البوليس نفسها أداة للحكم بل شيئاً يتعلق بالحياة كلها تقريباً . وبينما العقل الحديث يقسم الأشياء ويخصصها ويفكر فيها باعتبارها أصنافاً ، نجد طبيعة الإغريق على النقيض من ذلك فهو ينظر أوسع نظرة ويرى الأشياء كلا عضوياً . وقد أوضحت خطبتا كليون وديودوتوس نفس الشىء بالضبط وهو أن موضوع البحث يجب تعميمه .

دعنا نحاول الآن أن نوضح هذه النظرة الكلية أكثر من ذلك مبتدئين بهذا الشىء الإغريقى الصميم — اللغة الإغريقية .

إن من يبدأ تعلم الإغريقية يجد صعوبات مستمرة بالنسبة لكلمات معينة يعتقد أنها كان يجب أن تكون بسيطة وهى فى الحقيقة كذلك ولكنها تبدو فى البداية صعبة بشكل غير متوقع . فهناك كلمة كالوس Kalos وعكسها أيسخروس

aischros ، يقال له أن الكلمة الأولى معناها « جميل » وهو يعرف مايقابلها باللاتينية بولكر Pulcher ويبتهج بذلك كل الابتهاج ، ثم يقرأ عن « بوليس كالى »أى مدينة جميلة . ويسمى هومر إسبرطه « كالليجونايكوس» أى « مدينة النساء الجميلات » ويبدو للقارىء كل شىء على مايرام ولكنه يقرأ بعد ذلك أن الفضيلة « جميلة » وأن موت الإنسان من أجل بلاده شىء جميل. وأن صاحب النفس الكبيرة يكافح ليدرك « الجمال » وأن السلاح الحسن أو الميناء الواسع « جميل » فيستنتج من ذلك أن الإغريق كانوا يرون الأشياء بصفة جوهرية من وجهة نظر جمالية ، ويتأيد استنتاجه عندما يجد أن كلمة « إيسخروس » « وباللاتينية . توربيس Turpis تفيد بالإنجليزية معنى « خسيس . أو. شائن. أو . قبيح » . وهكذا يمكن أن يكون الإنسان « دنيئاً » لافى خلقه فقط بل أيضاً فى مظهره . كم كان رائعاً من الإغريق أن يحولوا الفضيلة إلى الجمال والرذيلة إلى القبح !

ولكن الإغريق لم يفعل شيئاً من هذا القبيل . إننا نحن الذين نفعل ذلك بتقسيمنا المدركات إلى أصناف متباينة وإن تكن متوازية فمنها الأخلاقى والفكرى والجمالى والعملى(١) . أما الإغريق فلم يكن يفعل ذلك ، حتى الفلاسفة كانوا لايرغبون فى ذلك.فعندما يجعل أفلاطون سقراط يبدأ إحدى المناقشات بقوله « أنت توافقنى على أن هناك شيئاً اسمه كالون (جميل) قد نكون متأكدين من أنه سيريك مناظره بالانزلاق بلطف من كالون (جميل) إلى كالون (شريف).فالكلمة معناها فى الحقيقةشىء مثل « جدير بالإعجاب الشديد » ، وقد تستعمل دون أكتراث فى أى نوع من هذه الأنواع مثل كلمة « حسن » عندنا تقريباً،وفى الإنجليزية كلمات مثل هذه، فكلمة «ردىء»

---

(١) قد لا يجد القارىء العربى وجهاً للغرابة فى استخدام اللفظ الواحد للدلالة على معنى خلقى وفكرى وجمالى الخ .على عكس القارىء الإنجليزى(المترجم) .

يمكن أن يوصف بها السلوك أو الشعراء أو السمك وهي في كل حالة منها تفيد معنى مختلفاً كل الاختلاف ، أما في الإغريقية فرفض تخصيص المعنى بشيء عادي .

فكلمة « همارتيا hamartia » معناها « خطأ . و « غلطة » و « جريمة » أو حتى « خطيئة » ومعناها الحرفي هو « عدم إصابة الهدف » أو « طلقة رديئة » وقد نقول متعجبين « كم كان تفكير هؤلاء الإغريق منطقياً » فالخطيئة هي بالضبط عدم إصابة الهدف ، «ولعلك تكون أحسن حظاً في المرة التالية» وهكذا يبدو أننا نجد ما يؤيد رأينا عندما نجد أن بعض الفضائل الإغريقية يبدو أنها فكرية بقدر ماهي أخلاقية . وهي حقيقة تجعلها غير قابلة للترجمة . لأن ألفاظنا تهتم بالتفرقة بين الأشياء . فهناك كلمة «سوفروسونة» Sophrosyne ومعناها الحرفي « حضور الذهن بكل قواه » ولكنها في سياق الكلام قد تفيد معنى « الحكمة » أو « الحرص » أو الاعتدال أو العفة أو الرشد » أو « التواضع » أو « ضبط النفس » أى أنها قد تعني شيئاً فكرياً خالصاً أو أخلاقياً محضاً أو بين بين . فالصعوبة التي نجدها بالنسبة لهذه الكلمة أو بالنسبة لكلمة همارتيا ترجع إلى أن تفكيرنا يتخذله مناحي مستقلة . فكلمة « همارتيا » ومعناها » طلقة لم تصب الهدف » لايقصد منها « لعلك تكون أحسن حظاً في المرة التالية » بل معناها أقرب إلى أن يكون « ان الخطأ العقلي يستحق اللوم وقد يكون عيباً مثل الخطأ الأخلاقي » .

كما أننا استيفاء لدراستنا نجد الإغريق يستعملون كلمات تزخر بالمعنى الأخلاقي في النواحي التي ينبغي علينا فيها أن نستخدم ألفاظاً لها دلالة فكرية كما في حالة النظريات السياسية مثلا ، فالسياسة العدوانية يحتمل أن تكون « أديكيا » أي (ظلماً) حتى وإن لم تكن (هوبريس hybris) أي (خبثاً طائشاً) بينما « تضخم الثروة » أو « الكسب غير المشروع » هو « بليونيكسيا Fleonexia أى «محاولة الحصول على أكثر من نصيبك» وهو خطأ من الوجهة الفكرية والأخلاقية معاً وتحد لسنن الكون .

دعنا نرجع إلى هومر لحظة . لقدكان شاعر الإلياذة مدركا للفروق بين الطبقات ، وهذه من أهم الصفات اللازمة اليوم للفنان فى رأى بعض الضالين .

فهو يكتب عن الملوك والأمراء وحدهم ، والجندى العادى لايلعب دوراً فى القصيدة ، وفضلا عن ذلك فهؤلاء الملوك والأمراء يراعى فى تصويرهم أن يتقيدوا بحدود طبقتهم وزمانهم . فهم مغرورون ، قساة متقمون يلمعون فى الحرب ولو أنهم يكرهونها فى نفس الوقت . كيف كان يمكن إذن أن يصبح مثل هؤلاء الأبطال مثلا للطبقة الوسطى التى جاءت بعد ذلك ومصدراً حياً للإلهام ؟ ذلك أنهم باعتبارهم أغريقاً كانوا لا يستطيعون أن يروا أنفسهم إلا فى أوسع دائرة ممكنة أى أن يروا أنهم رجال . فلم يكن مثلهم الأعلى هو مثل أعلى للفرسان بصفة خاصة كالشهامة فى الفروسية والحب بل ما كانوا يدعونه أريتيه areté وهى كلمة إغريقية أخرى تعتبر نموذجاً لغيرها فى دلالتها . فعندما نصادفها عند أفلاطون نترجمها « الفضيلة » ويضيع منا بذلك كل أثر لتذوقها « فالفضيلة » فى اللغة الإنجليزية الحديثة على الأقل تكاد تكون كلمة أخلاقية محضة . أما أريتيه فإنها تستخدم دون اكتراث فى كل النواحى وتعنى مجرد « الامتياز » ويمكن أن يتحدد معناها بطبيعة الحال من سياق الكلام . « فالأريتيه » بالنسبة لحصان السباق هى السرعة وبالنسبة لحصان جر العربات هى القوة . فإذا استعملت فى سياق الكلام عامة عن رجل فإنها تشير إلى الامتياز فى الأساليب التى يستطيع الإنسان أن يكون ممتازاً فيها — سواء منها الأخلاقية أوالفكرية أوالطبيعية أو العملية . وهكذا نجد أن بطل الأوديسا محارب عظيم ومدبر أريب وخطيب قادر على الارتجال ورجل ذو قلب جرىء وحكمة بالغة يعرف أن عليه أن يتحمل ما يرسله الآلهة من نوازل دون أن يشكو مر الشكوى ويستطيع أن يصنع سفينة ويبحر بها ويشق خطاً مستقيما بالمحراث مثل غيره

من الناس ويهزم كل محور صغير مغرور فى قذف القرص ويتحدى شبان فايكيا فى الملاكمة والمصارعة والعدو ويسلخ جلد الثور ويقطعه إرباً ويطبخه وتستدر إحدى الأغانى دموعه . وهو فى الحقيقة بارع فى كل ناحية ولديه «أريتيه» فائقة ، ومثله أيضاً بطل القصيدة الأقدم من الأوديسا ، أخيليس أروع المحاربين وأسرع العدائين وأنبل الناس نفساً . ويخبرنا هومر فى بيت مشهور من الشعر كيف تلقى أخيليس العلم . فقد عهد أبوه بالصبى إلى فونيكس Phoenix العجوز وطلب إليه أن يدربه ليكون «مؤلفاً للخطب وقائماً بروائع الأعمال» ، وقد حاول البطل الإغريقى أن يجمع فى ذاته الفضائل التى قسمها عصر البطولة الذى نعيش نحن فيه بين الفرسان ورجال الدين .

وهذا هو أحد الأسباب فى بقاء الملاحم وسيلة لتعليم عصر حضارته أرقى من عصرها بكثير . إن «الأريتية» وهى المثل الأعلى للبطولة مع أنها راسخة الجذور فى عصرها وظروفها كانت من العمق والشمول بحيث أمكنها أن تصبح مثلا أعلى لعصر يختلف عن عصرها كل الاختلاف .

وفى النبذة التى ترجمتها من الإلياذة أحد التفاصيل التى يتراءى لى أنها إغريقية للغاية ، أعنى قوله «لقد تمزق قلبه داخل صدره المغطى بالشعر، فهل كان ينبغى عليه أن يقتل ابن أتريوس أو يصرف غضبه» ، وقد كتب تنيسون عن لحظة مشابهة وهو يترجم عن فيرجيل Virgil : —

«فأصبح عقله اللماح موزعا بين هذا الطريق وذاك» . والعقل بلا ريب ليس هو القلب . ولو أن تنيسون أو فيرجيل ذكر فى نفس الوقت الذى يذكر فيه القلب أو العقل أحد التفاصيل المادية الخاصة بالجسد الذى يسكن فيه هذا العقل أو القلب لأخذتنا الدهشة . أما هومر فإنه يبدو له طبيعياً للغاية أن الصدر يكسوه الشعر لأنه يرى الرجل كله فى نفس الوقت .

ليست هذه النقطة مما أقصد تأكيد أهميته ، ولكنها ترينا ناحية أخرى

من نواحي الشمول الكلي للعقل ، وهي ناحية كان يظهر فيها الإغريق على طرف نقيض مع « البرابرة » ومع أكثر الشعوب الحديثة . فالتفرقة الحادة التي ميز بها العالم المسيحي والشرقي بشكل طبيعي بين الجسد والنفس وبين المادي والروحي كانت غريبة على الإغريق حتى عصر سقراط وأفلاطون على الأقل . إذ أن الإغريق كان يرى الإنســـان كله ، أما أن الجسد هو قبر النفس فهذه فكرة نقابلها فعلا في بعض ديانات الأسرار الإغريقية . وقد كان لزاماً على أفلاطون أن يميز تمييزاً حاداً بين الجسم والنفس في مذهبه عن الخلود . ورغم ذلك كله فليست هذه فكرة إغريقية اختص بها الإغريق . وقد جعل الإغريق التدريب الجسماني جزءاً أساسياً من التربية لا لأنه قال لنفسه « لاحظ أننا يجب ألا ننسى الجسم » بل لأنه لم يكن يمكن أن يخطر بباله أن يدرب إلا الإنسان بأكمله . فقد كان وجود جمنازيوم (ملعب تمارس فيه الألعاب الرياضية) في البوليس أمراً طبيعياً كوجود مسرح أو سفن حربية . وكان الرجال من جميع الأعمار يتمرنون فيه باستمرار لا على الرياضة البدنية فحسب بل على الرياضة العقلية أيضاً .

غير أن « الألعاب » المحلية والدولية هي التي تبين بوضوح هذه الناحية من العقل الإغريقي . وقد يلام الإنسان عندنا على أنه « يتخذ الألعاب ديناً له » أما الإغريق فلم يكن يفعل ذلك ولكنه كان يفعل أحياناً شيئاً أعجب منه ، إذ كان يجعل الألعاب جزءاً من دينه . ولكي يكون ذلك واضحاً كل الوضوح نقول إن الألعاب الأولمبية وهي أعظم المهرجانات الدولية كانت تقام لتمجيد الإله الأولمبي زيوس ، كما كانت تقام الألعاب البوثية لتمجيد أبوللون والألعاب في عيد البانأثينيا Panathenaia لتمجيد أثينا . فضلا عن أنها كانت تقام إلى جوار الأمكنة المقدسه ، وكان الشعور الذي دعا إلى ذلك شعوراً طبيعياً جداً . فقد كانت المباراة وسيلة إثارة « الأريتيه » البشرية وإظهارها ، وقد كان هذا قرباناً جديراً أن يقدم للرب . وبنفس

الطريقة كانت تقام الألعاب تكريماً لبطل قد مات مثل باتروكلوس Patroclus فى الإلياذة . ولكن لما كانت « الأريتيه » خاصة بالعقل كما كانت خاصة بالجسم فلم يكن هناك شيء من عدم التناسب أو التصنع فى الجمع بين المباريات الموسيقية والرياضية . فقد كان العزف على الناى مباراة ثابتة مقررة فى الألعاب البوثيه . ألم يكن أبوللون نفسه « رب الناى » ؟ .

لقد كان المقصود من الألعاب هو اختبار « الأريتيه » الخاصة بالإنسان كله لا بمهارة معينة فيه فحسب . وقد كانت الألعاب المعتادة هى العدو السريع لمسافة ٢٠٠ ياردة والسباق الطويل (ميل ونصف) والسباق مع لبس الدروع وقذف القرص والحربة والوثب الطويل والمصارعة والملاكمة (من نوع خطير جداً) وسباق العربات . وكانت الحفلة الكبرى هى البنتاثلون (مباراة الألعاب الخمس) فى السباق والوثب وقذف القرص والحرب والمصارعة فإن فزت فيها كنت رجلا حقاً . ولا حاجة بنا إلى القول بأن سباق الماراثون لم يسمع عنه إلا فى العصور الحديثة . وكان من الجائز أن يعتبره الإغريق شيئاً فظيعاً . أما عن المهارة التى يبديها الأبطال الحديثون فى ألعاب مثل الجولف والبليارد فمن المؤكد أن الأغريق كانوا يعجبون بها كل الإعجاب ويرون فيها شيئاً رائعاً يصلح للرقيق بفرض أن الإنسان لم يجد لهم فائدة أكثر من تدريبهم على هذا النحو . إذ كان ينتظر من الإغريق أن يقول إنه محال أن يكتسب الإنسان مثل هذه المهارة ثم يعيش فى نفس الوقت الحياة التى تليق برجل مواطن . إن مثل هذا الشعور هو الذى تنطوى عليه ملاحظة أرسطو « إن السيد المهذب ينبغى أن يكون قادراً على عزف الناى ولكن على ألا تكون مهارته فيه أكثر مما ينبغى » .

إن « الفائز » فى إحدى الألعاب العظمى كان « رجلا » بل إنه كاد يكون بالفعل أكثر من رجل فيكون « بطلا » يعامله مواطنوه معاملة

الأبطال . وكان يحظى بالتكريم العلنى العام الذى ربما تضمن تقديم العشاء له فى قاعة المدينة من المصروفات العامة بقية عمره (ليضاهى إلى حد ما أكليل أغصان الزيتون البرى الذى كان يمنح للمنتصر) . ولقد نمت بين الدوريين بصفة خاصة عادة تكليف شاعر بنظم أغنية رصينة تكريماً للبطل تغنى فى وليمة أو مهرجان دينى ، وهكذا حدث أن من بين أعظم وأرصن شاعرين فى القرن الخامس أسخيلوس ، وبنداروس كان الثانى معروفاً لنا بأنه مختص فى نظم أغانى النصر (باستثناء شذرات من قصائد أخرى) وانها لفكرة غريبة بالنسبة لنا أن يكتب شاعر رصين أغانى للرياضيين والأعجب من ذلك أن نجد فى مثل هذه الأغنية قطعة كهذه : —

إن من يكسب فجأة جائزة نخمة
فى أعوام الشباب الخصبة
يسمو به الأمل وتنمو لرجولته أجنحة
وينطوى قلبه على ما هو أفضل من الثروة .
ولكن موسم ابتهاج الإنسان قصير ،
فسرعان ما يقع على الأرض ويجتث جذوره قضاء رهيب .
مدته يوم ـ هكذا الإنسان . إنه طيف فى الحلم .
ومع ذلك فعندما يتنزل عليه البهاء الذى يضفيه عليه الرب .
يتلألأ عليه سناء وضاء فما أحلى الحياة !
فيا أمنا العزيزة إيجينا أرشدى هذه المدينة إلى طريق الحرية .
بوساطة زيوس وبفضل البطل أياكوس .
وبليوس وتيلامون القوى وإخيليس .

هذا شعر عظيم حتى بعد أن انتزع من لغته الإغريقية الأصلية ، وعلى الإنسان أن يلتمس له نظيراً مناسباً فى « سفر الجامعة » وهذا الشعر خاتمة أغنية ألفت للاحتفاء بانتصار فتى مهذب من أيجينا فى مباراة مصارعة الأولاد فى دلفوى .

وليست كل أغانى بنداروس حزينة رصينة كهذه بأية حال ، ولكنه لما نظم هذه الأغنية كان شيخاً طاعناً فى السن ، وقد كانت أثينا تهدد سكان إيجينا وهم من أقاربه الذين كان يكن لهم إحساسات ودية جداً . وهذا هو سبب الابتهال الجدى الموجه لأبطال ايجينا فى الختام ، وهذه الرصانة لم تكن أمراً غير عادى بأية حال . ولا يفكر بنداروس فى مجرد المباراة الرياضية التى لا يتواضع فيصفها أبداً بل يفكر فى « الامتياز » الذى بدا من المنتصر ، ومن الطبيعى أن ينتقل الشاعر الإغريقى منه إلى أى نوع من « الامتياز » سواء عند الفرد أو عند البوليس فهو يرى الانتصار فى أوسع نطاق .

إن الامتياز الجسمانى والخلقى والفكرى مضافاً إلى « الثراء البسيط » كلها أجزاء من كل عند بنداروس ، وربما كان هذا أحد الأسباب التى تجعل الإنسان يشعر وهو واقع تحت تأثير سحره أنه هو الشاعر الحقيقى الوحيد الذى نظم الشعر . هذا الإدراك السامى للألعاب وإن يكن بنداروس قد حوله إلى شىء أسمى من إدراك الرجل العادى كان حقيقياً إلى حد كبير ، وإن تكن مع ذلك « مدته يوماً » يتلألأ عليه سناء وضاء والبهاء الذى يضفيه الرب ، غير أن هذا الاندماج التام لما هو جسمانى وفكرى وخلقى وروحى وحسى قد انحل وتفكك . فقد كتب يوريبيديس بعد وفاة بنداروس بعشرين عاماً نبذة فى تجريح المنتصرين فى الألعاب الأوليمبية ذوى القوة العضلية والعقول الجوفاء الذين يحظون بأطراء مدينة لا يسهمون فيها بشىء .

وقد كتب بنداروس نفسه أغنية هى الوحيدة التى كتبها دون اكتراث ، إلى من يدعى كسنوفون من سكان كورنثا ، ويلوح أنه كان شبه محترف ومتكالب على الجوائز ليس إلا .

أن هذا الاستعداد الغريزى لرؤية الأشياء كلا متكاملا هو مصدر سلامة الحياة الإغريقية الجوهرية . وقد كان للإغريق نزواتهم فلا تخلو سجلاتهم السياسية كما لا تخلو سجلات غيرهم من الشعوب من نوبات الوحشية ، فالمنفى الجائع قد يدمر مدينته إن استطاع أن يعود إلى الحكم سواء كان أوليجاركياً أو ديموقراطياً . ولكن المعيار الذى اتخذوه لكافة أوجه نشاطهم كان هو التوازن المعقول . فمن الصعب أن يفكر الإنسان فى إغريقى يمكن أن يدعى متطرفا فى حماسته . فالتعصب الدينى المعروف عن الشرق وعن العصور الوسطى لم يكن له محل فى العصر الكلاسى فى بلاد الإغريق ، كما لم يكن هناك محل بمناسبة هذا الموضوع لضروب التطرف الأقل من ذلك تشويقاً والموجودة فى زماننا من أمثال المذهب التجارى . وقد عرف الإغريق النشوة الصوفية وكانوا ينشدونها فى طقوس ديونسيوس الدينية ولكن هذا كان جزءاً من خطة معينة شاملة لجملة أمور ، وهناك مغزى كبير فى الأسطورة الدينية القائلة إن أبولون كان يترك دلفوى مدة ثلاثة أشهر من العام ويحل ديونسيوس محله ، ويرسم يوريبيديس صورة لمتعصب دينى هو هيبولوتوس الطاهر العذرى الذى عبد الربة العذراء أرتميس Artemis ولم يقم بتكريم الهة الحب أفروديتا ، وهو من هذا الطراز الذى ربما كانت تجعل منه العصور الوسطى قديساً . أما يوريبيديس فيجعل منه شخصاً فاشلا مفجوعاً . فعلى الإنسان أن يعبد هاتين الربتين وإن كان يبدو أنهما متعاديتان . ولقد دمرت أفروديتا هيبولوتوس الذى استخف بها ولم تستطع أرتميس أن تفعل شيئاً لحمايته .

علينا الآن أن ننتقل إلى نقطة أخرى امتاز بها العقل الإغريقى وهى اعتقاده الراسخ فى التفكير المنطقى . هناك قصة ممتعة ربما كان بها قذف وتشهير وهى عن فيلسوف صينى سئل عما ترتكز عليه الأرض فقال « على سلحفاة » فقيل له « وعلام ترتكز السلحفاة ؟ » فقال « على مائدة » . فقيل له « وعلام ترتكز المائدة ؟ » فقال « على فيل » فسئل « وعلام يرتكز الفيل ؟ » فقال « لا تكن فضولياً » . وسواء كانت هذه القصة صينية أولا فمن المؤكد أنها ليست هيلينية لأن الإغريقى لم يكن يشك لحظة فى أن العالم ليس متقلب الأهواء بل هو خاضع لقانون ثابت ولهذا فإنه قابل للتفسير . وإننا لنجد هذه الفكرة حتى عند هومر الذى جاء قبل عهد الفلاسفة . فوراء الآلهة توجد قوة غامضة (وإن كانت أحياناً تعتبر هى والآلهة شيئاً واحداً) يسميها هومر أنانكى . Ananke أى الضرورة أونظام الأشياء الذى لا تستطيع حتى الآلهة نقضه . وتقوم المأساة (التراجيديا) الإغريقية على الإيمان بأن القانون لا المصادفة هو الذى له السيادة فى الشئون البشرية . فإذا أخذنا مثلا صعباً إلى حد ما وهو أوديب الملك لسوفوكليس نجد أن المتنبئين قد تنبأوا قبل أن يولد أوديب بأنه سيقتل أباه ويتزوج من أمه . وقد ارتكب هذه الأمور عن جهل تام بها . ولكننا لو فسرنا ذلك بأن معناه أن الإنسان لعبة مسخرة بيد قدر شرير لكانت المسرحية هراء . إنما الذى يريده سوفوكليس هو أن هناك هدفاً مقصوداً فى أعقد الحوادث التى يبدو أن بعضها يقترن ببعض بمجرد الصدفة ولو أن المقصود قد لانعرفه . ولقد استطاع أبوللون أن يتنبأ بما سيعمله أوديب لأن الآلهة يستطيعون رؤية المقصود بأكمله . أما عند إيسخولوس فالقانون أبسط من ذلك ، إذ هو قانون أخلاقى فالعقوبة تتبع الجريمة كما يتبع الليل النهار . ولقد كان هذا الإيمان الراسخ بالقانون سبباً فى أن هواتهد

Whitehead دعا شعراء المأساة عند الإغريق ـ لا الفلاسفة الأوائل ـ المؤسسين الحقيقيين للتفكير العلمى . غير أننا نستطيع أن نوضح هذا الاعتقاد الفطرى فى التفكير المنطق عند الفلاسفة الأولين ولو أن ماتروبه عنهم يجب أن يكون وجيزاً .

إن التفكير الإغريقى وفرض النظريات عن أصل الكون وطبيعته لايبدآن بأية حال بطاليس الملطى حيث تبدآن فى أكثر تواريخ الفلسفة . ولكن طاليس Thales كان أول من عبر عن أفكاره بعبارات منطقية لاأسطورية . وقد كان طاليس تاجراً سبق له أن سافر إلى مصر وتعلم هناك شيئاً عن الرياضيات المصرية والفلك الكلدانى . وكان الكلدانيون قد وضعوا علماً محترماً جداً عن سلوك الأجرام فى السماء ولو أن الذى دعاهم لذلك لم يكن دافعاً من دوافع الكمال كمجرد حب الاستطلاع . فقد كانوا قوماً عمليين واستخدموا الفلك فى أمرهام هو تنظيم التوقيت ، وفضلا عن ذلك فقد كانوا مثل قراء صحف الاحد عندنا (فى إنجلترا) يريدون معرفة ما سوف يحدث لهم . وافترضوا أن النجوم ستخبرهم (أما الإغريق فى العصر الكلاسى فقد كان عندهم أحتقار تام للتنجيم) وكانوا قد اجتهدوا جداً فى الحساب التجارى كما اجتهد المصريون فى الهندسة العملية (كلمة هندسة عند الإغريق معناها قياس الأرض) . وقد كان المصريون شعباً عظيم الذكاء ، قاسوا انحدار النيل لمسافة ٧٠٠ ميل فلم يتجاوز خطأهم عدداً قليلا من البوصات . واكتشفوا أن المربع المقام على وتر مثلث قائم الزاوية يساوى مجموع المربعين المقامين على الضلعين الآخرين كما استخدموا هذه الحقيقة ، ولم يفعل الإغريق شيئاً يمكن مقارنته بذلك إذ كان تفكيرهم يمتاز بانصرافه إلى المسائل الأخلاقية والدينية والاجتماعية . أما تفكيرهم وفرضهم للنظريات الخاصة بالعالم المادى فقد كانا ينصبان على مسألة كيف نشأ العالم أكثر من اهتمامهم بمعرفة كيف كان يسير .

وما نعرفه عن طاليس قليل جداً وهو مأخوذ عن الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة الذين جاءوا بعده ولكنه هام جداً ، إذ كان قد تعلم من الفلك ما يكفيه للتنبؤ بأنه سيكون هناك كسوف كلي للشمس في سنة ٥٨٥ . وقد حدث هذا الكسوف فعلا في وقته في اليوم الذي نسميه ٢٨ مايو . وقد طبق ما كان قد تعلمه من هندسة على مسألة قياس بعد سفينة في البحر . ويقال إنه قدم خدمة كذلك لفن الملاحة والتقويم. ومن الواضح أنه كان رجلا عملياً. وبما أنه إغريقي فقد كان مهتما ومغرماً بالسياسة لأنه (طبقاً لما رواه هيرودوتوس) وجه للمدن الأيونية الحائرة الاقتراح الرشيد بأنه ينبغي عليها أن تؤلف حلفاً سياسياً مركزه في تيوس Teos . وتروى عن طاليس القصة المعتادة عن الأستاذ الشارد الذهن . وهي تتلخص في أنه أثناء مسيره كان مستغرقاً في التطلع إلى السماء حتى أنه سقط في بئر، ولكن أرسطو ـ وهو فيلسوف إلى حد ما ولذلك لا تخلو روايته من الغرض ـ قد حكى عنه قصة من نوع آخر ، وهي أن طاليس قد لامه الناس على إضاعة وقته في هواية تافهة . ولما كان قد لاحظ من دلالات معينة أن المحصول التالي للزيتون سيكون وفيراً فقد اشترى حق استخدام كل معاصر الزيتون في لسبوس ، حتى إذا جاء المحصول الكبير وأراد كل واحد أن يعصر زيته فوراً اضطروا جميعاً أن يذهبوا لطاليس لعصره . وهكذا أظهر أن الفيلسوف يمكنه أن يكسب مالا كافياً إن رأى أن جمع المال يستحق ذلك .

وقد كان الأمر الهام الذي فعله طاليس هو أنه سأل سؤالا بسيطاً وأجاب عنه إجابة غير صحيحة ، وكان سؤاله هو : مم صنعت الدنيا ؟ أما جوابه فهو : « من الماء » .

إننا نجد هنا نقطاً كثيرة شائقة أولها مجرد توجيه السؤال . فمع أن هؤلاء الإغريق كانوا رجالا عمليين إلا أنهم كانوا مغرمين بتوجيه أسئلة

لا فائدة منها . مثال ذلك أن هيرودوتوس ذهب إلى مصر ووجد هناك إلهاً كان من الواضح بالنسبة إليه أنه هيراكليس ولو أنه كان أقدم منه بكثير. فاستنتج من ذلك أن الإغريق عرفوا هيراكليس عن المصريين . وبما أنه قد صار عظيم الشوق والشغف فقد قام برحلة خاصة إلى صور . Tyre حيث سمع أن هناك معبداً قديماً جداً مكرساً لهذا الإله كما قام برحلة أخرى إلى ثاسوس Thasos . ومثل هذه الاستفسارت الخالية من الفرض هي من خصائص الأيونيين بصفة خاصة . ولكن لنرجع إلى طاليس فقد أراد أن يعرف شيئاً لا فائدة منه بتاتاً ، وهو مالم يكن يمكن أن يخطر ببال أحد الرومان ـ وافترض أن من الممكن الإجابة عليه فكيف توصل إلى إجابة ؟ لا نعرف لسوء الحظ ولكن ما دمنا نعرف كيف اتجه للعمل بعض من جاءوا على أثره مباشرة بما فيهم هيرودوتوس النابغة فإننا نستطيع أن نحزر إلى حد ما . إن الماء موجود فى كل مكان فهو يحيط باليابس وينزل من السماء وينفجر من الأرض وفضلا عن ذلك فهو يكون الدلتات(١) ، كما كان يعرف طاليس معرفة جيدة جداً . . ومن الواضح أنه يدخل فى تكوين كثير من الأجسام الصلبة كما أن له خاصية التحول بدوره إلى صلب وسائل وغاز . ونظراً إلى الاعتقاد الشائع بأن هؤلاء المفكرين من الإغريق كانوا مجرد نظريين فإن مما يستحق الذكر أن نلاحظ أن امبيدوكليس Empedokles استخدم وعاء الخز الجلدى لإثبات أن الهواء شيء مادى ، كما استخدم ساعة مائية للاستدلال على وجود الضغط الجوى ، وان كسنوفانيس Xenophanes بنى نظرية عن التحول الجيولوجى على وجود القواقع البحرية فوق الجبال وانطباع الطحالب البحرية والأسماك فى محاجر سرقوسة . لقد كان هؤلاء الناس

(١) الدالات جمع دال (الحرف الأبجدى) أوجمع دلتا الأنهار ، ذلك لأن شكل الحرف هو نفسه شكل الدلتا (△)

قادرين جداً على استخدام أعينهم وعقولهم معاً . ولا حاجة بنا إلى افتراض أن إجابة طاليس لم تقم إلا على أساس التفكير المنطقى المجرد .

غير أن أعظم ما له دلالة هو أنه افترض رغم المظاهر أن العالم يتكون لا من أشياء كثيرة بل من شيء واحد وهنا نقابل سمة دائمة مميزة للتفكير الإغريقى وهى : يتحتم أن يكون كل من العالم الفيزيائى والمعنوى على السواء لا معقولا فحسب وبالتالى يمكن معرفته بل لا بد أن يكون كل منهما بسيطاً أيضاً . فتعدد الأشياء المادية الظاهرى سطحى فقط . وسنرى عن قريب أن المؤلف المسرحى الإغريقى كان يفكر بنفس الطريقة تماماً فيقول « لا تهتم بشأن تنوع الحياة وخصبها الظاهرى بل عليك بالغوص إلى الحقيقة البسيطة » ولو أن طاليس استطاع أن يقابل كيماوياً من أبناء القرن التاسع عشر وأن يسمع منه أن العناصر سبعة وستون (أو كائناً ما كان عددها) فلربما اعترض بأن هذا العدد أكثر مما ينبغى بكثير جداً . ولو أنه قابل فيزيائياً من أبناء القرن العشرين وسمع منه أن كل هذه العناصر فى الحقيقة تراكيب مختلفة لشيء واحد فلعله كان يجيبه « هذا ما كنت دائماً أقوله » .

وقبل أن نترك طاليس يجدر بالذكر أن نشير إلى تحرره التام من أى تصوف دينى كان من المعقول أن نتوقعه من مفكر قد استخدم كل أسلافه عبارات أسطورية للتعبير عن أنفسهم . ولو أنه افترض أن العناصر فى العالم ثلاثة أو سبعة أو أى عدد مقدس آخر لما كان ذلك عجيباً . ولسنا نرى بين الأيونيين شيئاً من هذا القبيل . ولو أن الغموض كان شديداً بدرجة كافية فى مدرسة سنذكرها عما قريب وهى مدرسة الفيثاغوريين .

من المحال إعطاء ولو مجرد ملخص عن سير الحركة الفلسفية التى بدأها

طاليس، ومع ذلك فمن الممكن أن نذكر بعض تطوراتها. وسنرى فيها جميعاً بكل وضوح الجرأة فى التفكير وكأنما رفع العقل البشرى أطراف أقدامه من قاع البحر وأخذ يسبح ويسبح بثقة مدهشة. وقد صنع أناكسيمندر Anaximander خليفة طاليس المباشر — وهو رجل عملى آخر — أول خريطة وقاد بعض المستعمرين من ميليتوس إلى أبولونيا. ويلوح أنه استدل بطريقة منطقية على أن الحقيقة الفيزيائية القصوى لا يمكن أن تكون هى نفسها إحدى المواد الفيزيائية، ولذلك استبدل بالماء «شيئاً غير محدد» ليس له خواص، ولكنه يحتوى فى ذاته على «متناقضات فهو ساخن وبارد رطب وجاف. وتتكون موضوعات الحس من ذلك الشىء الغير المحدد عن طريق هذه المتناقضات تحت تأثير حركة أبدية ثم تعود إليه بعد أن تبلى. وكانت لدى أناكسيمندر أيضاً فكرة عن توازن القوى فى الطبيعة عبر عنها بوساطة لفظة «ديكيه» Dikê «التى تفيد معنى العدالة إن وردت فى سياق كلام آخر. وقد صور الحركة الأبدية على هيئة دوامة مركزها الأرض، وهى فكرة مكنت أناكسيمندر من تحسين رأى طاليس القائل بأن الأرض المسطحة ترتكز على الماء، فقد كان رأى أناكسيمندر أنها معلقة دون شىء يمسكها فى الفضاء، وأن بعدها عن محيط الدوامة متساو فى كل اتجاه.

وقد كان هذا تقدماً ملحوظاً جـــداً. ويمكننا مشاهدة حرية تفكير أناكسيمندر فى أروع حالاتها فى النظريات التى وضعها عن أصل الجنس البشرى وهو الذى اقتبسته الميثولوجيا (علم الأساطير) بطريقة غير مباشرة من الآلهة والتيتان (عمالقة الأساطير Titans). وقد اقترح هذا الأيونى فكرة أن كل المخلوقات الحية نشأت من الماء عندما بخرته الشمس، وأن الإنسان كان سمكة فى الأصل. ويمكننا أن نلاحظ هنا، باعتبار ذلك مما يوضح طبيعة عقليته أنه من جهة لم تدفعه مجموعة من الأدلة العلمية التى لم

يستطع أن يقاومها إلى فرض جديد قد يكون نابياً . كما أنه لم يكن هناك قدر كبير من الحقائق الملاحظة والمصنفة حتى يبدأ أرسطو فى العمل . ومن ناحية أخرى أن هذه نظرية لم تكن حدساً جاء عفو الخاطر ، فهى مبنية فى جزء منها على التفكير المنطق المحض . فالحيوانات الأخرى سرعان ماتعول نفسها بنفسها ، أما الإنسان فيحتاج إلى مدة طويلة من الرضاعة ولو أن حاله كان هكذا دائماً لما استطاع قط أن يبق بعد أن هلك غيره . والإنسان بناء على ذلك قد ارتق من حيوانات أخرى وهذه هى النقطة الشائقة . إن الوصول إلى استنتاجات أخرى ممكن من الوجهة المنطقية ، ولكن حدث أن قيل لنا إن أناكسيمندر لاحظ عادات سمك القرش الناعم وهو سمك له خصائص الثدييات ولا علم لنا بالاستدلالات المنطقية الأخرى ، ولكننا نستطيع أن نرى أن اقتران التفكير المنطق المحض بالملاحظة هو الذى أدى به إلى تقدير نظرية أثارت ذعر أجدادنا عندما أعيد ذكرها لهم .

ولقد أظهرت المدرسة الإيليائية ثقة أعظم من ذلك بالعقل (لا سيما بارمينيديس Parmenides وزينو Zeno مبتكر المتناقضات المشهورة) وقد أخضعا نظريات الأيونيين الفزيائية للفحص المنطق وتوصلا عن طريق التفكير المنطق فيما وراء الطبيعة إلى تقرير النظرية الذرية . ويمكن بيان تفكير بارمنيديس المنطق هكذا : العدم غير موجود أى أنه ليس هناك لاشيء ، ولهذا فالموجود أبدى لأنه إن لم يكن كذلك فلابد أنه نشأ من العدم أو أنه سينتهى إلى العدم مع أن العدم ليس له وجود . كما أن الحركة وهم لأن أى شيء لا يتحرك إلا بالذهاب إلى الفراغ أى إلى لاشيء . وقد قرر كذلك أن المادة متجانسة لأنها لا يمكن أن تختلط بلا شيء لتصبح أندر . والكون شكل واحد متناسق مملوء تماماً بمادة متجانسة عديمة الحركة .

وهذا هراء بالطبع ، ولكن الباحث لايحتقر النتيجة السلبية . والبحث

فى قوانين المنطق كان نتيجة لتفكير بارمينيديس ، كما أن نظرية ليوكيبوس Leucippus وديموكريتوس Democritus كانت نتيجة أخرى لتفكيره وهما اللذان قبلا فكرة بارمينيديس عن الكون . ولكنهما افترضا عدداً لانهائياً من الذرات كما افترضا الفراغ الذى يمكنها أن تتحرك فيه . وهذه هى الذرات التى تكون كل شىء موجود والتى تنضم أو تنفصل بحركة طبيعية .

وهناك مسألة أخرى كانت محل نقاش وهى طبيعة العلم وإمكانه . فقد كان من المفروض قبل ذلك فعلا أن الحقيقة شىء ثابت . ولكن كاتباً مغموراً منصرفاً إلى النبوءات يدعى هيراقليطس دعا إلى المذهب المفزع القائل بأن العكس هو الصحيح ، أى أن الكون يقوم فى جوهره على التغير . فكل شىء فى حالة تتابع مستمر ، فأنت لا تستطيع أن تخطو إلى نفس النهر مرتين ، فهو فى المرة الثانية ليس نفس النهر . وهو قول جاء به من بعده شخص سريع الخاطر نقحه قائلا ، لا تستطيع أن تخطو داخل النهر مرة واحدة ، مادام يتغير أثناء خطوك فهل تستطيع إذن أن تقول إن شيئاً موجود عندما يكون دائماً فى حالة تحول إلى شىء آخر ؟ وفلسفة هيراقليطس هذه كان لها تأثير على أفلاطون . لأن التفرقة بين عالم الحس المتغير الناقص الذى لا تمكن معرفته فى النهاية وعالم الحقيقة الكامل الذى لا يتغير والقابل للمعرفة هى بالطبع أساسية بالنسبة للمذهب الأفلاطونى .

ليس الفلاسفة وحدهم هم أصحاب هذه العادة العقلية ، عادة إغفال ما على السطح ، أى المظاهر العابرة للأشياء كالتعدد والتنوع ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة الباطنة المبسطة . ألسنا نجد شيئاً شبيهاً جداً بهذا فى النحت الإغريقى الذى لم يحاول أدنى محاولة حتى أوائل القرن الرابع على الأقل أن يصور الأفراد بل كافح دائماً للوصول إلى الكمال فى تصوير الرياضى أو الإله أو نحت تمثال له ؟ ونحن نجد بكل تأكيد شيئاً شبيهاً بذلك فى المأساة الإغريقية ،

وبين المسرحيات الإغريقية ومسرحياتنا الكلاسية نرى نفس الفرق الذى نراه بين فن العمارة الإغريقية والقوطية . وهذه الفروق توضح العادة العقلية التى نحن بصددها . فكما أن فن العمارة القوطية مولع بتعدد الأجزاء وإحداث أقصى تضاد بين النور والظل والزخرفة التى تقتبس مادتها من مملكة الطبيعة كلها كالطير والوحوش والأزهار وصور الملوك والقديسين والملائكة والصور السخيفة المضحكة أيضاً ، فكذلك المأساة فى عهد اليصابات تقدم على مسرحها المزدحم المتنوع كل أصناف الحياة المعقدة الخصبة ، من ملوك ومواطنين ومستشارين وجنود وعشاق وهزليات وأطفال وجنيات فكل شىء هناك . لقد قيل إن الكاتدرائية القوطية لا تتم أبداً . أما مسرحيات شيكسبير ، على العكس من ذلك ، فكثيراً ما اقتضبت ، ولكن من الذى يستطيع أن يضيف شيئاً إلى معبد إغريقى بحيث لا يعتبره الناس كالورم البارز فى الجسم أو يقتطع منظراً من مسرحية إغريقية دون أن يجعل فهمها غير ممكن ؟ .

وليس السبب فى هذه الاختلافات أن الإغريق كان لديهم فهم للشكل المسرحى يمتاز عن سواهم أو كان لهم خيال أو لذة فى الحياة أقل من سواهم ولكنهم فكروا تفكيراً مختلفاً عن غيرهم . ولعل التمثيل يجعل الأمر واضحاً . فى أثناء استحضار القارىء فى ذهنه لمسرحيات شيكسبير التاريخية دعه يدرس المسرحية الإغريقية الوحيدة الباقية عن موضوع تاريخى وهى مسرحية «الفرس» بقلم ايسخولوس التى كتبها بعد الحادث الذى تعالجه بأقل من عشر سنين ، والتى مثلت أمام الأثينيين الذين كانوا قد لعبوا دوراً ملحوظاً جداً فى الصراع . وكان ذلك بالصدفة تحت الأكروبوليس مباشرة وهو الذى كان الفرس قد نهبوه ودنسوه . ولو كان الكاتب كاتباً مسرحياً من عهد اليصابات لأعطانا صورة شاملة لمنظر الحرب كلها ولحظات اليأس والأمل والنصر ، ولرأينا على المسرح القواد الذين وضعوا الخطط وبعض

الجنود الذين فازوا بالنصر . أما فى مسرحية « الفرس » فإننا لا نرى شيئاً من هذا القبيل . إذ يقع المنظر فى العاصمة الفارسية ويرى حادث واحد فقط من وجهة النظر الفارسية . ويجرى الحرب مبسط إلى حد أن معركة أرتميسيوم البحرية لم تذكر بل ولا دفاع الأبطال عن ثرموبيليه كما لم يذكر إغريقى واحد باسمه . ويكاد التضاد بين الحالتين لا يكون أتم من ذلك .

والقول بأن المسرح الأثينى والشكل المسرحى الإغريقى لم يسمحا بمعالجة الحرب بطريقة واقعة قول صحيح ، ولكنه ليس صحيحاً بدرجة كافية . فالأمر الحقيق هنا هو أن المسرح والشكل المسرحى ترجع حالتهما التى كانا عليها سوياً إلى أن الكتاب المسرحيين لم تكن لهم رغبة فى أن يكونوا واقعيين . إن الكتاب المسرحيين هم الذين يصنعون المسرح والشكل المسرحى، وليس المسرح والشكل المسرحى هما اللذان يتحكمان فى الكتاب المسرحيين . غير أننا نشاهد أن كل شىء من تفاصيل المسرحية ليس طبيعياً فحسب بل وضرورياً كذلك ، متى أدركنا أن ايسخولوس لم يكن يقصد كتابة مسرحية « تاريخية » بل مسرحية تقوم على فكرة أن الجبروت والغطرسة Hybris (وهو فى هذه الحالة التحدى الجامح الذى أظهره كسرسيس لمشيئة السماء) لا مفر من أن تعاقبه السماء . فزيوس يقهر كسرسيس فى المسرحية ، والإغريق ما هم إلا وسطاؤه فحسب بل إنهم روح بلاد الإغريق كذلك . وليس الحادث بل معناه الجوهرى هو الذى يضفى عليه ايسخولوس اللون المسرحى . وإذا لم تعبر الحوادث التاريخية فى أحد التفاصيل الصغيرة عن المعنى الجوهرى بوضوح كاف فإن ايسخولوس كان يغيرها . وهكذا يوضح مقدماً قول أرسطو المأثور إن الشعر أكثر فلسفة من التاريخ .

والآن نبدأ فى رؤية العلاقة بين الكثير من صفات الإغريق بعضها وبعض — بين ثقته فى قوة التفكير وشعوره القوى بالشكل المسرحى وحبه

للتناسق وميله الخلاق أو البناء واتجاهه للاعتماد على التفكير المنطق قبل كل شيء . ولا ريب أن هناك مسالك متعددة داخل هذه الغابة الكثيفة من الأفكار ولكن لما كنا قد شققنا طريقنا من طاليس إلى إيسخولوس فدعنا نتابع مسيرنا من هذه النقطة .

لقد أدليت بفكرة أن الغريزة التي جعلت الفلاسفة الأوائل ينفذون من خلال مظهر الطبيعة الخارجي إلى الحقيقة والوحدة المفروض وجودها تحت هذا المظهر إنما هي نفس الغريزة التي يظهرها شاعر المأساة الذي لا يكسب مجرى الحرب الصبغة المسرحية بل يستخدم حوادث الحرب أو بعض هذه الحوادث لكي يقدم ما يرى أنه معناها الحقيق . ولما كان الفنان الإغريقي يعمل هذا باستمرار فإنه بمعنى خاص يقوم دائماً بعملية الخلق والبناء . صحيح كل الصحة أن الفنانين جميعاً يعملون ذلك ولكنهم لا يعملونه جميعاً بنفس الطريقة . فالاختلاف كل الاختلاف إنما هو بين إعطاء صورة عن الحياة تكامل عن طريق الانتخاب والتأليف وإبراز التضاد مما يكون له أهمية ومغزى ، وبين تفسيرها بالطريقة الإغريقية . فأحدهما يؤدى إلى التنوع والاتساع ويؤدي الآخر إلى البساطة والتركيز الشديد . ولما كان الإغريقي يحاول لا أن يعطى صورة تمثل الحياة بل أن يعبر عن فكره بكل قوة ووضوح فإن الشكل الذي يحققه يكون منطقياً ومحكماً أكثر من غيره بكثير . وربما ساعد مثال آخر بعقد مقارنة بين مسرحيتين تشتركان فى أنهما تستخدمان قدراً هائلا من المادة القصصية وهما « أنطونيو وكليوباترة » و « أجا ممنون » ؛ فشيكسبير يعتمد فى وضع عقدة قصته على بلوتارخ . ولنا أن نقول على وجه التقريب إنه يودع فيها ما يجده فى بلوتارخ . وبلوتارخ باعتباره مؤرخاً يسجل فى سياق ما يرويه أن أحد ضباط بومبى أشار عليه بخطة بارعة هى الإبحار إلى عرض البحر مع الحكام الثلاثة (Trium virs) وإلقاؤهم

من فوق سطح السفينة . ثم يقرأ شيكسبير هذا ويتحقق من أنه يصلح أن يكون منظراً حسناً فيضعه فى مسرحيته . أما علاقة ذلك بحب أنطونيو وكليوباترة المفجع (وهو موضوع المسرحية على ما أظن) ، فليس واضحاً بالمرة ، ولكنه يساعد على إعطاء عمق وامتداد للمنظر بأكمله ، كما أن هناك بعض السفلة من الناس مثل ميناس لكى يكون كل شىء فى موضعه بلا ريب . أما بالنسبة لمسرحية أجا ممنون فإنى محتاج إلى نبذة طويلة جداً لأختصر إلى أقصى حد تلك المادة الأسطورية التى يستخدمها إيسخولوس فعلا ، من اغتصاب هيلينا إلى حملة طروادة ونجاحها وتاريخ كاسندرا (Cassandra) ومصرع أجا ممنون وكاسندرا بل والشجار الذى وقع فى الجيل السابق ، بين أتريوس والد أجا ممنون وشقيقه . وهذا يدل على وفرة هذه المادة . ولكن عقدة المسرحية مختصرة جداً . فقد أعلن قدوم أجا ممنون ثم ما لبث أن دخل بيته ومعه أسيرته الأميرة كاسندرا ، ولكن زوجته كليتمنسترا قتلتهما معاً قائلة إنه يستحق ذلك لأنه ضحى بابنتهما إلى أرتميس كيما تتقدم الحملة . ثم دخل عشيقها ايجستوس (Aegisthus) ليقول إن أجا ممنون يستحق ذلك لسبب مختلف . وهذا كل ما هناك . لقد كان لدى ايسخولوس مثل شيكسبير قصة طويلة معقدة ليتخذها مادة لمسرحيته والفرق بينهما هو أن ايسخولوس مزق القصة إرباً ثم أخذ فى بناء مسرحية من هذه القطع تدور حول فكرة معينة عن العدالة ، تتلخص على وجه التقريب فى أن القصاص الذى يوقع لمجرد الأخذ بالثأر يؤدى إلى الفوضى . فالهيكل الذى يبنى عليه مسرحيته ليس هو القصة بل هو هذه الفكرة . وهو يطرح أجزاء القصة التى لا يريدها جانباً مثل قصة الحرب وإغراء ايجستس لكليتمنسترا . أما الأجزاء التى يريدها فهو يستخدمها لا بترتيبها الزمنى بل بالترتيب الذى يناسبه (وهو يستطيع أن يعالج قصته هكذا لأن جمهور المشاهدين كان يعرف خطوطها الرئيسية من قبل . وقد كانت إحدى مزايا استخدام الأساطير أنها

كانت توفر على المؤلف المسرحى عملية الشرح المتعبة) وهو بهذا المعنى خلق شيئاً جديداً . فهو يتحكم تحكما تاماً فى شكل المسرحية . وموضوع مسرحيته هو أن الجريمة التى يكون عقابها جريمة يجب أن تعاقب هى الأخرى بجريمة . وهو يقرر هـــذا مرة واثنتين وثلاث مرات بشدة متزايدة باستمرار ينشأ عنها تركيب متين منطقى جميل . والمسرحيات الإغريقية جميعاً تبنى هكذا على فكرة واحدة ولا يدخلها شىء لا يساهم فيها مساهمة مباشرة . والذى يحدث فى الحقيقة فى المسرحيات الإغريقية هو أن ميناس هو الذى يلق به من فوق سطح السفينة . ومن هنا تأتى قوة المسرحيات ووضوحها . ولقد قيل إن هناك نماذج من هملت بقدر ما هناك من الممثلين القادرين على تمثيل الدور . ولا يمكن أن يقال مثل هذا عن أية مأساة إغريقية . فالعلاقة بين المعنى والشكل المسرحى منطقية بحيث أن أى تفسير ثاب يمكن دحضه بطريقة مقنعة . فهو إن لم يعلل لكل تفاصيل المسرحية يكون خاطئاً لأن التعليل الصحيح يوضح كل شىء .

هذا على ما أظن هو أصل المنطق والوضوح اللذين يظهران بكل جلاء فى شعور الإغريق بالشكل المسرحى . فالفنان عنده فكرة واضحة جداً عما سيقول وعنده تحكم تام فى مادته . وغرام الإغريق بالتناسق والتماثل هو يمثل هذا الوضوح . وتتفرع عنه جملة تفريعات شائقة . فنحن نجد لديه إينما نظرنا تقديراً للنموذج الذى يحتذى وللتوازن ، ويمكننا أن ننظر أولا فى حالة واضحة أو حالتين . لقد سبق لنا ذكر فن العمارة ، فالخروج على النظام فى وضع تصميم كل كاتدرائية قوطية تقريباً يوحى لعقولنا بفكرة الطاقة الديناميكية — فكرة الحياة . أما بالنسبة للعقل الإغريقى فهذا أمر عقوت ولا يوحى إلا بالنقص . فالبناء الكامل الذى ينفذ كما أدركه صاحب فكرته من الطبيعى أن يكون متناسقاً . كما يمكننا أن نوجه التفاتنا إلى النثر الإغريقى بولعه بالتوازن والطباق (التضاد) اللذين كثيراً ما يصلا إلى حد

الإفراط . والطباق عند الكتاب المجيدين أو الخطباء يأتى من حدة الذكاء الذى يحلل الفكرة توا إلى الأجزاء التى تتكون منها (وهناك مثل حسن على ذلك فى واقعة شخصية لثيستوكليس يعتبر عدم ذكرها فى مكان ما من هذا الكتاب أمراً مؤسفاً ، فهى هيلينية للغاية : ذلك أن رجلا حسوداً من جزيرة سريفوس (seriphus) الضئيلة الأهمية قال لثيستوكليس « إنك مدين بشهرتك لا لجدارتك الشخصية بل لأنك آثينى بحكم المصادفة المحضة » . فأجابه ثيستوكليس « هناك شىء من الصحة فيما تقول : فلو أننى كنت من سريفوس لما أصبحت مشهوراً وكذلك أنت لو كنت من أثينا ») غير أن الجزء الثانى من الطباق يكون شكلياً محضاً فى بعض الأحيان حتى عند توكوديديز، كما نجد فى أسلوب النثر الذى أتقنه بعض السوفسطائيين . إن الطباق الذى يبرزه التشابه فى الأساليب والأفكار بأنواعه المختلفة وكذلك السجع متعب بصورة لا يمكن التعبير عنها . فلم يكن العيب فى الأسلوب الإغريقى هو انعدام الترتيب والشكل مما يدل على العجز ولكن العيب هو مراعاتهما بطريقة متكلفة . ولم يكن الإغريقى يحب أن يكون كل ما يبدعه متناسقاً أو مطابقاً لنموذج فقط بل إنه كان يعتقد أن العالم بأسره لابد أن يكون متناسقاً ، وهذا أمر طبيعى إذ يتطلب العقل والكمال شكلا متناسقاً فى روائع أعمال الإنسان ، والإنسان جزء من الطبيعة وعلى ذلك تكون الطبيعة أيضاً متناسقة لأنها قائمة على العقل(١) طبقاً للفرض .

ولم تكن تعوز الإغريق الدلائل على وجود التناسق فى الطبيعة ، فالنور يوازن الظلمة على مدار السنة ، والبرودة توازن الحرارة بل إن الرياح

---

(١) كلمة العقل فى الإغريقية بمعناها الحالى هى « لوجوس » التى تترجم خطأ فى العادة بلفظة « كلمة » والأولى أن نقول « الكلام » أو الفكرة التى تفهم من الكلام . « فى البدء كان الكلمة » معناها الحقيقى فى البدء كانت الفكرة .

المتقلبة نفسها تراعي توازناً عاماً . وقدكانت حركات النجوم التي تسير طبقاً للقانون معروفة من قبل فيما عدا الكواكب « الجوارى » . فالتماثل والقانون والمنطق كانت أوجهاً مختلفة لشيء واحد .

ولهذا كان الإغريق ميالا إلى فرض نموذج حيث لا ينتظر أن يوجد نموذج فى الحقيقة . كما كان يعتمد على العقل حين كان الأولى أن ينصحه الناس باستخدام الملاحظة والاستنتاج . وقد أوضح الجغرافيون الأوائل النقطة الأولى (أى فكرة التماثل) فقد أثارت روعة النيل هيرودوتوس وهو فى مصر بدرجة هائلة فقام بعمل كل الاستفسارات التى استطاعها عن منبعه . وقد استطاع رجل أن يخبره نقلا عن اثنين قبله قصة عن بعض الشبان المغامرين ، من قبيلة كانت تعيش بالقرب من سيرت Syrtis[١] فى خليج سدره ، Sutra الذين تجاسروا على السير جنوباً فى صحراء ليبيا ، وبعد رحلة خطيرة تقابلهم رجال صغار الحجم (أقزام) إلى مكان آخر . وكان يجرى أمام بلدتهم من الغرب إلى الشرق نهر عظيم فيــــه تماسيح ، وقد حزر مخبر هيرودوتوس أنه هو النيل ، وقال هيرودوتوس « والتفكير المنطقى يؤيد ذلك » والسبب فى ذلك هو التماثل الطبيعى . فكما أن النيل يقطع أفريقيا طولا فإن الدانوب يقطع أوربا بالعرض ومصبات الدانوب تواجه مصبات النيل مباشرة ، والدانوب ينبع على بعد كبير إلى الغرب بين الكلت بالقرب من مدينة بيرنى على حد قول هيرودوتوس ، الذى من الواضح أنه سمع اسم بيرنيز ولكنه حوره إلى اسم مكان أو شعب . وما هو أوضح من ذلك هو أن النيل نفسه ينبع من الغرب أيضاً . ولهـذا فإن منبعه ومصباته تواجه مثيلاتها فى الدانوب وهذه من خصائص المراحل الأولى للجغرافية الإغريقية . فعندما أن

---

(١) فى طرابلس بليبيا (المترجم).

الذى صنع الكرة الأرضية صنعها مناسبة لطبيعة الحال كما صنعها بشكل متسق .

أما النقطة الثانية وهى أن الإغريق استخدموا التفكير المنطق حيث كان ينبغى لهم أن يستخدموا الطرق العلمية فيمكن إيضاحها من مناقشة جدلية فى تاريخ الطب الإغريق نذكرها بنصها :

« هناك طائفة ممن كتبوا فى الطب يتخذون أساس مناقشتهم فرضاً قد تعسفوا فى اختياره كالحار والبارد والرطب واليابس أو أى شىء يصلح لذلك . وهم يقللون هكذا من عدد أسباب الأمراض والوفاة بين الناس ، بجعلها نفس الأسباب فى جميع الحالات . هؤلاء الكتاب مخطئون فى كثير من بياناتهم(١) الفعلية ولكن أسوأ أخطائهم أن الذى يعالجون أمره هو صناعة من أهم الصناعات » .

إن ما ذكرناه هو بداية مقال « عن الطب القديم » وصل إلينا تحت إسم أبقراط من كوس وهو أعظم شخصية فى طب القرن الخامس . وليس معروفا كما لا يهمنا إن كان أبقراط قد كتب حقاً هذه المقالة . فالأمر المهم هو احتجاج العالم على المفروض فيه أنه فيلسوف وأمثاله ممن هبطوا على الطب من أقطار الفلسفة الطبيعية الواسعة (كما كانوا يفهمونها) فأخذوا يضعون الفروض العامة وهى ليست الفروض العلمية التى تعتبر نظريات مؤقتة توضع لشرح الحقائق الملاحظة بل هى تعميمات لا تحظى بالتأييد فهى أشبه بالبديهيات الرياضية . وهذه الطريقة حسنة جداً كما يقول الكاتب بعد ذلك بالنسبة للألغاز التى لا يمكن النفاذ إليها كتلك التى توجد فى السماء أو تحت الأرض ولكنها ليست الطريقة التى تمارس بها أية « صناعة » (أو فن » لأن كلمة

---

(١) النص هنا غير مؤكد .

Techné الإغريقيه تفيد معنى الإثنين ، وهو يستمر قائلا : إن أساس الطب معروف من زمن بعيد ، سواء منه المبدأ أو الطريقة . وقد أدت الطريقة إلى اكتشافات كثيرة ممتازة ، وسيكتشف ما بقى إذا عرف مستفسر كفء ما سبق أن تعلمه الناس ، وجعله أساساً لبحث جديد . ولكن من يرفض كل ذلك ويحتقره ويحاول أن يتابع الاستفسار بأية طريقة أخرى يكون فريسة للخطأ كما يكون هو السبب فيه . ومحاولته مستحيلة وسأثبت أنها مستحيلة » .

ومعنى هذا أن العلم الذى من الممكن أن نحصل فيه على مجموعة من الحقائق عن طريق الملاحظة والتجربة كان من الإغريق من يمكنه أن يتبع فيه طريقة علمية بشكل كاف . وقد سبق أن رأينا هذا فى وصف ثوكوديديز للوباء فهو يعطى وصفاً دقيقاً لآثاره العقلية والخلقية . ويقدم لهذا الوصف بقوله « يمكن أى إنسان سواء كان طبيباً أو رجلا عادياً أن يقول ما يجول بخاطره عن الأصل المحتمل للوباء والأسباب التى يظن أنها كانت كافية لإحداث مثل هذا الاضطراب الكبير . أما من جهتى فأصفه كما بدا لى وسأدون تلك الأعراض التى قد تساعد على التعرف عليه ثانية لو فرض وعاد ، لأنى أصبت به أنا نفسى وقد لاحظت غيرى من الذين أصيبوا به » .

هذا هو الاتجاه العلمى . وليس لثوكوديديز علاقة بالتعميمات التى يعوزها الدليل . وهل يمكن أن يكون هناك ما له صفة علمية أكثر من النبذة الآتية من « القانون[1] » .

يجب أن يعنى الإنسان فى الطب لا بوضع النظريات المقبولة بل بالخبرة

---

(١) ابقراط فى الطبعة التى حققها جونز .

والتفكير المنطق معاً . وأنا موافق على أن وضع النظريات المقبولة ينبغى أن يقبل بشرط أن يكون مبنياً على الحقائق وأن تقوم استنتاجاته بشكل منظم على الملاحظة . ولكن النتائج التى يصل إليها الإنسان بواسطة التفكير المنطقى وحده لا تكاد تكون نافعة ولا تفيد إلا تلك النتائج التى يصل إليها الإنسان من ملاحظة الحقائق .

ولدينا مثال ممتاز على الملاحظة الدقيقة للحقائق فى كتاب « الأوبئة » الذى يبدو أنه كتاب طبيب رحالة ، عن الحالات المرضية . والكاتب منظم جداً فهو يبدأ بتدوين الجو السائد ، ثم يبين بصفة عامة سير أدواء مرضاه ، ذاكراً السن والجنس والتفاصيل الأخرى التى يمكن أن يكون لها علاقة بها . وهاءنذا أعطى المثال النموذجى الآتى لأنه قصير وفيه ذكر اسم مكان مهم شائق .

أصيب الشاب المريض الذى كان يرقد فى « سوق الكاذبين » بالحمى بعد الجرى وبعد مجهود جسمانى غير عادى . اليوم الأول : اضطراب الأمعاء ، إفرازات الأمعاء كثيرة رقيقة صفراوية ، البول قليل مائل للسواد ، لا نوم ، عطش — اليوم الثانى : الأعراض أسوأ والإفرازات المعوية أردأ ، لا نوم . عملية التفكير مختلة ، العرق خفيف — اليوم الثالث : غير مستريح ، عطشان ، شعور بالغثيان ، كثير التقلب والحركة ، مكروب ، مشتت الذهن ، داكن الأطراف وباردها ، جانبا الكشح متوتران ومرتخيان نوعاً — اليوم الرابع : لا نوم ، الحالة تميل للسوء — اليوم الخامس : توفى . حوالى العشرين .

هناك نقد ، من القرن التاسع عشر لكتاب الأوبئة (ذكره الدكتور جونز) وهو نقد شائق لأنه يخفق فى إدراك الموضوع بأكمله . وهو يتلخص فى أن مؤلف (الأوبئة) كان مراقباً غير إنسانى لآلام الناس

فهو لم يعمل شيئاً لتخفيفها . وهو فى الواقع يذكر علاجه مرة أو مرتين كقوله مثلا « الكمادات الساخنة » لم تأت براحة . والحقيقة أنه يكتب بصفته مشخصاً للأمراض أكثر مما يكتب بصفته طبيباً باطنياً ، وهو يلتزم هذه الصفة . لقد كان الإغريق أكثر اتباعاً للطريقة العلمية مما أمكن ناقده الحديث أن يدرك .

وتدل هذه الاقتباسات بوضوح على أنه كان هناك إغريق فهموا الطريقة العلمية واتبعوها كما أنها تدل كذلك على أن غيرهم كانوا يستخدمون مجرد الطرق المنطقية ، وكما قال الدكتور « جونز » بينما أخذت الفكرة التى تعزو المرض إلى عامل دينى تختفى تدريجياً ، ظهر عنصر مزعج آخر مثله يناهض تقدم الطب القائم على العلم ويبدأ يثبت وجوده . إذ حلت الفلسفة محل الدين وأخذت الفلسفة الإغريقية تنشد تجانس المظاهر الطبيعية المتعددة ، وأدت الرغبة فى إيجاد هذا التجانس إلى التخمين وإهمال الحقيقة فى محاولة وضع نظرية شاملة . وقد أدى نفس الدافع الذى جعل طاليس يعلن أن كل الأشياء من الماء بكاتب مقال فى مجموعة كتابات إبقراط إلى التمسك بفكرة أن الأمراض كلها يسببها الهواء ، أى كما قال دارمبرج إن الفلاسفة قد حاولوا أن يفسروا الطبيعة وعيونهم مغمضة » . ولم يكن فى ذلك شذوذ من جانب الإغريق . فالعقل البشرى معتاد على تمرين مثير هو عبور الفجوات وثباً كما لو لم يكن لها وجود . فعقيدة التثليث مثلا سحرت نظرية الموسيقى فى القرون الوسطى بصورة تبدو لنا اليوم نابية إلى حد ما .

ولكن دعنا لا نتعالى أكثر مما ينبغى على هؤلاء الإغريق الذين كانت أعينهم مغمضة ، فقد تركوا شيئاً آخر مفتوحاً على مصراعيه وهو عقولهم ، ومع أن إغماض العيون قد أخر نمو العلم فإن تفتح العقول قد أدى إلى

أشياء كالرياضات والبحث فيما وراء الطبيعة مما كان له من الأهمية مثل ما لسابقه .

وربما كانت الرياضات أعظم المكتشفات التي امتاز بها الإغريق كما أنها أعظم ما أثارهم . وسوف يزداد فهمنا لأولئك الذين كانوا يغمضون أعينهم على الحقائق إذا ظللنا نتذكر أولا اعتقاد الإغريق أن الكون كل متكامل منطق وأنه لذلك بسيط (رغم المظاهر) ويحتمل أن يكون متناسقاً ، ثم إذا حاولنا أن نتصور تأثير الرياضيات المبدأية على عقولهم .

وقد حدث أني أنا نفسي ـ أن جاز لي أن أتكلم عن شخصي لحظة ـ استطعت أن أفعل ذلك عن طريق موضوع بحث رياضي قمت به بنفسي لأتحايل به على الأرق (للقراء من الرياضيين أن يبتسموا) فقد خطر ببالي أن أتساءل عن الفرق بين مربع عدد وبين حاصل ضرب العددين المجاورين فثبت لي أن ١٠ × ١٠ = ١٠٠ ، ١١ × ٩ = ٩٩ أى أقل من الأول بواحد . وقد كان شائقاً أن أجد أن الفرق بين ٦ × ٦ ، ٧ × ٥ يساوي نفس الفرق السابق . وقد اكتشفت بنشوة متزايدة كما أثبت جبرياً القانون الذي ينص على أن حاصل الضرب هذا ـ يجب أن يكون دائماً أقل من المربع بواحد ، وقد كانت الخطوة التالية هي أن أفحص خواص الأعداد المجاورة التي تتناقص وتتزايد واحداً . لقد اكتشفت بسرور عظيم نظاماً كاملا للخواص العددية كان من علموني الرياضة قد تركوني في جهل تام به (وهو ما يسرني أن أقوله) وقد أخذت اتتبع حل المتسلسلة ١٠ × ١٠ = ١٠٠ ، ٩ × ١١ = ٩٩ ، ٨ × ١٢ = ٩٦ ، ٧ × ١٣ = ٩١ ووجدت أن الفروق هي على التوالي ١ ، ٣ ، ٥ ، ٧ ...... وهي المتسلسلة ذات الأعداد الفردية . بل أعجب من ذلك اكتشافي أنه لو طرح كل حاصل

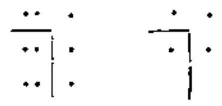
ضرب على التوالى من المائة الأصلية لنشأت عن ذلك المتسلسة ١ ، ٤ ، ٩ ، ١٦ ... .

لم يكن المدرسون قد ذكروا لى قط ، كما لم يخطر ببالى قط ، أن الأعداد تلعب مع بعضها البعض هذه الألعاب الهامة الجميلة من الأزل إلى الأبد مستقلة (فى الظاهر) عن الزمان والمكان والعقل البشرى . ولقد كانت هذه نظرة بالغة الأثر إلى عالم جديد متصف بالكمال .

عند ذلك عرفت كيف كان شعور الفيثاغوريين عندما توصلوا إلى نفس هذه الاكتشافات التى ذهبت سدى فيما يختص بى . إن الحقيقة النهائية المبسطة التى كان الأيونيون يحاولون اكتشافها فى شىء فيزيائى كانت فى الحقيقة هى « العدد » . هل أعلن هيراقليط أن كل شىء دائم التغير ؟ إن هنا أشياء لا تتغير ، موجودات أبدية خالصة من شوائب الجسد المفسد ومستقلة عن الحواس التى يعتورها النقص ويستطيع العقل أن يفهمها على الوجه الأكمل. وفضلا عن ذلك فلما كان العدد قد أمكن إدراكه مكانياً فقد كان لهذه الموجودات الرياضية صفة اشترط الإغريق وجودها فى الشىء الكامل وهى أنها متناسقة والفكرة فيها نموذج يحتذى . ويمكننا توضيح ذلك بأن نعكس وضع المتسلسلة التى ذكرناها آنفاً كما يمكننا الحصول على متسالسة المربعات بإضافة الأعداد الفردية التى تليها : —

$١^٢ + ٣ = ٢^٢ ، ٢^٢ + ٥ = ٣^٢ ، ٣^٢ + ٧ = ٤^٢$ ...

وقد كانت هذه الحقائق نماذج عند الفيثاغوريين لأن تفكيرهم الرياضى كان يسير طبقاً لأساليب هندسية ومن ثم كانوا يعبرون عن مربع العدد هكذا



وكلما ازداد التفكير الإغريقي تقدماً في هذا العالم الجديد بدا أن ما عرفه بالفطرة من الممكن إثبات صحته ، أي أن التعدد الظاهري توجد تحته البساطة وأن القانون هو السائد لا المصادفة وأن الكون قائم على العقل وأن التفكير المنطقي يمكن أن يكشف عن حقيقته الكامنة وأن الطريق إلى الحق يمر بالعقل لا بالحواس .

والذي زاد من قوة هذه العقيدة هو ما اعتادته الطبيعة من أن تكون هندسية ، فلاشك أن أحد الفيثاغوريين قد لاحظ التكوين الهندسي للأزهار والبللورات الكبيرة . وليس عندنا بيان مدون عن ذلك ولكننا نسمع فعلا أصداء للنشوة التي حدثت عندما اكتشفت المدرسة الفيثاغورية الأساس الرياضي للتوافقات الموسيقية ، ولازال يبدو للعقل غير الرياضي بالمرة أن من معجزات المصادفة أن ما تتقبله الأذن باعتباره نفس النغمة عند ضرب أوكتاف أعلى إنما يحدثه وتر طوله نصف طول وتر النغمة الأولى تماماً . وهذه أبسط ظاهرة من سلسلة كاملة من النسب التي تعتبر فترات موسيقية أيضاً . وقد رأى العقل الإغريقي في هذا مايخرج عن مجرد المصادفة ومايخرج عن كونه مجرد ظاهرة شائقة في الفيزياء . فالعقل الإغريقي (كما ينبغي لنا أن نقرر ذلك) معتاد على أن يبني حججه في المناقشة على المشابهة وعلى عبور الفجوات ، والسبب الحقيقي في ذلك هو افتراضه أن الكون بأكمله أو الطبيعة وحدة — الكون الفيزيائي والأخلاقي والديني معاً . فإذا تذكرنا هذا ، إذا تذكرنا كيف كان يفكر في الخلق الجيد باعتباره وسطاً بين ضدين وضبطاً حسناً للنغم وانسجاماً للنفس ، وإذا تذكرنا الدور العظيم الذي كانت تلعبه الموسيقى «Mousikê» (وهي التي كانت تشتمل على الشعر والرقص) في التربية الإغريقية ، كما إذا تذكرنا أن العلاقات الرياضية كانت قد أخذت تنكشف في الكون الفيزيائي — إذن لأمكننا أن نفهم كيف انطلق الفيثاغوريون مدفوعين بنشوة أبحاثهم في خواص الوتر الرنان إلى التفكير في إمكان إيجاد

أساس رياضي كذلك للدين والأخلاق . فأنشأوا مذهباً صوفياً للأعداد كان يعبر فيه عن الله أو الخير بالرقم (١) أى الوحدة كما يرمز للعدالة بالرقم (٤) وهو العدد المربع التالى وهكذا . لقد كانت محاولة تنم عن شهامة ولكن تاريخ الإنسان قد أرانا منذ ذلك الوقت أنه أسهل لنا بكثير أن نتحكم فى الكون الفيزيائى من أن نتحكم فى الكون الأخلاقى .

وقد كان أفلاطون طالباً مولعاً بالرياضيات وكان مكتوباً على باب الأكاديمية بالإغريقية (ميديس أجيومتريتوس إيسيتو) وهى عبارة معناها « الكفاية الهندسية مطلوبة » وقدكان أحد أقواله — إن الله يمارس الهندسة على الدوام ، وهو تعبير فلسفى صادر من نفس الدافع الغريزى الذى حرك هيرودوتوس إلى أن يحول بذهنه ما فعله خاصاً بالنيل . وقد كان أفلاطون يجمع إلى الحافز الرياضى عقيدة سقراط فى أن أتم دراسة للجنس البشرى هى الإنسان وما ننشده من خير مطلق للإنسان، وقد ورث كذلك طريقة سقراط فى الجدل أى البحث عن طريق التساؤل المنطق عن Logos (لوجوس) وهو التعريف الجامع لكل الفضائل ، وكان يعتقد مثل سقراط أن الفضيلة هى المعرفة وأن الرجل الذى يعرف ما هى الفضيلة لابد أن يمارسها لأن الفضيلة باعتبارها خيراً مفضلة بالضرورة على ماهو شر. وبالنسبة لهذه النقطة ربما كان صحيحاً أن سقراط وأفلاطون قللوا من شأن ضعف الإرادة وإن كان صحيحاً أيضاً أنه من المحتمل أننا نقلل من شأن ما كانا يقصدان « بالمعرفة » . فأفلاطون مثل بعض من تقدموه فرق تفريقاً حاداً بين المعرفة والرأى ، فالمعرفة ليست ما قاله الناس للإنسان أو أروه له أو علموه له ، فهى لا يمكن أن تكون إلا ما اكتشفه الإنسان بنفسه بواسطة البحث الطويل المتعمق . وفضلا عن ذلك فإن الشىء الدائم لا العابر هو الذى يمكن أن يكون مادة المعرفة أى « ماهوكائن » وليست الأشياء الحسية التى تصير دائماً شيئاً آخر . وهكذا يصل أفلاطون فى الحقيقة إلى درجة لا تبعد كثيراً عن « صاحب

المزامير ، الذى يقول : « معرفة الله بدء الحكمة » ولو أنه يصل إلى هذا الموقف بطريق مختلف جداً . فمعرفة ما هو كائن تأتى فقط عن طريق حياة مكرسة للمجاهدة الفكرية ، ودراسة الرياضيات هى المقدمة التى تؤدى إليها لأنها تبعد العقل من الأشياء الحسية الفجة إلى التأمل فى الأشياء التى صلتها بالحقيقة أكبر ، فنحن نستطيع أن ندرك الحقائق التى لا تتغير بواسطة العقل وحده ، أما الحواس فإنها قادرة على أن ترينا صوراً عابرة ناقصة ليس إلا من الحقيقة . وأسمى الحقائق والأفكار هو الخير . ومع أن أفلاطون لا يجعل من الله والخير شيئاً واحداً بصورة قطعية فإنه يتكلم عن طبيعة الخير الإلهية بطريقة لا تجعل من كونهما شيئاً واحداً إلا اختلافاً طفيفاً .

هذه هى المعرفة التى متى حصل الإنسان عليها لا يستطيع أن يعمل سوءاً . إنها معرفة الوجود والخير وهما فى الحقيقة خاصتان بالله . والمعرفة أغزر وأوسع من معرفتنا الفكرية المحضة الحالية لأن القوة الدافعة إليها رغبة خلقية كما أنها فكرية . وهدفها هو الحقيقة التى تنتظم كل شىء . وهى تنتمى فى الواقع إلى نفس الاعتقاد المسيحى بالرحمة ولو اختلفت عنه فى صفته ، وهذه ذروة أبحاث مفكرى الإغريق عن الحقيقة الباطنة ، عن (لوجوس Logos) والكلمة هى الله

١١
الأساطير والدين

ليس الغرض من هذا الفصل أن نلخص جزءاً واسعاً ومعقداً جداً من الحياة الإغريقية والفكر الإغريق وإنما القصد منه مجرد تفسير متناقضات ظاهرية معينة ربما تكون متعبة للقارىء .

لقد قضينا بعض الوقت نتكلم بالتفصيل عن الفكرة القائلة إن الإغريق كان يبحث بغريزته عن الوحدة والنظام فى الكون . وربما أدى بنا ذلك إلى أن ننتظر منه أن يكون موحداً لله ، ولكننا نجده بدلا عن ذلك يؤكد عبادة آلهة متعددين تعدداً هائلا . وحتى فى الأزمنة الكلاسية أى فى عهد الاستنارة يبدو أن الشعراء يخترعون أرباباً جدداً دون ترو . فالأمل والخوف وكثير من أمثال هذه المدركات يمكن أن تصبح آلهة دون أن تدعو إلى دهشة أحد . وكلنا نعرف كيف أن القديس بولس (كما ورد فى النص المنقول نقلا غير دقيق فى الترجمة المعتمدة للعهد الجديد) وجد الآثينيين يخافون الله جداً ، غير أنهم يخافون عدداً كبيراً من الأرباب . وفضلا عن ذلك فإنى آمل أن نكون قد رأينا أن الجزء الأكبر من الشعر والفن الكلاسى رصين بشكل ملحوظ ، وهو بعيد كل البعد عن أن يعوزه المرح والسحر . وبالرغم من ذلك فصفته البارزة هى الشعور بالمسئولية الخلقية . ولكن يبدو أن الأساطير التى نشأ منها هذا الفن لا يمكن تصديقها مطلقاً . ومن الجائز أن قصص أهواء الأرباب المتقلبة ووحشيتهم وعشقهم الآثم تلقى فى روعنا أن الإغريق كانوا يستهينون بواجباتهم الأخلاقية فعلا ولكن هذه الفكرة تعتبر زائفة تماماً .

هاتان صعوبتان خطيرتان وتفسيرهما بكل اختصار أن كلمة «ثيوس»

الإغريقية ليس معناها الله . إذ لم تكن العلاقة فى الأزمنة القديمة بين اللاهوت والمبادىء الأخلاقية كما يجب أن تكون فى نظرنا ، فلم تكن فى الحقيقة بينهما أية علاقة فعلية على الإطلاق . ولا مفر من أن يكون فهمنا للأساطير خاطئاً ، وأن تتناولها فى شكلها النهائى الخاطىء مادمنا نقابلها لأول مرة فى صورتها العامة المتأخرة . فنحن سواء عرفنا ذلك أو لم نعرف ، نبدأ بأوفيد Ovid ومراجعه الإغريقية المتأخرة مع أننا لكى نفهم الأساطير فهما صحيحاً يجب علينا أن نبدأ من البداية لا من النهاية .

فلننظر أولا فى تعدد الآلهة : يظهر أن الإغريق الأولين فكروا فى الآلهة بقدر ما فكر غيرهم من الشعوب البدائية . فحياتنا فى الحقيقة معرضة لقوى خارجية لا نستطيع التحكم فيها كالجو مثلا ، فهذه القوى أرباب وكل ما نستطيع أن نعمله هو أن نحاول أن نظل على علاقة طيبة بهم . هذه القوى لا تفرق أبداً بين الناس . فالمطر يسقط على العادل والظالم . ثم إن هناك قوى أخرى . أو هذا ما نرجوه — هى التى تحمينا ، مثل أرباب القبيلة والعشيرة والعائلة والبيت . هؤلاء الأعضاء فى المجتمع الاشتراكى الذين لا تدركهم الأبصار تجب معاملتهم باحترام شديد كما يجب أن تقدم القرابين لكافة الأرباب طبقاً للطقوس المقررة فقد تستثيرهم أية مخالفة . ولا يبدو أنهم يلتزمون بالقوانين التى تتحكم فى السلوك الإنسانى ، بل من الواضح فى الحقيقة أن بعضهم لا يلتزمون بها ، بمعنى أنه ليس هناك ارتباط جوهرى بين اللاهوت والأخلاق .

غير أن طبع الشعب الإغريقى يتضح من الطريقة التى نمت بها هذه الديانة البدائية حتى فى عصر ما قبل التاريخ . وقد ظلت القوى الإلهية بين أقارب الإغريق من اللاتين كثيرة كثرة هائلة كما لم يكن لها أسماء ، وظلت طقوس العبادة تراعى بمنتهى الدقة ذكر الصيغ القديمة التى كان من الجائز أن معناها

صار منسياً ، طالما استمرت الديانة فى البقاء . وقد كان هناك مجرد تصور (لقوة) « نومن numen » لانكاد نستطيع ترجمتها، بشىء معين مثل « الروح » كانت تختص بكل عمل من أعمال الإنسان تقريباً منذ أول صرخة له كطفل حتى اختفائه النهائى فى القبر . وإذا روعيت الشعائر بالشكل المضبوط فلم يكن يهم ما عداها . أما عند الإغريق فقد كانت الأمور تتطور بشكل يختلف عن ذلك كل الاختلاف . ففى أول الأمر كان شعورهم المسرحى المرح الخلاق ، يجعلهم بالضرورة يصورون « القوى » بصورة أشبه بصورة الإنسان . ويكاد الإنسان يقول إن الأرباب ماهم إلا ملوك . وثانياً لقد أنقص الدافع إلى الوحدة والنظام عدد الآلهة وجمعهم فى أسرة واحدة ومجلس واحد للأسرة . ويكفينا مثل واحد لهذا الجمع فإن زيوس ذلك الإله القبلى القوى الكبير كان يعتبر كذلك إله السماء وكان هناك أيضاً معبود إسمه هيركايوس Herkeios كان يحمى « مزرعة الفلاح » . وقد أصبح هذان الإلهان إلهاً واحداً يلقب بزيوس هيركايوس وهكذا أصبحت كلمة هيركايوس صفة لزيوس تدل على مظهر خاص لزيوس فيما يتعلق بوظيفته الخاصة بحماية المزرعة .

ولكن هذا الدافع إلى الوحدة والنظام سار شوطاً أبعد من ذلك ، فمع أن بعض القوى لاتخضع للقانون وهى أحياناً فى نزاع ظاهر بعضها مع بعض إلا أن فى الكون قانوناً منظماً قد تحاول خرقه دون أن تفلح فى ذلك قط . وبعبارة أخرى إن هناك قوة أقوى من الآلهة ، فالآلهة ليست قادرة على كل شىء . وهذه القوة الغامضة تدعى أنانكى Ananke أى « ما لابد منه » أو مويرا Moira أى « مقسمة الأنصبة » أو « القدر » وتحتوى فكرة القوة العالية اللاشخصية على العنصر الأول الذى نشأ منه الدين والعلم على السواء .

وكانت المرحلة الثانية هى الجمع بين اللاهوت والأخلاق . ولم تكن

هذه العملية بالطبع واضحة منظمة كما لابد أن يوحى بذلك أى ملخص قصير. فالإغريق لم يكن يستطيع أن يحترم الصيغ الشكلية مثل الرومانى . ونحن نستطيع أن نرى على الأقل طريقتين كان يتم بواسطتهما عبور الفجوة التى بين الدين والأخلاق . فقد كان تقديم القرابين للآلهة يتطلب طهارة دقيقة طبقاً للطقوس . فالرجل الذى سفك الدماء لم يكن يصح له أن يشترك فى تقديمها إلا بعد أن يتطهر . وكان من الطبيعى أن هذا الطلب الإلهى للطهارة الظاهرية يمتد بمضى الزمن حتى يشمل الطهارة الباطنية ، كما أن ذنوباً معينة مما لم يكن قانون البشر يستطيع معاقبتها أو لم يكن الناس يستطيعون اكتشافها صارت مما يعاقب عليه الآلهة . ففى ظروف الحياة البدائية لم يكن طريد القانون أو اللاجىء يلقى حماية قضائية ، كما لم يكن يستطيع الشخص الوضيع أن يحصل عليها بسهولة . ولهذا فقد كان راجى الشفاعة وكذلك الضيف والسائل يعتبرون موضعاً لعناية الآلهة الخاصة ، وكذلك الحنث فى اليمين كان ذنباً من المحال إثباته ولهذا كان مما تمقته الآلهة بصفة خاصة . وفوق كل شىء فقد رفض الإغريق فى النهاية أن يفرقوا بين الطبيعة والطبيعة البشرية . ولهذا فقد رأوا أن القوى التى تحكم العالم الفيزيائى لابد أن تحكم عالم الأخلاق أيضاً . وكان الآلهة عند هذا الحد قد صاروا روحانيين ولم تعد أثانكى فوق زيوس بل أصبحت هى التعبير عن إرادته وصارت القوى الإلهية الأخرى مثل ربات الانتقام أو Erinnyes اللاتى يعاقبن على ارتكاب أعمال العنف والمظالم من أعوانه الأوفياء .

ولكن ألم يكن هناك أى تضارب بين مثل هذه الفكرة عن زيوس وبين الأساطير التى تظهره بمظهر العنف وسرعة الإثارة والحب الجنسى ؟ كان هناك مثل هذا التضارب بالتأكيد ، ولكن قبل أن نتكلم عن التضارب يجدر بنا أن نكتشف كيف جاءت الأساطير إلى الوجود .

ليس يعنينا هنا نوعان من الأساطير وهما الأساطير التاريخية أو التى تدعى أن لها أصلا تاريخياً مثل أساطير طروادة والقصص التى من أمثال بيرسوس وهو يقطع رأس الجورجون (الغولة)، وهى أساطير شعبية وقصص جنيات Marchen . أما الذى يعنينا فذلك الذى يشبه قهر زيوس لأبيه كرونوس Cronos وتشويهه ، وكذلك الأعداد الهائلة من الربات والحوريات (عرائس البحر) والنساء من البشر اللاتى كان زيوس وابوللون موفقين فى حبهن . فهذه هى القصص التى تضللنا والتى أساءت إلى كرامة الإغريق أنفسهم فى عصور التفكير ، فكيف نشأت ؟ .

لقد كانت هذه الأساطير على العموم تفسيرات لأشياء معينة ، وقد اكتسبت لوناً وحياة لأن الإغريق لم يكن بوسعهم إلا أن يفعلوا ذلك .

إنها كانت مجرد تفسيرات ، فقـــد كان هناك عدد هائل من الشعائر الدينية التى يمارسونها ، والتقاليد التى يذكرها الناس ذكراً غامضاً والتى كانت فى حاجة إلى التفسير . ولما كانت الحقائق منسية فقد حلت محلها القصص الخيالية . لقد أعطت الفصول السابقة مجرد فكرة ناقصة جداً عن تعقد ديانة ما قبل التاريخ فى بلاد الإغريق . فقد تكلمنا بطريقة عامة عن تعدد الآلهة بين الإغريق القدماء ، ولكن دعنا نفكر فى أن هؤلاء الإغريق القدماء ، لم يكونوا أمة متماسكة بل طوائف من الناس ظلوا يتدافعون ويتصارعون قروناً ويقيمون هنا ثم يقيمون هناك ، ويقومون باستمرار باتصالات جديدة مع جيران جدد . ودعنا نفكر أيضاً فى أن الديانات العظيمة الرق وحدها كاليهودية والمسيحية والإسلام لا تتسامح فى موضوع الألوهية ولا تقبل إلا الله . أما الديانة القائمة على عبادة آلهة متعددين فإنها ترحب بطبيعتها بالآلهة الجدد . فإذا استقرت طائفة من الجنس الإغريق القديم بين جيران جدد أو إن فرضت نفسها عليهم فقد كان من

الطبيعى أن تستمر في عبادة آلهتها هى ، ولكنها كانت تكرم كذلك الآلهة الموجودين فى تلك الناحية من قبل . وهكذا دعنا نضرب مثلا يعتبر نموذجاً لآلاف غيره : لقد كان يقام مهرجان فى أموكلاى بالقرب من إسبرطة يعرف باسم هواكينثيا لتكريم ، أبوللون وهياكنثوس على السواء . وقد كانت تتميز طقوس هياكنثوس الدينية المكتئبة بسكب الخمر فوق الأرض زلفى إليه . وكان اليوم الثانى من أيام المهرجان الثلاثة يكرس لأبوللون . وكان أكثر بهجة بكثير من سابقه ولاشك أن الأصل البعيد لهذا المهرجان المزدوج يرجع إلى أن قوماً جدداً ممن يعبدون الاله أبوللون الأولمبى استقروا فى أموكلاى بين قوم كانت عبادتهم تختلف كل الاختلاف عن ديانة هؤلاء ، أى بين قوم كانوا يعبدون إلهاً من آلهة الأرض لا من آلهة السماء . وقد كانت التقوى والحرص كلاهما يحرمان إهمال العبادة الموجودة هناك ، ولذلك جمع القوم بين القديم والجديد . فلما انقضت الأجيال نسى الناس أصل العبادة المزدوجة بل نسوا فعلا وجود إله الأرض ذاته ، ولكن التقوى وعادة المحافظة على الآراء أبقت الطقوس حية . عم إذن كان كل هذا الموضوع ؟ إن سكب القربان على الأرض لا يمكن أن يدل إلا على شيء واحد هو أنه كان يقدم لميت . ولما كان لأبوللون نصيب فى مهرجان هياكنثوس Hyacinthus فلابد أن هياكنثوس الميت كان صديقاً حميماً لأبوللون . ومن هنا جاءت القصة التفسيرية التى تقول إن هياكنثوس كان شاباً أحبه أبوللون ولكنه قتله مصادفة بقرص كان يقذفه . إن كلمة « هياكنثوس » كما رأينا ليست كلمة إغريقية ، كما أن عبادة إله أرضى ليست إغريقية . لدينا إذن فى هذه الشعيرة الدينية كما فى القصة سجل لاندماج ثقافتين مختلفتين كل الاختلاف وصدى لهذا الاندماج .

وفى كثير جداً من الأحوال كان المعبود السابق ربة من الربات ، وفى

هذه الحالة كان من الطبيعى جعلها زوجة للإله الوافد . أما إن كان هذا المعبود إلهاً فمن الممكن أن يصبح ولداً للإله الذى يحل محله . غير أن هذا كان يتطلب أماً فتكون حورية أو الهة محلية . وقد كان هذا أمراً طبيعياً جداً يدل على غاية البراعة . ولكن لما كان مثل هذا الأمر قد حدث فى كثير جداً من الوديان والجزر التى لا عداد لها وهى التى استقر بها الإغريق ، وكان يثبت أن هؤلاء الآلهة الذين حلوا محل غيرهم كانوا هم زيوس وأبوللون شيئاً واحداً فقد بدأ يظهر أن زيوس وأبوللون لهما ذرية هائلة من عدد كبير جداً من الإلهات والحوريات ونساء البشر اللاتى نلن الحظوة لديهما . ولكن عشق الآلهة الجنسى هذا جاء مجرد نتيجة عرضية للأساطير وليس هو المقصود منها . والسبب فى أنه لم يسىء من قدره إلى العاطفة الدينية أن الناس كانت تعرف حق المعرفة أنه تفسير لا أكثر . فلم تكن له صفة الحجة الدامغة التى تستخدم للتربية والتعليم وإنما كان مجرد « مايقوله الناس » فهو تفسير . ومع أنه قد صارت له أهمية التقاليد المتوارثة فقد كان تفسيراً يمكنك أن تقبله أو ترفضه . أما الأمر الجوهرى فى الشعيرة الدينية فقد كان تكريم الإله ، ولم يكن هناك ما يلزمك بتصديق القصة التى عن هذه الشعيرة .

غير أنه كان هناك نوع آخر من الأساطير أكثر بساطة كان له أصل مختلف ولو أن المقصود منه كان التفسير كذلك . فما الذى دعا مثلا إلى اختراع القصة المروية عن زيوس والتى أساءت مثل هذه الإساءة البالغة إلى الإغريق المتأخرين وهى القائلة بأن زيوس قد قهر أباه كرونوس مستخدماً فى ذلك العنف وتركه سجيناً فى أقصى أعماق الجحيم ؟ وتعليل ذلك باختصار أن مثل هذه الأساطير كانت محاولة للتصدى لأصل الأشياء الخاصة بالعالم الفيزيائى أولا ثم بالآلهة بعد ذلك . فنى البدء كانت الفوضى « Chaos » ، أى

« فراغ قد فغر فاه » ثم انبعثت الأرض الواسعة المستوية وهى الأم الحقيقية لكل شيء سواء الآلهة أو الناس ، وقد نشأ منها أورانوس Ouranos (السماء) . ومن اتحاد الأرض والسماء نشأ الليل والنهار وذرية كاملة من الكائنات البشعة التي تعتبر صوراً لقوى سيكولوجية وفيزيائية ، وقد كان من الطبيعي تصوير الخروج التدريجي للنظام من الفوضى بطريقة إنسانية . ثم لماذا لم تستمر الأرض وأورانوس فى ولادة مثل هذه الذرية الأولى ؟ وكيف جاء النظام ؟ لقد قهر أورانوس وكبله بالسلاسل ابن جديد له أسمى منه هو كرونوس . وعلى طول الزمن قهر زيوس بالمثل كرونوس وحل محله ، وبواسطته حدث العالم والنظام الأخلاقى الذى نعرفه . أما أن كرونوس كان إبناً لأورانوس كما أن زيوس هو ابن كرونوس فأمر عرضى جداً . فلم يكن هناك أحد آخر يمكنهما أن يكونا والديه . فقد كان على عصر متأخر يشتد فيه الفساد أن يتمسك بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ويأخذ فى الإحساس بالمهانة من تصرف الآلهة ذلك التصرف الذى لا يليق بالآباء .

لقد كان تعدد الآلهة عند الإغريق إذن ديانة « طبيعية » زادها تعقيداً وتعدداً تجزئة الجنس الإغريقى واندماج نوعين مختلفين من الديانات فى جهات من بلاد الإغريق على الأقل ، أحدهما خاص بالمجتمع الإشتراكى والآخر خاص بعبادة الطبيعة . وإنا لنرى ميل الإغريق الغريزى للوحدة والمنطق فى إنشائهم للنظام الأولمبى الذى يرأسه زيوس أبو الآلهة والناس ، وقد أدمجت فيه الآلهة الهيلينية الخاصة بالقبائل والسماء وإلهات الطبيعة وآلهتها غير الهيلينية فى الظاهر وجمع هائل بأكمله من الدايمونيس daimones (أى الأرواح لا الشياطين) مثل ربات الانتقام والمعانى المجردة التى تجسمت أشخاصاً مثل (العدالة — Dikê)، (القانون — Themis) فأصبح نظاماً واحداً متماسكاً ، وكذلك نرى هذا الميل فى الطريقة التى وضعت بها الأخلاق تحت حماية الآلهة وإن كانت فى الأصل موضوعاً يهم البشر والمجتمع وحده كما نراه كذلك فى فكرة أنانكى

« أومويرا » الموحدة التي كانت في الأصل أسمى من الآلهة ولكنها أصبحت فيما بعد مطابقة لإرادة زيوس ، فجاء هذا الحشد الهائل من الأساطير عن قصد تفسيراً لهذا الأمر أو ذاك ، ولم يكن هناك مفر من أن يكسوه خيال الإغريق النشيط ثوباً مسرحياً .

ولكن عندما بدأت الأخلاق تتلاقى مع الدين ، وعندما لم تعد الآلهة قوى طبيعية واجتماعية وسيكولوجية فحسب بل قوى أخلاقية أيضاً ، أصبح عنصر العشق الجنسي في الأساطير حجر عثرة ، فكان يعتبر تحدياً تقبله الفلاسفة والفنانون بطرق مختلفة فاستبعد الفنانون أو نسوا ما لم يحبوه فيه ، أما ما تبقى فقد استخدموه في الخلق والإبداع ولكن الفلاسفة نبذوه نبذاً كلياً . وقد سبق أن أشار إلى ذلك الفيلسوف الأيوني كسينوفانيس في القرن السادس بقوله « لو كانت الحمير متدينة لتصورت آلهتها على هيئة حمير » . بهذا نختم كلامنا عن تمثيل الآلهة على هيئة البشر وهو لب الأساطير . وقد كان يوريبيديس يندد « بقصص الشعراء الزرية » مع أنه كان شاعراً وكان يرى أن الإله الذي يخطىء ليس بإله والذي يشتهي شيئاً لا يمكن أن يكون إلهاً لأن الله كامل تام ، ويندد أفلاطون بالشعراء كل التنديد لنشرهم قصصاً تافهة زائفة بل وخبيثة بالفعل عن الآلهة ، كقولهم إنهم يتحاربون أو يستسلمون للانفعالات مثل الحزن والغضب والجور وهو لا يقبل هوميروس في « جمهوريته » على كره منه . وهو غاضب جداً على شعراء المآسي لنشرهم أفكاراً لا تليق بالإله المعبود .

من الجائز جداً أنه كان هناك شعراء للمآسي من طبقة أدنى يستحقون انتقادات أفلاطون ، أما بالنسبة لشعراء المآسي الذين نعرفهم فإن حملة أفلاطون تعتبر سخيفة ، فهي الهجوم الذي يقوم به على الفنان فيلسوف لا يسلم بأن هناك طريقاً آخر يؤدي إلى الحقيقة إلا طريقه ، وهي هجوم

فيلسوف متزمت فى فهمه كان أقرب إلى أن يكون شاعراً من كثير ممن تحايلوا حتى أصبحوا شعراء، فقد ابتكر بعضاً من أعمق وأجمل الأساطير الإغريقية(١). إن هناك، على حد قول أفلاطون، نزاعاً طويلا بين الفلسفة والشعر، كان قائماً بالفعل من جانب الفلاسفة كما كان قائماً قبل كل شيء فى نفس أفلاطون.

ولكن الشعراء لم يكونوا يشعرون بهذا النزاع. لقد كان بنداروس وايسخولوس وسوفوكليس ويوربيديس شعراء فلسفيين إن كان الشعراء الفلاسفة حقاً قد وجدوا يوماً ما. وقد كانت طريقتهم الطبيعية هى استخدام الأساطير حتى الأساطير التى تتنافى مع الأخلاق. ومن المهم أن نفهم كيف استخدموها، فقد كان الشعراء المسرحيون يكتبون فى الظاهر مسرحيات «عن» شخصيات أسطورية. والواقع أنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل. إن هؤلاء الرجال لم يضيعوا وقتهم ووقت بلدهم فى تصوير شخصيات مأخوذة من «سفينة نوح»، ولو أن شيئاً من هذا القبيل يبدو أن النقاد قد افترضوه، وهم الذين كتبوا أنهم قد ضاقوا ذرعاً بالأساطير التى استخدمها الشعراء، مع أنه ليس هناك ما هو أكثر زيفاً وأقل ذكاء من ذلك، فإن الشعراء قد أخذوا مسرحياتهم من واقع مكافحاتهم للمشاكل الدينية والخلقية والفلسفية الموجودة فى زمانهم، وقد استخدموا الأساطير إلى حد كبير مثلما استخدم شيكسبير هولينشد Holinshed وبمثل حريته فى التصرف. وقصة يوريبيديس «المساة» ميديا Medea معروفة معرفة كافية، فإن ميديا التى خانها زوجها جاسون تقتل فضلا عن زوجة جاسون الكورنثيه الجديدة أولادها وهم أولاد جاسون. والحادث الرئيسى هنا وهو قتل الأم لأولادها من ابتكار يوريبيديس. فى بعض الروايات السابقة أن أهل كورنثا هم الذين

(١) أنظر مثلا الى الصفحات القليلة الأخيرة من محاورة «جورجياس»

قتلوا الأولاد . ومعنى هذا أن يوريبيديس غير الأسطورة تغييراً تاماً لكي يعبر عن فكرته هو . ولم تكن فكرته ، كما يبدو أن بعض المخرجين الحديثين يظنونها ، هي أن يخلق دوراً لممثلة مآسي من نجوم المسرح أو أن يكتب بحثاً سيكولوجياً لا يكاد يحتمل تصديقه ، وإنما كان يقصد أن يبين أن العاطفة التي لا يتحكم فيها العقل تدمر من تعانيها بالذات كما تدمر المجتمع كله . وكان ايسخولوس بالمثل يستطيع أن يستخدم أعنف الأساطير القديمة ويملأها بالمغزى العميق . ففي مسرحية بروميثيوس يستخدم قصة نشأة الكون القديمة الخاصة بقتال الآلهة بعضهم لبعض وبتحدى بروميثيوس لزيوس ومقاساته عذاب الدهر نتيجة لذلك . ومطالبة ارتيميس لأجاممنون في مسرحية «أوريستيا Oresteia» بأن يقدم ابنته قرباناً لها إنما هي أسطورة ترجع في أصلها إلى أبعد العصور التي كانت تقدم فيها القرابين البشرية . ولا تحدث تصرفات أبوللون مع كاسندرا وهي التي وردت بعد ذلك في المسرحية صدمات نفسية أقل من سابقتها بكثير ، ولكنه اتخذ من هذه الأساطير قصتين مسرحيتين قويتين — إحداهما ناقصة للأسف — وهما تحتلان مكانهما بين أسمى روائع ما أنتجه العقل البشري . فهما مسرحيتان عن مولد قوة التفكير ونموها وعن مولد النظام والرحمة بين الآلهة والناس على السواء .

وهكذا يستطيع الإنسان أن يظهر كيف أن الأساطير قد بقيت حيوية تزخر بمعنى ديني فلسفي عميق عند كل الكتاب المسرحيين وعند بنداروس وإن يكن بطريقة مختلفة نوعاً ما . فقد ظلت تفسيرية في جوهرها كما كانت دائماً . ولو أنها أصبحت بعد ذلك في أيدي هؤلاء الشعراء الموقورين الأقوياء شرحاً للحياة الإنسانية وللنفس البشرية .

غير أن مستقبل التفكير الديني عند الإغريق لم يكن رهناً بالأساطير ولا بالآلهة الأولمبيين بل ولا بديانات الأسرار التي كانت شخصية أكثر

من سواها كما كانت مكملة للعبادات الأولمبية ولكنه كان رهناً بالفلاسفة ، فالعنصر الإغريقي في المسيحية هائل ومستمد من أفلاطون . إن زيوس الذي كتب عنه ايسخولوس ولو أنه كان طاهراً علياً إلا أنه كان معبوداً خاصاً بالبوليس الإغريقية بدرجة لا تسمح له بأن يصبح إله الجنس البشرى . كما أن إله اليهود ماكان من الممكن أن يصبح إله الأمم الأخرى كذلك دون تغيير جسيم . لقد كانت الفلسفة الإغريقية لا سيما فكرة أفلاطون عن المعبود المطلق الباقي هي التي أعدت العالم لاستقبال دين عالمى .

أما فيما يتعلق بالأساطير الإغريقية فإن بعض مسرحيات يوريبيديس المتأخرة تبين كيف أن مركز الجاذبية كان آخذاً في الانتقال . إذ أخذ التفكير الجدى يسير في اتجاهات فلسفية محضة وأخذ يوم الشعر الراقى في الغروب كما أخذت وحدة الأساطير والدين الكلاسية في التفكك . فقد أخذ يوريبيديس حوالى نهاية القرن الخامس يستخدم الأساطير بطريق السخرية واللهو والإغراق فى العاطفة والخيال (كما فى «أيون» و «إيفيجينيا فى تاورس» و «هيلينا») فقد صرنا إذ ذاك قاب قوسين من المرحلة النهائية للأساطير الإغريقية ، وهى المرحلة التى نعرفها عنهم أكثر من سواها بفضل الشعراء الهيلينيين والرومانيين . وقد تمت التفرقة بين الأساطير والتفكير كنتيجة لفتوحات الإسكندر . فأخذت الآلهة التى لاتعيها الذاكرة والمعبودات المحلية لبلاد الإغريق وطقوس عباداتهم المحلية تبدو بعيدة جداً وشاحبة للإغريق الذين يعيشون معيشة الغربة تحت حكم ملك قوى فى مدن مصر وآسيا الإغريقية أو نصف الإغريقية . وكما نشأ فيما بيننا اهتمام وشوق إلى الفولكلور عندما انتزع الشعب من الريف انتزاعاً ، وسيق زرافات إلى المدن فكذلك نجد فى العصر الهيلينى الجديد ، عندما تشتت الإغريق وانتهت الحياة القديمة أن النشاط فى البحث عن الخرافات المحلية وطقوس عبادات الوطن قد عم وأن هذه الخرافات والطقوس قد صنفت فى قوائم ولم تعد

أساطير حية بل مجرد آثار جذابة اتجه إليها الشعراء والفنانون بحماسة وهم شعراء مطلعون — مثل بعض من نعرفهم اليوم — وأخذوا يؤلفون لا من أجل بوليس حية يرونها بأعينهم بل من أجل الجمهور المتعلم حيثما وجد ، وهو منتشر فى العالم الكبير الجديد . هذا العصر أى العصر الإسكندرى هو الوقت الذى نمت فيه الأساطير حتى صارت نوعاً من الجنون الأدبى والفنى ، حين أخذ الشعراء يروون فى أشعار رشيقة قصصاً جميلة أوفاضحة عن عشق الآلهة وتغيير أشكالهم بطريقة عجيبة . وكان هؤلاء الشعراء من المغمورين الذين لم يجدوا الإلهام أوالجمهور الذى يستمع إلى شىء أهم من ذلك . وهذا هوالعصرالذى يقع بيننا وبين الإغريق الكلاسيين ويجعلنا نظن أن الإغريق كانوا عابثين لايرجى لهم صلاح . ولم يكن هذا العصر مفتقراً إلى مفكرين من أهل الجد ولكن هؤلاء كانوا فلاسفة العصر وعلماءه لا شعراءه . ومعالجة هؤلاء الشعراء للأساطير جذابة فى أولها ، ولكنها سرعان ما تصبح شيئاً مملا لا يطاق،فهى شىء ميت أما عند بنداروس وايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيدس فقد كانت تزخر بالحياة .

الحياة والأخلاق

نفى كسينوفون الذى كان قائداً للعشرة آلاف جندى من أثينا لأسباب غير واضحة كل الوضوح ثم أصبح صديقاً شخصياً حميماً لأجيسيلاوس ملك إسبرطة الذى أعطاه قطعة أرض فى البيلوبونيز فى مكان يدعى سكيلوس بالقرب من أوليمبيا وهو مكان يصلح لسكنى من لا يمكنه أن يسكن فى أتيكا لأن كل إنسان كان من عادته أن يذهب إلى أوليمبيا إن قريباً وإن بعيداً ؛ وفى هذا المكان لابد أنه كتب أكثر كتبه بما فيها «التقهقر — الانسحاب» Anabasis وهو وصف لحملة قورش وما تلاها جعل منه مناسبة لوصف مكان اعتكافه الريفى.

وكان عشر غنائم العشرة آلاف جندى قد خصص لأبوللون وأرتيميس. وقد كان القواد مسئولين عن ذلك كل على حده. وما تسلمه كسينوفون من أجل أبوللون وهبه فى دلفوى لخزانة الأثينيين. أما ما كان يجب دفعه لأرتيميس حامية أفسوس (ديانا حامية أهل أفسوس) فقد تركه فى عهدة من يدعى ميجابيزوس Megabyzus وهو كاهن من كهنة أرتيميس لأن كسينوفون كان ذاهباً مع أجيسيلاوس وباقى العشرة آلاف (الآن ٨٦٠٠) فى معركة ضد طيبة وبالتالى ضد آثينا. وبالنظر إلى بقائه حياً بعد المعركة فقد زاره ميجابيزوس فى معتكفه الريفى القريب عند قدومه لمشاهدة الألعاب الأولمبية ورد إليه المال اللازم دفعه لأرتيميس، فاشترى به كسينوفون أرضاً فى جهة أشار عليه بها أبوللون فى دلفوى. والواقع أن نهر سيلينوس يخترق هذه الأرض كما يجرى أيضاً أمام معبد أرتيميس فى أفسوس وفيه يوجد السمك والمحار. وكان هناك صيد فى الأرض الموجودة فى سكيلوس من كل أنواع الحيوان الذى يمكنك ذكره. وقد بنى كسينوفون من هذا

المال مذبحاً ومعبداً وحدد عشر محصول الأرض سنوياً لتقديم قربان للربة في مهرجان كان يدعو إليه كل المواطنين والجيران وزوجاتهم . وكانت الربة تمد من يحضرون بوجبة شعير وخبز ونبيذ وحلوى ونصيب من القرابين التي تقدم من المرعى المقدس وكذلك من حيوانات الصيد . لأن أولاد كسينوفون والمواطنين الآخرين كانوا يذهبون للصيد قبل المهرجان كما كان يشترك معهم في ذلك الرجال أيضاً إن أرادوا ، وقد كانت الحيوانات كالخنازير البرية والغزلان والوعول تصاد أحياناً من الأرض المقدسة وأحياناً أخرى من فولوى Pholoë . وكانت الأرض واقعة على الدرب الموصل من إسبرطة إلى أولمبيا على بعد ميلين ونصف ميل من معبد زيوس في أولمبيا . وهي تشتمل على مرعى وتلال تكسوها الأشجار تعيش عليها الخنازير والماعز والبقر والخيل . حتى أن دواب الحمل الخاصة بمن يأتون إلى الوليمة كانت تأكل منها كما تشاء ، وكان حول المعبد بستان مزروع به كل نوع من أشجار الفاكهة . وكان المعبد نموذجاً مصغراً لمعبد أفسوس كما كان التمثال مصنوعاً من شجر السرو وهو نسخة من التمثال الذهبي الذي هناك . وكان مكتوباً على أحد الأعمدة التي إلى جوار المعبد . « هذا العقار مكرس لارتيميس ، وكل من يمتلكه ويتمتع بمنتجاته يجب أن يوزع منها العشر كل سنة ويصلح المعبد من الفائض فإن لم يفعل ذلك فإن الربة تنظر في أمره » .

إن هذه لصورة خلابة لمظهر واحد من مظاهر الحياة الريفية في إحدى أنحاء بلاد الإغريق التي تمتاز عن غيرها باعتدال الجو . ويستطيع الإنسان أن يتصور أن المواطنين والجيران قد أخذهم شيء من الحيرة بشأن هذا الغريب ذي الأهمية البالغة الذي استقر بين ظهرانيهم . وهو رجل سبق أن قاد أولئك المرتزقة عائداً بهم من أقصى الأرض ، وكانت علاقته طيبة جداً

بأجيسيلاوس ملك أسبرطة التي كان يؤلف كتابا عنها ، كما كان يؤلف غير ذلك من الكتب — فيما يقال — بما فيها كتاب أو كتابان عن أثينى عجيب ليس ذا أهمية ولو أن كسينوفون كثيراً ما كان يتحدث عنه فهو فيلسوف كان يدعى سقراط أو نحو ذلك . ولو أنك لا تكاد تعتقد بوجود كثير من هذا الهراء عن كسينوفون — فهو رجل متدين جداً وعاقل وعملي جداً — ولكن يحتمل أنه كان يبالغ فى مراعاة الصغائر فقد كان يعطى قيمة كبرى بالفعل لوضع كل شيء فى موضعه . ويظهر هذا واضحاً جداً من رسالة صغيرة شيقة جداً عنوانها بالإغريقية « إقتصاديات » ومعناه الحرفى إدارة البيت والأرض . وهى معروضة بطريقة لطيفة جداً على هيئة حوار بين سقراط وبين إيسخوماخوس Ischomachus وهو سيد آثيني من أهل الريف . وهذه هى المرة الوحيدة التى نجد فيها من يحاور سقراط يقوم بأغلب الحديث . فعند إيسخوماخوس مايقوله عن تدريب زوجته ، إذ هى لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة عندما تزوجها . لأن النساء فى إقليم البحر الأبيض المتوسط يتزوجن فى وقت مبكر فعلا ، وكانت قد قضت طفولتها فى عزلة تامة حتى لا تعرف أكثر مما ينبغى . وقد كانت تعرف كيف تصنع قيصاً من الصوف وكيف تشرف على الخدم وهم يغزلون ، ولكن إيسخوماخوس تولى تعليمها غير ذلك من الأمور مبتدئاً بتقديم قربان مصحوب بالصلوات . وقد شاركته فى ذلك زوجته الصغيرة عن تقوى كتقوى زوجها . وقد بين لها أنه اختارها كما اختاره أبواها ليكون كل منهما أحسن شريك أنسب لإدارة منزلها وأنجاب ذرية ممتازة فى كل شيء تكون عوناً لهما فى شيخوختهما . وقد كان نصيبه أن يتولى شئون البيت الخارجية . وسنسمع عن قريب كيفية اختيار الوكيل والعمال وتدريبهم ليواصلوا العمل بإخلاص وانشراح بينما كان عليها أن تعتنى إلى أقصى حد بتدبير ما يحضره . ومن رعاية الله أن جعل طبيعتى الرجال والنساء مختلفتين تبعاً لذلك . ولو أنهما من حيث الفضائل الخلقية يقفان

على قدم المساواة . وهو يقارن الزوجة بملكة النحل فعليها مراعاة التدبير بحيث لا تستهلك فى شهر ما ينبغى استهلاكه فى عام ، كما أن عليها أن تصنع الثياب لمن هم فى حاجة إليها وتراعى حفظ الأغذية المجففة لتكون صالحة عند الحاجة إليها ، وربما كان واجب العناية بالأرقاء أثناء مرضهم من أبغض الأمور ، غير أن الزوجة الصغيرة تبدد كل مخاوفه بهذا الصدد قائلة « ستكون العناية بهم من أحب الوظائف إلى فإن الذين تحسن معاملتهم غالباً ما يكونون حافظين للجميل ومرتبطين بى أكثر من ذى قبل » .

ويستمر الدرس بما فيه من ملاحظات على تدريب الخادمات على الصناعات المنزلية . لقد وصلنا الآن إلى البيت نفسه . إن ترتيبه يجرى بعناية شديدة ودون أى إسراف حتى يلائم الغرض منه ، وتبدو كل غرفة وكأنها ترحب بما يوضع فيها . وهكذا نرى أن الغرفة الداخلية تحتوى على أثمن السجاجيد والأوانى لأنها أثمن الغرف . أما القمح فإنه يوضع فى أجف الغرف كما يوضع النبيذ فى أرطب الغرف وألطفها بينما توضع أصص الأزهار الفاخرة وغيرها من القطع الفنية التى تحب رؤيتها فى أكثر غرفة يدخلها النور . والمنزل يواجه الجنوب بحيث أن غرف الجلوس تدخلها الشمس فى الشتاء ولكنها ظليلة فى الصيف (وليس من شك فى أن خارجها صف ضئيل من الأشجار) وقد كان إيسخوماخوس يصر على الترتيب والنظام . إذ كيف يكون حال الجيش أو فرقة المغنين بدون مراعاة النظام الدقيق ؟ وقد ذكر لزوجته قصة سفينة فينيقية رآها ذات مرة وحبالها المتنوعة مخزونة فى حيز يبلغ من الصغر حداً لا يصدق فهو لا يزيد عن غرفة طعام ذات حجم مناسب ، غير أن كل شىء بها كان من السهل الوصول إليه بعد طلبه بلحظة . وكان يستطيع البحار أن يضع يده مباشرة على ما يحتاجه عند أشد الطوارىء . ولا ريب أن النظام شىء ممتاز جداً فى حد ذاته . فما أجمل منظر الثياب والأحذية بل وأوانى الطبخ عندما تنظم تنظيما مناسباً .

أما فيما يتعلق بأسلوب حياته الخاص فقد أوضح إيسخوماخوس لسقراط أنه يستيقظ مبكراً (أى عند الفجر بالتأكيد) حتى إذا أراد أن يزور رجلا فى شأن من شئون العمل فمن المحتمل أن يجده فى منزله كما أنه يفيد من المشى (ويفهم من هذا ضمناً أن المشى أفضل من الانتظار إلى ما قبل الظهيرة حتى يعثر على من يريد فى السوق) فإن لم يكن له عمل خاص فى المدينة فإن الخادم ينطلق بحصانه إلى المزرعة أما هو فإنه يمشى على قدميه بقصد الرياضة لأن هذا أفضل من المشى ذهاباً وإياباً فى أحد أروقة المدينة . وهو يرى فى المزرعة ما يقوم به الناس من عمل فإن خطر بباله إجراء أى تحسين أوصاهم به ثم ركب جواده مخترقاً الحقول كما لو كان فى ساحة الحرب واضعاً نصب عينيه أن يحافظ عليه من العرج . ثم يعطى حصانه للسائس ويعود للمدينة مشياً أحياناً وجرياً أحياناً أخرى . ثم يمسح عن بدنه الفائض من الزيت لأن الرياضى كان يدلك جسمه بالزيت ويزيل الفائض (بالإسترجيل) وهى آلة مقوسة للتدليك . بعد ذلك كان يتناول إيسخوماخوس غذاءه وهو أول طعام اليوم . وكان حريصاً على ألا يفرط فى الأكل . أما ماذا كان يصنع فى بقية اليوم فلم نسمع عنه شيئاً . ولاشك أنه كان عامراً بالعمل الخاص والعام وبالكلام مع أمثال سقراط من الناس . وقد كان سقراط يعجب بهذا الأسلوب من أساليب العيش ويقول « ليس من عجب إذن أن تعتبر من أحسن فرساننا وأغنى مواطنينا ما دمت شديد العناية بهذين الأمرين على السواء » فيجيبه إيسخوماخوس « ومع ذلك فأنا لست محبوباً بين الناس » وهنا لا تلوح أية ابتسامة على وجهه كما لا تلوح أية بسمة على وجه كسينوفون .

إلى أى مدى يعتبر كل هذا نموذجياً ؟ لو كان لدينا قدر من أمثال ما ذكرناه نقارنه به لأمكننا الإجابة على هذا السؤال ، ولكن ليس لدينا شىء من ذلك . والذى يخطر ببالى أنه ليس نموذجياً بالمرة بصرف النظر عن كون

إيسخوماخوس رجلا غنياً . إن هناك أثراً من طابع القرن الثامن عشر موجوداً عند كسينوفون — تقواه الدقيقة وحبه للنظام ووقاره الممتاز وأسلوبه الدارج المحبوب . وقد وجد صحبة الأسبرطيين مما تناسب ذوقه ، ومن المحتمل أنه اشتغل مع المستبدين الثلاثين ذوى السمعة السيئة الذين أرهبوا أثينا فترة قصيرة بعد انتهاء حرب البيلوبونيز . وعلى العموم فهو ليس بالأثيني النموذجي . وإنه ليكون من قبيل السذاجة البالغة أن نفترض أن الآراء التي وردت عن الزواج وتربية البنات — وهي المنسوبة إلى إيسخوماخوس الذى لا تبدو عليه مخائل النجابة العظيمة — تمثل العادات الأثينية السائدة .

إننا لابد أن نعود إلى هذه المسألة غير أن أمرين من الأمور التفصيلية التي تعتبر بالتأكيد نموذجاً لما كان يحدث هما عدم تناول طعام الإفطار والارتباط الوثيق بين حياة المدينة وحياة الريف .

قد رأينا الآن شيئاً من حياة الريف فى أوائل القرن الرابع ولو أن ذلك كان من وجهة نظر قائد متقاعد له ذوق فى نوع من التاريخ والفلسفة لا يمتاز بالعمق الكبير . هل فى استطاعتنا حقاً أن ننتقل إلى الريف بين الرعاة على الجبال أو مع الفلاح العامل فى واد بعيد ؟ هذا أمر صعب بشكل عجيب ، فليس عندنا سجلات كالتى فى الأديرة أو فى بيوت سادة الأرض من النبلاء ، وهى التى يحظى بها مؤرخ القرون الوسطى . ولم تكن المؤلفات التي تصدر فى دولة المدينة مستفيضة أو كثيرة الاستطراد . ونحن نسمع عن احتفالات ريفية ولو أنها ليست كلها بلاشك من النوع اللائق كاحتفال كسينوفون . كما نسمع عن خرافات ريفية قديمة ومعتقدات غريبة لأن الأجزاء البرية فى بلاد الإغريق كانت موحشة ، ففى أركاديا يظهر أن شيئاً بدائياً جداً مثل تقديم قربان بشرى كان يمارسه الناس ، فى القرن الخامس .

ويعطينا أريستوفانيس فى مسرحيتى « الأخارنيون » ، السلام[1] ، بصفة خاصة ، صورة للفلاح الأتيكى الذى أرغمه الاحتلال الإسبرطى على الانتقال إلى المدينة رغم أنه يكرهها . وفى مسرحية أهل أخارناى نقابل شخصيتين مثل « هارى لاودر » ، فهما فلاحان من طيبة وميجارا أضرت بهما الحرب ضرراً بليغاً ولكن ليس هناك وصف تفصيلى أومتتابع عنهما . وعلينا أن نرجع إلى هزيود قبل قرنين أوأكثر ونحن واثقون من أن صورة العمل المتواصل والتخطيط لم يكن قد عفا عليها الزمان وأن نتقدم قرناً عبر الزمان حتى نصل إلى ثيوكريتوس Theocritus ورعاته الذين تركوا وراءهم نتاجاً أدبياً هائلا عما ترنموا به عن دامون ودافنس ولوكيداس[2] ، كما تركوا خلفاً لهم من الرعاة الذين يعيشون اليوم ولو أنهم لا يرتجلون كأسلافهم الأغانى السداسية الوزن الرشيقة اللاذعة وما تمتاز به من ترجيع . فإنهم على الأقل يترنمون على مزاميرهم ويبتدعون الأغانى أو هكذا كانوا يفعلون حتى جعلتهم الحرب يفكرون فى شىء آخر . إن الراعى عند ثيوكريتوس يبدو لنا طبعاً فى صورة مثالية ولكن هذه المثالية قد لا تكون عظيمة جداً فى أنشودتين (٤ ، ٥) من أكثر أناشيد الرعاة واقعية . وتعطينا أنشودة ثيوكريتوس السابعة صورة بهيجة عن نزهة ريفية وسير طويل ذات يوم حار فى جزيرة كوس . فإذا تقدمنا أربعة قرون أخرى عبر الزمن لنصل إلى كتابات ديوخروسوستوم Dio Chrysostom وهو خطيب متأنق اعتنق الفلسفة ، نجد وصفاً مفصلا فيه عطف شديد على أسرتين من الصيادين البسطاء كانتا تعيشان فى وحدة تامة على أرض بور فى ناحية بعيدة من يوبويا ومن

---

(١) نظم الشاعر مسرحيتين : أهل أخارنيا (Acharnai) والسلام Eirene .

(٢) هذه أسماء رعاة خلدها ثيوكريتوس فى أناشيده ، أوردها المؤلف فى صورة الجمع للدلالة على كثرتها فى ديوان ثيوكريتوس ومقلديه من شعراء اليونان والرومان .

بينهما رجل لم يأت إلى المدينة فى حياته قط أما الثانى فجاءها مرتين، ووصفه لها شائق جذاب(١) .

وتعطينا المسرحيات بين الحين والحين صورة سريعة واضحة إلى حد ما عن شخصية ريفية . فنى « اليكترا » التى كتبها يوريبيديس عمل إيجستوس Aegisthus الخبيث على إبعاد البطلة أو زواجها من فلاح ساذج حتى لا يطالب أولادها بالحق فى استرداد التاج من المغتصب . ونراها عند الفجر وهى تحمل جرة ماء من الينبوع رغم أن زوجها يحتج بأنها لا حاجة بها إلى هذا العمل فتجيبه « ولكنى أعمله لأنك كنت طيباً معى ، ولديك مما تعمله خارج البيت مافيه الكفاية ، أما أنا فعلى أن أرعى شئون البيت فإنه مما يسر الرجل الكادح أن يعود إلى بيته فيجد كل شئ فى أحسن نظام » ثم إذا خلت إلى نفسها برهة بعد قليل لتنتحب على أجا ممنون ظهر أعضاء الجوقة على هيئة فتيات جئن يدعونها للمهرجان فتقول اليكترا « لا ، إنى لا أستطيع أن أرقص أو أبتهج . أنظرن إلى شعرى الأشعث وثيابى المهلهلة ، أهذه جديرة بأجا ممنون وبطروادة التى استولى عليها ؟ » فيكون الجواب « لكن الربة ذات شأن عظيم ! تعالى وسوف أعيرك ثياباً موشاة وحلياً من الذهب » ولكن أخاها أوريستيس Orestes الذى طال انتظاره يصل مع بولاديس Pylades الأمين ليثأر من القتلة — وإن لم تكن الروح التى تحفزه روح بطولة عالية . وهو لا يفصح عن هويته . أما اليكترا فيصيبها ذعر قاتل من رؤية رجلين مدججين بالسلاح على مقربة جداً من بيتها . ويعود الفلاح فى الوقت المناسب فيحس بالفضيحة حين يرى زوجته تحدث شباناً بالباب فهذا لا يليق وهو يخالف التقاليد كل

---

(١) يمكن الاطلاع عليه بسهولة ملخصاً فى كتاب ج . ا . ك تومسون Gr. Tradition

المخالفة . واليكترا توضح الأمر قائلة إنهما صديقان لأخيها جاءا برسالة من أوريستيس وهذا بالفعل كل ما باح به أوريستيس ، فيقول الفلاح « أدخلا إذن ، إن بيتى متواضع ولكنى أضع كل ما فيه تحت تصرفكما » وهو يسارع إلى الدخول قبلهما فيتيح ذلك لأوريستيس فرصة إلقاء خطبة وعظية عن عدم الاغترار بالمظاهر يقول فيها « أنظروا إلى هذا الرجل فهو شخص عادى تستهين العين بمرآه ولكن ما أعظم نبله ! » والذى نلاحظه هو أن أوريستيس نفسه وهو من البيت الملكى قد برهن فى هذه المسرحية على أنه دنىء بدرجة غير عادية . ثم يدخل المسافران البيت بينما يحمل عبيدهما المتاع ويعود الفلاح إلى الظهور ، وتبكته زوجته بقولها « أنت تعلم أيها الأحمق كم يعضنا الفقر بنابه فلماذا أدخلت هؤلاء السادة ومراكزهم فى الحياة أعلى منك بكثير ؟ » فيجيب هذا الرجل المعقول « حسناً ؟ إن كانوا سادة مهذبين — وإنهم ليبدون كذلك ، ألا يرضيهم ما يجدونه ؟ » فتقول « ما دمت قد ارتكبت هذا الخطأ الفاحش فابحث عن عبدى الذى كان يخدمنى وهو الآن شيخ كبير ، فسيسره أن يسمع أن أوريستيس لا زال على قيد الحياة وسيعطيك شيئاً لطعامهم » فيجيب « حسناً جداً ، أدخلى وأعدى كل شىء فإن المرأة إذا أحرجت تستطيع أن تجد الكثير لأعداد وجبة طيبة . إن لدينا طعاماً فى البيت يكفيهم يوماً (تخرج اليكترا) . إنه لشىء عظيم أن تكون غنياً فإنك تستطيع أن تكون كريماً مع الضيوف وتعالج نفسك عند المرض ، أما بالنسبة للطعام فذلك لا يؤدى إلا إلى فرق بسيط لأن الغنى لا يستطيع أن يأكل أكثر من الفقير » وعندما يصل العبد المسن وقد اشتد به التعب من الصعود الطويل ، لأن الفلاح ليس مزارعاً غنياً من مزارعى السهل ، نجده قد أحضر معه حملا وبعض أنواع الجبن وشيئاً من الخمر المعتقة . ومع أنها ليست كثيرة جداً فهى حلوة قوية يمكن خلطها بخمر مخففة . كما أحضر

أكاليل الزهر وهي المقابل الهيليني الرشيق لملابس السهرة عندنا . غير أن ما هو أقرب صلة بموضوع القصة أنه يعرف أوريستيس فلا يكون أمام البطل مجال للتردد بعد ذلك وتسرع القصة إلى نهايتها البشعة الشائنة .

وقد وردت في مسرحية « أوريستيس » ليوريبيديس خطبة صريحة تنم عن أمانة ، وقد ألقاها في مجلس أرجوس مزارع يشتغل بيديه ، إذ كانت تجرى محاكمة أوريستيس لقتله أمه وايجستوس ، فوقف تالثوبيوس ، Talthybius المنادى الرسمي في الاجتماعات العامة وألقى خطبة غير محددة المعاني تنم عن مكر وخداع (كما قال يوريبيديس) وهو من ذلك الصنف الذي يحتفظ بصداقة الحزب الغالب .

وقد ظل ينظر دائماً وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ناحية أصدقاء إيجستوس ، ثم تلاه ديوميديس Diomedes الجندى الجاف قائلا « لا تقتلوهم بل احترموا الواجبات والروابط المقدسة بإرسالهم إلى المنفى » وقد أثار ذلك هتافات الاستحسان وهتافات الاستهجان، أما الخطيب التالي فكان دنيئاً عنيفا متدفقا كالسيل وقد اقترح أن يقتل أوريستيس رجماً بالحجارة ، وقد استحثهم الخطيب التالي على عكس ذلك فقد كان رجلا شجاعاً ولو أن مظهره لا يسترعى النظر ، كما أنه لم يكن يأتى إلى المدينة إلا نادراً فهو مزارع يعمل بيديه — هؤلاء وحدهم هم الرجال الذين يحافظون على سلامة البلاد — ولكنه كان ذكياً يميل إلى قرع الحجة بالحجة كما كان أميناً فوق الملام . وقد اقترح أن يتوج أوريستيس علناً لأنه ثأر لأبيه وقتل امرأة شريرة كافرة غادرة. ويرى يوريبيديس أن هذا الاقتراح كان من الجائز جداً قبوله لولم يكن أوريستيس من الحق بحيث يتكلم مدافعاً عن نفسه .

ومن الواضح أن يوريبيديس كان معجباً بالفلاحين ، أما عند سوفوكليس فلا ينصرف الكلام إلى الفلاحين عموماً بل إلى رجل منهم . ففي « أوديب ملكا »

نجد أن الرسول الآتى من كورنثا كان راعياً تعود أن يقضى كل صيف فى السنين الماضية مع قطعانه فوق مرتفعات كيثايرون Cithaeron . كما لايزال يفعل الإغريق عندما تجف المراعى التى على السفوح . وقد قضى ثلاثة من فصول الصيف على الجانب الآخر من كيثايرون مع راع من طيبة كان عبداً للملك لايوس . وفى ذات مرة أقبل راعى طيبة ومعه طفل كانت قد صدرت إليه الأوامر بتركه فى العراء حتى يموت ولكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على ارتكاب هذا المنكر، فأخذه منه الراعى الكورنثى وسلمه للملك الذى لم يكن له ولد، فسر به واتخذه ولداً ورباه كما لو كان ابنه ، فلما بلغ الطفل أشده ترك كورنثا فجأة ولم يعد إليها قط لسبب لم يدركه الراعى الكورنثى . فقد ذهب أوديب إلى طيبة وقدم لأهلها خدمة عظيمة منحوه من أجلها العرش الشاغر لأن لايوس كان قد قتله اللصوص، فتزوج الملكة .ثم مات ملك كورنثا المسن بعد ذلك بسنين وتحدث الناس هناك بدعوة أوديب ليخلفه . فرأى الراعى فرصته السانحة فى الحال . وانطلق إلى طيبة بأسرع ما يمكن ليكون أول من يزف البشرى إلى أوديب وهو ينتظر منه مكافأة سخية . وفضلا عن ذلك فقد كان من حقه أن يطمع فى عطف أوديب لأنه هو الذى أنقذ حياته وهو طفل . وهكذا نجده يدخل المسرحية وهو كثير الأهمية عظيم الأدب نافع وواثق جداً من أنه قد بنى صرح مستقبله ، ولكنه يتعثر عند خروجه من المسرحية وهو رجل محطم للغاية لأن نتيجة الشفقة التى أراد بها الخير لطفل لا حول له كانت أن أوديب قد كبر ليقتل أباه وليتزوج أمه .

وهناك جندى بسيط فى مسرحية « أنتيجونا » شبيه جداً بهذا الكورنثى ، فهو مستقل الرأى واضح الحديث وعلى جانب من الدهاء والحذق ومولع بمناقضة آراء الغير ، وكان عليه أن يبلغ كريون أن أحد الناس قد عصا أمره ودفن جثة الخائن ، فثار كريون ثورة عارمة وأرغى وأزبد عن الخيانة والفساد ثم انقلب على الحارس التعس وأخبره أنه إن لم يأت

بالمذنب فلابد من إعدامه شنقاً ليكون هذا درساً يعلمه معنى قبول الرشاوى .

الحارس : هل يمكنني أن أقول شيئاً أم يجب على أن أذهب فحسب ؟

كريون : ألست تعرف حتى الآن أن كل كلمة منك تسوءني ؟ .

الحارس : أين تؤذيك ؟ أفى أذنيك أم فى نفسك ؟

كريون : لماذا تتقصى موضع استيائنا ؟ .

الحارس : إنى أبعث الأسى إلى أذنيك فحسب أما المذنب فهو الذى يجلب الحزن لعقلك .

كريون : تباً لك فلست إلا ثرثاراً .

الحارس : (ببراعة) أليس هذا برهاناً على أننى لم أرتكب هذه الفعلة؟

كريون : بلى لقد ارتكبتها ! لقد بعت نفسك من أجل المال .

الحارس : وا أسفاه ! إنه لشىء مريع أن يطفر الإنسان إلى الاستنتاج الخاطىء .

إن بيان سوفوكليس الساحر أخذ يشغلنا عن موضوعنا أكثر مما ينبغى ، فقد كنا نتكلم عن الحياة الريفية ، والأدلة هى من قبيل ماذكرناه . وليس هناك كثير سواها . غير أننا قبل أن نتجه إلى حياة المدن دعنا ننظر فى شاهد من شواهد القبور عثر عليه فى أخارناى وهو الإقليم الجبلى فى أتيكا الذى كان يأتى منه الفحم النباتى . (والمفروض) أنه شاهد يخلد ذكرى عبدمات ، وهو مكتوب بالنثر العادى ماعدا الصفة الهومرية المستعملة مع « آثينا » .

هذا النصب التذكارى الجميل يشير إلى قبر مانيس بن أورروماس .

لقد كان أحسن « فروجى » فى آثينا ذات حلبات الرقص الواسعة .

وأقسم بزيوس أنى لم أر قط حطاباً أفضل منه سواى . لقد قتل فى الحرب .

والآن يمكننا أن ندخل فى معترك الحياة الصاخبة فى آثينا . وليست الصعوبة فيها هى ندرة الأدلة بل وجود ثغرات عارضة مربكة فى تلك الأدلة ، وما الدليل على ذلك ؟

إننا نجـــد فى الأدب الإغريقى أولا وقبل كل شىء مسرحيات أريستوفانيس والأجزاء الهامة الباقية من ملاهى مناندروس (ولو أنها تقع خارج نطاق العصر الذى ندرسه) وبعض مؤلفات كسينوفون وهى دون ذلك فى الأهمية مثل كتاب « الاقتصاديات » الذى ذكرناه وكتاب « الذكريات » (مذكرات سقراط) وآرائه الفلسفية (حديث المائدة) والإيرادات (مالية آثينا العامة) وخطب ديموسثينيز الخاصة بالمحاكم (وهى ليست جميعاً لديموسثينيز فعلا ولكن ذلك لايغير من الأمر شيئاً) وكثير من المناظر التى تعج بالحياة عند أفلاطون ولا سيما آراؤه الفلسفية الرائعة ، وشخصيات ثيوفراستوس theophrastus اللاذعة المسلية وهى التى ينبغى ألا يظل يجهلها أى شخص له اهتمام بالإنسانية مدة تزيد على عشرة دقائق إن كان ذلك فى إمكانه . كل ما ذكرناه من أحسن مايقرأ ولو أن واجبنا أن نقول إن بعض من قاموا بترجمته قد نشروا ستاراً من الظلمة بين القارىء وبين الأصل الإغريقى . ومن بين الأدلة الأخرى عدد وفير من أصص الزهر المزينة بمناظر من الحياة اليومية وكذلك بعض النقوش والرسوم الجنائزية .

إن من الحق أن نحاول تلخيص كل ذلك فى صفحات قليلة . وأولى بنا أن نتناول بالدرس قليـلا من النقاط العامة وأن نذكر مانستطيع من معلومات دقيقة بمناسبة هذه الدراسة : —

«لا تقل عن أى إنسان إنه سعيد إلا بعد موته» قد مرت بنا هذه الحكمة من قبل ، وإن اية معرفة مهما تكن سطحية بالحياة الإغريقية والآثينية تعيننا على توضيح سبب ذيوعها .

إن الحياة ومن ثمة التفكير قد قام بالقرب من الصخرة التى يقيم فيها العوز ونوع من صعوبة العيش ، فكانت النتيجة نوعاً من الشدة لها مابعدها من رد الفعل ، فقد كان من الممكن أن يسبب القحط المحلى أوالفيضان مجاعة محلية . فنى سنة ١٩٣٠ حدث أنى كنت سائراً وسط البيلوبونيز وبينما كنا نشترى زاداً من إحدى القرى نبهنا دليلنا إلى ضرورة شراء خبز إضافى لأن المحصول الزراعى فى القرية التالية وهى على مسيرة نصف يوم كان قد أصيب بالبلل إلى درجة جعلت الخبز هناك لا يصلح للأكل . هذا ما حدث ، فالذى يفيض عما يقيم أود الحياة هو من الضآلة ، كما أن مصاريف النقل هى من الارتفاع ، بحيث أن حادثاً يقع لسوء الحظ كتلف المحصول لا يمكن إصلاحه.

ثم كانت الحرب وقد اضرت بنا كثيراً أما بالنسبة للإغريق فقد كانت أسوأ من وجوه كثيرة . وقد سجل كسينوفون فى « الذكريات » محاورة بين سقراط ومن يدعى « أريستارخوس Aristarchus » وهو من ملاك الأرض الأغنياء ، ولكن الأعداء كانوا قد احتلوا كل أملاكه بحيث لم يضع كل إيراده فحسب بل إن أربع عشرة سيدة من قريباته اللاتى فررن من الأعداء أصبحن تحت رعايته . إن الدولة الحديثة تبذل قصارى جهودها لابتكار الوسائل المختلفة لتخفيف وقع مثل هذه الضربات على الأفراد ، أما البوليس الإغريقية بماليتها البدائية وممارستها للمذهب الفردى بحذافيره لم تقم حتى بمحاولة ذلك . فهذا أرستارخوس يقول « أنا لا أعرف كيف أستبقيهن على قيد الحياة ، ولا يمكننى أن أقترض لعدم وجود ضمان لدى ، ولا أستطيع أن أبيع أثاث بيتى إذ ليس هناك من يشتريه » . وقد اقترح سقراط حلا بسيطاً قائلا « إن النساء يعرفن بطبيعة الحال كيف يغزلن ويصنعن الثياب ، كما أن هناك سوقاً للثياب ، فاشترصوفاً ودعهن يشتغلن، ففعل أرستارخوس ذلك ثم عاد يقول بعد ذلك إن النساء يشتغلن بنشاط وإنهن أكثر بهجة ولطفاً كما أنهن يكسبن من المال ما يكفى للإنفاق عليهن ، وكانت شكواه الوحيدة

أنهن كن يتهمنه بأنه يحيا حياة الكسل . فقال سقراط « آه ، أقصص عليهن قصة الشاة التي كانت تشكو من أن كلب الحراسة لا يعمل شيئاً » .

وهذه قصة أخرى من قصص الحرب وردت في الفصل ٥٦ من كتاب ديموسثينيز، ذلك أن رجلا يدعي يوكسيثيوس نبذه زملاؤه من أهل المدينة بعد فحص موضوعه فحصاً دقيقاً على اعتبار أنه غير مولود قانوناً في أثينا ، فلجأ للمحكمة محتجاً بأنه قرار ظالم وأنه يودى به إن صح إلى الخراب ، إذ يهوى مركزه إلى مستوى الأجنبي المقيم، وهو بهذه الصفة لا يستطيع امتلاك الأرض كما يصبح خاضعاً لبعض القيود الأخرى التي يصح جداً أن تودى بمعاشه (وقد قيل أحياناً إن مثل هذا الرجل كان عرضة لأن يباع بيع الرقيق والظاهر أن هذا خطأ) وقد جاء في جانب من الأدلة التي كانت ضده أن أباه كان يرطن رطانة أجنبية (غير آثينية . وهو أمر شائق يدل على أن كل الآثينيين الصميمين كانت لهم نفس اللهجة — بخلاف اللندنيين — كما كانوا فخورين بذلك . غير أن المدعى عليه ذكر أن أباه أخذ أسيراً أثناء حرب البيلوبونيز وبيع على أنه عبد في لوكاس (بالقرب من كورفو) وعاش هناك أعواماً كثيرة فتأثرت لذلك لهجته الآثينية بطبيعة الحال . وقد نال حريته على يدى ممثل تصادف أن كان يزور لوكاس وقد دفع أقاربه هنا فديته وعاد إلى وطنه . فإذا صحت هذه القصة فإننا نستطيع أن نحزر أن العبد الآثيني أمكنه أن يقابل الممثل الآثيني الذى أخبر أقارب العبد عن مكانه . أما إن كانت القصة موضوعة فإن مؤلفها على الأقل كان يتوقع أن يصدقها الناس وإن كان يبدو أنه أبرز الدليل على صحتها .

وبالإضافة إلى ما كانت تأتى به الحرب من أحداث كانت هناك أخطار في البحر من القرصان لا سيما بعد سقوط الإمبراطورية الآثينية اليقظة . في الفصل ٥٣ من ديموسثينيز أن رجلا انطلق للبحث عن العبيد الآبقين

فأسرته سفينة مسلحة وصفدته بالإغلال (مما أضر بساقيه ضرراً بليغاً) وباعته فى آيجينا ، وقد كانت فديته ٢٦ ميناى Minae أو ٢٦٠٠ دراخمه . ويمكن ألا نعتبر الدراخمه من حيث قيمتها الشرائية الفعلية أقل من الجنيه بكثير طبقاً لسعر الجنيه الحالى . وقد ذهب إلى صديق يرهن البضائع والأملاك حتى يساعده على جمع المبلغ . وتساعدنا الحوادث التى من هذا القبيل على أن نفهم الأهمية التى كان يعلقها الإغريق دائماً على الصداقة . فقد كان الإنسان الذى ليس له أصدقاء عاجزاً حقاً عن الدفاع عن نفسه فى مثل هذا العالم .

كما أننا نجد فى الفصل ٥٢ من ديموستينيز حادثاً مماثلا وقع لرجل من هيراكليا يدعى لوكون Lycon كان على وشك الإبحار إلى ليبيا . فذهب إلى باسيون Pasion صاحب المصرف الذى كان يعامله مالياً[1] بصحبة شهود وتأكد من حسابه (١٠٤٠ دراخمه) وأفهم باسيون أن يدفع المال لكيفيسياديس Cephisiades من أهل سكودوس وهو شريك لوكون فى أعماله وقد كان بالخارج فى رحلة خاصة بشئون العمل . ولما كان باسيون لا يعرف كيفيسياديس فقد كان على الشاهدين اللذين أخذهما لوكون معه أن يثبتا شخصيته للمصرف عند عودته إلى أثينا . ثم أبحر لوكون ولكن القرصان أسروا سفينته فمات من جرح سببه له سهم أصابه . فأخذ قنصل هيراكليا فى أرجوس على عاتقه رعاية أمتعته ثم طالب بعد حين بحسابه من المصرف ولكن المصرف كان قد دفعه لكفيسياديس وفقاً لتعليمات لوكون.

ونحن كالعادة نجهل نتيجة هذه الحالة لأن علماء الأزمنة التالية الذين احتفظوا بهذا الكلام لم يهتموا به بصفته وثائق بل باعتباره نماذج لأسلوب ديموستينيز .

---

(١) أنظر الفصل الذى كتبه ت . س . جلوفر عن « بيت باسيون » فى كتابه « من بريكليس إلى فيليب » ففيه موضوع شائق بهيج عن الشئون المصرفية .

وهكذا نستطيع أن نقضي وقتاً طويلا نواصل الحديث عن مصادرات وقتل ونفي جرت على نطاق واسع وإن لم تتعرض لمخاطر الثورات . ولم تكن شكوى أثينا من هذا الداء خاصة ، بمقدار ما كانت تشكو منه بعض الدويلات الأخرى ، غير أنها عوضاً عن ذلك كانت تعاني أو بالأحرى كان المواطنون الذين هم أهل للمهاجمة يعانون من صنف من الناس يفيد اسمهم الإغريقي (طفيلي .Sycophant) معنى أكثر بكثير مما يدل عليه اللفظ في اللغات الحديثة ، ولدينا شكاوى مرة من هـــذا الوباء الاجتماعي من أرستوفانيس ومن بعده . ويسجل كسينوفون في كتابه (الذكريات Memorabilia الفصل الثاني الفقرة التاسعة) محاورة بين سقراط وصديق موسر يدعى كريتو Crito أشار إلى أنه كان من الصعب جداً أن يعيش الإنسان بسلام « لأن الناس يقيمون الدعاوى ضدي في هذه اللحظة لا لأني أسأت إليهم ولكن لأنهم يعتقدون أني أفضل أن أدفع لهم مالا على أن أتحمل مشاق الذهاب إلى المحكمة » . ولما كان سقراط رجلا عملياً (كما هو دائماً في الذكريات) فقد اقترح على كريتو أن يعقد أواصر الصداقة مع رجل يدعى أرخيديموس وهو ذو مقدرة ونزاهة عظمى كما أنه خطيب مفوه ولو أنه فقير إلا أنه كان يكره الطرق السهلة التي تؤدي للثراء . ولهذا كان من عادة كريتو أن يدعو أرخيديموس Archedemus كلما قام بتقديم قربان (وهو تصرف جدير بالملاحظة) . وفي مقابل ذلك وجه أرخيديموس عنايته إلى بعض هؤلاء « الطفيليين » فاكتشف بعض المخالفات التي ارتكبوها وأخذ يقاضيهم بلا رحمة بمعونة بعض المواطنين الذين كانوا قد أرغموا على دفع أتاوات لهم تفادياً لاتهاماتهم ، مما ألجأ هؤلاء إلى الوعد بترك كريتو وشأنه وإلى دفع مبلغ لأرخيديموس فضلا عن ذلك . وحين عيره الناس بأنه متطفل على كريتو كان رده « أيهما أشرف ، أن تكون صديقاً للأمناء وعدوا للخبثاء أو أن تجعل الأمناء أعداءك والخبثاء أصدقاءك ؟ » .

ولدينا صورة لمثل هذا الطفيلي ، وهو ستيفانوس Stephanus ، في خطبة عنوانها « ضد نيأيرا Neara » مكتوبة بأسلوب شيق وإن تكن منافية جداً للأخلاق (الفصل ٥٩ في ديموستينيز ولو أن من الجائز أنه لم يكتبه) فقد وصف ستيفانوس في هذا الهجوم العنيف بأنه يفرض الأتاوات على الناس ويعيش على المال الذي تكسبه زوجته من طرق غير شريفة ، وقد زوج بناتها العديدات المومسات بطرق غير قانونية من مواطنين آثينيين ، فقد كان يتظاهر زوراً بأنهن بناته من أم آثينية . وقد قال عنه الرجل الذي يقاضيه إنه لا يحصل على دخل يذكر من الحياة السياسية لأنه لم يكن معدوداً من الخطباء المنظمين ، بل كان متطفلا يجلس بالقرب من المنصة ويعلن الاتهامات ويقدم المعلومات لمن يستأجرها ويضيف اسمه إلى مقترحات الآخرين . ثم تعرض له كالبستراتوس Callistratus وهو من زعماء رجال الحكم إذ ذاك ، ولو أنه لم يكن حسن الحظ فقد حكم عليه في آخر الأمر بالإعدام في لحظة من لحظات غضب الشعب ، لأن رجلا حديث النعمة من أهل تساليا قام بغارة بحرية على بيريه .

وينبغي ألا نصدق دائماً الاتهامات التي كانت توجه في المحاكم الآثينية دون تحفظ . ومع ذلك فإن الشكاوى من التآمر وشهادة الزور كانت شائعة جداً كما كانت مؤيدة بالحجة والدليل في بعض الأحيان بحيث أنه لم يكن من الممكن أن تكون مجهولة أو أن يكون من الصعب على رجال من ذوي التصميم والمهارة أن يستغلوا بهذه الطريقة « محاكم الشعب » هذه التي تتألف من الهواة . وقد كان من الصيغ العادية التي تتردد عادة « لقد خدعكم تماماً هؤلاء الأوباش الذين لا مبدأ لهم إلى حد أن .... » مثال ذلك أن أبولودوروس Apollodorus أحد الذين اتهموا ستفانوس في هذه الخطب روى أنه كان عضواً في البوليه Boulê عندما قرر المجلس أن يرسل كل قوته إلى أوليثوس Olynthus ولهذا اقترح « ابولودوروس » أنه مادامت أثينا في حرب فينبغي أن يحول الدخل الفائض من المال المخصص للمهرجان إلى الحرب .

ولما كان هذا مطابقاً للقانون فقد أقر المجلس الاقتراح دون معارضة . ولكن ستفانوس هاجمه على انه غير دستورى وقدم شهادة زور ليؤيد تهمة أن أبولودوروس كان مديناً للخزانة سنين كثيرة ، ولهذا أصبح ممنوعاً من تقديم أى اقتراح فى المجلس . وقد كان قرار المحلفين فى صالحه لتقديمه كثيراً من الاتهامات التى لم يكن لها علاقة بتاتاً بالموضوع ، ورغم توسلات أبولودوروس فقد طالب ستفانوس بغرامة هائلة قدرها ١٥ « تالنت » (يمكننا أن نقدرها بحوالى ٧٥٫٠٠٠ جنيه) وهى على حد قول أبولودوروس تبلغ خمسة أضعاف ما كان يمتلك ، ولو أن الغرامة لم تدفع فى خلال السنة لتضاعفت ولصودرت كل أملاكه ولانتهى الأمر بأبولودوروس وأسرته إلى التسول ، ولما تزوج أحد من ابنته ، ولكن المحلفين خفضوا الغرامة إلى « تالنت » واحد استطاع أن يدفعه بكل مشقة قائلا : « إنى أشكركم على ذلك فغضبكم أيها السادة لا يرجع إلى المحلفين الذين خدعوا بل إلى الشخص الذى خدعهم » ثم استمر فى حديثه قائلا « ولذلك فإن لدى داعياً قوياً لتقديم هذه الدعوى ضده » وقد كان المتقاضون يتكلمون بصراحة تامة عن رغبتهم فى الانتقام لسببين على الأقل ، فإن هذا التفسير عند تصديقه كان يدفع عنهم شبهة كونهم « طفيليين » كما أن طلب الانتقام كان مسألة شرف وكرامة شخصية .

أما فيما يتعلق بيوكسيثيوس Euxitheus الذى ذكرناه منذ قليل فهناك قصة شائقة يبدو أنها صحيحة . ذلك أن المستأنف (على حد قوله) كان قد أساء إلى سياسى عنيف عديم الذمة يدعى يوبوليديس Eubulides ، إذ كان قد شهد ضده فى قضية خسرها يوبوليديس بأغلبية أصوات كبيرة فكان انتقام يوبوليديس هو أن يدبر شطب يوكسيثيوس من السجل لأنه إذا أمكن إثبات أن المدعى قد تسلل إلى السجل بطريقة غير قانونية فإنه كان معرضاً لأن يباع بيع الرقيق وتصادر ممتلكاته . ويلوح بصورة غامضة أن طريقة يوبوليديس

كانت مألوفة ، فقد تصادف أنه كان عضواً فى البوليه وبهذه الصفة طلب اجتماع أهل الناحية لفحص السجل وأضاع أكثر اليوم فى إلقاء الخطب وصياغة القرارات بحيث أن التصويت الفعلى لم يبدأ إلا فى وقت متأخر جداً ، وكان الظلام قد حل قبل أن ينادى على المدعى وهو الذى فاجأه الموضوع كله فى الظاهر . وكان أكثر رجال الناحية قد ذهبوا إلى بيوتهم لأن أكثرهم كانوا يقيمون فى الواقع فى ناحية تبعد عن المدينة بأربعة أميال تقريباً ، ولم يبق معه إلا الذين كان يوبوليديس قد أغراهم على البقاء بالرشوة ، ورغم احتجاجات المدعى فقد أصر يوبوليديس على أخذ الأصوات ، ولم يكن الذين أعطوا أصواتهم أكثر من ثلاثين ولكن عند إحصاء الأصوات بلغت أكثر من ستين حتى أننا دهشنا جميعاً ، ولا عجب فى ذلك . وعند قراءة هذه الخطب الممتعة يحسن بنا أن نتذكر شيئين ، أحدهما واضح إلى حد كبير وهو أن الإنسان يقابل فى دور القضاء محتالين أكثر مما يجد فى المجتمعات العامة ، وثانيهما هو العصر الذى تنتمى إليه وهو منتصف القرن الرابع . وهما يقدمان لنا فى الحقيقة دليلا وافياً على الحجة التى أوردناها فى الفصل الخاص « باضمحلال البوليس » . فقد كانت الحياة فى أثينا من التعقيد بحيث أن فكرة الهواية التى كانت تمتاز بها البوليس لم تعد مجدية تماماً ، إذ أن أوان النظرية التى قام عليها الدستور الأثينى ، ومثله فى ذلك مثل الدستور الأمريكى — كان قد فات .

ومن الممكن أن نذكر الكثير عن الأعباء والمضايقات التى كانت المصالح العامة تورط فيها الأغنياء وكذلك ضروب القلق والمخاطر التى كان منصب الدولة يعرض لها الرجل الفقير ، غير أن هناك جوانب أخرى من الحياة تتطلب الاهتمام . وإنه لمن الخطأ أن نناقش مخاطر الحياة العامة ما دام الجانب العادى فيها والذى لا يتميز بأية أحداث لم يسجله التاريخ ، وقد ذكرنا ما يكفى لبيان أن الحياة حتى فى أثينا لم تكن

من الأمن والرتابة بحيث يمكن أن توصف بالسخف . فالواقع أن الانتقال من حضارة سوفوكليس وأفلاطون التي تتسم بالكمال إلى الحياة الإغريقية في حالتها البدائية هو نوع من التجربة التي تشبه الفصام العقلي .

إن اهتمام غالبية الرجال موجه للمرأة أما غالبية النساء فاهتمامهن موجه لأنفسهن . ولندرس إذن مركز المرأة في أثينا . أن الرأى المسلم به وهو الذى لم يجد فيما أعلم أحداً يناوئه إلا « أ . جوم »[1] هو أن المرأة الأثينية كانت تعيش في عزلة شبه شرقية كما كان ينظر إليها بقليل من الاعتبار إن لم يكن بازدراء .

والدليل على ذلك مستمد من الأدب مباشرة من جهة ومن مركز النساء القانوني من جهة أخرى وهو دون مركز الرجال . فالأدب الإغريقي يرينا مجتمعاً كله من الذكور وليس للحياة المنزلية دور فيه . والملهاة القديمة تعالج كل مايتصل بالرجال وحدهم تقريباً (فيما عدا « لوسستراتا Lysistrata » و « النساء في البرلمان » ، وهما من القطع الأدبية الشاذة) والمتجادلون في محاورات أفلاطون هم دائماً من الرجال ، ومادة أفلاطون وكسينوفون ترينا بجلاء أنه عندما كان يحتفي أحد سراة القوم بضيوفه كانت تحضر هذه الندوات من النساء من لم يكن قد بقي لها شرف إلا سمعتها المهنية . وقد كانت شهادة الشهود في قضية نيأيرا بأن إحدى الزوجات تناولت العشاء مع ضيوف زوجها وشربت معهم خمراً دليلا على أنها عاهرة . وقد كان البيت الأثيني مقسما إلى « غرف للرجال » و « غرف للنساء » وكان القسم المخصص للنساء مزوداً بالمزاليج والقضبان (كما في كتاب الاقتصاديات لكسينوفون) ولم تكن النساء تخرج إلا تحت الرقابة الشديدة إلا إذا ذهبن لحضور إحدى حفلات النساء . وفي مأساتي (الكترا وانتيجون لسوفوكليس) أمرت الفتيات

---

[1] في كتابه ، مقالات في التاريخ والأدب ، طبعة بلاكول ؛ ١٩٣٧ .

مرتين بفظاظة أن يدخلن البيوت فهى المكان المناسب لهن . وقد اقتبس جب عند تعليقه على انتيجونا ٥٧٥ نبذة شعرية تقول « ولا تجعل فى الإمكان رؤيتها خارج المنزل قبل زواجها » ، كما أنه اقتبس من لوسستراتا التى كتبها أريستوفانيس « إن من الصعب على المرأة (المتزوجة) أن تهرب من بيتها » . ولقد كان الرجل هو الذى يتولى الشراء من الحوانيت ويعطى ما يشتريه لخادمه كى يحمله (والرجل الوضيع فى ثيوفراستوس كان يحمل كل ما يشتريه إلى البيت بنفسه) وفى ملاهى مناندر (القرن الثالث ق . م) نجد أن الشاب الذى أحب فتاة حباً رومانتياً كانت مقابلته لها فى مهرجان باستمرار ، ويفهم من هذا ضمناً أن فرصة الاستهداف لهذا العناء لم تكن تواتيه إلا قليلا فى الحياة الاجتماعية العادية . (ولعلنا نذكر أن إيسخوماخوس الوقور « اختار » زوجته الصغيرة ، مما نفترض معه أنه كان قد رآها قبل ذلك على الأقل . كما أننا نسمع من ثيوفراستوس أن الشاب قد يناجى محبوبته بأغنية بالليل) على أن ألوان المحبة الرومانتية التى نسمع عنها فى الواقع هى مع الغلمان والشبان ، وهى مما يتردد على مسامعنا بكثرة . وقد كان حب أفراد من نفس الجنس يعتبر أمراً طبيعياً ويعامل بنفس الصراحة التى يعامل بها حب أفراد من الجنس المخالف ، (وقد كانت له ناحيته السامية وناحيته الوضيعة مثل النوع الآخر) . ولأفلاطون بعض النبذ الجميلة التى يصف فيها ملاحة الغلمان وحياءهم والسرقة والاحترام اللذين كان يعاملهم بها الرجال(١). وقد كان والدا الفتاة هما اللذان يدبران أمر زواجها . وقد رأينا من نظرتنا الوجيزة إلى إيسخوماخوس كما أورده كسينوفون أنه على الأقل لم ينظر إلى الزواج على أن فيه متعة كبيرة ، فالزوجة هى مديرة شئون البيت وليست

---

(١) نحيل الذين يجدون هذا الموضوع شائقاً أو هاماً إلى كتاب « الحياة الجنسية فى بلاد الإغريق القديمة » بقلم هانس لخت .

أكثر من ذلك بكثير ، بل إنه يقول فعلا أنه يفضل أن تكون زوجته الصغيرة جاهلة تماماً حتى يعلمها بنفسه ما يريد منها أن تعرفه . وكانت الفتيات محرومات من التعليم . وقد كان الأثيني يتجه إلى طبقة النساء الأجنبيات المثقفات ثقافة راقية إن أراد صحبة النساء الذكيات ، وهن فى الغالب من الأيونيات اللائى كن يعرفن باسم « الخليلات » hetaerae . وقد كن يشغلن مركزاً وسطاً بين السيدة الأثينية والعاهرة . وقد كانت أسباسيا Aspasia خليلة بريكليس الشهيرة تنتمى إلى هذه الطبقة . واسمها بالمناسبة معناه « مرحباً » . وهكذا نقرأ عند ديموستينيز قوله « إننا نتخذ الخليلات من أجل المتعة والمحظيات (الجوارى) من أجل العناية اليومية بأشخاصنا ونتخذ الزوجات ليلدن لنا أطفالا شرعيين وليكن حارسات أمينات على بيوتنا وأسراتنا » . وفى الختام إن أى وصف لمركز المرأة فى أثينا لن نفيه حقه دون الإشارة إلى بريكليس وأرسطو ، فقد قال بريكلس فى خطبته التأبينية « إن أحسن صيت يمكن أن يكون للمرأة هو الا يتكلم الرجال عنها بخير أو بشر » ومن رأى أرسطو (فى كتاب السياسة) أن الذكر المتفوق بحكم الطبيعة وأن الأنثى أقل منه ولهذا فالرجل يحكم أما المرأة فتحكم .

ولهذا فان الرأى يكاد يجمع كما قلت على أن المرأة الأثينية كانت تتمتع بحرية ضئيلة جداً بل إن بعض الكتاب قد ذهبوا إلى حد التحدث عن « الازدراء الذى كان يشعر به الإغريق المثقفون نحو زوجاتهم » ويقتضينا صدق الرأى أن نقارن كبت النساء فى آثينا بالحرية والاحترام اللذين كن يتمتعن به فى المجتمع الهومرى وفى إسبرطة التاريخية .

ويبدو أن الدليل القانونى يؤيد ماذكرناه فالمرأة لم تنل حقوقها السياسية والمدنية ، أى أنها لم تكن تستطيع حضور الجمعية العامة أو شغل الوظائف العامة ، ولم يكن لها حق تملك العقارات أو إدارة الأعمال بصفة قانونية . وكان

يجب على كل أنثى منذ ولادتها إلى أن تموت أن تكون تحت وصاية زوجها أو أقرب أقاربها الذكور ، وقد كانت لا تتمتع بأية حماية قانونية إلا عن طريقه فقط . وكان ولى الأمر يزوج المرأة ويقدم صداقها للزوج . وكان يرد الصداق إلى ولى الأمر مع الزوجة عند الطلاق . وأعظم نص قانونى بعداً عن محيط أفكارنا هو الذى كان يتعلق بالإبنة التى ترث والداً قد مات دون أن يكتب وصية ، فقد كان أقرب أقاربها الذكور له الحق فى طلب الزواج منها ، فإن كان متزوجاً من قبل ، كان من حقه أن يطلق امرأته لكى يتزوج من هذه الوريثة ، (ينبغى علينا أن نبين أن قانون أتيكا كان يعترف فى جميع الأحوال بزواج العم من بنت أخيه أو الخال من بنت أخته بل كان يعترف بزواج الأخ من أخته غير الشقيقة) وإلا أصبح أقرب أقاربها الذكور وصياً على الوريثة وعليه أن يزوجها بصداق لائق . والواقع أن الرجل الذى لم يكن له ولد كما لم يكن له أمل فى إنجاب ولد ، كان يتبنى فى العادة شاباً لا طفلا ، على أن يكون مثلا أخا الزوجة أو زوج الأخت ، لأن الغرض من التبنى لم يكن إرضاء لعاطفة أو شفاء لمرض نفسى ، بل كان الغرض أن يترك من ورائه رئيساً صالحاً للأسرة ليواصل حقها المشروع فى البقاء وممارسة شعائرها الدينية . ولكن من الواضح أن كثيراً من الرجال توفوا قبل أن تتضح لهم ضرورة التبنى ، فبقيت لهم وريثات . وقد أكد لنا إيسايوس Isaeus (وهو خطيب تخصص فى قضايا الميراث المتنازع عليه) أو أكد لمستمعيه ، والمعنى قد لا يكون واحداً فى الحالتين ، « أن كثيراً من الرجال سرحوا نساءهم ، ليتزوجوا من وريثات . وفيما عدا ذلك كانت قوانين الطلاق تطبق على الأزواج والزوجات بنزاهة لاغبار عليها وإن لم تكن نزاهة مطلقة . » وكان يمكن فسخ أى زواج لا يعقب ذرية متى طلب ذلك أقارب الزوجة ، على حد التعبير الدقيق لجب .

هل بقى لنا أن نذكر شيئاً أكثر من ذلك؟ فإذا أضيف الدليل القانونى إلى الدليل المستمد من الأدب — وأظن أن هذا الملخص الموجز بالضرورة يصورهما معاً — ألا يكون واضحاً جداً أن الآثينى كان يعامل نساءه بكثير من عدم الاكتراث الذى لا يمكن أن تكون لفظة احتقار قاسية إذا استعملت بدلا منه ؟ هل يمكننا أن نشك فى الأدلة القائلة بأن النساء فى هذا المجتمع الذى كانت فيه الغلبة للذكور كن يتحركن فى دائرة محدودة جداً بحيث يمكننا إلى حد كبير أن نعتبرهن « طائفة » مهيضة الجناح ؟ .

كثيراً ما نجد فى القصص البوليسية أن رجل البوليس السرى ينتهى إلى نقطة يكون عندها ملماً بجميع الحقائق التى يرى أنها تفضى به إلى نتيجة واحدة، ولا يكون هناك مجال للشك على الإطلاق سوى أن بيننا وبين نهاية القصة عشرة فصول . أما رجل البوليس فيحس إحساساً غامضاً بالقلق ، فمع أن كل شىء فى موضعه إلا أنه يبدو خاطئاً فلابد أن هناك شيئاً فى ناحية ما لم يكتشفه بعد .

أنا أعترف أن شعورى يماثل شعور هذا الرجل . والخطأ هو تلك الصورة المرسومة عن الرجل الآثينى . لقد كان الآثينى أخطاؤه ولكن أبرز مزاياه كانت ذكاءه اللماح وحبـــه لمعاشرة الناس وإنسانيته وحبه للاستطلاع . فالقول بأنه كان عادة يعامل نصف أبناء جنسه دون اكتراث بل باحتقار لا معنى له فى رأيى ، فمن الصعب أن نرى الآثينى أكثر احتقاراً للمرأة مما يعزى إلى رب الأسرة الرومانى .

دعنا أولا نتناول قليلا من الاعتبارات العامة التى قد تخربنا بشىء من التردد . أما فيما يختص ببلاد الإغريق فإن أكثرنا إمعاناً فى الهيلينية ما هو إلا شخص أجنبى . وكلنا يعلم كم يبعد تقدير الأجنبى وإن كان ذكياً عن الحقيقة

فإنه يرى حقائق لا يمكن إنكارها ولكنه يسيء تفسيرها لأن خبرته العقلية مختلفة كما أنه لا يرى الحقائق الأخرى . مثال ذلك أن الفرصة سنحت لى مرة للحصول على تحليل للخلق الإنجليزى من شاب ألمانى لم يكن ينقصه الذكاء، وقد كان يعرف انجلترا بريفها وحضرها معرفة لا بأس بها . وقد قال لى إن الإنجليز يلعبون الكريكت لفائدته الصحية باعتبار ذلك أمراً واضحاً بالبداهة . وعندما ذكرت له فى أثناء المناقشة تلك الزهور التى يحب كل صاحب كوخ أن يزرعها وجدت أنه كان يحسبها زهوراً برية ، وقد كانت صورته عن الرجل الإنجليزى مضحكة للغاية بطبيعة الحال . ونحن نعتقد أن لكل فرنسى خليلة (ودليلنا هو الروايات والمسرحيات الفرنسية) وأن كل فرنسى لا يحب زوجته (فكل الزيجات الفرنسية وليدة المصلحة) وأن الحياة المنزلية فى فرنسا لا وجود لها (فالرجال يتجمعون فى القهاوى التى لا تغشاها السيدات الفضليات) وأن مركز المرأة الفرنسية القانونى أقل بكثير من مركز المرأة الإنجليزية وأن النساء فى فرنسا بناء على ذلك أقل حرية واحتراماً ونفوذاً مما فى إنجلترا — وقد اعتدنا أن نسمع هذا الرأى ونعلم مقدار ما فيه من سخف ، فما أيسر ما يفوت الأجنبى أن يرى الشىء الهام .

وهناك نقطة عامة وهى المغالطة القائمة على افتراض أن ما ليس عندنا دليل عليه (أى الحياة المنزلية) لم يكن له وجود ،فإننا لا نعرف إن كان قد وجد أو لم يوجد . ولكن هل من الممكن أن يسكت الأدب الإغريقى عن الحياة المنزلية إن كان للحياة المنزلية أية أهمية ؟ إن الجواب المنتظر هو « لا » أما الجواب الصحيح فهو « نعم » . إن الحجة التى يدل عليها الصمت فى أى أدب حديث حجة قوية جداً ولكنها ذات قيمة ضئيلة جداً فى الأدب الإغريقى . لقد لاحظنا كيف أن هومر يمتنع عن رسم المناظر التى خلف الصـــورة وهى التى كنا ننتظرها منه ، بينما يعطينا ملابسات لا نتوقعها . وقد لاحظنا كيف أن الشعراء المسرحيين يشتغلون بالإنشاء

لا بالتصوير، فنى مسرحية أجاممنون لا يرينا إيسخولوس الطرقات والسوق وبيوت المواطنين العاديين ورعاة الغنم والطباخين وخدم المطبخ الذين يعملون فى القصر . ولسنا نستنتج من ذلك أن هؤلاء لم يكن لهم وجود ولا أن إسخيلوس لم يكن عنده اهتمام وشغف بهذه الأشياء . فإننا نستطيع أن نرى فى الحال أن هذه الأشياء لا تدخل فى مسرحيته لأنه لم يكن هناك ما يدعوا إلى ذلك ، فكل الفن الكلاسى الإغريقى كان له معيار دقيق عن كل ما يتصل بالموضوعات التى يعالجها .

فالنقطة المتصلة بالموضوع هى مادة الأدب فى ذلك العهد . وإذا لم نأخذ حذرنا فإننا نفكر فى الأدب بدافع من غريزتنا باعتباره يشتمل على الروايات وتواريخ الحياة والرسائل واليوميات ، أى يشتمل بكل إيجاز على الأدب الذى يختص بالأفراد سواء كانوا حقيقيين أو خياليين . أما الأدب الإغريقى الكلاسى فهو لا يدور حول الفرد بل هو « سياسى » . والواقع أن الأدب الوحيد الذى لا نعرفه ولا يعتمد على القواعد المقررة هو « الذكريات Memorabilia » ، « لكسينوفون » ، و« المأدبة » ، وهما لا تزعمان أنهما سيرة سقراط الحقيقية وإنما تعالجان بصراحة قصة سقراط الفيلسوف . ألسنا نجد أن شخصية إيسخوماخوس التى صورها كسينوفون غير رومانتيه إلى حد ما ؟ ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق أن كتبناه عن هذه النقطة أن كسينوفون لم يكن يكتب عن الحياة الزوجية فى أثينا وإنما كان يكتب عن التدبير المنزلى مثله كمثل مسز بيتون .

ثم ان هناك نقطة أشار إليها « جوم » بكل حذق وهى أن أدلتنا شحيحة وأن من السهل إساءة تفسير ما لدينا . ويجمع جوم نحو إثنى عشر قولا مأثوراً عن النساء والزواج مختارة من أقوال كتاب القرن التاسع عشر تعطى فكرة زائفة إن لم ننظر إليها فى ضوء جميع الملابسات ونقرها وفقاً

لها وهو أمر فى إمكاننا . خذ مثلا قول بريكليس المأثور الذى ظل يتردد صداه خلال العصور . إنه نموذج على الاحتقار الذى كان يشعر به الأثينيون نحو النساء — هذا جائز ولكن افرض أن جلادستون كان قد قال « أنا لا يهمنى أن أسمع اسم سيدة يتردد هنا وهناك فى أحاديث الناس سواء كان ذلك بخير أو بشر » فهل يتضمن هذا القول معنى الاحتقار أو الاحترام والأدب اللذين قد عفا عليهما الزمن .

وقد قيل أيضاً إن القاعدة التى كانت متبعة فى أثينا هى الإشارة إلى المرأة المتزوجة لا باسمها (كما لو كان مثـــلا كليوبوليه) بل باعتبارها « زوجة نيكانور » فالمرأة الأثينية ، تلك المسكينة ، لم يكن لها حتى اسم معروف بل كانت مغمورة ! هذا صحيح ولكن عندنا نحن (معشر الإنجليز) عندما تتزوج شايلا جاكسون تصبح مسز كلارك . نعم يظل اسمها فعلا شايلا عند صديقاتها ولكن لا يذكرها أحد باسم شايلا جاكسون — فعلينا إذن أن نكون حذرين .

إن النقطة العامة الأخيرة التى سأذكرها ربما كانت أهم النقط ، فعندما نناقش هذا الموضوع ما الذى نتكلم عنه فى الحقيقة ؟ هل نقارن مركز المرأة فى أثينا بمركز المرأة فى مانشستر . أو نحاول أن نقدر خلق الرجل الأثينى وحضارته على أساس المركز الذى كان يجعله لنسائه (إلى حد ما) ؟ إن هناك فرقاً كبيراً بين الحالتين ، فإن كنا نعنى الأمر الأول فمن المناسب أن نقول إن المرأة فى مانشستر تستطيع التصويت والاشتراك فى الحياة السياسية ، ولكن إذا قلنا إننا أكثر استنارة وأدباً من الأثينى لأننا نعطى النساء حق التصويت فهذا من قبيل الهراء ، إذ نكون قائمين بعمل مقارنة بين تفاصيل صورتين مع تجاهل أن الصورتين مختلفتان كل الاختلاف . إن المرأة فى مانشستر التى تريد أن تذهب إلى لندن تستطيع ذلك بنفس الشروط التى تسرى على الرجل

بالضبط فهى تستطيع أن تشترى تذكرتها صيفاً أو شتاء كما أن الأجر واحد بالنسبة للجميع . أما الأثينى الذى كان يريد الذهاب إلى طيبة فقد كان بمكنه أن يركب بغلة . وقد كانت الرحلة عبر الجبال مرهقة وخطيرة فى الشتاء . وإن أرادت امرأة الذهاب فقد كان ذلك ممكناً متى انتظرت الموسم المناسب ولو أن ذلك كان من قبيل المجازفة الخطيرة . من المعقول جداً أن تحصل المرأة على حقوقها السياسية فى الدولة الحديثة وذلك أولا لأن المدنية ـ إذا استعملنا الكلمة هذه المرة بمعناها غير الدقيق ـ قد جعلت الفروق الجسمانية التى بين الجنسين ذات أهمية سياسية ضئيلة جداً ، فالمرأة تستطيع استخدام القطار والدراجة والتليفون والصحف بنفس الشروط السارية على الرجل ، وعلى العكس من ذلك ان موظف البنك أو المشرف الجامعى مادام صحيح الجسم لا لزوم لأن تكون عضلاته أقوى من المرأة العادية ، فهو يعلم أن ليس هناك من فرصة تتطلب منه أن يمشى عشرين ميلا فى الأسبوع القادم فى الشمس المحرقة لابساً درعاً ثقيلا على أن يحارب بشدة كما يحارب زميله وإلا عرض حياة زميله للخطر ، وثانياً لقد تغير مفهوم السياسة والإدارة . صحيح ان القرار السياسى كان يؤثر إذ ذاك كما يؤثر الآن فى كل فرد بصرف النظر عن السن والجنس . ولكن الدائرة التى كانت تحيط بها تصرفات الحكومة كانت أضيق بكثير منها الآن . وكانت تختص بوجه عام بأمور كان الرجال وحدهم لا محالة هم الذين كانوا يستطيعون الحكم عليها طبقاً لخبرتهم وتنفيذها بجهودهم . إن من أسباب إعطاء النساء حق التصويت اليوم أن أحكامهن بالنسبة لكثير من شئون السياسة الحالية يحتمل أن تكون مناسبة مثلها كمثل أحكام الرجال ، وربما كانت أحسن منها ، بينما لا يحتمل أن يكن أكثر جهلا بالأمور الهامة من الرجال . كما ينبغى ألا ننسى ما يحتمل أن يعتبر فرقاً أكبر . فنحن نظن أن اعتبار المجتمع حشداً من الأفراد أمر طبيعى مع أنه ليس بالأمر الطبيعى من وجهة النظر التاريخية بل هو تطور محلى . فالرأى الطبيعى هو أن المجتمع

جمع من الأسرات ولكل منها ربها المسئول ، وليست هذه الفكرة إغريقية فقط بل هي رومانية هندية صينية تيوتونية كذلك .

من حق كل إنسان أن يقول إنه ما كان يحب أن يكون امرأة في أثينا القديمة حتى مقابل ثروة لا مثيل لها . وقد لا يأسف الإنسان على أنه لم يكن رجلا أثينياً كذلك ، إذ أن « البوليس » بصرف النظر عن ظروف الحياة العادية فيها كانت تفرض عليه أيضاً بعض المطالب المتعبة للغاية . أما الذي ليس من سلامة التقدير فهو أن نقول للأثيني « نحن نعامل النساء أفضل منكم بكثير في بلدنا (جولد رزجرين) ألا ترون أنكم أدنياء إلى حد ما ؟ » .

بعد هذه المناقشة العامة دعنا ننظر إلى البراهين من جديد . سنحاول أن نتذكر المسألتين كلا منهما على حده . هل تقرر العقيدة الراسخة الحقائق على وجه صحيح ؟ وإن كان الأمر كذلك فهل تستخلص منها الاستنتاجات الصحيحة ؟ أي هل كانت حياة المرأة الأثينية مقيدة ومبتورة ؟ وإن كان الأمر كذلك هل كان السبب أن الرجال ينظرون إليهن دون اكتراث أو بازدراء ؟ .

قد رأينا أن الدليل الأدبي نادر وأنه بمعنى من المعاني يعتبر من جانب واحد فحسب بحيث لا نطمئن إلى أنه يعطينا صورة صادقة كاملة . إنه يقرر أن الرجل إذا أقام حفلة عشاء لم تظهر فيها امرأته وأن الأثيني المهذب كان يحب صحبة الرجال ، وهو يخالف في ذلك المهذبين من أهل لندن وهم الذين لم يطرق مسامعهم أن نادياً بها لا يسمح بدخول النساء بحرية تامة . ولكن هل كان الأثيني يقوم بدور المضيف أو الضيف كل مساء طول العام ؟ وهل لم يكن للنساء حفلاتهن الاجتماعية ؟ لقد كان يوربيديس متأثراً بفكرة وجود هذه الحفلات ، وكثيراً ما كان يقول عبارات مثل « ما أشد ضرر مجيء النساء إلى البيت للثرثرة » . وهل كان الأثيني يتناول عشاءه على انفراد

حين لم يكن يوجد عنده ضيوف كأنه كوكلوبس فى كهفه ؟ ألم يكن يخطر فى باله قط أن يتحدث مع زوجته عن أى شىء سوى تدبير شئون البيت وإنجاب الأطفال الشرعيين؟ إن ستفانوس ونيأيرا يرفعان رأسيهما الموصومتين بالعار فيقول المــــدعو فى ختام خطبته للمحلفين وهم المائة أو المئتان أو الثلثمائة : —

«أيها السادة إن برأتم هذه المرأة فماذا عسى أن تقولوا لزوجاتكم وبناتكم عندما تعودون إلى بيوتكم ؟ إنهن سيسألنكم أين كنتم ؟ » فتجيبون « كنا فى المحاكم » فيقلن « ماذا كانت القضية ؟ » » فتردون بطبيعة الحال « ضد نيأيرا المتهمة بأنها تزوجت آثينياً بطريقة غير مشروعة وبأنها زوجت إحدى بناتها وهى عاهرة من ثيوجينيس Theogenes قاضى المحكمة العليا . . . » وستذكرون لهن تفاصيل القضية وكيف تم إثباتها بكل دقة . فإذا فرغتم سيسألنكم « وماذا فعلتم » ؟ فتجيبون « برأتها » وعند ذلك تكونون قد وضعتم الحطب فى النار . هذا أمر طبيعى جداً وهذا هو السبب فى أنى اقتبست هذه الفقرة وهى من الأدلة البسيطة التى لدينا والخاصة بالعلاقات العادية التى بين الرجل وزوجته وبناته . والذى حدث هو بالضبط ما يمكن أن يحدث اليوم ، فلا ينتظر أن يرد المحلف على نسائه قائلا « لقد نسيتن أنفسكن ! أنكن أثينيات ممن ينبغى عليهن أن يظهرن نادراً ولا يسمع لهن صوت على الإطلاق » .

وهاك نبذة أدبية صغيرة أخرى ، ففى مأدبة كسينوفون نجد أن أحــد الضيوف وهو يدعى نيكراتوس Niceratus قد تزوج حديثاً ، وهو يحفظ أشعار هومر عن ظهر قلب ويشرح للمجتمعين مقدار ما أفاده من أدب هومر كالاستراتيجية والبلاغة والفلاحة وما إلى ذلك ، ثم يلتفت مزهواً إلى مضيفه قائلا « ومع ذلك فقد تعلمت من هومر شيئاً آخر حيث جاء فى أقواله :

إن أكل البصل مستاغ مع شرب النبيذ . ويمكننا أن نختبر صحة هذا القول الآن . فدعهم يأتوننا بقليل من البصل فإنكم تتمتعون عندئذ بالخمر أكثر بكثير من ذي قبل ، فيقول آخره مرحى ! إن نيكراتوس يريد أن يذهب إلى البيت ورائحة البصل تفوح من فمه حتى تظن زوجته أن أى امرأة أخرى لم تفكر فى تقبيله . إنها ملاحظة تافهة بالطبع ولكنها بالضبط من قبيل النكت المرسلة التى قد يسمعها الإنسان أى مساء فى ناد إنجليزى أو بيت من بيوت الدعارة .

ولكن ثمة دليل لم نذكره وهو ليس بمثل هذه البساطة وهو يهدف إلى نفس الاتجاه ولا يمكن فهمه لو سلمنا بالرأى السائد . فمن المصادفات أن نجد لدينا عدداً كبيراً من الأصص المصورة (من القرن الخامس) عليها مناظر تصور الحياة المنزلية وفيها عدد من الأوانى الجنائزية تمثل زوجة ميتة وهى حيـــة تتلقى من زوجها وأولادها وعبيدها الوداع الأخير . وهناك شواهد قبور — عادية جداً — محفور عليها مناظر عائلة . وهى فى بساطتها الجميلة التى لا تكلف فيها من أعظم الأشياء المؤثرة التى خلفتها لنا بلاد الإغريق ، وهى ترتقى إلى مستوى نبذة أندروماخا فى الإلياذة التى سبق أن بسطتها . وأنا أنقل هنا عبارة من رسالة لجوم اقتبسها هو من مقالة(١) عن بعض القبور الأثينية . « منظر داما ستراتا وزوجها وقد تشابكت أيديهما عند الفراق وثمة طفل بجوار المقعد وإحدى قريباتهم . وقد ركز كل من الزوج والزوجة عينيه فى عينى الآخر . وأنك لتجد فى عمق نظرة الفراق الهادئة الجواب على كل الاستفسارات الخاصة بمركز الزوجة والأم فى المجتمع الأثينى » . أن هومر يقول فى أبيات مشهورة من شعره « ليس أجمل من رؤية رجل وامرأته يعيشان فى حياة زوجية مخلصة ويتبادلان نفس الأفكار » ولو أراد مصور لهومر أن يصور هذا الشعر لاتجه من تلقاء ذاته إلى هذه

---

(١) بقلم ج . س . بليك ريد فى المانشستر جارديان .

الصور والرسوم المنحوتة التي صنعت من أجـــل قوم كان تقديرهم للنساء وخاصة للزوجات تقديراً تافهاً !

ولن أتكلم عن الأصص أكثر من ذلك ولكني سأعود إلى المأساة الآثينية . إن إحدى سماتها البارزة هي التتابع الرائع لبطلات المآسي — ثلاث كليمنسترات وأربع اليكترات وتكميسا وانتيجونا وإيسمينا وديانيرا وموكاستا وميديا وفايدرا Phaedra وأندروماخا وهيكوبا وهيلينا وكلهن متباينات الخلق بطبيعة الحال ولكنهن صورن جميعاً صوراً تفيض بالحياة وليس من بينهن من هي جامدة كالدمية . وأكثر من ذلك أن الشخصيات التي ملئت نشاطاً ومغامرة وذكاء قد ورد ذكرها أكثر من نقيضها . وقد يقال إن الأمر طبيعي جداً في المسرحيات . ربما كان ذلك ولكن ليس مما لا مندوحة عنه أن تكون النساء عند يوريبيديس ، الطيبات منهن والخبيثات ، أكثر مغامرة من الرجال في كثير من الأحيان . فالمرأة الذكية القادرة على إحكام التدبير حينما يسقط في أيدي الرجال تكاد تكون دائماً الشخصية التقليدية عند يوريبيديس ، مثل هيلينا وإيفيجينيا (في مسرحية إيفيجينيا في توريس) . أما عن المغامرة فإننا نجد العبد المسن لكريوسا Creousa التي أسيئت معاملتها في مسرحية « إيون » هيا عليك أن تفعلي شيئاً يليق بالمرأة . الجأي إلى السيف ! سميه ! ! [١] . إن من الصعب علينا أن نعتقد أن كتاب المسرحيات لم يصوروا بتاتاً ولو بطريق الصدفة تلك المخلوقات القاصرة التي علينا أن نفترض أنهم كانوا يعيشون بينها فعلا ، وأنهم استمدوا تلك الشخصيات التي تفيض حيوية من الكتب ومن هومر ، كما لو أن كاتباً من كتاب المسرح الحديثين لم يأبه بمعاصريه بدافع الاحتقار واتجه إلى تشوسر وشيكسبير يستمد منهما شخصياته النسائية وأفلح في هذا الاتجاه . إن يوريبيديس فعلا قد

(١) إيون — ٨٤٣ :

جعل النساء يشكون مما يلاقينه على أيدى الرجال ، وكثير من ذلك يحدث فى المجتمع الحديث كما كان يحدث فى المجتمع القديم ، وهو يجعل فى الوقت نفسه كثيراً من رجال مسرحياته يقاسون الويلات على أيدى نساء محبات للانتقام لا يمكن كبح جماحهن . إن بعض المحدثين يتهمون يوريبيديس بأنه من المدافعين عن حقوق المرأة بينما كان يسميه النقاد القدماء عدواً للمرأة ، وهم فى رأيى على حق أكثر من المحدثين . وهو لم يكن يرى على الأقل أن من الممكن إهمالهن لا هو ولا إيسخولوس أو سوفوكليس .

الآن وقد توفر لدينا من الأسباب الوجيهة مايبرر ارتيابنا على كل حال فى فكرة الغلو فى كبت النساء وازدرائهن ، دعنا نفحص بعض الأدلة من جديد بشأن رجل البوليس السرى السالف الذكر . اقتبس جيب قول أريستوفانيس « من الصعب على النساء الخروج » فى عبارة له تنم فيما عدا ذلك عن فرض الرقابة الشديدة على الفتيات غير المتزوجات ، وهذا القول يوحى بفكرة أن النساء المتزوجات أيضاً كن يحتجزن احتجازاً شديداً فى بيوتهن . وأى مشتغل بالادب الكلاسى قد يفكر فى أن كسينوفون تحدث فى موضع ما عن وضع المتاريس والقضبان على أبواب مساكن النساء . ولكننا لو رجعنا فعلا إلى عبارة أرستوفانيس لاستقرت فى أذهاننا فكرة مختلفة ، فالعبارة قد وردت هكذا على لسان سيدة متزوجة : « إن من الصعب على النساء أن يبارحن بيوتهن مع ضرورة البقاء فى خدمة الزوج واستبقاء الخادم متيقظة وغسل أجسام الأطفال وإطعامهم . . . » وقد سمعنا عن أشياء مشابهة لذلك فى زماننا وهكذا يختفى من هذه العبارة الجانب المفزع على الأقل .

ولكن ألم يكن يسمح للمرأة بالخروج ما لم يكن هناك شخص يحافظ عليها ؟ إننا نجد العون هنا من ثيوفراستوس النشط ، فهو يصف بدقته المعتادة فى التمييز بين الناس ثلاث شخصيات يمكننا أن ندعو كلا منها « وضيعاً » ، فالأولى تمثل شخصية رجل شحيح بشكل واضح ، فمن خصائصه أن يأتى

قبل اليوم المعين لدفع الأجور ليظفر بثلاثة قروش تكون قد استحقت له عن قرض، كما أنه يقلب البيت رأساً على عقب إن أضاعت زوجته قطعة من ذات القرشين، وهو يمنع أى أمرىء تحدثه نفسه أن يأكل إحدى ثمار التين من حديقته أو من التقاط ثمرة أو زيتونة من بستانه، ثم هناك «صاحب الكسب الحرام» على حد تعبيره الحرفى وهو الذى ينقص المكيال والمقياس ويسىء من تغذية عبيده ويتطفل على أصدقائه بطرق حقيرة. ولكن الذى يعنينا حالياً هو الرجل الثالث فهو يشترى حاجات الأسرة كما جرت عادة الرجال، ولكنه بدلا من تسليمها لعبده لكى يحملها إلى البيت يحملها هو بنفسه فى إحدى طيات جلبابه القصير سواء كانت لحماً أو خضراً أو أى شىء آخر، ومع أن زوجته قدمت له صداقاً قدره ٥٠٠٠ جنيه فإنه لم يكن يسمح لها بخادم. وعندما كانت تخرج كان يستأجر فتاة صغيرة من سوق النساء لترافقها. وهذا النوع من الحقارة يعتبر .aneleutheria أى السلوك الذى لا يليق بالرجل المهذب، ويعرفه ثيوفراستوس بأنه «نقص فى الكرامة الذاتية متى كان للأمر علاقة بالنقود». ومعنى هذا أن السيدة كان لها الحق فى أن تجد الرفقة المناسبة عند الخروج، ويصح أن أضيف هنا شيئاً بسيطاً من ثيوفراستوس يساهم بصفة هامة فى تأييد حجتنا مع الاعتذار التقليدى عن إسفافه. فإحدى شخصياته هى «المهرج الجلف» الذى يقف عند باب الحلاق ويعلن على رؤوس الأشهاد أنه يريد أن يشرب حتى يسكر وإذا رأى سيدة قادمة رفع ثيابه وكشف عن عورته! ولقد كانت طرقات أثينا تضم كافة أصناف الناس، وربما كانت هناك أسباب قوية تدعو إلى عدم السماح للفتيات بالسير فى الطرقات دون حراسة.

ثم إذا تمعنا فعلا فى النبذة الخاصة بالمداريس والقضبان نجد أن الغرض منها هو «ألا يتيسر للجوارى أن يلدن أطفالا دون أن ندرى»(١) وكذلك

(١) يلاحظ كسينوفون وأرسطو أن إنجاب الأطفال يجعل العبد الصالح أكثر توددأ من سيده ومهما يكن فإن المرء يود ولا شك أن يلم بفكرة عمن يحتمل أن يولد فى بيته.

لتمنع تسرب أى شىء من أماكن إقامة السيدات بطريقة غير مشروعة ، وهو مايعيننا على أن نذكر إلى أى مدى كان يعتبر البيت الإغريق مصنعاً كذلك . فبصرف النظر عما نعده من الأعمال المنزلية كان البيت يقوم بصنع الملابس من الصوف الخام وطحن القمح الذى يحضره الزوج وخبز الطحين وإعداد الطعام للشتاء . ويجب علينا فى الحقيقة أن نستبعد من أذهاننا فكرة وجود أكثر أنواع الحوانيت التى نعهدها ، عند الإغريق ، وكذلك السلع التى نتسلمها فى لفافات . ومن الواضح أن وظيفة المرأة كانت ذات مسئولية عظيمة . إن هوليود تبين لنا عن طريق الموعظـــة والمثال أن الحب القائم على العواطف والمغامرات هو الأساس الوحيد الذى يمكن أن يقوم عليه الزواج السعيد الدائم ، فهل كان الإغريق حتما بليد المشاعر ومبغضاً لبنى جنسه لأنه كان يفكر بطريقة مخالفة ؟ لقد كان على علم بقوة الحب الرومانتى إذ كان يصفه بوجه عام بأنه شىء هدام (انظر أنتيجونا سطر ٧٨١ نظم سوفوكليس وميديا سطر ٦٢٨ومابعده ليوريبيديس) ، عندما يكون الحب معتدلا فلاشىء أكثر منه سحراً ولكن أنقذنى من النوع الآخر !) .

فلنسلم بأن الرجل كان له خليلاته وما هو أسوأ من ذلك ، فما قولنا فى النبذة الواردة فى خطبة نيأيرا ؟ ماذا نقول حقاً ؟ لقد كانت تستخدم أحياناً كما لو كانت وثيقة معتمدة كالمستندات الحكومية — فما هى ؟ إنها ملاحظة ذكرها فى معرض المرافعة فى قضية شائنة رجل خبر الحياة لهيئة محلفين مكونة من مائة آثينى عادى أو أكثر من مائه ، وكثير منهم انضم إلى تلك الهيئة ليظفر بثمانية وثلاثين قرشاً أجراً يعينه على سداد حساب بائع السمك فى آخر الأسبوع ، إنهن خليلات ولاشك ! جوار حسان ! باهظات التكاليف بالنسبة لأمثالنا ! ومع ذلك فشكراً لك على مجاملتك ! ، وعلى أى حال ماذا قال صاحب العبارة ؟ إن حجته كلها موجهة إلى إبراز ضخامة الجرم الذى اقترفه ستيفانوس بدس أرومة أجنبية فاسدة على الدولة .

وليس هذا من قبيل التظاهر بالنبل فهو يرجع فى أصله إلى الفكرة القائلة إن البوليس تنتظم قوماً تربطهم وشائج القربى ، ولهذا فهو يقول « لا بأس من وجود الخليلات والجوارى ولكن حين نصل إلى الأساس الصلب الذى تقوم عليه حياة بوليسنا وجوهر وجود أسرنا كل على حده ، إلى من نتجه ؟ إلى زوجاتنا ! » إن هذه العبارة بدلا من أن تتضمن معنى احتقار الزوجة ترفعها إلى مكانة لا تدركها النساء الأخريات، فهى تتمشى فى الحقيقة مع الدليل المستمد من الرسوم الموجودة على الأصص . إن مقومات حياتنا المادية والاجتماعية المختلفة كل الاختلاف وميراثنا من القصص الرومانتيه خلال القرون ، هى التى تحملنا على أساءة تفسير مثل هذه العبارات وعلى محاولة نقض الدليل المستمد من الرسوم والمسرحيات . إن عالماً كثير الحيوية والنشاط والحساسية مثل ت . ر . جلوفر يمثل سقراط وهو يقول ما يأتى لصديق « هل ثمة أحد هو محل لثقتك أكثر من زوجتك فى الشئون الخطيرة أو تتحدث إليه أقل منها(١) ؟ » . ولكن معنى العبارة الإغريقية الواضح هو : « تأمنه على أشياء أخطر ومجادلاتك معه أقل ؟ » والسبب فى أن مجادلاته مع زوجته أقل هو كما يفهم (من مضمون الكلام) أنهما يعملان معاً بروح المشاركة والتفاهم .

وقد كان الأولاد يرسلون إلى المدرسة ويتعلمون القراءة والكتابة والشعر والموسيقى والألعاب الرياضية ، أما البنات فما كن يذهبن إلى المدرسة قط — وهو دليل آخر على أن الأثينيين كانوا يحتقرون النساء ويفضلون عليهن الأغبياء من الرجال . فالمرأة الأثينية كانت أمية وغير متعلمة حتى أنها حين كانت تذهب إلى المسرح وتسمع أنتيجونا تتكلم بهذا السمو وهذا الذكاء

---

(١) كتاب جلوفر « من بريكليس إلى فيليب ص ٣٤٦ ، كسينوفون « الاقتصاديات الفصل الثالث فقرة ١٢

لابد أنها كانت تفتح عينيها اللتين تنمان عن غباء فى دهشة وهى تتساءل أى مخلوقة كانت تلك ، وكيف استطاع سوفوكليس أن يتصور أن امرأة يمكن أن تكون هكذا .

من الواضح أن هذا تهريج مضحك ناشىء للمرة الثانية من خلطنا بين آثينا ومانشستر .

إذ أننا أولا نفترض أمراً يجوز أولا يجوز أن يكون صحيحاً عندما نحتج بأن الفتاة مادامت لم تذهب إلى المدرسة فهى أمية ، فهناك من الأطفال من نعرف أنهم تلقنوا فن القراءة فى البيوت . ومانعلمه عن الذكاء الآثينى وحب الاستطلاع يوحى إلينا بأن افتراضنا لم يكن سديداً . وثانياً أن من لايعرفون القراءة اليوم يعدون دون البشر ، غير أن هذا لا ينطبق على مجتمع كانت الكتب فيه نادرة بالقياس إلى زماننا . ولقد كانت القدرة على القراءة غير مهمة عند الآثينى العادى إذا قورن بنا . فقد كانت مصادر التربية الحقيقية عنده هى المحادثة والمناظرة والمسرح أكثر مما كانت الكلمة المكتوبة .

فلم يكن يرسل الولد إلى المدرسة ليعمل من أجل إجازة دراسية تعطيه ميزات تعليمية (أى مؤهلات لوظيفة أفضل من العمل اليدوى الذى تقدره أكثر من الإغريق بكثير) . فقد كان الإغريق يرسل الأولاد إلى المدرسة بطريقته المحدودة الشاذة ليتلقوا التدريب على الرجولة فى الأخلاق والآداب والتربية البدنية . فالقراءة والكتابة كانت تدرس ولكن هذه الأوليات ما كان يمكن أن تستغرق وقتاً طويلا جداً . وفيما عدا ذلك كان منهج الدراسة الأولية عبارة عن تعلم الشعر والموسيقى Mousikê والتربية البدنية . وقد كان « للموسيقى » أهمية كبرى باعتبارها وسيلة للتدرب على القيم الخلقية والحكمة ، كما أنه لم يغفل الأثر الخلقى الذى للرياضة البدنية gumnastikê .

ماذا كانت تعمل الفتاة فى نفس الوقت ؟ لقد كانت تتلقى الإرشاد من

أمها فى الفنون التى تهم المواطنة . فإن قلنا فى « عمل البيت » بدا ذلك مهيناً أما إن قلنا فى التدبير المنزلى فإنه يبدو محترما بصورة واضحة . وقد رأينا كم كان هذا العمل متنوعاً وعظيم المسئولية . فافتراضنا أنها لم تتعلم شيئاً غير ذلك لا يستند إلى دليل . وفكرة أن والدها ما كان يناقشها فى شأن من شئون السياسة تدحضه عبارة نيأيرا .

ولكن هل كانت عند النساء فرصة للمشاركة فى التعليم الحقيقى الذى كانت تتيحه أثينا ؟ « كلا » بالنسبة للجمعية العامة والمحاكم إلا عن طريق غير مباشر . وماذا كانت الحال بالنسبة للمسرح ؟ هل كان يسمح للنساء بالدخول؟ هذه نقطة شيقة جداً والدليل عليها متواتر واضح ومقرر بالإجماع . نعم كن يدخلن . وسأعطيك مثلا على ذلك أو مثلين . فأفلاطون إذ يستنكر الشعر عامة والمأساة خاصة يسمى الشعر نوعاً من البلاغة موجهاً للأولاد والنساء والرجال والأرقاء والمواطنين الأحرار دون تمييز . ولن يكون هذا مفهوماً إذا كان المواطنون الذكور وحدهم هم الذين يسمح لهم بمشاهدة المهرجان . فى مسرحية الضفادع التى كتبها أريستوفانيس نراه يجعل ايسخولوس يهاجم يوريبيديس « لفجوره » فهو يقول « أن يوريبيديس قد وضع على المسرح من العاهرات الفاجرات ما جعل النساء الفضليات ينتحرن خجلا ، فما الذى كان يلجئهن إلى ذلك إن كن مقصورات فى خدورهن ؟ » وحياة ايسخولوس « القديمة تروى لنا أن الجوقة التى كانت تتكون من ربات الإنتقام فى مسرحية « اليومنيديس » كانت مريعة إلى حد أن الأولاد كانوا يموتون من الفزع كما كانت تصاب النساء بالإجهاض — وهى قصة فيها سخف كثير ولكن من الواضح أن من رواها لأول مرة كان يعتقد أن النساء كن يذهبن فعلا إلى المسرح .

إن الدليل قاطع ولكن فى معالجة هذا الموضوع يظهر أن الأدباء منحازون ودن مبرر لرأى سبق لهم أن اعتنقوه عن أى الأشياء هو الصواب الذى

لاغبار عليه . لقد كانت النساء الآثينيات يعشن بلاريب فى حالة تكادتكون عزلة شرقية . وقد كان يتخلل الملهاة الآثينية القديمة ابتذال يبدو أنه كان يجعلها غير مناسبة للأولاد والنساء على الإطلاق . ولهذه الأسباب تغالى بعض الكتاب فأكدوا أنهن لم يكن يحضرن أية حفلة تمثيلية قط . وقد أعلن أدباء آخرون أن مشاهدة النساء للمآسى كان مسموحاً به أما مشاهدتهن لتمثيل أية ملهاة فقد كان محالا ،(١) بل محالا كل الاستحالة ! هذه خلاصة الموضوع . ولكن « هي » ولو أنه يعتقد فى العزلة الشرقية إلا أنه يبين أن الدليل يدحض فكرة أن النساء كن يستطعن حضور المأساة دون الملهاة . وحتى لو خالفنا الدليل لما ظفرنا بشيء ، لأن رباعيات المأساة كانت تنتهي بالمسرحية الساتورية Satyric (وهي تدور حول آلهة الغابات الفجرة) التي يتضمن النموذج الوحيد الباقى منها (مسرحية كوكلوبس Cyclops التى كتبها يوربيديس) طائفة من النكت يمكن أن تخجل بورصة الأوراق المالية ذاتها . لقد كان فى هذا الأمر إذن مساواة وحرية بين الجنسين غير معهودة لدينا وإن لم تكن كذلك بالنسبة لباريس(٢) القرن الثامن عشر فيما يبدو .

ولكى نلخص موضوع المناقشة يبدو إذن أن الأدلة التى لدينا لا تكاد تبرر أمثال عبارة (كانت النساء مقصورات فى خدورهن فى شبه عزلة شرقية) لأن الأدباء لم يفرقوا تفرقة واضحة بين البنات والنساء المتزوجات ولا بين ظروف الحياة فى آثينا وفى مانشستر ولا بين الأدب الكلاسى الإغريقى والأدب الحديث . ولقد كتب ثيوكريتوس Theocritus فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد أرجوزة مملوءة بالحياة ، وصف فيها كيف أن سيدة من سيراكوز زارت صديقة لها فى الإسكندرية وسارت معها فى الطريق

(١) « المسرح الآثينى » بقلم « هي » الطبعة الثالثة (الناشر أ . بيكارد — كيمبردج)

(٢) صحيح أن الملهاة والمسرحية الساتورية كانتا مقترنتين بالدين ، ومما يذلل جميع المصاعب تسمية الأشياء بغير أسمائها .

إلى مهرجان . هذا وقد قيل لنا « هؤلاء من السيدات الدوريات فانظروا مقدار ما كن يتمتعن به من حرية أكثر من الآثينيات » هذا الاستنتاج يبدو أنه غير منطقى، فأولى بنا أن نقول « لقد كتب هذا الشعر فى الإسكندرية وهى مدينة عالمية فى عصر كانت دولة المدينة فيه قد انتهت وأصبحت السياسة من اختصاص الملوك وموظفيهم لا من اختصاص المواطن العادى . فانظروا فى أى المواضيع المختلفة إذن كان يكتب الشعراء إذ ذاك، فهم لم يقتصروا على المواضيع التى تمس حياة البوليس بل أخذوا يكتبون فعلا عن الحياة الخاصة والحياة المنزلية » .

ولكن الاعتقاد فى « عزلة النساء » قد أصبح من الرسوخ بحيث أننا إن أخبرتنا إمرأة متزوجة فى إحدى مسرحيات إرستوفانيس عن السبب الذى من أجله كان يصعب عليها أن تخرج فإننا لا نرى من الضرورى علينا أن نصيخ السمع، فنحن نعتقد أننا نعرف السبب . كما أننا عندما نجد دليلا قوياً على أن النساء كن يذهبن إلى المسرح ليشاهدن فى أغلب الأحيان مسرحيات لا ينبغى لنا بالتأكيد أن نسمح لنسائنا بمشاهدتها فإننا نناضل لندحض هذا الدليل . وبعد ذلك يبدو أن الحجة اللاشعورية التى تتبادر إلى أذهاننا هى « لو كان هذا هو وضع النساء عندنا لكان سببه هو عجرفة الرجال وكبتهم للنساء ومن ثم فهذا هو السبب فى عزلة النساء فى آثينا . فلا بد أن الآثينى كان يهمل نساءه ومن المحتمل أنه كان يزدريهن ما لم يكن أجنبيات أو يكن جديرات بالاحترام الزائد» . ثم تأخذنا الدهشة عند رؤية الأصص وندحض الدلائل المستمدة من الشخصيات النسوية التى فى المآسى وننسى الأحوال المادية الخاصة بالحياة الإغريقية وكيف أنها كانت بدائية تستلزم وجود تفرقة حادة بين أسلوب حياة كل من الرجال والنساء ومصالح كل منهما . ونحن نجد من يؤكد لنا بأن الآثينيين كانوا يعمدون إلى صحبة العشيقات لأن هذه الطائفة من النساء كانت متعلمة بينما كانت زوجاتهم جاهلات

غبيات . ما أبلغها من سذاجة ! إنه ليس بالأمر المجهول حتى يبتنا أن الفتاة التى تعيش وحدها فى مسكن صغير وتتناول وجبات طعامها خارج البيت قد تمارس حياة اجتماعية أكثر نشاطاً من المرأة المتزوجة . ولقد كانت هؤلاء العشيقات من المغامرات اللائى طرحن وراء ظهورهن الجانب الجدى من الحياة . لقد كن يمتعن الرجال طبعاً ، ولكن الواحد منا لا يتزوج من هذا النوع ياصديق العزيز » .

وإننا لنذكر كذلك عدم الأهلية القانونية للمرأة وخاصة بالنسبة للوريثة ، ونقول إن هذا يدل على مدى استهانة الأثينى بكرامة المرأة مع أنه لا يدل على شىء من ذلك . وإنما يدل فقط على ما كنا نعرفه من قبل وهو ما أقل ما كان الرجل الأثينى أو على أى حال القانون الأثينى — وقد لا يكون نفس الشىء — يفكر فى راحة الفرد ومصالحه بالقياس إلى مصالح المجتمع الاشتراكى أى مصالح الأسرة والبوليس . ويجدر بنا فى هذه المناسبة أن نذكر قضية أبولودوروس Apollodorus ضد بوليكليس Polycles (فى ديموستينيز) .

فقد كان أبولودوروس رجلا ثرياً من رجال الأعمال مكلفاً بإنشاء سفينة وتجهيزها بمعدات الحرب . وقد قررت الجمعية العامة أن هناك حملة حربية لازمة على جناح السرعة . فكان يتعين على أصحاب مثل هذه السفن أن يأتوا بها إلى رصيف الميناء فى اليوم التالى وأن يشتغلوا بها ستة أشهر . فهل كان أبولودوروس مشغولا حينئذ ببعض شئون العمل المعقدة ؟؟ وهل بلغه فى خلال الأشهر الستة أن أمه على فراش الموت ؟ وهل البحارة المخصصون له كانوا قليلين وغير أكفاء ، وحتى إذا احتاج إلى بحارة صالحين كان يتعين عليه أن يدفع أجورهم بنفسه ويجازف بذلك أملا فى استرداد ماله ؟ كل ذلك من سوء الطالع ، غير أنه لا يغير من الأمر شيئاً فأبولودوروس

كان يمكنه أن يكلف صديقاً بأن يعنى بشئونه فلمثل هذه الأمور كان الأصدقاء، أما أمه فيصح أن تموت وهو بعيد عنها. أما أن يترك أبولودوروس سفينته فهذا مالم يكن يستطيعه. ولم يكن هناك من يقول إن أبولودوروس عومل معاملة خشنة كتلك التى تلقاها الوريثة وإن كان المبدأ واحداً فى الحالتين، كما أنه لاينبغى علينا أن ننظر فى مركز الوريثة دون أن ننظر فى الأهمية الدينية والاجتماعية للأسرة والمسئوليات الخطيرة التى على عاتق رب الأسرة. إن انقراض أسرة هى وطقوسها الدينية كان يعتبر كارثة كما أن ضياع ممتلكاتها كان مصيبة لاتكاد تقل عن ذلك. دعنا إذن على كل حال نعطف على الوريثة، كما نعطف على القواد المخفقين الذين كان جزاؤهم الإعدام — ولكن دعنا لانتسرع فنفترض أن القانون الخاص بالوريثات يدل على احتقار النساء. وبعد كل ماسلف فلنذكر أن رب الأسرة عند الرومان فى مرحلة من مراحل تاريخهم يمكن مقارنتها بهذه المرحلة عند الإغريق كان له قانوناً سلطات الحياة والموت على أفراد أسرته. فعلينا إذن أن ننظر إلى الأمر فى ملابساته الكاملة قبل أن نبدأ فى إستنباط النتائج.

ماذا يمكن أن يقال عن حياة الرجال الاجتماعية ؟ يجب علينا كذلك هنا أن نتذكر طبيعة أدلتنا. فلم يحدث أن آثينيا تولى رسم صورة لمجتمعه المعاصر أو حتى الكتابة بطريقة يمكن معها أن تظهر مثل هذه الصورة بصفة غير مباشرة. إن لدينا الكثير من التفاصيل الجلية ولكن علينا أن نكون دقيقين جداً فى الاستنتاج بصفة عامة.

نحن نعرف أن آثينا كانت منطوية على نفسها سياسياً. وأن الخطوط التى تفصل بين العبد والحر والأجنبى والوطنى كانت حاسمة يصعب تخطيها. وقد كان الانتحال غير القانونى لمركز سياسى سام يعاقب عليه عقاباً صارماً. وأنه لمن الطبيعى بالنسبة لنا أن نظن أن هذا الانطواء السياسى كان مقترناً

بانطواء اجتماعي مشابه له ، غير أن ذلك يكاد يكون خطلا فى الرأى . لقد كان معنى « المواطن » هو « العضو » وكانت العضوية تابعة للميلاد . ولقد كانت العضوية لا تمنح للأجنبي إلا مكافأة له على تقديم خدمات جليلة غير اعتيادية. وهو الذى كان بالطبع «عضواً» فى دولة اخرى . ولم تكن كلمة « مواطن » تعنى شخصاً فذاً متفوقاً .

بل إن فكرة الإنسان العامة عن المجتمع الآثيني هي أنه كان خالياً بصورة غير عادية من الحواجز المترتبة على المركز السياسى أو المال . وهناك صورة سارة جداً لكفالوس Cephalus الشيخ الكبير وردت فى أول « جمهورية » أفلاطون . فقد كان أجنبياً (ولو أنه كان غنياً) ولكنه كان كثير الاختلاط بالناس فى أرقى مجتمع آثينى . ولقد كان سقراط فقيراً ولم يكن من أسرة ممتازة ولكننا نجده يتمشى مع العظماء دون إحراج لأى جانب ، كما كان يتحدث فى المدينة مع الأرستقراطيين والعمال حديث الند للند . ولم يكن سقراط وحده فقيراً بل كان آنتستينيس Antisthenes كذلك ، وكان زميلا له فى مأدبة كسينوفون . ولكن هذا الدليل دليل مختار بطبيعة الحال ، فلم يحدث أن ذكر أفلاطون وكسينوفون الأثرياء الذين ينقصهم الذكاء والوضيعين الذين يدعون الرفعة .

ولكن هناك دليلا آخر — متى نظرنا بعين الاعتبار إلى الحالات المتطرفة — وهو معاملة الرقيق . فقد عرفنا من الرسوم التى على الأوانى ومن مصادر أخرى أن الصداقة الحقيقية بين العبد وصاحبه لم تكن غير معهودة ، إذ كان يتوقف كل شيء على الأفراد الذين يعنيهم الأمر . فصفوة القول أن الاستعباد كان أمراً يحدث اعتباطاً فكم من عبد كان مهذباً ذكياً . وقد كان الآثينيون من الحكمة بحيث يميزون بين المركز الاجتماعى وبين الرجل . فالعبد الذى يظفر بحريته طبقاً للتقاليد المعهودة كان ينال المكانة

الاجتماعية الخاصة « بالمهاجر » أو الأجنبى المقيم ! وليس هناك ما يوحى بأنه لم يكن ينال فى المجتمع تلك المكانة التى كانت تؤهله لها أخلاقه ومواهبه. ولم يعير إنسان بأنه كان فى الأصل عبداً إلا مرة واحدة فى إحدى مرافعات المحاكم التى انتهت إلينا ، والذى قام بذلك هو أبو لودوروس الذى كان أبوه باسيون عبداً رقيقاً ومديراً محترماً جداً وأخيراً خلفاً لصاحب بنك ثم أصبح مواطناً عند ذاك .

كان الفاصل السياسى بين الأغنياء والفقراء قد أصبح حاداً جداً. ولكن إلى أى حد كانت هناك تفرقة اجتماعية أيضاً ؟ للإنسان أن يقول إنها لم تبلغ بالتأكيد الحد الذى بلغته بيننا . فلم يكن يستطيع الإنسان أن يقول إن آثينياً بعينه كان عديم الجدارة بمجرد أن يفتح فمه بالكلام . كما سبق أن رأينا أن الأشياء الجوهرية فى التربية كانت متاحة للجميع على قدم المساواة . وإنا لنطبع فى أذهاننا فكرة أن الآثينى كان متسامحاً فى تقديره للناس أكثر منا. وهو على أى حال ما يجب أن ننتظره فى مجتمع أكثر تعرضاً لصروف الزمن.

فمثلا يحلل كتاب « الشخصيات » الذى كتبه ثيوفراستوس ثلاثين عيباً أو نقيصة مختلفة وليس من بينها الوضيع المتعالى ، وإنما هناك الرجل التافه المتكبر الذى يحتفظ بعبد حبشى . وإن كان عنده غراب حقل أليف فإنه يدربه على الصعود والهبوط وثباً على سلم صغير . وهو يلبس حلة من زرد فإذا سار فى موكب مع الفرسان الآخرين فإنه يختال فى المدينة لابساً عباءة الركوب والمهماز ، وهو يكثر من قص شعره ويحتفظ بقرد أليف . وعنده حلبة خاصة للمصارعة فإذا أعارها لإقامة مباراة عليها تعمد أن يصل متأخراً حتى يلكز الناس بعضهم بعضاً قائلين « ها هو ذا صاحب الحلبة » . وثمة عضو حكومة الأقلية وهو لا يخرج أبداً قبل الظهيرة من بيته (ليثبت أنه لا صلة له بشىء مبتذل كالأعمال التجارية) ويلبس عباءته برشاقة متعمدة

ويمتاز بأن شعره ليس بالطويل ولا بالقصير وكذلك لحيته وبأن له آراء سياسية ضد الديمقراطية كقوله « لتكن لنا لجنة قوامها شخص واحد بشرط أن يكون رجلا قوياً » « يجب أن يلزم هؤلاء الأشخاص حدودهم » . حقاً إن هؤلاء الناس يفتقرون إلى الألفة ، كما يفتقر المتعجرف الذى لا يتكلم إلا إذا بادره أحد بالحديث ، وهو الذى يحتفى بالناس فى بيته ولكنه لا يشاركهم الطعام . على أن هؤلاء الناس ليسوا من السوء بدرجة المتظاهر بالثراء .

إننا نسمع الشىء الكثير عن « حسن الطلعة » وعن الصفات الشخصية وإن هناك مايغرى الإنسان بالظن أنك لو كنت قبيح الصورة لاعتبر الرجل الذى يقابلك ذلك إهانة شخصية له . ومن هنا قول أبولودوروس (ديموستينز الفقرة ٤٥ — ص ٧٧) « إن وجهى ومشيتى السريعة وصوتى الجهورى لا تجعلنى ، على ما أعتقد ، أحد المحظوظين من الناس بل إنها محسوبة على . لأنها تضايق الآخرين ولا تنفعنى بحال » فكان الصوت الخفيض والمشية المهيبة موضع الاستحسان. أما التأنق (كما رأينا) فلم يكن من صفات المهذبين . ولكن التافه المتكبر هو الذى يبذل جهداً خاصاً ليحتفظ بأسنانه بيضاء ناصعة . ومن جهة أخرى فالرجل الممقوت هو صاحب الأسنان السوداء . والمتغطرس يشمر عن الجانب الأكبر من ساقيه عندما يجلس ، وهو الذى يرد على الطارق على الباب بنفسه . ويترنم بالأغانى فى الحمام على مسمع من الناس ويضع المسامير فى حذائه . وبالمثل فإن الرجل الوضيع يلبس حذاء مرقعاً كله . ويقسم أنه أصلب من القرون . وهناك شخصية تبدو كما لو كان صاحبها حديث النعمة ، وهى شخصية من يتعلم فى الكبر ، فهذا الرجل يحفظ الشعر ويتلقى دروساً فى الرقص والمصارعة وركوب الخيل عندما يبلغ السبعين أو يتجاوزها . وخطأه هو فى أنه يتباهى بنفسه فى غير الأوان وفى غير طائل . وليس فى هذا ما ينم عن تفوق المركز الاجتماعى والرجل

الغبي يمارس الرماية وقذف الرمح مع الصبية ويتقدم من المعلم ليريه كيف يفعل ذلك ، كأنما المعلم لا علم له بذلك هو الآخر » .

إنه ليشق على أن أترك ثيوفراستوس ولذلك لن أتركه حتى أقدم للقارىء الرجل الفضولى والرجل البطىء الغبي ولو لم تكن لهما علاقة بنقطة البحث ، فالرجل الفضولى يريك أقصر طريق للوصول ثم يضل بك وهذه طريقة هيلينية جداً — وهو يجرب تقديم النبيذ لرجل منعه طبيبه من تناوله فيتسبب فى سقوط المسكين طريح الفراش . وإن أقسم يميناً قال للحاضرين « إنكم لتعلمون أن هذه ليست المرة الأولى التى أقسم فيها » . والرجل البطىء الغبي يجمع قائمة حسابه ويكتب المجموع ثم يقول « ما مقداره ؟ » وهو يبقى فى المسرح يغط فى سبات عميق وحده بعد أن يكون قد غادره الجميع . وعندما يسأله سائل عما إذا كان يعرف عدد الجنائز التى مرت فى طريق المقابر فى الشهر الفائت يجيب « كم أود أن يكون لى ولك نصف عددها » وبعد أن يتناول العشاء بشراهة يضطر إلى الاستيقاظ بالليل ليذهب إلى محل الاجتماعات العامة ، وفى طريق العودة يخطىء فيدخل بيت جاره فيعضه الكلب هناك . ولكن يجب علينا أن نعود إلى موضوع بحثنا ولو كان معنى ذلك أن نتجاوز الرجل الذى تعوزه الكياسة وهو الذى يغنى لحبيبته بالليل وهى تعانى من الحمى أو يدعو شخصاً عائداً لتوه من رحلة منهكة للخروج معه فى نزهة ، والذى يقيم من نفسه حكما ثم يجمع بين الخصوم قسراً ولو لم يكن لهم غرض إلا الصلح ، والذى « عندما يعتزم الرقص يمسك بتلابيب رجل آخر لم تلعب الخمر برأسه » .

إن الفقر يبعث على الأسى بطبيعة الحال فهو يجعل الإنسان عاجزاً عن مساعدة أصدقائه كما يشتهى وقد احتج يوكسيثيوس Euxitheus بأن خصمه قد سخر من أمه لأنها تبيع « الأشرطة فى السوق » وهذا مخالف للقانون

الذي يجيز رفع دعوى قذف ضد أي شخص يؤاخذ مواطناً أو مواطنة لأنه يشتغل بحرفة في السوق ، وقد يكون مما له مغزى أن وجود قانون (أو إحدى مواده) كان أمراً ضرورياً ، غير أن السوق كانت له صفة خاصة إذ أنه يدعو إلى افتراض أن الإنسان وغد من الأوغاد (قارن ذلك بما جاء عن « سوق الكذابين ») وقد قرر كذلك الوغد الذي أقام الدعوى ضد يوكسيثيوس أن أمه كانت مرضعة قائلا وما في ذلك ؟ لقد نكبتنا الحرب نكبة فادحة كما نكبت كثيرين غيرنا وقد اشتغل كثيرات من النساء الآثينيات مرضعات وإن شئتم أعطيتكم الأسماء » .

وكثيراً ما يؤكد البعض لنا ويقدمون أدلة كثيرة أو قليلة على أن الإغريق كان يكره العمل اليدوي . وقد نبذ زيمرن هذه الفكرة (في كتابه « الكومنولث الإغريقي) باعتبارها مثيرة للسخرية وهذا نعت موفق فيما أظن . وكما أننا عند النظر في معاملة النساء يجب علينا أن نتخلص من بعض الأفكار السائدة في عصرنا قبل تقدير موقف الإغريق حق قدره ، فكذلك علينا أن نبحث في أمر الذين نتخذهم حجة نرجع إليهم ، كما نبحث في أقوالهم . لقد جرت عادتنا أن نتحدث عن العمال بلهجة من يردد تعاويذ سحرية . أما الإغريق فقد كان من بساطة العقل بحيث لا يفكر تفكيراً ضخماً هكذا بل كان يود أن يعلم « في أي شيء يشتغل وكيف يشتغل » . مثال ذلك والعهدة على سقراط (كما روى كسينوفون في الاقتصاديات ، الفصل الرابع ، الفقرة ٣) أن بعض الدول (وهي ليست آثينا) كانت تحظر على رعاياها الاشتغال بالحرف الميكانيكية ، وإنه لتخطر بالبال تواً القاعدة المتبعة أو التي كانت متبعة عند « رابطة التجديف للهواة » وهي ألا يسمح لمن يمارس حرفة يدوية بأن يكون مجدفاً هاوياً . وقد نعجب لوجود مثل محاولة الترفع هذه عند سقراط من بين الناس جميعاً ، ولكننا لو نظرنا في العبارة التي وردت بها لما وجدناها تنطوي

على ترفع بالمرة . والذى يؤدى إلى هـذه العبارة هو ما يأتى : « إن الناس ليذكرون بالسوء تلك الحرف المسماة بالحرف اليدوية . وهى فى الحق ليست ذات شأن يذكر بين طبقات المجتمع لأنها توهن أبدان الذين يتكسبون من قسرهم على الجلوس وإنفاق أيامهم خلف أبواب موصدة ، بل إن البعض ليشتغلون طوال الوقت بجانب النار ، ولكن عندما يصاب الجسم بالهزال يضعف العقل أيضاً . وفضلا عن ذلك فإن هذه الحرف الميكانيكية لاتدع للإنسان أى وقت للفراغ لمراعاة مصالح أصدقائه أو الصالح العام ، ولا يمكن أن تكون هذا الطبقة من الناس لذلك ذات فائدة كبيرة لأصدقائه أو للدفاع عن وطنه ، وبعض الدول بالفعل ولاسيما أكثرها ميلا إلى الحرب لاتسمح للمواطن بالاشتغال بهذه الحرف اليدوية » .

وبالنظر إلى بساطة عقل الإغريق فإنه كان إذا واجهته مسألة لا يسأل عادة عما إذا كانت مسألة رجعية أو شعبية أو تنم عن أعراف بل كان يميل أن يسأل عما إذا كانت صحيحة . أما الدول التى قصرت ، كما قيل ، الحرية السياسية على تلك الطبقات التى كان من المحتمل أن تكون دائماً على استعداد للخدمة العسكرية (والفلاحون من بينهم بكل تأكيد) فربما كانت نظرتها إلى وظائف الدولة نظرة ضيقة ، ولكن لا يمكن لهذا السبب أن يقال عنها إنها تحتقر العمل اليدوى لذاته .

ولنفرض أننا طبقنا استدلال سقراط المنطقى على زماننا . فقد حدث أنى كتبت أكثر هذا الكتاب وأنا جالس بجوار المدفأة ، فلو كان على أن أمشى إلى « برد جوونر » فى الأسبوع القادم لغشى على إلى جانب الطريق ولكان واجباً على بالتأكيد أن ألقى ما على من أثقال . ولو استدعيت للقيام بوظيفة محلف لكان من المحتمل أن أطلب إعفائى معتذراً بأن جامعتى ، لا يمكن أن تستغنى عنى ، ولوجد سقراط دون شك أنى أثير اهتمامه كفرد وإن كان لابد

أن يظن أى مواطن حقير ويضع مهنتى فى قائمته السوداء ، غير أنه ليس من سلامة الرأى أن نستنتج أن سقراط « كان يحتقر الأعمال الفكرية ، أما الذى كان يعترض عليه سقراط فى الحقيقة فإنه لم يكن العمل اليدوى بل التخصص ، ففلاحة الأرض كانت تقابل منه بأعظم ثناء فهو لم يكن يسخر من الفلاح .

ثم دعنا لا ننسى أن سقراط يتكلم هنا من الوجهة السياسية لا الاجتماعية وهو لم يكن من ذلك النفر الذين يسمحون للاعتبارات التى لا علاقة لها بالموضوع بأن تتدخل فى قرع الحجة بالحجة (ومثله فى ذلك أفلاطون وأرسطو) . ونحن نرى ناحية أخرى من سقراط فى كتاب « الذكريات » فصل ٣ فقرة ١٠ فنرى سقراط الذى كان يقضى أكثر وقته مختلفاً إلى « المصانع الصغيرة » « والمراسم » (وهما لا تكاد تمكن التفرقة بينهما) ويناقش « العامل » فى حرفته ، وقد كانوا على حد قول كسينوفون يجدون محادثته مفيدة جداً . وقد سجل كسينوفون محادثة مع صانع للزرد يدعى بستياس . إذ قال سقراط « ما أروع اكتشاف الزرد . إنه يمنح الوقاية حين تكون الوقاية لازمة ، ومع ذلك فإنه لا يمنع الإنسان من استخدام ذراعيه . أخبرنى يابستياس Pistias لماذا تتقاضى ثمناً أكثر من الصناع الآخرين ؟ إنك لاتصنع زرداً أمتن من غيرك فهو مصنوع من نفس المواد » وقد أوضح له بستياس أن زرده أكثر تناسقاً ، فقال سقراط « ولكن هب أن المشترى نفسه كان غير متناسق الأعضاء ؟ » فقال بستياس إنه يعيد تنسيق الزرد حتى يلائمه ، فأجاب سقراط « أى أن التناسب ليس شيئاً مطلقاً ولكنه يتوقف على لابسى الزرد ، وبالطبع إن كان المقاس مضبوطاً فإن ثقل الزرد يتوزع بالتساوى ويكون أقل استرعاء للملاحظة » فقال بستياس « هذا صحيح ومن ثمة ترانى أعتقد أن صناعتى تستحق ثمناً مجزياً ، ولكن هناك من الناس من يفضلون الزرد المزخرف زخرفة فخمة » :

لقد كان هؤلاء العمال يهتمون بأنفسهم وكذلك بحرفهم . وكثيراً ما تعطينا الرسوم التى على الأوانى المعدة للبيع العادى منظراً فى مصنع ، وهى فى أغلب الأحيان ترينا الخزاف وهو يقوم بمراحل عمله . وهذا أمر طبيعى غير أن ثمة حرفاً أخرى قد نقشت أيضاً . لقد درج الخزافون الإنجليز فى أكثر الأحيان على زخرفة سلعهم بنقش صور الفراشات أو الأكواخ الريفية الجميلة عليها ، ولا أعلم أن المصنع ذاته قد رسمت له صورة على صحيفة من صحاف الطعام أو على إبريق . وقد تكون هناك أسباب أخرى لهذا ولكن كون الخزاف الإغريقى على الأقل كان يستخدم حرفته الخاصة لأغراض الزخرفة يوحى بأنه لم يكن ثمة أى اعتراض من الوجهة الاجتماعية العامة ضد هذه الحرفة .

ونحن نسمع فى « الذكريات » عن رجل يدعى يوثيروس Eutherus وهو من ذوى الأملاك الذين جلبت عليهم الحرب الخراب مثل أرستارخوس الذى مر ذكره من قبل ، وقد اشتغل بعمل يدوى وإن كنا لا نعرف ماهو إذ كان يعتقد أن هذا أفضل من محاولة التطفل على الأصدقاء ، وقد قال له سقراط « هذا حسن جداً ولكن ماذا يكون حالك عندما تتقدم بك السن فلا تستطيع العمل المرهق ؟ أولى لك أن تبحث عن شخص يحتاج إلى مدير لمزرعته يتولى أمر العمال ويشرف على المحصول إلى غير ذلك . إن مثل هذه الوظيفة تفيدك أكثر عندما تتقدم بك السن » وهى نصيحة حكيمة جداً ولكن ماذا قال يوثيروس ؟ إنه قال شيئاً هلينياً صميما مما سمعته أنا نفسى من رجل يونانى كان صاحب مطعم صغير فاشل فى مدينة يونانية صغيرة حالتها متدهورة . فبينما كنت هناك أتمتع يوماً بعد يوم بوجبات طعامه الذى كان يطهوه طهواً رائعاً اضطر إلى الرضوخ وقبول وظيفة فى مطعم قائم فى مكان آخر ، فأخذت أعبر له عن الأمانى الطيبة التى مكنتنى لغتى اليونانية الحديثة من التعبير عنها ، غير أنه قاطعنى قائلا بنظرة وإشارة تنمان عن مرارة

لاحد لها . لقد أصبحت تابعاً . هذا بالضبط ما قاله يوثيروس . إنه لم يكن يهمه أن يعمل بيده بقدر ما كان يضيره أن يكون تحت إمرة سيد آخر . وهو كما قال مترجم « بوهن » بطريقته اللاذعة « إنى لأكره كراهية شديدة يا سقراط أن أخضع للعبودية» وقد أشار سقراط إلى أن إدارة ضيعة مثلها مثل إدارة مدينة وأن هذا هو عكس ما يضطلع به العبد من أعباء . ولكن يوثيروس كان عنيداً فقال «أنا لن أعرض نفسى لتقريع أى إنسان» وقد أجاب سقراط «هذا صعب ولكن عليك أن تبحث عن شخص لا يكثر من اللوم — رجل عادل تستطيع أن تؤدى له العمل الذى فى وسعك وترفض ما عداه » . لسنا ندرى ما صنع يوثيروس — ولكن أن تكون مديراً لضيعة ! بالسماء !

ويبدو فى الحقيقة أن موقف الإغريق من العمل كان حساساً جداً . فليس ثمة شىء يسمى « عملا » بمعناه المجرد ، فكل شىء يتوقف على نوع العمل وبصفة خاصة على ما إذا كان يتيح لك أن تكون سيد نفسك . إذ لم يكن يهم المواطن أن يزامل الأرقاء فى العمل . والفرق بينهما هو أنه كان يستطيع أن يتوقف ويذهب إلى الجمعية العامة أما العبد فلم يكن يستطيع ذلك . لقد كان بستياس يستطيع أن يغلق حانوته متى أراد على « أن يعود فى الغد » . وكانت له مهنة شيقة فكان يستطيع أن يفخر بعمله . وإذا كان زبائنه لا يحبون سلعه فقد كان يمكنهم أن يذهبوا إلى مكان آخر .

لقد كان الإغريق يقدرون العمل فهم لم يكونوا يترفعون عنه أو ينسافون مع العاطفة تجاهه . وعندما قال أرسطو « إن المهن اليدوية والميكانيكية لا تجعل من المرء مواطناً صالحاً » ، كان من المستحيل مناقضته فى أمر من صميم اختصاصه . فلم يكن الأمر أمر ميل مع الهوى بل كان إعمال الرأى والحكم الصحيح الذى بناه على المقدمات المنطقية . لقد هجا اروستوفانيس كليون باعتباره بائع جلود عنيف سوقى ولكنه لم يكن يسخر

من بائعى الجلود الذين لم يكونوا عنيفين أو يكونوا من السوقه . وقد قال سقراط عن ابن انوتوس Anytus الذى قام بمقاضاته (الذكريات ٣٠٤) « أنا لا أظن أنه سيستمر فى المهنة الحقيرة التى وضعه فيها أبوه ، وهى فى الظاهر أيضاً بيع الجلود ، فهو فتى ذو كفاية ومقدرة ، إنه أعلى من ذلك حقاً . ولقد كانت المهنة التى ينظر إليها فى الحقيقة نظرة ازدراء هى البيع بالتجزئة ، وقد كان السبب فى ذلك من جانب هو التحيز من الوجهة الاقتصادية — فمثل هذا الشخص لا يعمل شيئاً فى الحقيقة بل هو يتطفل على غيره — كما كانت له ناحيته الأدبية (راجع « سوق الكذابين ») بل يكاد الإنسان يقول إن له ناحيته الجمالية وذلك لأن مثل هذا الشخص لا يعمل شيئاً يطلب المهارة أو يبعث على الرضا . وعندنا فى الإنجليزية كلمة « بائع بالمتجر Counter-Jumper » تفيد هذا المعنى وقد قال ديموسثينيز[١] وهو يتكلم عن التجار المحترمين « إن الناس لتعتقد أن الرجل الذى يجمع بين المهارة والأمانة فى عالم التجارة والمال رجل ممتاز أو ملفت للنظر » . وهناك كثير من الفلاسفة والكتاب عند الإغريق المتأخرين كانت كتاباتهم عن العمل تنم عن احتقاره ، غير أن ذلك قد حدث فى عالم منشق على نفسه هو الذى كان قد ابتدع « الثقافة » .

ولكى نختتم هذا الفصل الذى يمتاز إلى حد ما بالاستطراد ربما جاز لنا أن نتساءل عما إذا كان هناك أية مميزات عامة لهذا الشعب لم نذكرها أو لم نعطها حقها من الدراسة . أجل إن ثمة إحدى هذه الخصائص .

ربما كان القارىء قد ذعر لأن متقاضياً يسلم علناً بأنه رفع دعواه لكى يثأر من خصمه[٢] . إن هذا دافع نحرص نحن على إخفائه ، بل هو بالفعل

---

(١) عند الدفاع عن « فورميو » أحد أصحاب البنوك

(٢) أنظر ما قبله ص ٢٨٧

مما يسعى الدفاع لا الاتهام إلى إثباته . ومع ذلك فقـــد كان الإغريق يطالبون به صراحة فى محاكمهم . وهذا موضوع يستحق الدراسة بشىء من التطويل .

وواضح أن القول بأن الأغريق كانوا محبين للأخذ بالثأر لا يعتبر تفسيراً للموضوع إذ ربما كانوا كذلك . ولكن لماذا ينبغى لنا أن نعتبر مثل هذه الرغبة فى الانتقام إحدى المزايا ؟ هى كذلك بالتأكيد بشرط ألا تكون النية فى الانتقام شيئاً غير معقول . ويبين هـذا الأمر الخلق الوحيد عند ثيوفراستوس الذى يصعب علينا فهمه وهو خلق الرجل الساخر . لقد تغير معنى كلمة « ساخر » تغيراً تاماً . فقد كانت « السخرية » عند الإغريق عكس التفاخر والمبالغة . والنقيض كان يعتبر نقيصة كنقيضه سواء بسواء . لأن الرجل الإغريقى كان يعرف دائماً ما علمه التاريخ السياسى الحديث للناس ، وهو أن عكس الرجل الخبيث ليس الرجل الطيب بل نوعاً آخر من الخبثاء . « فالسخرية لم تكن تعنى بخس الشىء فقط بل الافتقار إلى الصراحة أيضاً وإخفاء الدوافع الحقيقية وإظهار الدوافع الزائفـة . فالرجل الساخر عند ثيوفراستوس إلى جانب ما كان ينطوى عليه من المعانى الأخرى كان ، هو الذى يذهب إلى أعدائه ليحادثهم بدل أن يظهر لهم البغضاء ، وهو الذى يمدح فى مواجهتهم أولئك الذين كان يهاجمهم فى غيبتهم ثم يظهر العطف عليهم فى هزائمهم . وهو الذى يظهر الصفح عمن يشتمه ويعفو عما يقال فى حقه(١) » ويمكننا أن نتأكد تماماً من أن الذى يعترض عليه ثيوفراستوس ليس أن الصفح مجرد من الصدق : فكما أن المعجب بنفسه يدعى أنه ألطف بكثير مما هو عليه ، فكذلك عكسه وهو الرجل الساخر يدعى أنه أحط بكثير مما هو عليه (فضلا عن غير ذلك من الأمور) . وكيف يستطيع الإنسان أن

(١) نقلا عن ترجمة « جب » .

يظهر حقارته العقلية بوضوح أشد من تكلفه الصفح عن أعدائه ؟ وحتى ادعاء القيام بذلك مثير للاشمئزاز ، أما القيام به حقاً فهو شر من ذلك .

هذا منطق إغريقي صميم « أحب أصدقاءك واكره أعداءك » . هذه حكمة لم يفكر أحد قبل سقراط فى تحديها . أما نموذج النبل عند أرسطو فهو «الرجل ذو العقل الكبير» أو «ذو النفس العظيمة» (والمرادف الحرفى اللاتيني لذلك هو magnanimous قد اكتسب معنى مخالفاً يعتبر أبعد ما يكون عما كان يعنيه أرسطو) فهو ليس كالرجل الساخر بل هو الصريح فى صداقته وعداوته معاً لأن الإخفاء هو علامة الضعف .

فى إمكاننا أن نفهم أن عدم الإخلاص أمر منكر ، والذى علينا أن نفهمه هو أن الصفح عن الأعـــداء أمر منكر كذلك ، أما الثأر منهم فواجب واضح .

هذه الأخلاق الغير المسيحية على الإطلاق قد نجمت من جهة طبيعة المجتمع الإغريقى الذى تعتبر فيه الجماعة ذات أهمية أكبر مما عندنا ويعتبر الفرد ذا أهمية أقل من الوجهة الاجتماعية . فالفرد عضو فى أسرته أولا ثم فى «دولته» ، فأية إساءة إليه تعتبر إساءة إما إلى أسرته أو إلى دولته طبقاً للحالة ، ويجب عليه أن يثأر لها لصالح أسرته أو دولته ، ولدينا نحن أنفسنا مثل بعيد على ذلك فى الدقة والنزاهة التى على أمين الصندوق أن يتبعها فى إدارة الأموال ، فليس له أن يسخو بأموال غيره من الناس .

غير أن ما هو أهم من ذلك كان تأثير معنى التعظيم (التكريم) عند الإغريق ، فقد كان الإغريقى حساساً جداً بالنسبة لمكانته بين زملائه ، فقد كان متحمساً وكان ينتظر منه أن يكون متحمساً فى المطالبة بما هو واجب له . فالتواضع لم يكن ينظر إليه بعين الاعتبار الكبير . أما أن « الفضيلة » هى جزاؤه فقد

كانت نظرية يعتقد الإغريقي أنها حق محض ، فجزاء الفضيلة (الأريتى أو الامتياز البارز) arelê هو ثناء زملاء الإنسان وذريته عليه . وهذا أمر ملحوظ خلال الحياة والتاريخ الإغريقي بأكمله ، منذ اللحظة التى تأثر فيها البطل الهوميرى ذلك التأثر الفريد من أجـــل جائزته . وإليك ملاحظة نموذجية :

لو أنك تمعنت فى طموح الناس لعجبت لما ينطوى عليه من عدم التعقل، إلا إذا أدركت مبلغ تعطشهم إلى الشهرة « كى يتركوا وراءهم ذكراً للعصور التالية جميعاً » كما قال الشاعر ، فهم على استعداد من أجلها لمواجهة أى خطر ولو كان خطراً أشد من الذى يواجهونه من أجل أولادهم ولبذل أنفسهم وتحمل أية مشقة مادية والتضحية بحياتهم من أجلها . فلماذا لعمرى تتصور أن الكيستيس Alcestis كانت على استعداد لتضحى بحياتها من أجل أدميتوس Admetus أو كان أخليس على اســـتعداد لبذل حياته ليثأر لباتروكلوس Patroclus لو لم يعتقدا أن امتيازهما (أريتى) سيبقى خالداً كما خلد بالفعل ؟ أجل إنه كلما ازداد نبل الإنسان كانت شهرته الباقية وامتيازه الخالد مصدراً لكل عمل يعمله .

هذا كلام ديوتيما الحكيم وهو يعلم سقراط فى مأدبة أفلاطون . إنها نظرية إغريقية طبيعية ونحن نجدها عند الفلاسفة والشعراء والخطباء السياسيين كما نجدها مثلا فى كتاب « الأخلاق » لأرسطو .

فلو طلب منا نحن أن نعرف عظمة النفس لكنا نشترط أن تظهر صفات معينة فى العمل باستمرار ، وإن كنا لا نتطلب من صاحب النفس الكبيرة أن يكون مدركا لهذه الصفات، كما لا نرى أنه ينبغى عليه أن يطلب الاعتراف العام بهذه الصفات ، ولكن ما الذى يقوله أرسطو؟ إنه يقول « إن صاحب

النفس الكبيرة ، (أو العقل الكبير أو كليهما) هو الذى يعتبر نفسه جديراً بأمور سامية ، وأنه حقاً جدير بها ـ أما الذى يقدر نفسه فوق قدرها فهو مغرور فى الحقيقة والذى يقدرها دون قدرها فهو ذو عقل وضيع والرجل الجدير بصغائر الأمور ولكنه يضع نفسه فيما يناسبها يكون معقولا ولو أنه لايكون ذا عقل كبير، أما ذو العقل الكبير فالهدف الذى يجعله نصب عينيه هو أسمى شيء نعرفه وهو ماتقدمه للآلهة أى « التكريم» . وعنده بطبيعة الحال كل الفضائل وإلا لما استحق أعظم تكريم ، غير أنه لا يقدر حتى التكريم ذاته بأكثر من قيمته . أما تقديره للثروة والقوة السياسية فهو أقل لأنهما دون التكريم لأن رغبة الناس فيهما هى من أجل التكريم . وإذا أريد شيء من أجل شيء آخر فإنه يكون بالضرورة أقل من ذلك الشيء الآخر . وذو العقل الكبير يركب الأخطار من أجل غايات صغيرة ولا يجهد نفسه فى الصغائر لأنه يحتقرها ولكنه يعرض نفسه للخطر الكبير ، وهو فى وقت الخطر الكبير لا يكترث بحياته لاعتقاده بأن الحيـــاة لا تستحق أن نحياها دون تكريم وليس من عادته الإعجاب بالأشياء فليس ثمة شيء يراه عظيماً . (١) وهو لايحمل حقداً لأحد ويفضل أن يتجاوز عن الإساءات ولا يهمه أن يمدحه أحد أو أن يمدح أحداً ، وهو لايتكلم بطبيعة الحال عن غيره من الناس من وجهة شخصية كما لا يتكلم عن الفرد بسوء حتى ولا عن أعدائه إلا إن كان يقصد أن يهينهم . عمداً هذا هو مثال الرجل العظيم ، عند هذا الفيلسوف . وعظمته تظهر من ناحية فى عدم اكتراثه « بالمديح » وهو الوازع الطبيعى للعمل (فسقراط يقول مثلا إن القائد الكفء هو الذى يضع فى طليعة الصفوف ، الطموحين الذين هم على استعداد لمواجهة الخطر من أجل المديح)

---

(١) كما قال بلفور مرة ، ليس ثمة شيء عظيم الأهمية أما الأمور التى لها أية أهمية على الإطلاق فقليلة جداً .

وتقوم عظمته على تقديره العادل لنفسه وللأمور الخارجية معاً . والتواضع الخالى من التكلف ليس من بين فضائله ، هو يعتبر الكرامة فوق كل شيء (وحتى عندئذ يعتبرها كذلك دون مغالاة) . وما هي هذه « الكرامة » ؟ إنها ليست ذلك الإرغام الذى تعنيه « الكرامة » عندنا . إن أقرب كلمة إغريقية إليها هي كلمة ايدوس aidos أى الخجل . والكلمة التى يستخدمها أرسطو هنا هي « تيمى Time » ومما له مغزى أن هذه الكلمة هي أيضاً الكلمة الإغريقية العادية لكلمة « ثمن » أو « قيمة » . وكلمة « estimate » فى الإنجليزية مشتقة منها فى الحقيقة ، وهذا يشير إلى الأهمية التى كان يعلقها الإغريقى على الاعتراف العام بصفاته وخدماته .

على أن من الخطأ أن نفترض أن الإغريقى العادى كان ينتظر منه أن يكون إعجابه بالضرورة بهذا الخلق بقدر إعجاب الفيلسوف . فلو أن الفيلسوف كان يفكر مثلما يفكر بقية الناس لما كان فيلسوفاً قديراً ، وبالرغم من ذلك ومع التسليم بوجود التجريدات والإتقان الفلسفى فى الصورة فإننا نجدها إغريقية محضة صميمة ولو أنها مبالغ فيها ، كما أن بعض تفاصيلها تشير إلى بريكليس (فقد عاد بريكليس من وليمة إلى بيته ليلا ومعه شعلة يحملها عبد له كان فى حراسته ، وكان يتبعه رجل يكيل له السباب والإهانات طوال الطريق ولكن بريكليس لم يعره التفاتاً ، ولكنه عندما وصل إلى بيته التفت إلى عبده وقال « رافق هذا الرجل ليرى الطريق إلى منزله » . أما الأمر المشترك بين « صاحب النفس الكبيرة » الذى عناه أرسطو وبين الإغريقى العادى فهو شعوره القوى بقيمته ورغبته فى « الكرامة » حتى يلقى من الناس ما يستحق. هذا إلى حد بعيد هو الذى يفسر لنا الرغبة فى الانتقام التى لا يشوبها الخجل ، فالإنسان يرى لزاماً عليه أن يثأر لنفسه فتحمل الإساءة فيه معنى أن المسيء أفضل منك .

والخلق الذى يدعو إليه أرسطو غير عادى فى كون صاحبه لا يحمل حقداً لأحد ، ولكن لم لا ؟ ليس ذلك لأنه يعتقد أن الحقد خطأ من الوجهة الخلقية بل لأنه يرى أن الحقد حقير لا يليق بالإنسان فهو لا يغتفر ولكنه يحتقر وينسى ، أما الإغريق العادى فلم يكن يفعل كلا من الأمرين .

لاحظنا كيف أن الإغريق كان مهتماً بالحصول على «التقدير أو التكريم» « timê » أى ما يستحقه من الثناء ، فقد كان وما زال مهتماً بأن يلعب دوره (وما لم تدرك ذلك نجد السياسة الإغريقية الحديثة غير مفهومة لنا) ولهذا فإننا نقابل عندهم فكرة « النضال أو المنافسة . . « agên » فى كل مناسبة . وهذه الأشياء التى نترجمها ترجمة ضعيفة بكلمة «الألعاب» كانت تسمى فى الإغريقية « agônes » (مباريات) فالحفلات المسرحية كانت « agônes » أى ألوانا من النضال ينافس فيها الشاعر شاعراً أو الممثل ممثلا أو المتعهد بإعداد فريق للرقص فى الحفلات المسرحية متعهداً آخر . وكلمة ألم « agony » فى الإنجليزية مأخوذة مباشرة من « agôn » الإغريقية . فإن الألم الشديد فى النضال هو الذى يكشف حقيقة الرجل .

وإلى جانب هذا كله كان هناك الطموح الشخصى الذى كثيراً ما كان يجد الإغريق ذو الموهبة العالية أن من المحال التحكم فيه ، وأحسن تعليق على ذلك هو وصف ثوكوديديز للقائدين الإغريقيين فى « الحرب الفارسية » وهما ثيموستوكليس الأثينى الذى نظم معركة سلاميس ، وباوسنياس Pausanias القائد الإسبرطى فى بلاتايا . فقد أرسل باوسنياس بعد بلاتايا بقليل ومعه أسطول متحالف لتحرير الجزر ولكنه أخذ يعمل بعنف روع الحلفاء إلى الحد الذى جعلهم يلتمسون من الأثينيين أن يتسلموا القيادة منه . فاستدعى الإسبرطيون باوسنياس ليجيب على الاتهامات الموجهة إليه بظلم الأفراد وبالتآمر مع الفرس . فقد كان يبدو أنه يتصرف كحاكم مستبد أكثر من تصرفه كقائد (ثوكوديديز —

الكتاب الأول . فصل ٩٥) وحيث ان الإسبرطيين لم يرسلوا من يخلفه فقد انتقلت القيادة إلى الآثينيين بحكم غيابه ، غير أنه أبحر ثانية بسفينة واحدة وسرعان ما ظهر فى سهل طروادة وهو يتآمر مع فارس . فاستدعى ثانية إلى إسبرطة وأطاع الأمر لاعتماده على منصبه الملكى وثروته . ولم يوجد دليل ضده غير أن احتقاره للقوانين واستخدامه الآداب العامة الفارسية كان يلوح أنها تثير الريبة فى أمره ، وفضلا عن ذلك فإنه كان قد تجاسر على كتابة اسمه على القربان الذى قدمه الإغريق لدلفوى تحقيقياً لنذرهم وشكراً لها على الانتصار . كما أن بعض الرقيق من الإسبرطيين أكدوا أنه كان يتآمر سراً معهم للقيام بحركة تمرد . وفى نهاية الأمر استدرجه القضاة الإسبرطيون حتى اعترف بمعاملاته مع الفرس . وقد التجأ إلى معبدليتفادى القبض عليه فترك فيه حتى مات جوعاً .

غير أن الدليل ضد باوسنياس أشرك ثيمستوكليس فى الجريمة ، فقد تعالى هو الآخر وتكبر وكان متطرفا وانتهازياً بحيث لم يكن من الميسور قيادته بالعمل مع ارستايديس ، ولهذا فقد استخدم الآثينيون صمام الأمان أى النفى من المجتمع ، فنفى ثيمستوكليس وذهب إلى أرجوس عدوة إسبرطه التى لم تكن تقبل أن تصالحها قط . وقد سر الإسبرطيون جداً بلاريب حين استطاعوا أن ينقلوا هذا الخبر إلى أثينا ، فأرسل الآثينيون جماعة للقبض عليه ولكنه وجد من يحذره . ولم يأنف ثوكوديديز (هذه المرة) من ذكر قصة مغامرات رومانتيه . ذلك أن ثيمستوكليس فر أولا إلى كوركورا فى كورفو ومنها إلى أدراستوس Adrastus ملك المولوسيين ولو أن علاقتهما بعضهما ببعض لم تكن طيبة . وقد تصادف أن أدراستوس كان غائباً عن بيته فتقدم ثيمستوكليس إلى زوجة أدراستوس متوسلا فأشارت إليه أن يجلس على الأرض إلى جوار المدفأة وأعطته طفلها ليحمله . فلما عاد أدراستوس استطاع ثيمستوكليس أن يشرح قضيته بصفته متوسلا فقال « لقد أسأت

إليك، وصاحب المروءة يثأر من أنداده فحسب أما فى حالتى الراهنة فإنه لا حول لى، وفضلا عن ذلك فإنى عارضتك فقط فى طلب قدمته على حين أن التماسى الحالى منك هو أمر حياة أو موت . إن مما يحز فى نفس الإنسان أن يجد هذا السياسى الداهية فى مثل هذا الوضع المهومبرى، وقد حداه أدراستوس حتى سافر إلى آسيا بمحض رغبته . وقد أرسل خطاباً إلى ابن كسرسيس الذى خلف أباه قال فيه « لقد ألحقت بأبيك عندما هاجمنا ضرراً أكثر مما ألحقه أى إغريق آخر ولكنى قدمت له كذلك خدمة عظمى بتحريض الإغريق على ألا يعرقلوا تقهقره . إننى صديقكم ويمكن أن تكون خدمتى لكم عظيمة . وإنى أريد أن أنتظر عاماً ثم أفد عليكم » فوافق الملك . وتعلم ثيمستوكليس خلال العام كل ما استطاع من لغة الفرس ونظمهم ونال الحظوة لدى الملك وأصبح حاكم مغنيسيا فى آسيا حيث مات فى النهاية بسبب المرض، وكوفىء بإقامة تمثال له . « ولو أن البعض يقول إنه تعاطى السم عندما وجد أنه وعد الملك بأكثر مما يستطيع أن ينجز » وهذه الإشارة الخبيثة إغريقية صميمة ولكن يبدو من غير المحتمل على الإطلاق أن رجلا بارعاً مثل ثيمستوكليس يمكن أن يكون قد حفر لنفسه مثل هذه الحفرة . « هكذا كانت نهاية باوسنياس الإسبرطى وثيمستوكليس الآثينى اللذين كانا أبرز رجلين فى زمانهما »(١) إن المآسى الإغريقية وهى تتكلم عن (التكبر أو الغطرسة Hybris) لا تفعل ذلك دون سبب كما أنها كثيراً ما تمثل « الأمل » على أنه شرك وإغراء .

وأخيراً يجب ألا ننسى أن الإغريق كانوا من أهل الجنوب وربما كان هدوء الفن الإغريقى واتزان العقل الإغريقى ونظرية الإغريق السليمة الخاصة

---

(١) توكوديديز الكتاب الأول فصول — ٩٤ — ٩٦ ؛ ١٢٨ — ١٣٨ . .

« بالوسط الذهبي » مشجعة لفكرة أن الإغريقي كان لا يحس بالانفعال ولا يتكدر صفوه . وربما كان مما قوى هذه الفكرة لدينا الأفكار المستمدة من المذهب الكلاسي الحديث neo-classicism في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكذلك التمثيل الحديث للمسرحيات الإغريقية التي تقف فيها نساء لا تستبين العين ثيابهن على هيئة جماعات كأنهن تماثيل جامدة على المسرح ويرتلن في وحدة مصطنعة ومربكة إلى حد ما قدراً كبيراً من الأساطير الكئيبة .

هذا خطأ كله ، فأي شيء لاتهزه الإثارة التي يمكن التحكم فيها لايمت إلى الفن الإغريقي الكلاسي بسبب ، وإن كان من الجائز أنه ينتمي إلى مابعد العصر الكلاسي . وإذا لم يثرك إيسخولوس أو لم يجعل منك شخصاً أفضل فمعنى ذلك أنك لم تفهم إيسخولوس (وإن كان من الجائز أن فهم إيسخولوس الآن محال بدون دراسته ، غير أن هذا موضوع آخر .) .

دعنا نتمعن لحظة في موضوع المسرحيات الإغريقية . إن مناظر الحوار لا نجد فيهـا إشكالا ففيها من الفن المسرحي ما فيه الكفاية . إن ما يحدث بين المناظر بعضها وبعض ، هو الذي يبعث على الانقباض الشديد ، من أمثال جماعة الفتيات الرشيقات أو الشيوخ الذين يرددون كلام سوينبرن لجأة . فعلى الذين يجدون ذلك كئيباً ألا يلوموا الإغريق ، فما كان الإغريق يتحملونه خمس دقائق. هذه الترانيم الجماعية لم تكن قط كلاماً يلقى بل كلاماً يغنى ، ثم هو لا يغنى فقط بل يصاحبه الرقص ، ولا يصاحبه الرقص فحسب — كما يحدث أحياناً بالفعل عند إعادة تمثيل هذه المسرحيات في العصر الحديث — بل يدور الرقص في حلبة مستديرة قطرها تسعون قدماً تقريباً . صحيح على وجه التقريب أنه لايعرف شيئاً في الوقت الحاضر عن الرقص الإغريقي إلا القائمون بتعليمه ، أما محاولة إعادة تبيانه من الصور القليلة المرسومة على

الأوانى فهو من أخطر ضروب المغامرة ، لأن رسامى أوانى الزهر لم يكونوا يعرفون شيئاً من قواعد المنظور أو يهتمون بها ، فإن رسموا موكباً على شكل إفريز لم يكن ذلك يعنى إلا أن موكباً فى صورة إفريز يكون زخرفاً بالغ التأثير على أحد الأوانى لا أن الرقص كان هكذا . غير أننا قد تركنا أوزان الشعر وهى التى تضبط الإيقاع على الأقل كما تعتبر الخطط الأساسية للموسيق والرقص إن جاز لنا أن نقول ذلك . ومن كل ذلك يتضح تماماً أن الرقصات كانت قوية التعبير منوعة وصاخبة كلما كان ذلك ضرورياً . ومن ذلك نستطيع أن نرى مثلا أن أوضاع الرقص عند إيسخولوس كانت مؤسسة على فكرة معمارية أما عند سوفوكليس فقد كانت تشكيلية للغاية . وقصة جوقة إلهات الانتقام فى مسرحية (اليومنيديس) Eumenides (ص٣٠٦)ولو أنها سخيفة لكنها تشهد بأن إيسخولوس لم تكن تتحكم فيه أفكار الوقار الكلاسى الحديث . وليس من الصعب أن نعثر على دليل من نوع آخر . فمثلا فى مسرحية «سبعة ضد طيبة» التى تمتاز بالعظمة الهائلة والإثارة تمثل الجوقة نساء أصابهن العدو الذى يهاجم البلدة بذعر قاتل . وهنا ينسى إيسخولوس أن شخصيات المأساة الإغريقية لا سيما التى يكتبها إيسخولوس تتحكم فى مشاعرها ، كما ينسى أن الجوقة تتبع دائماً الإيقاع المنتظم ذى الثلاثة مقاطع وذى الخطوات ٤ — ٤ ثم ينظم هذه الجوقة بحيث تسير على موسيق ذات فترات زمنية يمكن التعبير عنها بالأرقام $\frac{٣+٥}{٨}$ وإذا حاول أى معلم للرقص أن يمثل الضجة والاضطراب على المسرح فدعه يجرب هذه الخطة (فإذا كانت هواية الموسيق معدومة تماماً عند القارئ، فدعه يكرر بتوقيت ثابت ١ — ٢ — ٣ — ١ — ٢ — ٣ — ٤ — ٥ ، ويحاول أن يمشى بخطوات متفقة مع العد ، على أن يخطو خطوة عند النطق بكل رقم — ١ —) إن المأساة الإغريقية فى الحقيقة تشبه الأوبرا الحديثة فيما تجمع من الحوار الدرامى والشعر والموسيق والباليه فى دائرة قطرها تسعون قدماً . وهى لا تشبه الأوبرا من حيث انها تدور حول ناحية

أساسية هامة ولا يقتصر فيها على استماع الكلمات بل أيضاً على ما تنطوى عليه من معنى .

لعل هذا البحث القصير يبين أن الإغريق لم يقصدوا أن يظهروا بمظهر قلة الذوق بل على النقيض من ذلك كانوا يطلبون الحياة والحركة واللون . فقد لونوا تماثيلهم بالفعل . وقد كان هـــذا الا كتشاف صدمة لكثير من العلماء الحديثين .

دعنا نأخذ مثلا آخر على طبيعة الإغريق السريعة الانفعال بصفة جوهرية . كلنا نعرف أن كلمة حب باللغة الإغريقية هى « إيروس . erôs » وإيروس هو الذى يضفى الرقة على ميدان بيكادللى وهو إله الحب كما أنه المقابل الإغريقى لكيوبيد . ولكن إلى أى حد تعتبر هذه المقابلة مضبوطة . إن « كيوبيد » معناها الرغبة . والصفة المشتقة منها وهى كيوبيدوس . Cupidus لا تحمل معنى أكثر من الطمع . ولكن لفظة « إيروس » تقترن فى الذهن بأشياء مختلفة ، فهى تعبر عما يقرب من الفرح المشبع بالشهوة . ويمكن استعمالها عادة فى مقام لاعلاقة له بالحب . فمثلا أجاكس . Ajax فى مسرحية سوفوكليس قد أصيب بالخزى الشديد وأخذ يهدد بالانتحار، وكانت امرأته تكميسا . Tecmessa فى حالة يأس كما كان رجال أجاكس ، إذ كانوا سيتركون دون أى دفاع أمام أعداء أجاكس الذين يضمرون لهم الشر ، غير أن أجاكس ادعى أن توسلاتهم قد فتت فى عضده فقرر أن يتحمل العار ويعيش ، وعندئذ رقصت الجوقة وغنت نشيداً بدأ بعبارة « إن النشوة (إيروس) تهزنى وسرورى الطافح يمدنى بالأجنحة » فأيروس ليس إلها للحب بل هو شىء يهز الأعصاب والمشاعر .

« وإراستيس . erastes » بالإغريقية معناها العاشق كما أن بريكليس

الوقور أو الأولمبي كما كان يدعوه أرستوفانيس قال للآثينيين فى خطبته التأبينية « يجب أن تكونوا إراستاى erastae . أى عشاقا معاميد لأثينا » أى « لتكن آثينا بالنسبة لكم شيئاً يهز منكم شغاف القلوب » وهذه العبارة لا تصدر من رجل بارد الطبع .

إن النظرية الخاصة « بالحد الأوسط » هى من خصائص الإغريق ، ولكنها لا ينبغى أن تغرينا بأن نظن أن الإغريق رجل لا يكاد يشعر بالانفعالات النفسية كأنه شخص مسالم مخدر لا ينحرف عن جادة الطريق ، إذ هو على النقيض من ذلك كان يقدر « أوسط الأمور » تقديراً بالغاً لأنه كان ميالا إلى التطرف . فإننا نحن أهل الشمال أميل إلى الكسل كما أننا نكن إعجاباً خفياً للتطرف . إن العيب الذى يمتاز به الشعر الإنجليزى الردىء — كما فى بعض المسرحيات الضعيفة التى تنتمى إلى عصر اليصابات مثلاً أو الشعر التافه الذى كتبه درايدن لبيرسل Purcell . شعر أجوف طنان كأنما يحاول الشاعر أن يبعث فى نفسه شيئاً أشبه بثورة المشاعر . أما العيب الذى يلازم الإغريق فهو ميلهم إلى الصقل الذى لا حياة فيه . فلم يكن للإغريق حاجة كبيرة إلى التظاهر بالانفعال بل كان ينشد ضبط النفس والاتزان لأنه كان فى حاجة إليهما . أما التطرف فقد كان يعرفه أكثر مما ينبغى . وعندما كان يتكلم عن « أوسط الأمور » لم تكن فكرة الوتر الرنان بعيدة قط عن ذهنه . « فالوسط » لم يكن يعنى الافتقار إلى الشد والانفعال بل كان يعنى إحكام الشد الذى يطلق النغمة الصحيحة الواضحة .



تراقيا
مقدونيا
نابلي
تارنتوم
جبل اوليمبوس
تساليا
ترموبولاى
دلفوى
طروادة
ميليتوس
اسبرطة
كنوسوس

محتويات الكتاب

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحانى ت : ٤٧٤٨٦